

المملكة العربية السعودية  
جامعة الملك سعود  
عمادة الدراسات  
كلية الآداب  
قسم اللغة العربية

## الحركة الأدبية في تمبكتو في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي أحمد البكاي نموذجاً

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير  
في قسم اللغة العربية وآدابها. كلية الآداب. جامعة الملك سعود .

أعدّها الطالب

عمر كان

إشراف

الأستاذ الدكتور عبد الرحمن عبد الرؤوف الخانجي

شهر ربيع الآخر - سنة ١٤٢٦هـ الموافق أيار / مايو - سنة ٢٠٠٥م

## إهداء

إلى أخي وحببي علي نيانق الذي وقف إلى جنبي حين كاد اليأس أن يثبطني  
فنفخ في روعي الأمل وشد أزرى بنصحه ووعظه  
إلى صديقي الحميم وزميلي في الدراسات حسن الفيفي الذي دلّني على موضوع  
الرسالة ثم ساعدني بإخلاص في وضع الخطّة و جمع المراجع  
إلى مشرفي القدير الذي أحاطني بشفقته ورعاني بتوجيهاته وإرشاداته  
إلى زملائي الطلاب الذين ساعدوني في إيصال قاربي إلى بر الأمان  
إلى هؤلاء وإلى كل من يحبني أهدي خالص شكري وعظيم امتناني

## فهرس المحتويات

١	المقدمة
١	التمهيد: تمبكتو وتاريخها
٩	القبائل العربية في تمبكتو
١٤	المناخ الديني والفكري والسياسي في تمبكتو
٣٠	الفصل الأول: الحركة الأدبية في تمبكتو
٣١	مدخل إلى الحركة الأدبية في تمبكتو
٣٥	المبحث الأول: مظاهر الشعر التمبكتي
٣٨	سمات الشعر التمبكتي
٣٩	المبحث الثاني: أبرز شعراء تمبكتو
٣٩	الشيخ أحمد سالم بن السالك الطارقي
٤١	الشيخ محمد (هم) بن الطاهر الأنصاري
٤٢	الشيخ محمد المختار بن حود الأنصاري
٤٤	المبحث الثالث: الأسرة الكنتية
٤٥	سيدي المختار الكنتي
٤٨	سيدي محمد بن المختار الكنتي
٥٠	سيدي أحمد البكاي الكنتي
٥٠	مولده ونشأته
٥١	شجاعته وطموحه
٥٤	دوره السياسي في السودان الغربي
٥٥	نهايته وأسبابها
٥٦	مكانته التاريخية

٥٧	الفصل الثاني: نثر البكاي
٥٨	المبحث الأول: مادة النثر عند البكاي
٦٣	المبحث الثاني: أغراض النثر عند البكاي
٦٣	الغرض السياسي
٦٤	الغرض الاجتماعي
٦٨	رسائل البكاي
٩٤	المبحث الثالث: الدراسة الفنية لنثر البكاي
٩٤	السمات الشكلية
٩٩	سمات المضمون
١١٤	السمات الأسلوبية
١٣٢	الفصل الثالث: شعر البكاي
١٣٣	المبحث الأول: مادة الشعر عند البكاي
١٣٧	المبحث الثاني: أغراض الشعر عند البكاي
١٣٨	الغزل
١٤٧	الهجاء
١٦٠	الفخر
١٦٦	الحماسة
١٧٥	المبحث الثالث: الدراسة الفنية لشعر البكاي
١٨٧	الخاتمة
١٩٢	التوصيات
١٩٤	الملاحق
١٩٥	فهرس الآيات



١٩٦	فهرس الأءاءء
١٩٧	فهرس الأءاء
١٩٩	فهرس الأءام
٢٠٤	فهرس الأماكن
٢٠٧	فهرس المءطوطاء
٢٠٩	المصاءر
٢١١	المراءع
٢١٣	الدورفاء
٢١٥	المراءع الأءنبفاء
٢١٦	نصوص نءرفاء منقولة
٢٣٧	صور مءطوطاء

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

إن ما حفزني إلى اختيار هذا الموضوع أن الأدب المالي المكتوب بالعربية في صحراء تمبكتو ظل مجهولاً حتى الوقت الحاضر، سواء لدى سكان المنطقة نفسها أو لدى الشعوب العربية والإسلامية البعيدة عنها والقريبة.

والواقع أن هذا الأدب مع بعده عن مناطق الشعر العربي الأصيل في الجزيرة العربية يستحق أكثر من بحث جامعي لكنه للأسف لم يحظ في ما صدر عن المدينة من بحوث ودراسات عربية باهتمام أدبي خاص من شأنه أن يكشف عن جمالياته وملابساته التاريخية التي تميزه بوصفه أدباً أفريقياً مالياً مكتوباً بالعربية له قيمة علمية يستحق بها الوقوف عليه والتأمل، ومن ثم تصنيفه في صفوف الآداب العالمية ضمن التراث العربي الكبير الذي يمتد ليشمل كل ما كتب بالعربية في أي مكان من عالما الإسلامي الواسع.

صحيح أن الكتابة عن تمبكتو لم تنقطع منذ شرع فيها المؤرخ العربي فضل الله العمري في القرن الرابع عشر الميلادي في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الذي يُعد أول مصدر عربي فتح الباب للرحالة العرب الذين تعتبر كتاباتهم المصادر الأساسية عن مدينة تمبكتو قبل أن ينشط في مجال الكتابة عنها أبناءها الأصليون في القرن السادس والسابع عشر الميلاديين؛ كأحمد بابا في كتابه "نيل الابتهاج"، ومحمود كعت في كتابه "تاريخ الفتاش"، وعبد الرحمن السعدي في كتابه "تاريخ السودان"، ثم نهج خطاهم المستكشفون الأوروبيون في القرن التاسع عشر الميلادي أمثال رينيه كاييه وهنريش بارث وغيرهما من قواد الحملات الاستعمارية الذين استنقوا معلوماتهم من المعاينة والمعاشية والذين ظلت كتاباتهم إلى جانب الوثائق العربية الأصيلية هي المصادر المهمة التي اعتمد عليها الكتاب المواطنون ذوو الثقافات الفرنسية في دراساتهم الحديثة، ومن أبرز أولئك أمادو هامباتيا في كتابه "الإمبراطورية الفلانية بمانسا"، وسيكيني مودي سيسكو في كتابه "تمبكتو والمملكة السنغية"، وألفا عمر كوناري في كتابه "التواريخ الكبرى أو بانوراما تاريخية لمالي"، وآدم باه كوناري في كتابها "سوني علي بير دراسات نيجيرية"، وبننتو ساننكوا في كتابها "التنظيم السياسي لمانسا"، والدكتور محمود زبير في كتابه "أحمد بابا التمبكتي حياته وأعماله".

غير أنه مع كل تلك الدراسات القديمة والحديثة فإن الجانب الأدبي من تراث تمبكتو الثقافي والحضاري لا يزال إلى اليوم لغزاً أو بمثابة غابة غير مكتشفة بينما شبت جوانب حياة المدينة الأخرى؛ الحضارية والتاريخية والسياسية بحثاً قالباً.

وقد يعذر بعض الكتاب بعدم التخصص أو بعدم وجود وثائق أدبية كافية قبل فترة قريبة، لكن ما يشجع على خوض التجربة أن مركز أحمد بابا بتمبكتو يحتوي اليوم على العديد من المخطوطات، وذلك بفضل الجهود الكبيرة التي قام بها الدكتور محمود عبده الزبير مستشار رئيس الجمهورية أمادو توماني توري الذي يعتبر - بحق - المؤسس الأول لهذا المركز. ولا يزال البحث والتنقيب في ظل قيادة المدير الحالي محمد ديكو جاريين لاكتشاف المزيد من تلك الخبايا النادرة.

فهذا العزوف وإن لم يعن من جانب البعض احتقاراً لموضوع الأدب أو قلة اكتراث بقيمته إلا أنه نقص فاضح كان في حاجة إلى استدراك عاجل، ومن هنا أتت هذه الدراسة لتكمل ذلك النقص الذي أحدثته غياب المصادر عن الأدب التمبكتي لإخراجه من حالة الإهمال الذي يقبع فيه.

وتجدر الإشارة إلى أنني كنت - في البداية - منبهراً بوهج الموضوع وكان قلبي مفعماً بالأمل ومليئاً بالغبطة، إذ كنت من فرحتي بما لقيته من قائمة أولية طويلة للمطبوعات وما يصحبها من مقالات ومنشورات إعلامية متتالية أظن أن مثل هذا العمل يمكن إنجازه بسرعة. فاستبشرت خيراً وخاصة أن العربية منها كانت أكثر من الأجنبية. ولا أخفي أنني أضعت أوقاتاً طويلة في تتبع تلك المراجع والمصادر طمعاً في أن أقع على ضالتي من الأدب ما ينير لي الطريق، لكن سرعان ما غيرت الرأي، إذ فوجئت بأن المعلومات التي قدمت عن تمبكتو - مع قيمتها العلمية الأصيلة - لا تخرج عن النظرة الحضارية البحتة لهذه المدينة، أي أنني لم أعثر في تلك الدراسات السابقة على أدنى إشارة إلى الأدب أو الأدباء. وباختصار لم أعثر في تلك الكتابات على دراسة خاصة عالجت الأدب التمبكتي.

ومن ثم اضطررت إلى إقصاء العديد من تلك الوثائق لعدم جدواها في البحث الأدبي الذي أقوم به، واكتفيت فقط بالأهم الذي لا غنى عنه في توثيق المعلومات التاريخية والجغرافية والعلمية، وفي ذلك أيضاً كان لا بد من إهمال الكثير منها لأنها - على كثرتها وتنوع عناوينها - ليست سوى تكرار لذات الحقائق التي يقدمها كل باحث بأسلوبه الشخصي أو باختياراته الخاصة دون إضافات ذات أهمية تكشف عن أمور جديدة ظلت حتى الآن في حيز الظلام لم يصل إليها أحد.

والجدير بالذكر أنني أثناء البحث والتفتيش عن المصادر والمراجع اكتشفت العديد من الوثائق الجديدة التي لم ترد في القائمة الأولية المثبتة في خطة البحث. واتفق أن تلك المصادر والمراجع أكثر أهمية ومساساً بالموضوع الذي أعالجه، منها مجموعة من كتب الدكتور محمد سعيد القشاط سفير الجماهيرية الليبية السابق لدى المملكة العربية السعودية بالرياض والذي قابلته شخصياً عن طريق الأخوين الفاضلين محمد حمدي وعبد الله الأنصاريين المقيمين

بالرياض، حيث تحدث الدكتور عن أدباء تمبكتو لكن بوصفهم أدباء في الصحراء الكبرى التي تجمع عدداً من الدول العربية بجمهورية مالي شمالاً.

ومنها أيضاً منشور للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بعنوان " الحضارة الإسلامية في مالي " والذي جمع مقالات كثيرة ومهمة مقتطفة لعدد من كتاب الفرنسية في مالي مترجمة إلى اللغة العربية، وكذلك

كتاب بعنوان " تمبكتو " والذي قام بتأليفه نخبة من أساتذة المدينة بالتعاون مع لجنة الإدماج التي تتكون من تمبكتو نفسها ومدينة سانت بفرنسا.

وحصلت أيضاً على ترجمة كتابي بول مارتي أحد قواد الحملات الفرنسية الاستعمارية في صحراء تمبكتو عنوان الأول " كنته الشرقيين " والثاني " البرابيش "، وهما من هدايا كل من الشيخ أحمد الأنصاري والأستاذ صديق الأنصاري الذي زودني من مكتبته الخاصة بالمزيد من المخطوطات النفيسة، كما أهدى إلي الأستاذ مرتضى الأنصاري مؤلفه الثمين المسمى " نثار الأخبار في بقايا الأنصار في صحراء تمبكتو ". وكلها تقدم ترجمات وافية عن القبائل العربية التي تسكن في صحراء تمبكتو، فكانت هذه الوثائق الجديدة خير معين لي في تنوير الأفق واستقاء المعلومات القيمة التي ساعدتني على إنجاز بحثي بشكل ناجح ومرض.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الدراسة كانت مركزة على مجتمع العلماء الذين يمثلون الحركة الأدبية في تمبكتو دون الشعراء من عامة الشعب الذين لم يبلغوا من إتقان العربية الفصيحة ولا في تذوقها درجة تمكنهم من قرض الشعر العربي الفصيح أو إنشاء الكتابات النثرية الجيدة.

وبما أن المادة العلمية التي يقوم عليها هذا البحث عبارة عن مخطوطات نثرية وشعرية لا وجود لها أساساً إلا في مركز أحمد بابا بتمبكتو وهي منطقة شاسعة ونائية تقع في عمق الصحراء الكبرى في غربي أفريقيا شمالي جمهورية مالي فقد قمت بثلاث رحلات شاقة إليها لتوفير المبتغى.

فبعد هذه التجارب والاستعدادات، ثم رغبة مني في إدلاء دولي في بحر الموضوع، لإضافة لبنتني الخاصة إلى ذلك الصرح المعرفي المشيد عن مدينة تمبكتو قديماً، واستدراكاً على الباحثين لسد الهوة التي خلفها إهمالهم للجانب الأدبي المهم من حياة المدينة، فإنني أقدم فيما يلي جانباً من صفحات التراث الأدبي لجمهورية مالي، في محاولة لإعطائه كياناً علمياً يستحق به أن تخصص له الدراسات ويدمج في مناهجها الدراسية بالعربية.

والجدير بالذكر أن عدم وجود دراسات سابقة عن الأدب التمبكتي في المحيط الذي نشطت فيه إضافة إلى عدم إلمامي المسبق بالموضوع بسبب شح المعلومات وانعدام البيانات

الأدبية التي تهمني بالدرجة الأولى قد دفعني إلى الاعتماد على طريقة الاستقراء والملاحظة التي مكنتني من وصف وتحليل ظواهر هذا الأدب الفنية.

وقسمت البحث إلى ثلاثة فصول بثلاثة مباحث لكل فصل، استهلته بتمهيد مركز ثم أنهيته بخاتمة مختصرة وتوصية موجزة ألحقت بهما عدداً من الفهارس المهمة التي تسهل العودة إلى مواطن البحث بسرعة .

ففي التمهيد تحدثت عن تاريخ مدينة تمبكتو نشأتها وموقعها وتحقيق رسم اسمها الذي اختلف الكتاب كثيراً حولها، ثم عن تطورها من النواحي العمرانية والاقتصادية والفكرية والسياسية . وهي أمور لا يمكن إدراك حقيقة ما كان يجري في المدينة دون إلمام ولو يسير بتلك المعلومات الأولية.

أما الفصل الأول فقد تحدثت فيه عن الحركة الأدبية في تمبكتو في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، أي عصر البكاي وأقرانه المعاصرين له والذين يعدون أبرز أدباء المدينة النابغين ممن كانت خلافاته القبلية والسياسية والمذهبية معهم عاملاً فاعلاً نتج عنه تراث أدبي زاخر بالعربية الفصيحة وبصورة لم يتوافر مثلها في تاريخ تمبكتو قبل عصرهم.

وقد توصلت في هذا الفصل إلى بعض الملاحظات التي ركزت عليها بوصفها سمات مهمة تميز بها الأدب التمبكتي، ومن ذلك على سبيل المثال: تصويره الدقيق لواقع المجتمع التمبكتي في ذلك العصر، وكونه أدباً تقليدياً في أغلبه يعتمد على محاكاة الأدب الجاهلي في فنونه وأغراضه، ما جعله - على جماله وجودته - شبه أدب متكلف يعتمد على ترديد ألفاظ الشعراء الأقدمين وتشبيهاتهم وصورهم، كما تبين أنه معد للعلماء وعرضة للمتعلمين نظراً إلى أن معظم سكان المنطقة أميون بالعربية.

وفي الفصل الثاني تركز الحديث حول النثر عند البكاي خاصة، حيث تناولت في المبحث الأول المادة العلمية التي أفرزتها قريحة هذا الكاتب اللماعة؛ من رسالة وفتوى وإفادة ووثيقة ووصية؛ طولها وقصيرها ومتوسطها.

وفي المبحث الثاني تناولت الأغراض التي كان يستهدفها الكاتب من إنشاء تلك النصوص؛ من اجتماعية وسياسية والتي اعتمدت بصورة كلية ومعنوية على الفكر الإسلامي لكون الكاتب أكبر داعية إسلامية ومروج للطريقة الصوفية القادرية في المنطقة.

وفي المبحث الثالث تركز الحديث على السمات الفنية التي احتوتها آثار الكاتب النثرية أما الفصل الثالث والأخير فكان خاصاً لحديث الشعر عند البكاي،. حيث تم البحث في المبحث الأول عن لاميته المطولة بوصفها أهم مادة شعرية لديه صياغة وطولاً وثراء في المعاني والصور.

وفي المبحث الثاني عالجت مجموعة من الأغراض التي شاء الكاتب أن يضمها جميعاً في القصيدة الواحدة والتي تراوحت بين الغزل والهجاء والفخر والحماسة أو ما عنيته بوصف الحرب.

وفي المبحث الأخير تتبعت السمات الفنية التي قصدت بها أسلوب الشاعر والمظاهر الإبداعية التي صنعت من تلك القصيدة الرائعة ملحمة شعرية استحققت أن تخلد اسمه في صدارة الأدب المالي المكتوب باللغة العربية.

على أن هذه الدراسة، ستظل ناقصة مهما كانت النتائج التي نصل إليها ما لم يكن هناك مسح شامل للمكتبات الخاصة والعامة سواء في داخل جمهورية مالي أو في الخارج كدول المغرب العربي والدول الأفريقية المجاورة، بل وكذلك فرنسا و بريطانيا التي يُقال إن الكثير من المخطوطات الوطنية قد تسربت إلى مكنتاتها بطريقة أو بأخرى.

وفي الختام أقدم خالص شكري وعظيم امتناني إلى مشرفي القدير الأستاذ الدكتور عبد الرحمن عبد الرؤوف الخانجي الذي لولا توفيق الله ثم مراجعته المتواصلة وتدقيقاته المستمرة لما وصل قاربي إلى بر الأمان.. نفع الله به الأمة.

ويمتد شكري إلى كل من أسهم من قريب أو بعيد في إنجاح هذا العمل وفي مقدمتهم الدكتور محمود عبده الزبير ومحمد ديكو مدير مركز أحمد بابا وجبريل دكوري أمين المكتبة بالمركز وإلى جميع الزملاء الباحثين وعلى رأسهم ديكايتي وديكو وإسماعيل ومولاي وتراوري وسائر الإخوان الذين لا يسع المقام ذكرهم. وما ظهر في هذه الدراسة من قصور – والقصور سمة الإنسان – فإنه غير مقصود أرجو الإغضاء عنه ثم الدعاء لي بالتوفيق من المولى – جل في علاه – الذي أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه وأن يسدد خطانا إلى ما يحب ويرضى.

عمر كان

## تمهيد

### أولاً: تمبكتو وتاريخها:

تمبكتو هي تلك المدينة المشهورة التي وصفها الرحالة العرب بأنها أعظم المراكز الإسلامية والثقافية التي قامت في السودان الغربي في القرون الوسطى، فقدموا عنها المعلومات الأولى من الناحية الإنترولوجية والتاريخية والجغرافية والفكرية والدينية<sup>(١)</sup>.

إن ما يطلق على هذه المدينة من أوصاف طنانة كتيمبكتو الغامضة، الجوهرة، الحلم، السحر، مهد الحضارة العريقة<sup>(٢)</sup>، المليئة بالمخطوطات، والثروات النفيسة<sup>(٣)</sup> يُوحى بأنها أقدم المدن السودانية تاريخاً أو أجملها عمراناً أو أفواها اقتصاداً بينما الواقع غير ذلك إذا ما قُورنت بالعديد من مدن المنطقة<sup>(٤)</sup> مثل: "كومبي صالح"<sup>(٥)</sup> و"جيني"<sup>(٦)</sup> و"دندي"<sup>(٧)</sup> و"ماسنا"<sup>(٨)</sup>، و"قاوو"<sup>(٩)</sup> و"ولاته"<sup>(١٠)</sup> وغيرها من المدن والقرى القديمة التي سبقتها إلى الوجود وعُمرت أكثر منها. فتمبكتو لم تظهر إلى الوجود قبل ٩٢٤ سنة تقريباً، إذ كان تأسيسها في أغلب الروايات في القرن الحادي عشر الميلادي أي حوالي سنة ١٠٨٠م<sup>(١١)</sup>.

غير أنها — مع فتوتها وموقعها الجغرافي المنيع — استطاعت أن تصنع لنفسها مجداً تالداً وتحظى بصيت زاهر، وذلك بفضل ما عرفته من أهمية تجارية وثقافية منحتها مركزاً مرموقاً تفوقت به على كل تلك

(١) لجنة الإدماج سانت - تمبكتو، "تمبكتو" فرنسا - نوفمبر ١٩٨٦م، ص ١٠ و ٢٢٢.

(٢) المرجع السابق ص ١٠، و ٢١٩.

(٣) أ.د. جون هانويك "اللغة العربية ومظاهرها في غرب أفريقيا"، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الرابع والعشرون، الجزء الأول، جمادى الأولى - جمادى الآخرة، مايو ١٩٧٨، القاهرة ج.م.ع. ص ١٠.

(٤) المرجع السابق ص ١٠.

(٥) أي مدينة صالح. وهي مدينة أثرية عمرتها الرمال. وكانت عاصمة لمملكة غانا القديمة، التي أسسها قوم من العرب القادمين من برقة في الشمال. وكومبي صالح مسماة بعلى صالح بن الحسن بن الحسين رضي الله عنه. وقد حددت مكانها الحفريات قرب مدينة ولاته في الشرق الموريتاني. ينظر صحراء العرب الكبرى، ص ٢٦.

(٦) مدينة جيني تقع على شاطئ نهر، ويحيط بها الماء من جميع الجهات تقريباً. وما زال سكانها يعتقدون أن الجن تسكنها، ومن هنا كان اشتقاق اسمها. كانت سوقاً مهمة من أسواق المسلمين، في العهد السنغي، يلتقي فيها أرباب الملح والذهب. كانت معقل الثقافة، ومدينة لعلماء السودان. وما زالت تحافظ على طابعها الإسلامي المميز، وعلى ثقافتها العربية.

(٧) مدينة دندي، تقع على نهر، في الجنوب الشرقي من قاوو. ينحدر منها أصل سنغاي. وهي منطقة زراعية، وبها وقعت المعركة النهائية بين السنغاي والجنود المغاربة حيث انهزم جيش السودان، وبدأت مرحلة الاستعمار المغربي للمنطقة. ينظر عز الدين عمر موسى "دراسات إسلامية غرب أفريقية" ص ٨٥.

(٨) تقع قرب مدينة (جيني) شمال ووسط جمهورية مالي الحالية. وهي سلطنة إسلامية قديمة، قامت على أساس نشر الدين الإسلامي. أسستها قبائل الفلان، واتخذوا من مدينة (حمد الله) عاصمة لها. ينظر صحراء العرب الكبرى ص ١٩٣.

(٩) اسمها القديم (كوكو)، تقع على نهر النيجر، وكانت عاصمة الدولة السنغية في القرن السادس عشر الميلادي، في عهد أسكيا محمد حوالي سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م ازدهرت في تلك العصور لمرور طرق القوافل فيها. وهي اليوم الإقليم السادس وأهم المدن في شمال شرقي مالي. وتربطها حالياً بالجزائر طريق صحراوي.

(١٠) ولاته، مدينة عريقة في شرقي موريتانيا. ازدهرت بالعلم والعلماء. وكانت تضم مدرسة علمية إسلامية من بلاد الصحراء. وقد ذكرها ابن بطوطة. ولا تزال مدينة ولاته قائمة حتى الآن. وبها قبر الشيخ أحمد البكاي الجد الأعلى لكنته. وبرز فيها الكثير من العلماء، منهم سيدي أحمد الولي بن أبي بكر الولاتي. ينظر المرجع السابق ص ٢٦.

(١١) سليم زبال "أنقذوا تمبكتو" العربي، الكويت، العدد ٢٤٤، ربيع الثاني، ص ٧٠.

(١٢) تمبكتو، لجنة الإدماج، ص ١٠.

المدن العريقة، وكان من قوة جاذبيتها أن سمع بها الداني والبعيد وحقت شهرة كبيرة من بين جميع مدن السودان الغربي (١٢).

#### • اسمها:

إن اختلاف أشكال الرسم الإملائي والضبط للفظة " تمبكتو " دفعت الدكتور مهدي رزق الله إلى البحث عن أصولها في الكتب القديمة والحديثة، فوجد أن ابن بطوطة كتبها: " تمبكتوو "، بينما مؤرخو تمبكتو أنفسهم أحمد بابا (ت ١٥٥٦-١٦٢٧م)، ومحمود كعت (ت ١٥٩٣م)، وعبد الرحمن السعدي كتبها: " تنبكت "، وهي الرسم الذي اختاره كاتبنا البكاي في مخطوطاته، واختاره الدكتور مهدي أيضاً في كتابه " حركة التجارة والإسلام ". غير أن بعض المحدثين ومنهم الدكتور نعيم قدام قد كتبها بالطاء والواو: " طومبكتو (١) ". وهي رسم نادر لم يتكرر كثيراً، إذ لم يرد - في علمنا - عند غيره. لكن أكثر الكتاب المتأخرين يكتبونها بالميم ومد الآخر بالواو: " تمبكتو "، وهو الشكل الذي ورد عن ليو الأفريقي (٢) وعليه معظم الكتب الحديثة. وكنت - من جانبي - أميل إلى اختيار ذلك الرسم الذي اختاره البكاي نفسه رغبة في التوافق مع المؤرخين التمبكتيين، لكن شهرة الرسم الأخير وثبوت الجمهور عليه ثم خشية الخروج عن الحديث المألوف كل ذلك لم يترك لي خياراً فضلته على غيره من رسم الكلمة.

وتذهب أغلب الروايات إلى أن اللفظة في أصلها طارقة وأنها مركبة من كلمتين هما: " تين " بمعنى "بئر" و" بوكت " اسم علم لامرأة استخلفها الطوارق في ذلك المكان لحراسة أمتعتهم (٣). غير أن رواية أخرى تجعل اللفظ لغة سنغية بمعنى "التجويف" في الأرض دلالة على بئر كانت لعجوز تسكن وترعى في موضع ذلك البئر قبل إنشاء المدينة (٤). وتقول رواية ثالثة: إن قوماً عهدوا بحراسة بضائعهم وزروعهم إلى عبد يسمى "تينبوتو" بعد أن حفروا في المكان بئراً (٥). وهذه الرواية الأخيرة تبدو ضعيفة لاتفاق أغلب الروايات على أن اسم تلك المرأة العجوز مضافة إلى البئر أصبح مع مرور الزمن علماً يطلق على ذلك المكان (٦).

#### • تأسيسها:

نشأت مدينة تمبكتو فيما ورد عن أغلب المؤرخين - على أيدي طوارق مقشرون (٧) في نهاية القرن الخامس الهجري حوالي عام ٤٩٤هـ القرن الحادي عشر الميلادي حوالي عام ١٠٨٠م. وكانوا بدواً وتجاراً

(١) د. مهدي رزق الله أحمد، " حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي أفريقية قبل الاستعمار وأثارها الحضارية "، ص ٣٠٢، ط - ١٩٩٨م/١٤١٩هـ الرياض، مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.  
(٢) ليو الأفريقي، تاريخ ووصف أفريقيا، ميزونيف، باريس، ١٩٥٦م، ص ٥٩٣، ٦٢٩ ص.  
(٣) عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران السعدي، تاريخ السودان، نشر هوداس وبنوا، باريس ١٣١٦هـ/١٩١٣م ص ٢١.  
(٤) حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي أفريقية قبل الاستعمار وأثارها الحضارية ص ٣٠٢.  
(٥) المرجع السابق ص ٤٤٣.  
(٦) تاريخ السودان، ص ٢١.  
(٧) إحدى قبائل الطوارق التي كانت كثيراً ما تتردد الصحراء، للتجارة مع شعوب الجنوب في السودان الغربي.  
(٨) تاريخ السودان ص ٢١.



رحلاً يأتون في فصل الصيف من أروان فينزلون في هذا المكان يرتعون فيه ويستريحون. وكانت عجوز تخدمهم وتساعدهم فكانوا يقدمون إليها جزء خدمتهم ما تحتاج إليه من القوت والمؤن، وكانوا يمكثون بها حتى يدخل الخريف ثم يرتحلون إلى مواطنهم تاركين متاعهم وزروعهم في مخزن تحرسه تلك العجوز حتى عودتهم في العام المقبل(٨).

ولما تسامع الناس بالمكان انجذبوا إليه للبيع والشراء. ثم جعل بعضهم يقيمون بها مدة طويلة حتى استوطنوا به تماماً. ثم ما لبثت أن تحولت تمبكتو على مر الأعوام إلى مدينة تجارية كبيرة(١). ولم يكن أحد من أولئك الذين أسسوها - في البداية - يحلمون أن مخيمهم الصغير المتواضع سيكون له في يوم من الأيام شأن عظيم في تاريخ المنطقة(٢).

#### • موقعها:

تقع تمبكتو بين كثبان رملية على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى في غربي أفريقيا بمنحنى نهر النيجر على بعد ١٦ كلم عند دوران قوسه الشمال وبين درجتي ١٦°، 43° خط عرض الشمال الموازي و ٢°، 53° خط طول الغرب الموازي في ارتفاع ٢٦٤م(٣). وقد فرض هذا الواقع الجغرافي على المدينة ثمانية أشهر من الجفاف الحاد وأربعة أشهر من الجفاف المتوسط طوال أيام العام(٤).

وتتبع ذلك مساحة أرضية واسعة تمتد من القرى الواقعة بين شاطئ "بحيرة ديبو(٥)" الشمالي حتى نهاية "أروان(٦)" الشمالية إلى الجزائر، بحيث تتأثر تلك المنطقة كلها بما يمس تمبكتو من أحداث وعوامل سلباً أو إيجاباً بسبب تعلق المنطقة كلها بالمدينة اقتصادياً وسياسياً. ما جعل تمبكتو دائرة مركزية منذ ذلك التاريخ إلى أن أصبحت تمثل اليوم الإقليم السابع لجمهورية مالي الحديثة(٧).

وبسبب موقعها بين المنطقتين؛ الشمالية والجنوبية أصبحت تمبكتو حلقة وصل بين التجار القادمين عبر النهر، من "جيني" في الجنوب، حيث المناطق الزراعية الغنية التي تنتج معظم المواد الغذائية في غرب أفريقيا وبين التجار القادمين على القوافل من شمال الصحراء حيث تقع البلاد العربية؛ المصرية والبربرية؛ الليبية والجزائرية والمغربية التي تصل عن طريقها البضائع العربية والمنتجات الصناعية الأوروبية(٨).

#### ثانياً: تطورها •

(١) تاريخ السودان ص ٢٠.

(٢) تمبكتو، لجنة الإدماج، ص ١٣٤.

(٣) المرجع السابق ص ١٤.

(٤) المرجع السابق ص ١٤.

(٥) تقع على نهر جوليبا، أي، بين موبتي وتمبكتو.

(٦) مدينة صغيرة شيدت شمال تمبكتو. كانت ملتقى القوافل التجارية في الصحراء، قبل نشأة مدينة تمبكتو. سكنها العديد من العلماء العرب قبل تحولهم إلى تمبكتو..

(٧) تمبكتو، لجنة الإدماج، ص ١٤.

(٨) محمد الغربي "بداية الحكم المغربي في السودان الغربي" دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٢م ص ٥٧٣،

(٩) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، من مواليد تمبكتو في عهد الباشوات. صاحب كتاب تاريخ السودان.

## • عمرانياً:

كان السعدي (١٠٦٦هـ/١٦٥٥م) (٩) أبرز المؤرخين الذين تناولوا تطور المدينة عمرانياً، فذكر أنها ظلت منذ تأسيسها بالأشواك والأعواد على تلك الحالة البدائية قروناً قبل أن يكثُر سكانها الأجانب الذين طوروا (حوالي القرن العاشر الهجري) بناء منازلهم وجعلوا لها حوائط وأسواراً مبنية من القش والأخشاب. ثم بدأت تزدان نسبة كبيرة من منازلها بواجهات في شكل زرائب أو حدائق صغيرة تربطها على حيطان البيوت سياجات مكشوفة يلاحظ من الخارج فناؤها الداخلي وما يحويه. ثم تحولت في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي إلى أطواب ولبن من طين (١).

وفي بداية القرن الرابع عشر الميلادي في عهد "كانكو موسى" (١٣٠٧م-١٣٣٢م) بُنيت بالمدينة عمائر جديدة على طراز الفن العربي (٢).

وفي عهد الأساكي ملوك سنغاي في القرن السادس عشر الميلادي (١٤٩٣م-١٥٩١م) بلغت المدينة أوجها من التطور الحضاري، فوجدت فيها بيوت وحوائط اتخذت أشكالاً هندسية واسعة تحتوي على عدة مداخل ونوافذ بمصاريع خشبية مزخرفة. كما انتظمت شوارعها وتوسعت وكثرت مساجدها وازدادت أسواقها (٣).

وظل هذا التطور العمراني في النمو والازدهار، حتى وقع عليها الغزو المغربي، في نهاية القرن السادس عشر الميلادي ١٥٩١م، فتحولت تمبكتو من مدينة عامرة إلى خراب، وأصبحت جسماً بلا روح، وتغير حالها، من سعادة إلى بؤس، ومن انتعاش إلى ركود. إذ هاجر منها العلماء، والأثرياء عندما انقلب الأمن خوفاً والنعمة عذاباً وحسرة (٤). فتهدمت العديد من المباني وتآكلت الجدران الشاخصة بفعل العوامل الجوية وعدم إجراء الصيانات الضرورية عليها خوفاً من ظلم المحتلين المعتدين. واستمر التدهور العمراني المصاحب بالنزيف السكاني، طوال القرن السابع عشر، حتى القرن التاسع عشر الميلادي (٥).

ونقل محمد الغربي عن أحد الرحالة وصفاً لحالة المدينة المتدهورة في هذا القرن من أنها أصبحت مدينة متواضعة قد تقلصت إلى أقل من نصف ما كانت عليه من العمران في القرون الماضية، ممتدة على حيز شاسع مغطى بالأنقاض المتبقية من البناءات والمآثر القديمة، تتخللها آلاف البيوت المسطحة البيضاء، مع بعض بقايا المساجد (٦).

(١) تاريخ السودان، ص ٢١.

(٢) المصدر السابق ص ٢١.

(٣) المصدر السابق ص ٢١.

(٤) محمود كعت، "تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ووقائع التكرور وعظام الأمور"، نشر هوداس ودالافوس، مطبعة بردين، باريس، ١٣٣٢هـ/١٩١٣م، ص ١٧٥ و١٧٩.

(٥) بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص ٥٧٦.

(٦) المرجع السابق ص ٥٧٧.

(٧) سؤالمة، "تمبكتو جوهرة تغمرها الرمال"، ص ١٦ و٥٠.

وفي النصف الأخير من القرن الماضي ذكر أحد الرحالة أن الحياة عادت إليها بعد الاستقلال بعودة بعض المهاجرين والمغتربين الذين حملوا معهم حضارات وثقافات المناطق التي أوا إليها، فرموا المنازل القديمة وشادوا أبنية جديدة على فن معماري خاص يحتوي في أغلب الحالات على سطوح ومساحات مزروعة، تطوقها جدران سميكة مطبوعة بالعادات والتقاليد الإسلامية، إلى جانب الشخصية الأفريقية بأدوات ومتطلبات البيئة المحلية(٧).

وعندما زار "لانز" (الجاوس الإنجليزي) المدينة في نهاية القرن التاسع عشر وجد أن فلان "ماسنا" أثناء هجومهم على المدينة هدموا السور وثلاثة أحياء كاملة، بحيث لم يبق إلا حي واحد هو حي الجامع الكبير(١).

وبلغت أحياء المدينة في عهد الازدهار أربعة أحياء سكنية، هي:

(١) فراندي، ويدعي اليوم "بيلا فراندي".

(٢) سانكوري، حي الجامعة الشهيرة.

(٣) جينقراي بير، حي المسجد الجامع.

(٤) باجيندي، حي السوق الكبير.

أما اليوم فقد أضيفت إليها أحياء جديدة أهمها ساراكيينا حيث يقع مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية قرب مضخ المياه الأول، يفصل بينهما شارع ضيق من جهة الشرق، ويقع المستشفى الإقليمي في شارع خلفه من جهة الغرب، إضافة إلى مكاتب حكومية حديثة ازدانت بها المدينة(٢).

#### • اقتصادياً:

كانت بلدة "ولاته" ويسمىها السعدي "بير(٣)" هي المركز التجاري العامر في الشمال قبل إنشاء مدينة تمبكتو. لكنها منذ بداية القرن الثاني عشر الميلادي أخذت تخلو شيئاً فشيئاً من تجارها الذين تولوا وجهة المدينة الصحراوية الجديدة الواقعة على مقربة من النهر في حدود الساحل حيث تفتد المراكب والقوارب محملة ببضائع مدن الجنوب الغربي الذي لم يكن الوصول إليه ممكناً إلا بشق الأنفس وتحمل العربة الطويلة والأسفار المضنية(٤).

وفي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ازدادت سرعة تلك الهجرات بسبب غزوات طوارق الصحراء والهجمات التوسعية التي طالتها من مملكة مالي عام ١٢٨٥م. يضاف إلى ذلك قسوة الطقس التي أسهمت مع تلك العوامل السابقة في تحويل محور طريق التجارة العابرة للصحراء نحو الجنوب، ما آذن بأقول مدينة "أروان" تجارياً لتصبح بعد ازدهار تمبكتو مكاناً يعرس به المسافرون للراحة قبل المضى في سبيلهم(٥).

(١) بداية الحكم المغربي، ص ٥٧٥. (٢) المرجع السابق ص ٥٧٦.

(٣) تاريخ السودان ص ٢١. (٤) حركة التجارة والتعليم، ص ٣٠٣.

(٥) فليكس ديبوا، "تمبكتو الغامضة"، باريس، هاتيه، ١٩٧٢، ديوان المصادر العربية الخاصة بأفريقيا العربية من القرن السابع إلى القرن السادس عشر الميلادي.

(٦) تاريخ السودان ص ١١. وينظر د. محمود عبده زبير، "دراسة عن وضع المخطوطات العربية في جمهورية مالي"، مجلة معهد المخطوطات العربية ص

٢٠٣. العدد الأول جمادى الثانية، ١٣٩٨ هـ، وإبراهيم علي طرخان، "انتشار الإسلام واللغة العربية في غرب أفريقيا"، ص ٢٢٠. مجلة كلية الآداب، جامعة

القاهرة، مجلد (٢٧) عدد(٢-١) مايو ١٩٦٥م.

وأصبحت تمبكتو منذ ذلك التاريخ سوقاً تجارية تنتهي إليها وتتفرع منها جميع الطرق الصحراوية التي يُعد من كبرياتها ما يلي(٦):

— طريق مصر، مروراً بكانم إلى تمبكتو.

— طريق تونس، مروراً بهوجار إلى تمبكتو.

— طريق المغرب، مروراً بسجلماسة وتوات إلى تمبكتو.

— طريق تغازة، مروراً بولاته إلى تمبكتو.

لكن تمبكتو لم تدخل مرحلة تطورها الواسع بوصفها أكبر مركز تجاري واقتصادي في السودان الغربي إلا في عهد الملوك الأسكيين (١٤٩١م – ١٥٩١م) عندما كانت الإمبراطورية السنغية تعيش كامل مجدها، آنذاك نشطت التجارة الإقليمية وعمرت المدينة بالعديد من الأسواق والمحلات التجارية، تباع وتشتري فيها أنواع البضائع المختلفة من أسلحة نارية وسيوف دمشقية وملح صخري وجلود مصنوعة وأقمشة مطرزة ومعادن ثمينة. إضافة إلى المواد الأولية والغذائية والمنتجات الاستهلاكية والأواني الفضية، وغيرها من السلع الضرورية. بما في ذلك الخيول والحمر والجمال وسائر الدواب والحيوانات. وقل في هذا العهد أن يوجد من لا يشتغل بنوع من أنواع التجارة إما بائعاً أو وكيلاً أو سمساراً أو نخاساً أو تاجراً بالعمولة(١).

وبرزت بعض الحرف والمهن اليدوية التي احتلت مكانة كبيرة في حياة التمكنين كالحياكة والحدادة والنجارة والدباغة والنسج والإسكافية والفخارية والصباغة، كما قامت العديد من المعامل والمشاغل وتوافر لها المتدربون والمشرفون(٢).

وتجدر الإشارة إلى أن القطاع القروي كان يشمل نسبة تتجاوز ٩٥ % من سكان المنطقة الذين ظلوا معتمدين في طول تاريخهم على الزراعة والرعي والصيد البري والبحري. ولما كانت الزراعة تعتمد على السقي وهو أمر لا يقدر عليه سوى الفتيان فإن الرغبة الجامحة إلى الأيدي العاملة دفعت إلى تجارة الرقيق(٣) وقد ترتب على ذلك ظهور رفاهية كبيرة لدى بعض الرجال الأقوياء الذين تكونت منهم طبقة إقطاعية جشعة، تنظم وتتفق بسخاء على الاسترقاق بجميع الوسائل التي تطورت إلى خطف الأولاد الأبرياء والاعتداء على الناس الآمنين في الأماكن النائية واغتصابهم ولو من داخل منازلهم المعزولة لاستغلالهم في الزراعة من

(١) تمبكتو الغامضة ص ٢٦٣.

(٢) عبد القادر زبادية، " مملكة سنغاي في عهد الأسكيين "، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧١م ص ٢١٠. وينظر حركة التجارة والتعليم ص ٣٠٤.

(٣) كانت تجارة العبيد رائجة في المنطقة من قبل؛ حيث كان يتم تصدير العبيد إلى الدول العربية والأوروبية، عن طريق المبادلات التجارية التي كانت تربط بين البلدان المسلمة في شمال أفريقيا بالبلدان الواقعة جنوب الصحراء. ما دفع البيروني إلى وصف بلاد السودان منذ سنة ١٠٥٠م بأنها تصدر العبيد. وكان النشاط الاستعماري في هذه التجارة جلياً وقوياً في الغرب السوداني؛ حيث دأبوا على مدى قرنين من الزمان على جلب الرقيق الأسود من الطرق المؤدية إلى شواطئ الأطلسي، في جزيرة "غوري" بالسنغال. الحضارة الإسلامية نيان ص ٤٤. وينظر ميشيل أبيتيول "تمبكتو والأرما".

(٤) دمبا ياتارا، " التطورات السياسية والاجتماعية في السودان الغربي "، البحوث الأفريقية، جانفي ١٩٨٤م ص ٥٤. وينظر عز الدين عمر موسى، دراسات إسلامية غرب أفريقية، ص ٨٦ جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٢٠هـ.

(٥) آدم باه كوناري، " سوني على بير "، مقال في الحضارة الإسلامية في مالي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، مطبعة الهلال العربية، ١٤١٧هـ/١٩٩٩م، الرباط، المملكة المغربية، ص ٥٣. وينظر دراسات إسلامية غرب أفريقية، المركز الإسلامي الإفريقي، الخرطوم، عدده، ربيع، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م ص ٨٦.

جهة وبيعهم للنحاسين الذين يتاجرون بهم مع الغربيين من جهة أخرى، ما أدى إلى تنشيط حركة الاسترقاق وازدهار سوق العبيد(٤).

ويذكر في هذا المجال أن السلطان أسكيا داود (١٥٤٩-١٥٨٣م) كان يملك مزرعة كبيرة في "دندي"، وكان يستغل في خدمتها مائتي عبد يدعون "فانفا"، وكانت المزرعة وحدها تنتج ألف كيس من الأرز يزن كل واحد منها مائة أو مائة وخمسين كيلوغراماً ويسمى "سونو"، بينما كان إنتاج البلد بكامله لا يتجاوز أربعمئة ألف كيس(٥). كما يحكى أن ملك "سيقو" في القرن الثامن عشر الميلادي انتزع بالقوة ابن أحد الفلاحين ليستغله في حقوله، وكان أبوه قد عجز عن تسديد الضرائب الملكية المفروضة عليه، ولكن هذا الابن تمكن من الهرب فيما بعد واستطاع أن يستقطع إمارة كاملة أسماها باسمه(٦).

إن هذه الاعتداءات الاسترقاقية المتواصلة سواء الإقطاعيين الجشعين أو النحاسين والأوروبيين الذين تدخلوا في العملية بالأسلحة النارية هي التي أخلت بالأمن وزرعت الخوف في قلوب السكان، فهجروا المزارع والحوانيت والمعامل ومواطنهم إلا قليلاً(٧).

إن هذه العوامل السلبية التي تعرضت لها تمبكتو ابتداءً من نهاية القرن السادس عشر إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي هي التي أدت في النهاية إلى سقوط النظام الاقتصادي وانهيار سوق التجارة المركزية في تمبكتو وتحول طرق التجارة عنها بالتدريج نحو الجنوب، أي إلى مراكز "سيقو(٨)" و"باماكو(٩)" لقربها من مناجم الذهب في "بوري(١٠)" وبعدها - في الوقت نفسه - عن مناطق هيمنة اللصوص والمغتصبين الذين كانت تمبكتو محور نشاطهم المفضل(١١).

#### • اجتماعياً:

ذهب القشاط إلى أن القبائل العربية التي قطنت الصحراء الكبرى ظلت طوال العصور الماضية محتفظة بعاداتها وتقاليدها العربية الأصلية سواء في الملبس والمطعم والمسكن أو في اللغة والآداب. ما جعلها تسم الصحراء بميسمها العربي البدوي مخلة بذلك ذكرها وتاريخها في شعره ونثره في مقطوعات ومطولات، تناولت قرى الصحراء ووحداتها ومرابعها ومراتعها ومنتجعاتها وحيواناتها وأشجارها ونباتاتها وآبارها التي حفرتها أو شقت طرقها ووهابها معطية إياها أسماء عربية خلدها التاريخ إلى يومنا هذا، ما جعل تلك الأسر

(١) سيكيني مودي سيسكو، "تاريخ غرب أفريقيا"، مقال في الحضارة الإسلامية، ص ٤٩، ٥١.

(٢) التطورات السياسية والاجتماعية، ص ٥٧.

(٣) الإقليم الرابع في مالي الحديثة، مدينة تقع على النيجير، تبعد عن العاصمة بـ ٢٤٠ كلم، كانت عاصمة المملكة البنيرية الوثنية في عهد البكاي. غزاها الحاج عمر الفوتي وحولها إلى عاصمة إسلامية في القرن التاسع عشر الميلادي.

(٤) عاصمة جمهورية مالي الحالية.

(٥) أشهر مناجم الذهب في السودان الغربي أيام مجد سلطنة مالي في القرن الرابع عشر الميلادي.

(٦) آدم باكوناري، سوني علي بير، ص ٥٥.

(٧) د. سعيد محمد القشاط، "صحراء العرب الكبرى"، مؤسسة ذي قار، طبعة ١، ١٩٩٦م، ص ٧، ٨١.

(٨) المرجع السابق ص ٧، ٨١، وينظر للمؤلف، "أزواد أو صحراء التينيري"، مؤسسة ذي قار، طرابلس، طبعة ١، ٢٠٠٠، ص ٢٠.

العربية جزءاً نشطاً من سكان قلب الصحراء الكبرى؛ عادات وتقاليد وآداب وفنون في الحرب والسلام والغارات والمعارك حول مواطن استيحاء الإبل وانتجاع الغنم<sup>(٧)</sup>.

ومن حرص هذا الشعب على الحفاظ على عاداته وتقاليدته يخيل إلى من يعثر عليه في صحراء تمبكتو أو يقرأ أخباره في حياته وطريقة عيشه وآثاره ومعالمه الحضارية والثقافية كأنه يطلع على نافذة مفتوحة على العصر الجاهلي في الجزيرة العربية بقصصه وحكاياته ونوادره وأمثاله وأساطيره شعره ونثره<sup>(٨)</sup>.

وبعد مرور عدة قرون من التزاوج والتصاهر بين السكان تكونت مجموعة أجناس هجينة متعددة منحدرة من اختلاط قبائل العرب والبربر والسنغاي والفلان والبامبارا والسونينكي وغيرهم من الأعراق الزنجية التي عاشت في المدينة وما حولها منجذبين تارة ببريقها التجاري ومسحورين تارة أخرى برونقها الثقافي<sup>(٩)</sup>.

وأصبح تعداد سكان المدينة سواء بأبنائها الأصليين بمن انضم إليهم من الوافدين يزداد سنة بعد أخرى حتى وصل إلى ( ١٢ ) ألف نسمة في القرن الرابع عشر الميلادي أيام الملك المالي " كاتكو موسى " (١٣٠٧-١٣٢٣م)، وما زال في نمو مستمر حتى بلغ (٧٠) ألف نسمة ليرتفع إلى (١٠٠) ألف نسمة أيام السلطان السنغاي أسكيا محمد في القرن السادس عشر الميلادي، ثم بدأ العد التنازلي بعد الغزو المغربي حتى وصل إلى (٥٥٠٠) نسمة بعد مضي ثلث قرن من الاحتلال الفرنسي في سنة ١٨٢٦م، ثم دخل في مرحلة نمو جديد ليصل العدد عندما زارها " رينيه كاييه "، عام ١٨٢٨م إلى (١٢) ألف نسمة. وقدر في عام ١٩٨٥م بـ (٢٠) ألف نسمة<sup>(١٠)</sup>.

وبناءً على هذا التداخل العرقي اتسمت التركيبة الاجتماعية في تمبكتو بطبقية واضحة، قامت على الأنساب والحرف والقوة، وتخضع كل طبقة منها لعادات وتقاليد لا تتعداها إلى عادات وتقاليد الطبقة الأخرى. وقد ترسخت فكرة " الطبقة " هذه في أذهان السكان كلهم من عهود بعيدة حتى أصبحت كل طبقة وإن تدنت في السلم الاجتماعي تفتخر بانتمائها إلى طبقتها متقبلة طباعها وحرقتها التي انتسبت إليها<sup>(١١)</sup>.  
ومن تلك الطبقات التي وردت عند القشاش ما يلي<sup>(١٢)</sup>:

" الأشراف: وهي المجموعة أو الأفراد الذين يرجع نسبهم إلى الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء (رضي الله عنهم). ويعترف بعلو نسبهم ومنزلتهم جميع من في المجتمع، وهم الذين يتولون قيادة القبائل وزعامتها الدينية<sup>(١٣)</sup>."

" العرب: وتسمى بهذا الاسم القبائل المحاربة القوية الشكيمة التي تغزو القبائل الأخرى وتهزمها، فهي تحمل السلاح لتحمي نفسها والقبائل المنضوية تحت جناحها أو المحتمية بها<sup>(١٤)</sup>."

(١) صحراء العرب الكبرى ص ٨١ وينظر للمؤلف، أزواد أو صحراء التينيري، ص ٢٠.

(٢) شارل دانيوكو " تمبكتو " مقال في الحضارة الإسلامية في مالي، ص ٨٢.

(٣) تمبكتو، لجنة الإدماج، ص ٣١.

(٤) صحراء العرب الكبرى ص ١٥١- وينظر للمؤلف، أزواد أو صحراء التينيري ص ٢٠.

(٥) المرجع السابق ص ١٥١، تمبكتو، لجنة الإدماج، ص ٣١.

(٦) المرجع السابق ص ١٥٤.

" العبيد: وهم الأرقاء الذين استعبدوا لسبب من الأسباب وهم مقسمون إذ لكل خيمة أو أسرة عبيدها الذين يقومون بأعمالها اليومية فيرعون الإبل والبقر ويشرفون عليها كما يحلبونها ويردون الماء ويجلبون الحطب ويبنون الخيام ويخدمون الضيوف الذين ينزلون بخيمة سيدهم، وأثناء الرحيل يحملون الإبل ويساعدون ساداتهم وسيداتهم على الركوب ويهتمون بخيول السادة ويمرنونها ويروضونها ويشرفون على إطعامها وسقيها وتعهدوا. كما يتولى عبيد الإمارة دور الشرطة والحجاب والحراسة والدفاع عن سيدهم وأهله(١)."

" وتساعد الإماء سيداتهن في العمل ويقمن بأعمال البيت من غسل وطبخ وعجن ومخض اللبن وتمهيد هودج السيدة وتنام بجانبها لمؤانستها عند غياب زوجها كما تقوم بتبليح سيدتها الصغيرة وهي عملية تجميلية ليصبحن ممثلات الجسم، وذلك بدلكن وإرغامهن على تناول الطعام وشرب اللبن وأكل اللحم والنشا والدهن لأن المرأة السيدة لا تشتغل بأي شيء أبداً من أعمال البيت(١)."

" المرابطون: وهم القبائل التي لا تحمل السلاح وتختص بتعليم القرآن وتحفيظه الطلاب وتدرّس علوم الدين واللغة، ويطلق على الفرد منهم اسم "المرابط(٢)."

" الحدادون: وهم أصحاب الحرف اليدوية الذين يصنعون السلاح والسيوف والسكاكين ونعال الخيل وسرجها وأجمتها ورواحل الإبل وأغلب حلية الصحراء الفضية والذهبية(٣)."

" الحراطين: وتطلق على العبيد العتقاء أي الأحرار ومعناه (الحر الثاني). وهذه المجموعة لا تكون قبيلة وإنما هي موزعة بين القبائل وتمتحن الرعي والزراعة وعلى الرغم من أنهم أحرار إلا أنهم يراعون الولاء لعائلات أسيادهم القدامى(٤). والمتوارث عند شعوب هذه المنطقة أن الحدادين والحراطين والعبيد ومن في مثل مواقعهم المتدنية اجتماعياً لا يرتقون بشكل من الأشكال لمستوى غيرهم ولا ينزل الآخرون إلى وضعهم مهما ضغفوا أو افنقروا لأن التقاليد تفرض على كل طبقة ملازمة موقعها الاجتماعي فلا تختلط مع غيرها بالتزاوج الذي يكون بالضرورة بين أفراد الطبقة الواحدة. فقليلاً ما يحدث خلاف ذلك بين الطبقات(٥)."

"أما الفلاحون والصيادون في البحر فأغلبهم من قبائل الزنوج إذ إن العرب يحتقرون الزراعة وصيد البحر وحتى الذين يملكون غابات النخيل في الأودية والواحات إنما يسندون رعايتها إلى الحراطين والعبيد(٦)."

"ويلاحظ من هذا التقسيم الطبقي أن الأشراف ثابتو النسب لا يرقى إليهم أحد، وإليهم ينتمي الكنتيون الذين يتسمون بالأشراف حيثما كانوا وقد استفادوا من تلك التسمية وازدادوا بها عزاً ومكانة في المجتمع الصحراوي(٧)."

## ٢ - القبائل العربية في تمبكتو

- (١) صحراء العرب الكبرى ص ١٥٤- وينظر للمؤلف، أزواد أو صحراء التينيري ص ٢٠.
- (٢) تمبكتو، لجنة الإدماج، ص ١٥٤.
- (٣) صحراء العرب الكبرى ص ١٥٧.
- (٤) المرجع السابق ص ٣١. وينظر صحراء العرب الكبرى ص ١٥٢.
- (٥) المرجع السابق ص ١٥٧.
- (٦) المرجع السابق ص ١٥٤.
- (٧) المرجع السابق ص ١٥٢. وينظر بول مارتني، "دراسات إسلامية، حول قبائل السودان، من عرب مالي والنيجر، كنته الشرقيون"، إرنست ليرو، باريس، ١٩٢٠م، ص ٢٢٤.
- (٨) بول مارتني، "دراسات إسلامية، حول قبائل السودان، من عرب مالي البريش"، إرنست ليرو، باريس، ١٩٢٠م، ص ١١.
- (٩) تمبكتو، لجنة الإدماج، ص ٩٤.

## • قبيلة الطوارق:

مفرده طارقي والجمع طوارق تكتب في كل المخطوطات العربية المحلية بالتاء، ويختلف الناس في المصدر فمنهم من يقول إنه من مادة "ترك" أو اسم قبيلة بربرية هي "تركة". وعلى كل فهم لا يعرفون أنفسهم بهذا الاسم وإنما بأسماء قبائلهم المختلفة، ويطلق عليهم جيرانهم أسماء مختلفة فبعض العرب يسمونهم "الأعجام" والسنغاي يسمونهم "سوركو" مثل تسميتهم للعرب<sup>(٨)</sup>. أما اليوم فيعرفون باسم: "كل تماشق"<sup>(٩)</sup>.

تضاربت الروايات حول أصل "الطوارق" ومنشئهم الأول وقد حاول ابن خلدون أن يحسم ذلك الخلاف حين ذهب إلى أنهم ينتمون إلى الشعوب الكنعانية وأنه إنما دفعتهم رحلاتهم إلى اجتياز صحراء سيناء ليجدوا أنفسهم في مفترق الحدود المصرية الليبية، حيث تفرعوا بعد الاستقرار هناك إلى بطون عديدة تفرقت بسبب البحث عن الكلاً والصيد والتجارة تجاه الصحراء الكبرى حوالي القرن الثامن الميلادي<sup>(١)</sup>.

ولكن الرواية الأكثر شيوعاً ترى أنهم جزء من شعوب **صنهاجة** و**لمتونة** التي تكون منها اتحاد المرابطين الذين كونوا دولة عظيمة في المغرب، وأنهم إنما وصلوا إلى المنطقة بعد أن غزا المرابطون السودان الغربي حوالي القرن الحادي عشر الميلادي لنشر الإسلام في جنوب الصحراء. ولعل في احتفاظ الطوارق على بعض العادات التي كانت للمرابطين خاصة في اللثام الذي هو شعار قبائل صنهاجة ما يدل على ارتباطهم الوثيق بالمرابطين، وإن تعرب الكثير منهم بعد ذلك واندمج في القبائل العربية في الصحراء<sup>(٢)</sup>. ألا أن الفضل يعود إليهم في تأسيس العديد من المدن والقرى شمالي الصحراء مثل: "تادمكت" و"إستيديراتن" و"سيداموس" و"بلزة"، وغيرها حتى أسسوا في آخر المطاف مدينة تمبكتو<sup>(٣)</sup>.

وينقسم الطوارق إلى بطون و فرق وعشائر تتشكل أحياناً في اتحادات وتقيم إمارات أو سلطنات محلية يديرها رئيس يسمى "أمينوكال"<sup>(٤)</sup>، وتأخذ اسم إمارة أو دولة؛ فيقال دولة أو إمارة أو سلطنة آيبر أو أولي مدن أو الأنصار وقد تنسب إلى القبيلة التي ينتمي إليها الرئيس<sup>(٥)</sup>.

وذهب **القشاط** إلى أن هذه القبائل قد تخوض - سواء فيما بينها أو مع جيرانها من سكان الصحراء - حروباً من أجل إثبات الذات أو استقطاع ملكية في الأرض، ما جعلها تعيش على الغارات والغزوات لفترات طويلة من تاريخها في الصحراء، ومثالاً لذلك: الحرب التي وقعت بين قبيلة أولي مدن وقبيلة الهقار، أو بين قبيلة إدوالحاج وقبيلة كنته، أو بين كنته وكل انتصر، أو بين البرابيش وأولاد رزق<sup>(٦)</sup>. وهم مع ذلك يوصفون بالاهتمام بالعلم والدين وتعليمهما على نطاق واسع. ولهم فضل كبير في ترسيخ قواعد الإسلام في الصحراء وما حولها. وخير شاهد على ذلك تأسيس مدينة تمبكتو الإسلامية. كما أن لهم عبر الصحراء أتباعاً وتلاميذ أصبحوا علماء وشيوخاً يشهد لهم بالفضل والصلاح<sup>(٧)</sup>. وكان من حرصهم على الإسلام وسيطرة مظاهره على

(١) شهاب الدين الناصري، "الاستصفا لأخبار دول المغرب الأقصى" دار الكتاب، الدار البيضاء ١٩٥٦م، ص ١١٦. وينظر ابن خلدون، "العبر وديوان المبتدأ والخبر"، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٦هـ/١٩٥٦م ص ٣٥٧. (٢) صحراء العرب الكبرى ص ١٧٥.

(٣) مخطوط محمد محمد الإدريسي، "لمحات وقياسات عن الطوارق في الصحراء" (مخطوط) ص ١٣. (٤) أمين البلاد. (٥) أزواد أو صحراء التينيري، ٥٦. وينظر لمحات وقياسات عن الطوارق في الصحراء ص ٧. (٦) المرجع السابق ص ٥٢. وينظر لمحات وقياسات عن الطوارق في الصحراء ص ٩.

(٧) لمحات وقياسات عن الطوارق في الصحراء ص ١٠.

(٨) المرجع السابق ص ١٠. (٩) القشاط "أعلام من الصحراء" مؤسسة ذي قار، طبعة ٢، ١٩٩٩م ص ٣١.



شؤون حياتهم سعيهم الدائم إلى إيجاد نظم إدارية تتكون من مجموعة فقهاء وعلماء وقضاة يتولون قيادتهم ويتمتعون بكل المزايا الدينية والاجتماعية والاقتصادية<sup>(٨)</sup>.

وقد تعربت بعض قبائل الطوارق كاملة وتحدثت بالعربية واتخذتها إطاراً ثقافياً وعلمياً تدون فيها تراثها وآدابها. ونبغ فيها علماء كثيرون تبحروا في شتى الفنون الإسلامية والعربية. كما وجد فيها أدباء وشعراء كبار أبدعوا في إنتاجاتهم الأدبية مثل الأديب والشاعر الشيخ أحمد سالم بن السالك<sup>(٩)</sup>.

#### • قبيلة كل انتصر:

قبيلة عربية من أكبر قبائل الصحراء ترجع بنسبها إلى قبائل الأنصار الأول منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، أي (الأوس والخزرج) في المدينة المنورة<sup>(١)</sup>. نزحت من الجزيرة العربية أيام فتنة علي ومعاوية معتزلة الحرب، فوصل بها التجوال الطويل إلى بلاد المغرب حيث اختلطت بشعوب تلك المنطقة وشاركتها في أفراحها وحروبها<sup>(٢)</sup>، وظلت على تلك الحالة حتى زوال الحكم الناصري بالأندلس في عام ٨٩٧هـ، فكان من سوء حظهم أن بعضهم وقف إلى جانب الناصريين في حروبهم ضد السعديين الذين انتصروا واستولوا على الحكم، فتوجه الأنصار لتقاء المغرب فراراً بعوائلهم من بطش الحكام الجدد واضطهادهم<sup>(٣)</sup>. فكانوا دائمي الترقب والبحث عن أماكن مسالمة تؤيهم وتخفيهم عن أنظار الجنود الذين يطاردونهم وكذلك المتلصقين عليهم وقطاع الطرق من أجل الثروات الكبيرة التي كانوا يحملونها. فاستقروا في أول الأمر بفاس قبل أن تسوء بهم الأحوال عبر الصحراء قرابة قرن من الزمان<sup>(٤)</sup>.

ثم تدرجوا إلى أعماق الصحراء حتى انتهى المطاف بجدهم الأول الشيخ الحاج عبد الله الأنصاري مع جده الكبير (إنفه) إلى صحراء تمبكتو حوالي ١٧٠٧م، حيث عاشوا فترات طويلة متسترين على أصولهم وألقابهم خوفاً على حياتهم من رجال السعديين الذين ظهروا على أهل تمبكتو أيام غزو المنصور السعدي للمملكة السنغية في نهاية القرن السادس عشر الميلادي<sup>(٥)</sup>.

لكن ما لبثوا أن استقروا في تمبكتو واشتغلوا فيها بالتجارة والرعي حتى اكتسبوا ثروة وقوة وأصبحوا من أكثر شعوب المنطقة رفاهية. إلا أنهم - استجابة لغريزتهم في التستر - اضطرتهم الظروف إلى التماس المودعة والمسالمة، فلم يعادوا شعباً ولم يبدأوا بعدوان أو قتال على خلاف عادة سكان الصحراء من أجل السيطرة على مواقع الماء والكأ، وإنما وجهوا جهودهم إلى تعليم الشعوب ونشر الفضيلة بينها، كما اهتموا بنشر المحبة والصداقة من حولهم حيثما حلوا. فلم يوجد شعب من سكان الصحراء ممن خالطهم إلا من لهم عليه يد أو سبق فضل، لذلك أحبهم الناس واعتقدوا في علمائهم الخير والصلاح<sup>(٦)</sup>.

(١) أزواد أو صحراء التينيري ص ٣٥. و صحراء العرب الكبرى ص ٩٦. (٢) المرجع السابق ص ٣٥.  
(٣) عبد الرحمن الحجي، "التاريخ الأندلسي" ص ٢٢٧. (٤) المقرئ أبو العباس أحمد، "نفح الطيب"، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٠م، ج ٤، ص ١٣٥.  
(٥) أزواد أو صحراء التينيري ص ٣٥.  
(٦) الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى ج ٣/٢٦-٢٩. والحكم المغربي في السودان الغربي ص ٦٥٠. و "نثار الأخبار عن بقايا الأنصار في صحراء تمبكتو" (مخطوط) ص ٤٦. (٧) صحراء العرب الكبرى ص ٩٦. أزواد أو صحراء التينيري ص ٣٥.  
(٨) كنته الشريون ص ٨٣. (٩) أزواد أو صحراء التينيري ص ٣٨.

ويرى المؤرخون أن هذه القبيلة اختلطت بقبائل عرب الطوارق فأصبحت طارقية تتحدث بلهجتهم وتسلك عاداتهم وتقاليدهم(٧). وقد كان بينهم وبين كنته قبل أن تفسد علاقاتهم تواد وتواصل يقدر كل منهم الآخر، لمكانته العلمية ومنزلته الاجتماعية في هذه الصحراء الشاسعة التي تقاسموا إصلاحها(٨). ولكن نشبت بينهم الشجار تواصل في معارك متقطعة عدة سنوات خلف الكثير من النقائص الشعرية بين شعرائهم وشعراء كنته، كما كان الشأن بين شاعريهما **محمد (هم) بن الطاهر الأنصاري** و**محمد المختار بن حود** وبين شاعر كنته **أحمد البكاي**(٩).

وإن تلك الحروب التي نشبت بينهم لا تزال مثار جدل واستغراب، فقد لوحظ وكأنهم ألقوا إليها لما يتطلبه البقاء في الصحراء - في أغلب الأحيان - من قوة ومنعة دفاعاً عن النفس أو الحفاظ على مكتسبات مادية أو ممتلكات أرضية. ويذهب مترجم "كنته الشرقيون" إلى أن موقف الإسلام من تحريم الاقتتال بين المسلمين أوجد في الصحراء ظاهرة يتمسك بها كل القبائل المسلمة المتخاصمة فيما بينها هي نفي كونها المعتدية أو أنها غلبت من طرف الآخرين. وعلة ذلك - عنده - هي خوف كل قبيلة من تحمل مسؤولية العدوان والرغبة في الظهور في موقف المدافع عن نفسه. لكن على الرغم مما حدث فإنهم استطاعوا أن ينسوا أحقاد الماضي ويرأبوا الأصداع كأن لم يكن بينهم شيء بالأمس(١).

وقد أنجبت هذه القبيلة الكثير من العلماء الذين كان لهم دور بارز في نشر الإسلام والعربية في المنطقة. كما برزت منهم مجموعة كبيرة من الشعراء ما زال ذكرهم يروى في الصحراء ويتردد صداها في أرجائها(٢).

ولا شك أن لتلك الحروب دوراً مهماً في تحريك القرائح الأدبية في ضوء ما عثر عليها من قصائد عديدة حول حروبهم وماجرياتها(٣).

#### • قبيلة البرابيش:

يرى المؤرخون أن البرابيش وصلوا إلى تمبكتو منذ فترة بعيدة. وأن جدهم **أبا مخلوف** ذلك الرجل الصالح والتاجر البارز هو الذي قاد هجرتهم إلى صحراء تمبكتو. غير أنهم اصطدموا بعد وصولهم إليها بالطوارق، وخاضوا ضدهم حروباً لا تحصى، انتهت بإعطاء النازحين الجدد جزءاً من الأرض يسيطرون عليه بدورهم(٤).

ثم بدأت سلسلة من الحروب الداخلية بينهم لا سيما التي وقعت بين **أولاد سليمان** و**أولاد أحمد**، ودامت اثنتين وسبعين سنة دون صلح ولو مرة واحدة(٥).

(١) صحراء العرب الكبرى ص ٩٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٨ . وينظر الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى ، ج ٣، ص ٢٦-٢٩ .

(٣) البرابيش ص ٢٤، و ٢٧ . وينظر أزواد أو صحراء التينيري ص ٢٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٩ .

(٥) أزواد أو صحراء التينيري ص ٣٨ .

غير أن هذه الحروب لم تمنعهم من التجارة وكسب المال. ولما استقروا في مكان خاص بهم غيروا طريقتهم في العيش فتركوا الاعتماد على الغارات وتحولوا إلى تجارة الملح التي سيطروا بها على تجارة السودان مدة ثلاثة قرون(٥).

وقد كان لهم مكان بارز في المدينة في القرن السادس عشر الميلادي. فعندما زار أسكيا محمد تمبكتو أقام في حي باجيندي ونصبت فيه خيامه، حيث أتى لاستقباله رؤساء المدينة والقرى المجاورة ورئيس السوق ومفوض مدينة تمبكتو - آنذاك - البربوشي "مونجو(٦)". ١٥

وابتداءً من عام ١٧٠٣م اقتتل البرابيش فيما بينهم في نكبة أغومار. وخلال المطاردة المتبادلة وصل المطاف ببعضهم إلى تمبكتو بنسائهم وأولادهم وتفرقوا في المدينة، حيث التجأ بعضهم إلى الدور بينما سكن آخرون في خيام بنوها في الساحات العامة وفي الطرقات(١).

وخلال الفترة من ١٧٤٢م شغل ضابط بربوشي من الرماة منصب قائد كتيبة مراكش في حامية تمبكتو هو الهادي ولد البربوشي. وبذلك كان للبرابيش كلمتهم إلى حد ما في الحياة السياسية والعسكرية بتبمكتو(٢). ويذهب الرحالة مارتني إلى أن القبيلة قد تفرعت إلى أكثر من سبع وخمسين قبيلة بين صغيرة وكبيرة، منها(٣): أولاد سليمان وأولاد غيلان وأولاد يعيش وأولاد إدريس وأولاد غنام وأولاد عمران والكوانين، وهم الأفخاذ النبيلة، أما الباقون فيعدون أتباعاً لهم وينظر إليهم كرعية أولاد بواجبيهة(٤). ١١

#### • قبيلة كنته(٥):

يرجع المؤرخون بنسب هذه الأسرة إلى عقبة بن نافع الفهري فاتح شمالي أفريقية، فهم يجمعون على أن كنته هاجرت منذ القرون الوسطى من موطنها الأصلي في جزيرة العرب حاملة تراثها وآدابها وفنونها العربية والإسلامية، فسكنت على امتداد الصحراء الكبرى متوزعة من جنوبي الجزائر وليبيا وشرقي موريتانيا في القرن العاشر الهجري، ثم انتشرت إلى كل منطقة صحراء مالي والنيجر بل يوجد منها عوائل عديدة في السنغال وغينيا وبقية دول أفريقيا الغربية(٦).

وهي قبيلة كثيرة العدد ومتناثرة في أرجاء الصحراء تتفرع إلى عشرات الأفخاذ منها مايلي:

(٦) البرابيش ص ٣٢ .

(١) البرابيش ص ٣١ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٧٤ .

(٤) أزواد أو صحراء التينيري ص ٢٤. و"بواجبيهة" قرية تقع على بئر سمي على الشخص الذي قطنه بتلاميذه، ويسمى الطالب سيدي أحمد، وكان عريض الجبهة فسموه بوصفه (بواجبيهة): على تصغير الجبهة. والمجموعات الموجودة بها تنتسب إليها، وتقع شمال تمبكتو بحوالي (١٨٠) كيلومتر. وينظر أزواد ص ٢٦. وكنته الشرقيون ص ١٦٧.

(٥) اسم أرض في أقصى بلاد المغرب، حكاها الشيخ مولاي أحمد بابير الأرواني في مخطوطه "السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تمبكتو البهية" ص ١٥٥. ويكتب كنت، أو كنتا، أو كنته، وعليه أثبت القشاط الرسم، وقد اخترناه على غيره. ينظر صحراء العرب الكبرى ص ٩٠.

(٦) كنته الشرقيون ص ١٢. وينظر صحراء العرب الكبرى ص ٩٠.

(٧) صحراء العرب الكبرى ص ٩٠. (٨) كنته الشرقيون ص ١٧٥. (٩) كنته الشرقيون ص ١٧١.

- أ - الرقايدة: وهي قبيلة كبيرة أسست زاوية (سيد الرقاد)، في منطقة (توات) جنوبي الجزائر، ويرجع أصلها إلى سيدي محمد الرقاد بن أحمد الغرم بن الشيخ سيدي عمر(٧).
- ب - أولاد سيدي المختار: وينقسمون إلى أفخاذ كثيرة(٨).
- ج- الهمال : وينقسمون أيضاً إلى أفخاذ، ولهم فروع في ليبيا باسم أولاد سيدي بن همال دفين (سرت)، ولهم فروع في كل من الجزائر والسنغال(٩).
- د- أولاد الوافي: أصل كنته الشرقيين ومنهم الشاعر أحمد البكاي. ويندرج تحت لوأئهم قبائل عديدة

بما فيها قبيلة (إيفلان) فرع من قبيلة الفلان الشهيرة التي امتزجت بهم فحسبت منهم(١) ٣٣  
وهناك فرع آخر لقبيلة كنته اتجه جنوباً وتجاوز النهر إلى منطقة (فورمه) مالي، فسموا (كنته فورمه). وقد اختلطوا بالزنج هناك وتزاوجوا معهم حتى أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من ذلك الشعب، بحيث لا يستطيع المرء أن يفرق بينهم بسبب اتحاد اللون والعادات والتقاليد والثقافات، ويسمى هذا الفرع (أهل بادي)، وهو ابن أخ البكاي المختار الصغير، ذلك الشخص الطموح الذي اشتدت غيرته من عمه البكاي عندما أصبح رئيساً لقبيلة كنته بعد وفاة أخيه المختار الصغير فهاجر مع جماعة منهم(٢).

وتتضم إلى هذه القبيلة مجموعة كبيرة من القبائل الفرعية أصبحت مع الزمن تحسب في عدادها على الرغم من اختلاف أصول بعضها كالطوارق والسنغاي وغيرهم(٣).

ويذهب القشاط إلى أن كنته أنجبت مجموعة كبيرة من العلماء في المنطقة أسهموا في نشر الإسلام وتحفيظ القرآن الكريم وتعليم أصول اللغة العربية. وأهمهم رجال الأسرة المختارية المكونة من الجد والأب والحفيد، وسنترجم لكل واحد منهم في حينه إن شاء الله، وهم كما أوردهم القشاط:

- ١- الشيخ سيدي المختار الكبير، الذي انبثق منه الإشعاع الكنتي، في نهاية القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر الميلادي، ولا يزال أثره نبزاً، يقتدى في المنطقة، حتى اليوم.
  - ٢- الشيخ سيدي محمد ولد سيدي المختار الكبير، سار على نهج والده. وهو مؤلف كتاب (الطرائف والتلائد في أخبار الشيخين الوالدة والوالد).
  - ٣- الشيخ سيدي أحمد البكاي، مؤسس الطريقة البكائية الجديدة في تمبكتو، ولها فروع ومريدون في جنوب الصحراء في مالي والسنغال ونيجيريا(٤).
- ثالثاً: المناخ الديني والفكري والسياسي لتمبكتو.

(١) كنته الشرقيون ص ١٨٠، ١٨٦. وينظر أزواد أو صحراء التينيري ص ٣٢.

(٢) صحراء العرب الكبرى ص ٩١، ٣٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٢.

(٤) عبد القادر زبادية، "القرن الـ ١٦ و حركة التعليم في تمبكتو"، مركز التبادل الثقافي الأول مع العرب، المؤرخ العربي، عدد ١، سنة ١٩٨٠م، ص ٢٠٦.

(٥) تاريخ السودان ص ٢١.

(٦) المصدر السابق ص ١٨٠، ١٨٦. وأزواد أو صحراء التينيري ص ٣٢.

## أولاً: المناخ الديني:

### ١ - الإسلام في تمبكتو:

بسبب العلاقة التجارية عبر الصحراء بين مسلمي شمال أفريقيا وزنوج السودان انتشر الإسلام في أرجاء أفريقيا الغربية منذ حوالي القرن الأول الهجري (٥). ولما كان مؤسسو تمبكتو عرباً أو بربراً ينتمون إلى طوارق مقشرون فقد ارتبطت المدينة بالإسلام منذ أول ظهورها، ما دفع السعدي إلى القول: "إنها ما دنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن، مأوى العلماء العابدين ومآلف الأولياء والزاهدين وملئى الفلك السيار (٦)".

وهذا يعني أن الحديث عن تمبكتو لا ينفصل عن الحديث عن الإسلام والعروبة لارتباط تاريخ المدينة بتاريخ الإسلام فيها من يوم ولدت حتى اشتد ساعدها وقوي. فقد رافقتها العقيدة الإسلامية في جميع أطوارها حتى انطبعت حياتها اليومية بممارسة فعلية للمبادئ الإسلامية، حكمت نظمها الاجتماعية ووجهت قواعدها الفكرية (١). فكان من نتيجة ذلك أن تأثر بعض تجار الجنوب من "الوانغار (٢)" بسكان تمبكتو العرب والسنغاي المسلمين، فحملوا دينهم إلى أعماق القرى والمدن الجنوبية التي تسارعت فيها حركة الإسلام (٣) باعتراف أمرائها وأثريائها له، كما اتبعتهم في معظم الأحوال رعاياهم وعشائريهم في ترك عقائدهم الوثنية التي كانت منتشرة عندهم على نطاق واسع. فلم يدخل القرن الرابع عشر حتى أصبحت الثقافة الإسلامية هي القاسم المشترك بين السكان؛ سودهم وبيضهم (٤).

لكن سبق الإسلام إلى تمبكتو لم يجعلها مركزاً إسلامياً مباشراً، ولكنها اكتسبت مكانتها الدينية بالتدريج وعلى مر السنين. فقد بدأت مركزاً تجارياً أولاً في القرن الرابع عشر الميلادي ثم أصبحت تجتذب العلماء والفقهاء الذين ما لبثوا أن اقتفوا أثر التجار مكتسبين وداعين إلى الإسلام بنشر وتثبيت مفاهيمه عن طريق التربية والتعليم (٥).

وكان من محبة سكان تمبكتو للإسلام أن اكتسب العديد من العلماء البارزين هالة من الاحترام، فكان كل من يعتقدون فيه الصلاح والولاية يضربون - جهلاً - على قبره ضريحاً ومقاماً في المسجد أو في الدار بزعم أن أولئك الأولياء يحمون مدينتهم، ومن ثم يزورونها - تعظيماً - مرة أو مرتين في الأسبوع، وقد يأتي الناس من مكان بعيد لغرض الزيارة فقط. وهكذا حتى انتشرت في المدينة أضرحة تضاهاي عدد أيام السنة، إذ

(١) اللغة العربية ومظاهرها في غرب أفريقيا ص ١٧٨.

(٢) تجار السودان، الذين كانوا يتبادلون السلع التجارية مع الطوارق. فأطلقوا عليهم هذا الاسم. ومفرده وانغارا. واليوم تطورت الكلمة إلى لفظة جولا؛ أي تجار.

(٣) كان حضور الإسلام في بعض الأماكن واضحاً، منذ القرن الثاني الميلادي، وخاصة في "كومبي صالح" عاصمة مملكة غانا القديمة، التي أسقطها المرابطون، في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي. وفي "جيني" إحدى مدن الجنوب العريقة على نهر جولييا.

(٤) فيج. جي. دي "تاريخ غرب أفريقيا" ترجمة د. السيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، طبعة ١، ١٩٨٢ م، ص ٢٨٥.

(٥) عبد الحميد الهرامة "تمبكتو نافذة على التاريخ والتراث الإسلامي" مجلة كلية الدعوة الإسلامية، عدد ٤، ١٣٩٧هـ/١٩٨٧ م، الجماهيرية العربية الليبية، طرابلس، ص ١٠٨١.

(٦) تمبكتو جوهرة تغمرها الرمال ص ٤٦. (٧) تمبكتو، لجنة الإدماج ص ٣٣.

بلغ عددها ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ضريحة. ومن اعتزاز السكان بهذا العدد الكبير من الأولياء أنهم كتبوه على لوحة كبيرة بارزة بهذه العبارة ( مدينة ٣٣٣ ولياً ) ثم أثبتوها في أكبر ساحة وسط المدينة(٦).

وعندما دخل القرن التاسع عشر الميلادي عقب تلك الهجمات التي تعرضت لها المدينة كانت تمبكتو قد فقدت معظم سماتها الأساسية التي كانت مصدر فخرها في الماضي وتميزها بوصفها أكبر مركز حضاري في السودان الغربي. فبدأت تتحدر عبر السنوات من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ما عدا الناحية من الدينية التي ظلت صامدة لا تتزعزع، بل تزيد قوة لتمد السكان بالنفح والروح التي تمكنهم من تحمل مصائبهم على الرغم من الضعف الذي أصاب مختلف أوضاعها(٧).

والسبب في ذلك الصمود أن جميع الإمارات أو القوات التي توالى سيطرتها على المدينة - ما عدا المملكة الوثنية في سيقو - كانت تهتم بالإسلام اهتماماً بالغاً وتحترم سلطة القضاء الإسلامي الذي بقي سارياً في المدينة بجانب السلطة السياسية المتحكمة. إذ استمر اختيار مجلس العلماء من بين الفقهاء والشيخوخ. كما أن تعيين القاضي وهو أهم شخصية في المدينة وإمام الجامع في الوقت نفسه لم يكن يتم إلا بعد المشاورة والاتفاق من قبل مجلس العلماء. ثم يختار القاضي بعد ذلك معاونيه من أئمة ونواب ومؤذنين وشهود، يعلن عنهم في حفلة خاصة يحضرها السكان، بعد ذلك يسمح لكل مسؤول أن يباشر الواجب المنوط به(٨).

ويلاحظ في هذا الشأن أن الطبقة الدينية التي كانت سائدة في المجتمع التمبكتي مكنت الكنتيين من بلوغ درجات عالية من الاحترام والتعظيم بوصفهم أشرفاً ينتسبون إلى قريش؛ قبيلة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد دأب السود على احترام وتقدير كل من ينتمي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أو إلى قبيلته إلى حد الغلو في التعظيم واعتقاد الصلاح والولاية(٩).

فبحضور أحد أولئك الشرفاء لا يسمح لأحد غيره بما في ذلك الإمام نفسه بأن يقرأ دعاء ختم الصلاة أو ختم القرآن أو قراءة الفاتحة في احتفالات الزواج أو العقيقة أو الختان أو الجنازة، وهي أديعة ابتدعها الصوفية ويجري العمل بها إلى اليوم، فهم الذين يتقدمون الناس في الصلوات العامة خارج المساجد؛ كصلوات العيدين والاستسقاء، يقومون بذلك العمل ولو كانت منزلتهم العلمية ضعيفة يعلمها الناس لأن نسبهم الشريف - في اعتقاد العامة - كاف لأن يضعهم فوق مصاف جميع العلماء والأئمة مهما عظم قدر أولئك الاجتماعية أو كثر علمهم، لكن ليس ذلك لمحبة في أشخاصهم بل تعظيماً للنبي صلى الله عليه وسلم(١٠).

وقد ترتب على هذا التأثير الإسلامي الكبير في نفوس سكان تمبكتو أن اعتنوا بمساجدهم أكثر من أي شيء آخر. بدءاً بمآذنها العالية ومناراتها الهرمية الطويلة التي تشكل أهم المعالم الإسلامية والمآثر التاريخية للمدينة، تلك المساجد التي تحولت مع مرور الزمن إلى مراكز دينية حية عامرة بالعبادة ومنطقاً لنشر مبادئ العقيدة الإسلامية في ربوع أفريقيا والتي ظلت لقرون عديدة تمثل اللبنة الأساسية للمجتمع التمبكتي(١١).

(١) تمبكتو، لجنة الإدماج ص ٣٣، (٢) المرجع السابق ص ٣٤. (٣) المرجع السابق ص ٣٤.

(٤) تمبكتو جوهرة تغمرها الرمال ص ٤٦.

(٥) تاريخ السودان ص ٢١. وينظر تمبكتو، لجنة الإدماج ص ٣٥.

(٦) جميلة إمام التكتيك، " مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير"، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طبعة ١، ١٩٩٨م ص ١٧٩.

## ٢- مساجد تمبكتو الشهيرة.

### • مسجد جينقراي بير:

جينقراي بير ويعني ( المسجد الكبير ) في اللغة السنغية، هو أقدم مساجد تمبكتو على الإطلاق. ولربما كان ذلك هو سبب عدم معرفة تاريخ بنائه بالتحديد حتى الآن. غير أن بناءه يسند إلى "الوانغريين" وهم التجار السودانيين الذين خالطوا الطوارق في المدينة إثر نشأتها مباشرة(٥).

يقع هذا المسجد وسط المدينة في حي **جينقراي بير**. وكان في أول بنائه مشيداً بطابوق عولج بالحرارة في الأفران، وكانت سعته متواضعة في البداية تتناسب مع حجم السكان في المدينة في تلك الفترة(٦).

وفي مطلع القرن الرابع عشر الميلادي في عهد "كانكو موسى" ( ١٣٠٧م - ١٣٣٢م ) مطلع القرن الثامن الهجري ( ٧٣٠هـ ) أعيد تشييده بالحجارة المنحوتة من طين الكلس. إذ كان من عادة هذا الملك أن يبني مسجداً جامعاً في كل بلدة تدرکه فيها صلاة الجمعة(١).

وقد تولى بناءه أبو إسحاق إبراهيم الساحلي الشاعر القرطبي المعروف عند البعض "بالطوجين"، وهو مهندس استقدمه "كانكو موسى" معه أثناء عودته من الحج عام (١٣٢٥م) ليبنى قصوره ومساجده في المدن التي يسيطر عليها(٢). وقد شيد الطوجين أبنيته على الطراز المعماري المعروف في البلاد العربية ممزوجاً بالفن الأفريقي وترابه، ما جعل أعماله متميزة لا وجود لمثلها على أرض أخرى غير السودان الغربي(٣). وفي عهد ملوك سنغاي في القرن السادس عشر الميلادي جدد القاضي العاقب بن محمود المتوفى ٩٩١هـ المسجد للمرة الأولى(٤).

ومنذ بناء هذا المسجد وهو يمثل الجامع المركزي الذي ظل يتمتع بالمكانة المرموقة في نفوس التمبكتيين حتى يومنا الحاضر، يؤدون فيه الجمع ويتضرعون فيه إلى الله تعالى أيام الشدائد كما يجتمعون فيه لأداء صلاة الاستسقاء عند ما تشح السنوات بالأمطار(٥).<sup>٢١</sup>

### • مسجد سانكوري:

أخذ هذا المسجد اسمه من اسم الحي الذي يقع فيه، وهو الحي الشمالي من المدينة. وهو أيضاً من أهم المعالم الحضارية والفكرية في تمبكتو ورمز للتأثير المعماري والثقافي في المدينة. وهو بناء ضخمة هرمي الشكل يميل إلى الصفرة. وترتبط أجزاءه فيما بينها بدعامة خشبية ناتئة(٦). ولا يعرف كذلك على وجه التحديد تاريخ بنائه لأول مرة كما نص السعدي: "ولكن لم نجد لبنائه تاريخاً(٧)". لكن المشهور أنه شُيد في منتصف

(١) تاريخ السودان ص ٥٦. (٢) المرجع السابق ص ٧-٨. (٣) تمبكتو نافذة على التاريخ والتراث الإسلامي ص ٢٢٩.

(٤) دراسات أفريقية العدد ٥ ربيع ١٤١٠هـ ص ٧٣.

(٥) طاهر شاه، "التراث الإسلامي لمدينة تمبكتو"، ترجمة حمدي يوسف الكتوت، القافلة، صفر ١٤١٧هـ ص ٢٨.

(٦) تمبكتو، لجنة الإدماج ص ٣٥. (٧) بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ص ٥٥٣.

(٨) حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي ص ٣١٨. (٩) بداية الحكم الغربي في السودان الغربي ص ٥٥٣.

(١٠) حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي ص ٣١٦. (١١) قاضي تمبكتو، وأحد أكبر علمائها. ينظر القرن ١٦ وحركة التعليم في تمبكتو ص ٢١٩.

القرن الخامس عشر الميلادي على نفقة امرأة عربية ثرية<sup>(٨)</sup>، ما يدل على أنه أحدث بناء من مسجد **جينقراي** **بير**<sup>(٩)</sup>. غير أن بناءه لم يكتمل إلا في عهد **أسكيا داود** الذي وسعه وجدد قواعده في القرن السادس عشر الميلادي سنة ٩٨٩هـ-١٠٠٠).

والذي لا شك فيه أن بناء هذا المسجد يبين إلى أي مدى كانت العقيدة الإسلامية راسخة ومتأصلة في نفوس سكان تمبكتو. فتشييده على نفقة امرأة أمر له دلالاته في تلك الفترة البكرة من التاريخ. كما أن تشييد **القاضي العاقب** (١٥٠٨/١٥٨٣م)<sup>(١١)</sup> الجامع من ماله الخاص رافضاً قبول مساهمة بعض الموسرين المشكوك في أصل أموالهم ثم بناؤه المسجد على سعة الكعبة المشرفة، كل ذلك أمارات على تمكن الإسلام في المنطقة. ومع مرور الأعوام تحول هذا الجامع إلى أكبر مركز ديني وثقافي لا في تمبكتو فحسب، بل في السودان الغربي كله. لقد وفد إليه الأساتذة والطلاب من جميع أرجاء المنطقة للتدريس والتعلم في هذا الجامع الذي لم يوجد معلم أثري ولا منارة علمية أبرز وأشهر منه في ذلك الوقت<sup>(١٢)</sup>.

#### • مسجد سيدي يحي:

وهو ثالث مساجد **تيمبكتو** الكبيرة والشهيرة، ويقع في جنوبي جامع سانكوري. وتروى حول إنشائه روايات متواترة تذهب إلى أن **الشيخ المختار** الذي كان حاكم **تيمبكتو** من قبل الطوارق في عام ١٤٠٠م أثناء فترة ضعف مملكة مالي وقبل نشوء المملكة السنغية شاهد في منامه حلمًا قيل له فيه: " قم فشيّد مسجداً هنا فسوف يأتي ولي من بعيد ليكون إماماً له"<sup>(١٣)</sup>. فامتثل **الشيخ المختار** وشيّد المسجد الموصوف له في الحلم، لكنه بقي مغلقاً لمدة ٤٠ سنة لا تقام فيه صلاة في انتظار ذلك الرجل الصالح الذي وصفه **السعدي** بقوله: "الإمام الولي العارف القدوة المكاشف القطب الغوث الجامع السالك السيد الشريف الرباني"<sup>(١٤)</sup>.

ثم قدم من بلاد المغرب شريف اسمه **الشيخ سيدي يحي التادلسي** (٨٦٦ هـ - ١٤٦١م) كان قد بلغ الغاية من العلم والصلاح والولاية. فتلقاه **محمد النهدي قاضي تمبكتو** آنذاك. فأكرمه غاية الإكرام وجعله إماماً للمسجد، وسلمه المفتاح، فصلى بالناس حتى وفاته فدفن تحت المنارة. وتخليداً لذكره أطلق اسمه على المسجد حتى اليوم<sup>(١٥)</sup>.

ويذهب **الكعتي** إلى أن مساجد **تيمبكتو** لم تكن تقتصر على تلك المنارات الثلاث الكبيرة فقط، بل كانت هناك مساجد أخرى صغيرة تضيئ أرجاء المدينة بشموع الإيمان وتشهد بأصالة الحضارة الإسلامية في الغرب الأفريقي<sup>(١٥)</sup>.

(١) حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي ص ٣١٧.  
(٢) تاريخ السودان ص ٢٢. وينظر **تيمبكتو**، لجنة الإدماج ص ٣٥.  
(٣) المرجع السابق ص ٤٨.  
(٤) تاريخ الفتاش ص ٣٨.  
(٥) سيدي عمار ولد علي " زاوية كنته " مقال في الحضارة الإسلامية في مالي، ص ١٤٧.  
(٦) المرجع السابق ص ١٤٧.  
(٧) المرجع السابق ص ١٤٧.



## • الزاوية البكائية:

قامت هذه الزاوية بأدوار متعددة، أهمها ثلاثة(٦).

### (أ) التعليم الديني:

نظراً لمكانة مؤسسها الثقافية والروحية فإن هذه الزاوية أصبحت معدة لتسلك طريقة الجامعات التقليدية في مراحل تعليمها من الكتاب القرآني (المحاضرة)، إلى تعليم الراشدين الذي يأخذ صورة قراءات، يليها تعليق الحلقة حتى تعليم الطلبة الوافدين من كل جهة تعليمياً يتلاءم مع مستواهم الفكري والثقافي. وكان يقوم بهذه الأدوار المختلفة عدد من المعلمين والشيوخ(٧).

### (ب) التعليم الصوفي:

يتوجه التعليم إلى المريدين القلائل الذين يتصفون بالصفات الأخلاقية والثقافية التي تؤهلهم للممارسة الصوفية، ويكون هذا المستوى من التعليم تحت إشراف البكاي نفسه أو إلى أحد أتباعه المقربين(٨).

### (ج) منح الورد القادري:

كانت المرحلة النهائية من التعليم تتوج دائماً بمنح شهادة "المقدم" للمتخرج، وهي تمنح صاحبها الحق في أن يمنح اللقب لغيره وأن يعطي الورد في مقره أو في فرقته. ويكلف المريدون بالعمل على نشر الورد القادري على أوسع نطاق، مع الرجوع دائماً إلى سلسلة مؤسس الزاوية، وهي تلك السلسلة التي نظمها جد البكاي المختار الكنتي لطريقتهم(٩).

لكن الزاوية لم تلبث أن وجدت نفسها في مواجهة عنيفة مع منافسة كبيرة وقوية هي الطريقة التجانية التي دخلت إلى المنطقة من طريق الحاج عمر تال الفتوي، وكانت تلقى تأييداً كبيراً من الزاوية المغربية مصدر الطريقة الأول(١٠).

ومما لا شك فيه أن هذه الزاوية بفضل ما كان يتميز به مؤسسها من نفوذ روحي كبير لعبت - دون انقطاع - دوراً فعالاً في فترة قصيرة عملت خلالها على نشر الإسلام والطريقة القادرية بين شعوب الساحل الصحراوي في السودان الغربي. حيث انتشرت الطريقة القادرية بين جماعات المور(١١) والطوارق والسنغاي والبول والسومونو والسونينكي وغيرهم من سكان المنطقة، كما أسس أتباعها فروعاً لها في كل أفريقيا الغربية، وكانت هذه الفروع تعمل بحرص على نشر مبادئها والحفاظ على تعاليمها(١٢).

وحتى إن لم يكن قد بقي اليوم من هذه الزاوية إلا ذكراها فإن تعاليمها ما زال لها أثر بالغ في الصحراء، لكونها مرجعاً روحياً ليس فقط لجماعة كنته، بل أيضاً لكل تلك الشعوب التي تأثرت بصاحبها(١٣).

(١) زاوية كنته ص ١٤٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٤٨.

(٣) الحسان من موريتانيا.

(٤) زاوية كنته ص ١٤٩.

(٥) المرجع السابق ص ١٤٩.

(٦) المرجع السابق ص ١٤٩.

وأخيراً فإن هذه المساجد الأربعة المشهورة لم تكن الوحيدة في تمبكتو، بل كانت هناك مساجد أخرى كثيرة لم تعد دوراً لها من نشر الإسلام وتكوين أجيال مثقفة. لكن - للأسف - كثيراً ما أهمل ذكر تلك المساجد إما لصغرهما أو لأنها لم تقترن باسم شيوخ ذوي سمعة كبيرة في مستوى البكاي. ومن تلك المساجد: مسجد خالد ومسجد الهنا ومسجد القصبه ومسجد كبر وجامع تندر وجامع التواتيين ومسجد الغفور<sup>(٧)</sup>.

## ثانياً: المناخ الفكري

### • تطور الحركة الفكرية:

إذا كانت تمبكتو قد اشتهرت أول أمرها بأنها مركز تجاري مهم في غربي الصحراء الكبرى فإن تلك الشهرة لم تكن إلا لفترة وجيزة، كان خلالها عدد السكان قليلاً فاقداً للوعي والسلطة الرسمية التي تتخذ من التعليم والتدريس وسيلة لنشر الإسلام واللغة العربية. ولكن لم تلبث أن تفجرت في تمبكتو حركة فكرية نشطة بدأت تنمو وتزدهر بتوافد العلماء الفقهاء العرب الذي ارتبط مباشرة بحركة بناء المساجد وانتشار المدارس القرآنية منذ القرن الرابع عشر في عهد "كانكو موسى" أمبراطور مالي (١٣٢٣ - ١٣٣٥) (١).

غير أن هذه الحركة الفكرية لم تبلغ أوجها إلا في القرن السادس عشر الميلادي في عهد الأسكيين ملوك مملكة سنغاي الذين كانت محبتهم الشديدة للعلم واهتمامهم بالعلماء والطلاب عاملاً حيوياً في تشجيع الحركة الفكرية في المدينة وجذب العلماء إليها من كل صوب. فقد كانوا يقدمون لهم كل أنواع المساعدات ويوفرون لهم التسهيلات والحوافز، مع إحاطتهم بالاحترام الزائد وحمائيتهم من صروف الدهر، بإعفائهم من جميع الأشغال الشاقة وإسقاط الضرائب عنهم<sup>(٢)</sup>. ما هياً لتمبكتو أن تصبح مركزاً فكرياً عظيماً يتمتع بإشعاع ثقافي وحضاري قوي كان له الدور البارز في نشر وتثبيت الفكر الإسلامي واللغة العربية في السودان الغربي<sup>(٣)</sup>. إذ وصلت مدارسها الصغيرة والمتوسطة إلى (١٨٠) مدرسة، بينما تحولت مساجدها الكبيرة الثلاثة إلى مستوى جامعات أو معاهد علمية وتربوية، كانت منارات تجتذب الناس من مختلف أصقاع أفريقيا<sup>(٤)</sup>. على أن تسمية تلك المساجد جامعات أو معاهد ومن ثم إطلاق لقب "دكاترة" على أساتذتها إنما جاءت على لسان المؤرخين المحدثين تقديراً منهم لمستوى الدراسة والعلوم التي كانت تقدمها تلك المساجد لروادها<sup>(٥)</sup>.

(٧) تاريخ الفتاش ص ١٢٢. وينظر تاريخ السودان ص ١٤٦.

(١) تمبكتو نافذة على التاريخ والإسلام ص ١٠٨٠. (٢) القرن الـ١٦ وحركة التعليم ص ٢١٨.

(٣) أحمد الحنفاوي، "أضواء على الثقافة العربية في غرب أفريقيا"، مجلة الأزهر، الجزء السابع، سنة ٢٧، رجب ١٤١١هـ، يناير/فبراير ١٩٩١م ص ٧٤٧.

(٤) تمبكتو، لجنة الإدماج ص ١٧٨. (٥) حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي ص ٣٢٥.

(٦) عز الدين عمر موسى "دراسات إسلامية غرب أفريقية" ص ١٧٨.

(٧) تاريخ السودان ص ٢١. وينظر دراسات إسلامية غرب أفريقية ص ١٧٨.

ومما ساعد تمبكتو في الوصول إلى هذه المكانة الفكرية العالية موقعها الجغرافي الذي جعل منها سوقاً وملتقى للقوافل التجارية العابرة للصحراء، فضلاً عن قوافل الحج التي كانت تتبع الخط التمبكتي في اختراق الصحراء من ناحية الشمال الأفريقي(٦). إذ نرحب عبر هذا الخط إلى تمبكتو - كما ذكر السعدي - العلماء الأخيار والصالحون وذوو الأموال وافدين من مصر والحجاز وبلاد المغرب، حيث سكنوا تمبكتو بكل ما كانوا يحملونه من ثقافات وأفكار وأخبار عن العلم والعلماء والكتب والتأليف وحلقات التدريس والمناظرات وغيرها من أسباب العلم وعوامل المعرفة، متخذين من مساجد المدينة مدارس يعلمون الناس فيها ويحفظونهم القرآن الكريم ويفقهونهم في دينهم ناشرين بذلك الثقافة الإسلامية واللغة العربية وما تعلق بهما من حضارة على نطاق واسع(٧).

وبفضل الذخيرة الثقافية والتجارب العلمية التي كان يحملها الأساتذة والشيوخ الوافدين إلى تمبكتو يمكن القول بأن النظام التعليمي في تمبكتو نشأ متأثراً - منذ بداياته - بالأنظمة التعليمية العربية في الشمال الأفريقي. ويرى عدد من الباحثين أن هجرة القبائل العربية إلى تلك البلاد واستقرارها فيها قديمة وسابقة على دخول الإسلام في القارة، ولكن ازدادت بانتشار الإسلام وتحول تمبكتو إلى سوق مركزي عند ما راجت الأعمال التجارية فيها(٨).

ويذكر من العلماء الوافدين الذين جاءوا من بلاد مختلفة واستوطنوا تمبكتو، القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر بن الحاج كان مقدمه من "ولاته" مع أخيه السيد الفقيه والفقيه أبو عبد الله أندع محمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن نوح الذي كان موجوداً في تمبكتو في أواسط القرن التاسع الهجري (١٥م)، وتقلد منصب القضاء خلال سيطرة الطوارق على تمبكتو، وهو جد الأكبر للمؤرخ التكروري أحمد بابا وأول من خدم العلم بهذه المدينة، من أجداد هذا المؤرخ، وقاضي قضاة المالكية بمصر محمد بن يوسف الأندلسي بعد سنة ٩٠٩هـ، ومحمود أقيت جد أسرة أقيت وموطنه الأصلي ماسنا هاجر أولاً إلى "ولاته" ثم منها إلى تمبكتو(٩). ويذكر السعدي أن فقيهاً اسمه عبد الرحمن التميمي جاء من الحجاز بصحبة "كانكو موسى" فأقام في تمبكتو زمناً. فلما رأى أن رجالها يتفوقون عليه في معظم العلوم غادرها إلى فاس حيث درس مزيداً من علوم الشرع وعاد ثانية لإقامة مجلس علم بتمبكتو(١٠).

ولما كانت هذه الجاليات العربية التي قطنت مدينة تمبكتو قد تزاوجت من أهلها فقد نشأ من ذلك التمازج السكاني والتداخل الحضاري علماء محليون ومواطنون تعلموا على أيدي آبائهم وأجدادهم في مدينتهم التي ولدوا فيها وتخرجوا في مدارسها، ثم أصبحوا بدورهم علماء وأساتذة برعوا بدورهم في العلوم الشرعية والعربية وأنتجوا فيها مؤلفات ذات مستوى عال، وكانوا نماذج حية لتلاحم الثقافتين العربية والأفريقية وخير من يمثل أجدادهم. ٢٧

(١) انتشار الإسلام واللغة العربية ص ٦٩.

(٢) حركة التجارة والإسلام ص ٣٣٢، (٣) تاريخ السودان ص ٢٢.

(٤) هو شيخ الإسلام أبو البركات الفقيه القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت، من أبرز علماء المملكة السنغية في عهد أسكيا محمد. ينظر مهدي رزق الله، حركة التجارة والتعليم ص ٣٣٧.

من العلماء والفقهاء آل أقيت القاضي محمود أقيت (١٤٦٣-١٥٤٨م) (٤)، وهو والد لثلاثة من مشاهير علماء وقضاة تمبكتو هم: القاضي محمد أقيت (٩٧٣هـ/١٥٦٥م) (٥)، والقاضي العاقب (١٥٠٨هـ/١٥٨٣م) (٦)، والقاضي عمر محمود أقيت (١٠٠٣هـ/١٥٩٤م) (٧) والقاضي محمود كعت (ت ما بعد ١٠٧٥هـ/١٦٦٥م) صاحب كتاب تاريخ الفتاش (٨)، كان من العلماء المرموقين في تمبكتو، وكان مقرباً لدى السلاطين واهتم بكتابة تواريخ مفيدة تناولت الكثير من الأحداث التي وقعت في صدر دولة سنغاي. وأحمد بابا التمبكتي (٩٦٢-١٠٣٦هـ/١٥٥٥-١٦٢٧م) (٩)، صاحب كتاب نيل الابتهاج وكتاب كفاية المحتاج، اجتهد في العلم حتى فاق جميع معاصريه ولا يناظره في العلم إلا أشياخه الذين شهدوا له بالعلم واستفاد طلبة وعلماء المغرب من وجوده بينهم عندما حمله المغاربة أسيراً إلى مراكش بعد غزوه لدولة سنغاي. فقد جلس بجامع الشرفاء بمراكش للتدريس فازدحم عليه الخلق وأعيان الطلبة بل وتلمذ عليه قضاة مراكش. وعبد الرحمن السعدي (١٠٠٣-١٠٦٦هـ/١٥٩٦-١٦٥٥م) صاحب كتاب تاريخ السودان (١).<sup>٢٨</sup>

وأثناء القرن السادس عشر الميلادي أيام مجد ملوك الأسكيا كثر سواد العلماء وطلبة العلم واتسع نطاق التعليم وارتقى، حتى أصبحت مساجد تمبكتو الثلاثة الكبار بمثابة ما أسماه المؤرخون "الجامعات التمبكتية" (٢).<sup>٢٩</sup>

## • النظام التعليمي:

### ١- المرحلة الابتدائية:

كان النظام التعليمي في تمبكتو ينقسم إلى مرحلة ابتدائية ومتوسطة وعالية (٣). أما المرحلة الابتدائية فقد كانت خاصة بالصغار فقط، لكن إلزامية على البنين دون البنات ودون مراعاة لسن معينة، وإن كان الأطفال في الأغلب متقاربين في العمر حيث كانوا يقتادون صغاراً وربما قسراً إلى المدارس حتى يعتادوا الدراسة وتقبلها نفوسه ثم يذهبون إليها بأنفسه دون حراسة. ويجري تعليمهم في المدارس والكتاتيب وزوايا المساجد صباحاً وفي المساء بعد الظهر وقبل العصر أحياناً. ويصل عددهم إلى ٧٠ ألف) تلميذ أو أكثر. وقد بلغ عددهم في القرن السادس عشر (٢٠٠٠٠) ألف طالب موزعين على نحو مائة وثمانين مدرسة (٤).

(٥) المرجع السابق ص ٣٣٨. (٦) المرجع السابق ص ٣٣٩.

(٧) المرجع السابق ص ٣٤٢. (٨) المرجع السابق ص ٣٥٢.

(٩) المرجع السابق ص ٣٤٣.

(١) ينتمي إلى أسرة من الفقهاء في تمبكتو حيث كان منبته. وشهد الاحتلال المراكشي لدولته سنغاي ومدينته تمبكتو، وصور لنا جانباً مهماً من تاريخ الاحتلال لهذه البلاد. وكان لكتابه "تاريخ السودان" الفضل الأكبر في إبراز صورة الحضارة الإسلامية في غربي أفريقيا عامة، ومدينة تمبكتو وجني خاصة. فهو مؤرخ دولة سنغاي الإسلامية أولاً ودولة مالي ثانياً. تقلد السعدي عدة مناصب إدارية في دولة باشوات تمبكتو إلى أن ووري الثرى. وينظر المرجع السابق ص ٣٥٣.

(٢) حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي ص ٣٢٤.

(٣) القرن الـ ١٦ وحركة التعليم ص ٢١٤.

(٤) المرجع السابق ص ٢١٧.

(٥) الوسيط في ترجمة أدباء شنقيط ص ٥١٨.

أما مدرسوهم ويطلق عليهم "معلم" أو "فقيه"، فهم متوسطو الثقافة عادة ويأخذون أجورهم من التمر والحبوب والحيوان وغيرها من العينيات المتوفرة في المدينة<sup>(٥)</sup>.  
وتقتصر المواد الدراسية في هذه المرحلة المبكرة على حفظ القرآن الكريم وتلقين مبادئ الدين الإسلامي الأساسية من فرائض وسنن ومستحبات إلى جانب تعليم القراءة والكتابة<sup>(٦)</sup>.  
ولا ينتقل الطالب من هذه المرحلة إلا بعد التأكد من تزوده بالقدر اللازم الذي يمكنه من الدخول في المرحلة التالية<sup>(٧)</sup>.

## ٢- المرحلة المتوسطة:

وهي المرحلة التي تفصل بين النظامين الابتدائي والعالِي. وإن شئنا قلنا الثانوية. كانت الحدود الفاصلة بينها وبين التعليم العالِي ضيقة؛ إذ إن موادها الدراسية تتراوح بين مبسطة ومعقدة وتقوم على تعليم العلوم الدينية بما فيها حفظ القرآن الكريم كاملاً، وأحاديث مختارة، إضافة إلى حفظ متون العلوم المساعدة التي في مقدمتها الألفية والأجرومية والصرف والبلاغة<sup>(١)</sup>.  
ولم تكن الدراسة محدودة بزمن معين، وإنما كانت رهناً بفراغ الطالب من دراسة عدد معلوم من الكتب قبل أن ينتقل إلى المرحلة الجامعية. كما أن الشيخ مخول في تقسيم وقته خلال النهار حيث يبدأ اليوم بتدريس المواد المتوسطة في الصباح ثم يكرس المساء لاستقبال الطلاب الكبار<sup>(٢)</sup>.

## المرحلة العالِيّة:

كان جامع سانكوري منذ القرن السادس عشر هو مركز الدراسات الجامعية. و نال هذا الجامع شهرة كبيرة وسمعة طيبة تجاوزت حدود البلاد السودانية إلى شمال أفريقيا ومصر، حتى انتدب من جامعاتها أساتذة للتدريس فيه إلى جانب شيوخ السودان الضالعين الذين جعلوا الجامع بفضل جهودهم كعبة لطلبة العلم يضاها في مستواه ودوره التعليمي معاهد وجامعات الدول العربية<sup>(٣)</sup>.  
ومن أبرز أساتذته الشيخ محمد باغايفو (٩٣٠-١٠٠٢هـ - ١٥٢٣-١٥٩٣م) وكان من العلماء المتعددي التخصص العاملين الناصحين للناس بمحبة العلم وملازمة التعليم طوال العمر وبيذل الكتب النفيسة لمن يرغب فيها دون طلب إرجاعها ودون تحقق من شخصية المستعير<sup>(٤)</sup>.  
وكانت الدراسة في هذه المرحلة مركزة أساساً على صفوة ما وصلت إليه الثقافة الإسلامية والعربية في ميدان المعارف من علوم القرآن والحديث والسيرة والتاريخ والمنطق وشيء من الفلسفة. وكانت مقرراتها البارزة تشمل: الصحيحين وموطأ مالك والمدونة ومختصر خليل والشفا للقاضي عياض والمعيان للونشريسي وتحفة الأحكام لابن عاصم ورجز المغيلي في المنطق والألفية والخزرجية وشرح الشريف السبتي وغيرها من

(٦) بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ص ٥٤٨.  
(٧) القرن ١٦ وحركة التعليم ص ٢١٣.

الكتب الشرعية واللغوية التي كانت - ولا تزال - تشكل الركيزة الأساسية للتكوين الفكري والثقافي للإسلاميين في تمبكتو<sup>(٥)</sup>، بل وفي غرب أفريقيا حتى اليوم.<sup>٣١</sup>

وتجدر الإشارة إلى أن مواد العلوم التجريبية والتطبيقية والمهنية والفنية لم تكن داخلة في المناهج التعليمية قبل العصر الحديث<sup>(٦)</sup> وقبل الاحتكاك بفرنسا والتعرف على نظمها ومناهجها التعليمية التي دخلت اليوم مدارس تمبكتو الحكومية والرسمية منذ الاستقلال. ولم تعد تلك المراكز التقليدية محل دراسة وإن بقيت محل إعجاب وتقدير؛ لدورها السابق المشرق.

ويقول محمد الغربي: إن علماء السودان الذين تخرجوا من هذه المؤسسات أسهموا بقدر كبير في إثراء الفكر العربي والثقافة العربية، حتى إن بعض تأليفهم أصبحت-مكانتها العلمية العظيمة- تدرس في جامعات المغرب، كما أن بعض أولئك العلماء الذين قطنوا تلك البلاد تولوا التدريس في جامعاتها اعتماداً على طول باعهم وقوة ضلعهم في العلوم العربية والإسلامية<sup>(٧)</sup>.

### ثالثاً: المناخ السياسي

#### • قبل القرن التاسع عشر:

ظلت مدينة تمبكتو منذ تأسيسها في القرن الحادي عشر الميلادي تعاني من الغزو والاحتلال. فقد غزتها جميع القوات والسلطات التي قامت في المنطقة. كما أزيح عنها الطوارق بوصفهم مؤسسيها الأول عدة مرات. غير أنهم كانوا يعاودون السيطرة عليها كلما ضعفت السلطات الحاكمة فيها. وقد تكررت هذه المحاولات مراراً قبل أن ينهيها قيام الدولة السنغية القوية في القرن السادس عشر الميلادي<sup>(٨)</sup>.

وبسبب سمعتها الواسعة التي نتجت عن ازدهارها الواسع بفضل سياسات ملوك سنغاي طمع المغاربة في خيراتها، فغزوها بحثاً عن الذهب والعبيد، ما أدى إلى تبيد أموالها وشروذ علمائها وانطفاء الشموع والأنوار التي أضاءت جوانب هذه المملكة قرابة قرن من الزمان، عرفت خلاله تمبكتو أزهى عصور ازدهارها من النواحي الحضارية والفكرية والدينية والاقتصادية مما كانت تمثل مجدها وفخرها في ذلك الوقت<sup>(٩)</sup>.

وصارت السلطة بعد الاحتلال المغربي بيد الباشا<sup>(١٠)</sup> الذي كان يقيم في تمبكتو. ويذكر أن فترة حكم ملوك المغاربة الأوائل في المدينة لم تتجاوز سبعة عشر سنة، ثم انفصل الجنود عن المغرب وأصبحوا يحكمون البلاد بأنفسهم دون أي عودة إلى حكومتهم الأم<sup>(١١)</sup>. غير أن عهد الباشوية اتسم بالفوضى وعدم الاستقرار السياسي، حيث خضعت المدينة في الفترة ما بين ١٥٩١م و١٧٩٨م لحكم أكثر من ( ٩١٦٧ ) باشاً لم يتمكن أحد منهم أن ينجز عملاً مهماً في البلاد كلها، حتى قامت ثورة شرفاء تمبكتو على الباشا منصور بن مسعود ليجبروه على ترك القيادة<sup>(١٢)</sup>. كما أن فترة حكمهم عرفت أزمة اقتصادية عميقة ارتبطت بما وقع من اختلال على صعيد البيئة من جفاف ومجاعة استمرت حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي<sup>(١٣)</sup>.

٣٢

(١) القرن الـ١٦ وحركة التعليم ص ٢١٣.

(٢) المرجع السابق ص ٢١٤.

(٣) أبو بكر ميغا، الحركة العلمية ص ٢١٧.

(٤) حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي ص ٣٥٠.

(٥) الحرة التعليمية ص ٦٤.

(٦) المرجع السابق ص ٢٣٦.

(٧) بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ص ٥٢٢.

يضاف إلى ذلك العديد من أعمال الغزو والنهب التي كانت المدينة تتعرض لها، مما أحدث فوضى عارمة انتهزتها بعض الجماعات للثورة في وجه " الأرماء " أبناء المغاربة الهجاء الذين آل إليهم الحكم، كـ"البامبارا" أولاً ثم "البول" الذين حالوا بثوراتهم المتكررة دون أية محاولة لإعادة أمجاد إمبراطورية سنغاي القديمة<sup>(٨)</sup>. ومما زاد الطين بلة أن وجود الأوروبين كان في ازدياد مستمر في القارة بحثاً عن الأيدي العاملة لتسويقها إلى أمريكا التي لم يكن قد مضى على اكتشافها زمن طويل للعمل في زراعة القطن والبن والسكر<sup>(٩)</sup>. وقد أدى الاهتمام الأوروبي بهذا الجانب إلى ظهور المتاجرة بالعبيد منذ القرن السادس عشر ليصل إلى أوجه في القرن الثامن عشر الميلادي. ونتج عن ذلك ازدياد حالة الفوضى واختلال الأمن من جراء الخطف والاعتصاب، وانتهى الأمر بالنشاط الاقتصادي الذي تقلص نتيجة للخوف والفوضى إلى تحويل محاور التجارة العابرة للصحراء نحو الجنوب في اتجاه المراكز القريبة من مناجم الذهب والبعيدة عن مناطق عدم الاستقرار<sup>(١٠)</sup>. ٣٣

### • في القرن التاسع عشر:

توافق ظهور البكاي مع فترة مضطربة في تمبكتو. وذلك أن هذا العهد من القرن التاسع عشر الميلادي عرف يقظة دينية وإسلامية كبرى في السودان الغربي خاصة، حيث قامت دولتان إسلاميتان في آن هما دولة "البول"<sup>(١١)</sup> في " ماسنا " بالشرق ودولة " التوكولور"<sup>(١٢)</sup> في " سيقو " بالغرب. وقد نتج عن ذلك التزامن بين الدولتين تنافس عنيف وصراع دام حول السلطة للسيطرة على المنطقة كلها، بما فيها تمبكتو الشهيرة بمجدها الحضاري الإسلامي الكبير<sup>(١٣)</sup>.

### ١ - دولة ماسنا الفلانية<sup>(١٤)</sup>:

وتسمى دولة " دينا"<sup>(١٥)</sup> لاعتمادها على الإسلام كمنهج حياة وتشريع قامت تحت قيادة الشيخ " أحمد بوبو باري"<sup>(١٦)</sup> في بداية القرن التاسع الميلادي عام ١٨١٨م واتخذت من " حمد الله " (٨) عاصمة لها، وكانت قادرة<sup>(١٧)</sup>، ثم لم تلبث أن استولت على تمبكتو عام ١٨٢٦م، وذلك في العام الذي توفي فيه الشيخ سيدي محمد الكنتي والد البكاي بعد أن طردوا منها الطوارق<sup>(١٨)</sup>. ٣٤

(٢) دانيوكو، تمبكتو، مقال في الحضارة الإسلامية في مالي ص ٨٤ وينظر كنته الشرفيون ص ٥٧.

(٣) سوني على بير، ص ٥٥.

(٤) اسم لكل من تولى الحكم في النظام المغربي الذي قام في تمبكتو بعد سقوط المملة السنغية.

(٥) المرجع السابق ص ٨٩. (٦) البرابيش ص ٩.

(٧) آدم باه كوناري، " أسكيا محمد "، مقال في الحضارة الإسلامية في مالي ص ١٧١.

(٨) كنته الشرفيون ص ٥٧.

(٩) ألفا عمر كوناري، " بانوراما عن تاريخ مالي "، مقال في الحضارة الإسلامية في مالي ص ٢٢.

(١٠) بانوراما عن تاريخ مالي ص ٣١. (١١) قبيلة الفلان باللغة الفرنسية في شرق مالي.

(١٢) قبيلة الفلان باللغة الفرنسية في غرب مالي. (١٣) تمبكتو لجنة الإدماج ص ١٦٧.

(١٤) أسسها الإمبراطور الفلاني سيكو أحمد (١٧٥٥ - ١٨٤٤م) في ١٨١٨م، وهو في الوقت ذاته أول الملوك الثلاثة للأسرة الحاكمة المسماة "مام لوبو". كانت الدولة إسلامية ذات حكم مركزي، يحكمها إمام ومجلس من العلماء يدعى "باتو ماودو". يتكون من مائة عضو لا يقل سنهم عن الأربعين، وحسب معايير إسلامية، كالمعرفة باللغة العربية، وحيازة عدد من المؤلفات الدينية والقانونية. أصبح الحكم من بعده وراثياً، بانتقاله إلى ولده، ثم حفيده "أحمد أحمد". فتأسست بذلك أسرة مالكة في ماسنا. ينظر بنتو سانكوا، دولة الدينا أو التنظيم السياسي لماسنا، مقال في الحضارة الإسلامية في مالي ص ٥٨. و باسكال إمبراطور، المعجم التاريخي لمالي، مطبعة سكاركراو، لندن، طبعة ١٩٨٦، ٢م ص ١٠٦. (١٥) دولة الإسلام.

(١٦) غريم أحمد البكاي.

(١٧) مقر السلطة المركزية الفلانية ومركزها السياسي والروحي. وهي مدينة جديدة تقع في الجنوب الغربي من "موبتي" على بعد ثلاثين كلم من الطريق الوطنية. اختارها المؤسس الأول لحسابات سياسية وجغرافية، متعلقة بموقعها الاستراتيجي، الذي يسمح بالاستفادة من المميزات الزراعية والرعية، التي تقدمها المنطقة، وبمراقبة طرق الملح والكولا والأسلحة، وغيرها من المنتجات المتنوعة. كما أنه يوفر إمكانات مهمة في مراقبة تحركات العدو عن بعد. ينظر محمد دبالو، مدينة حمد الله، مقال في الحضارة الإسلامية في مالي ص ١٠١. وينظر المعجم التاريخي لمالي ص ١٦١.

ولما كانت الحكومة الفلانية إسلامية بحتة يديرها الفقهاء والعلماء اتخذت الدولة سمة دينية فسُميت الـ"دينا" إشارة إلى تمسكهم بالشريعة الإسلامية منهج عملٍ وحياءٍ، ففرضت قيوداً شديدة على السكان سواءً في المعاملات التجارية أو المآكل أو المشارب أو الملابس، بما في ذلك تحريم الاختلاط وخروج حتى العجائز متبرجات وبيع التبغ الذي كان يمثل عصب رأس المال الأساسي الذي يدر على التجار أموالاً طائلة<sup>(١)</sup>.

ولما كانت المعاملات التجارية الأساسية في تمبكتو تعتمد على بيع الملح والتبغ استاء الناس من القيود الفلانية الصارمة وتذمروا منها، إذ كان كل مخالف يتعرض للعقاب الشديد الذي يصل - أحياناً - إلى الإعدام<sup>(٢)</sup>.

ولما بلغ الضيق أشده استنجد السكان بالبكاي، وكان بين الكنتيين وبين الفلان علاقات وطيدة تتعلق بالطريقة الصوفية، فهي التي مكنت البكاي من التفاوض مع الفلان وانتزاع الهدنة منهم<sup>(٣)</sup>.

ولما رأى الشباب المتمزتين استنجاب الأمور تحت نفوذ البكاي دخلوا في ثورة ضد ما يرونه احتلالاً لبلادهم. فما كان على الفلان في هذه الحالة - وهم يستوردون ملحهم من تمبكتو - إلا أن خزنوا من تلك المادة قدراً كبيراً يسد حاجتهم لمدة أربع سنوات ثم ضربوا حصاراً على المدينة قطع عن أهلها جميع الإمدادات الحيوية من مؤن وعروض تجارة حتى مسهم الضر وعانوا من الأمرين، فأسرع البكاي حينئذ وبطلب من أعيان المدينة إلى " حمد الله " ينشد المفاوضة، ونجح في عقد معاهدة جديدة بموجبها تدفع تمبكتو مقابل فك الحصار إتاوة سنوية لمانسا وتتقاسم معها إدارة المدينة. فهدأت المشكلات نسبياً إذ صارت تمبكتو تحكم نفسها بنفسها ويأتيها مؤنّها كالمعتاد<sup>(٤)</sup>.

وهكذا، فإن البكاي الذي كان يستنقل الوجود الفلاني في المدينة إلى جانبه أدرك أن من مصلحته أن يخفي نيته حتى يتجنب المشكلات قبل موآاة فرصة يتخلص فيها من سيطرتهم<sup>(٥)</sup>.

كما أن الطوارق ونبلاء المدينة اضطروا أيضاً إلى مهادنة الفلان ضماناً لاستقرار بلادهم والاستفادة من المصالح المرتبطة بالمملكة الفلانية التي أدركت بدورها أن الصلح خير لها من إثارة شيخ الطريقة الذي لا تشك في نواياه نحوها والذي بإمكانه أن يثير عليها القلاقل التي قد تفرط من حكمها. فهدأت الأمور نوعاً ما وظلت تسير على وتيرة من الحذر والترقب كل يحاول قدر الإمكان أن يحافظ على مكاسبه دون أن يثير الآخر<sup>(٥)</sup>.

(٩) مؤسس الطريقة القادرية هو الشيخ عبد القادر الجيلاني، نسبة إلى بلدة (جيلان) بالعراق. انتقلت طريقته إلى الجزائر والصحراء الكبرى. وأصبحت معظم قبائل عرب الصحراء قادرية خاصة بعد اعتناق مشايخ قبيلة كنده لهذه الطريقة، وطورها، وبدأوا بنشرها في السنغال ومالي والنيجر ونيجيريا. وقد استغل الأوروبيون هذه الطريقة في السيطرة على الصحراء. ينظر صحراء العرب الكبرى ص ١٩٩.

(١٠) تمبكتو، لجنة الإدماج ص ١٦٧.

(١١) دولة الدينا أو التنظيم السياسي لمانسا، ص ١٨٢.

(١) تمبكتو، لجنة الإدماج ص ١٦٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٦٨. وينظر كنده الشرقيون ص ٨٩.

(٣) المرجع السابق ص ١٦٨.

(٤) المرجع السابق ص ١٦٨. وينظر كنده الشرقيون ص ١٠٣.

(٥) المرجع السابق ص ١٦٨.

(٦) المرجع السابق ص ١٦٨. وينظر كنده الشرقيون ص ١٤٢.



وفيما كانت " حمد الله " بوصفها صاحبة القوة العسكرية القوية في المنطقة تفكر فيما تفعل، وصل إليها "بنا علي بن موزون ديارا " ملك سيقو بعد سقوط دولته، هارباً من وطأة بنادق وتسايح الفوتينيين. فكان لا بد، والحال هذه، أن يلقي جهاد الحاج في ماسنا وتمبكتو كليهما استقبالاً متمزناً ومجابهة عنيفة لا هوادة فيهما(٦). فأسرع أمير ماسنا " أحمد أحمد(٧) " إلى مصالحة البكاي، وكان من قبل يتجافى عن مكالمته لما كان يعاني من احتقاره له فتبادلا الرأي فيما ينبغي عمله حيال هذا العدو المشترك(٨).

لكن أحمد كان سيء الحظ عندما أخذ بمشورة البكاي الذي أوصاه في رسائله بمبادرة الحاج عمر بالهجوم قبل أن يتقوى عليه بالسيطرة على سيقو على موعده له بالدعاء والنصرة، فشن حرباً خاسرة ضد الحاج الذي لم يتهاون معه لموالاته أعداءه وتحالفه معهم في قتاله، فانهمز في معركة " كايال(١) "، واحتل الحاج عاصمة الفلان في شهر مايو سنة ١٨٦٢م(٢).  
٢- دولة التوكولور الفوتية(٣):

كان الحاج عمر تال(٤) الفوتي التجاني(٥) يطمح في إقامة إمبراطورية إسلامية كبيرة في غرب أفريقيا. فأعلن الجهاد المقدس فور عودته من الأراضي المقدسة عام ١٨٥٢ م قاصداً إلى إخضاع الشعوب السودانية الوثنية وتحويلها إلى أمة إسلامية قوية يواجه بها القوات الفرنسية المتحصنة في قلعة "مدين" بـ " كاي(٦) "، وفي حوزتهم الرشاشات ومدافع الهاون(٧).

فلم يتردد الحاج في محاصرة القلعة وشن العديد من الهجمات عليها، بل كاد أن يسقطها لولا انضمام "ديوكا سامبالا ديالو(٨)" بجيوشه إلى الفرنسيين، حيث شنوا على الحاج هجوماً من خلفه شاقين عليه جبهتين في آن ليجد نفسه محاصراً بين نارين لم يسلم منهما إلا بالتوجه نحو الشرق تلقاء عاصمة المملكة البامبارية

(٧) هو آخر أئمة دولة " دينا ". ولد في مدينة " حمد الله " سنة ١٨٣٣م. وهو ابن " أحمد سيكو " ابن " سيكو أحمد "، مؤسس الدولة. دفعت به الأزمة التي قامت بعد وفاة والده إلى الواجهة السياسية، على الرغم من صغر سنه، حين كان وقتئذ في العشرين من عمره، وكان الحد الأدنى لولوج المجلس هو سن الأربعين. وأدت به طموحاته السياسية إلى مواجهة الحاج عمر تال، فحاربه، لكن انهزم أمامه، وفقد سلطته، سنة ١٨٦٢م.  
(٨) سيدي عمار ولد علي، " أحمد البكاي "، مقال في الحضارة الإسلامية في مالي، ص ٢٦٦.

(١) اسم الموقع الذي وقعت فيه المعركة الفاصلة بين الحاج عمر وأحمد أحمد، حيث هزم الأخير وتم أسره.  
(٢) بنتو ساننكوا، " أحمد أحمد "، مقال في الحضارة الإسلامية، ص ١٨٣.  
(٣) فوتا اسم لمنطقة محاذية لنهر السنغال، يميناً ويساراً. ويطلق العرب عليها اسم تكرور، وعلى شعبها اسم التكارير. ويسميهم الولوف توكولور. وهو الاسم الشائع في غرب أفريقيا، وإن كانوا يسمون أنفسهم بهالبولار. وهم على الرغم من بعض الأقاويل، يعتبرون أنفسهم من العنصر الزنجي. وكلهم مسلمون منذ بداية دخول الإسلام في المنطقة. ينظر كنته الشرقيون ص ٩١.  
(٤) هو المجاهد السوداني الحاج عمر تال الفوتي. ولد في قرية حالوار بالسنغال الحالية.  
(٥) نسبة إلى الطريقة التجانية، التي أسسها أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار، المولود بالعين البيضاء بالجزائر عام ١١٥٠م. وانتقل إلى المغرب. ودرس هناك بفاس وتلمسان وحج إلى مكة ثم عاد لينشر طريقته، فكثر أتباعه في الصحراء وبلاد السنغال. وقد وقعت معارك طاحنة بين أتباع الطريقة التجانية والطريقة القادرية، وكل منها يكفر صاحبه، وينشر ضده القصائد الهجائية. وقد استغل الفرنسيون هذا الصراع فاستمالوا أتباع الطريقة القادرية إلى جانبهم لاحتلال الصحراء، ومحاربة التجانية، التي شهرت السلاح في وجههم، وقاومت بشدة توغلمهم في السودان. ومع ذلك فإن هذه الطرق الصوفية جميعاً في أفريقيا متشابهة، وتلتقي في الأصول، ولكنها تختلف اختلافات بسيطة لا قيمة لها، غير أن شيوعها يضيء كل منهم النقاء والاستقامة على طريقته، وينتقص بقية الطرق. ينظر صحراء العرب الكبرى ص ١٩٩.  
(٦) الإقليم الأول لجمهورية مالي الحديثة.  
(٧) عبد العزيز ديالو، " الحاج عمر تال "، مقال في الحضارة الإسلامية في مالي ص ١٧٨.  
(٨) ديوكا سامبالا ديالو هو أحد الأمراء المشركين، في منطقة كاي.  
(٩) الحاج عمر تال، ص ١٧٨. (١٠) كنته الشرقيون ص ١٠٥.

في "سيقو". فراح يُسقط في طريقه القرى واحدة تلو أخرى ليقيم فيها المساجد والمدارس مستخفاً في كل مدينة يستولي عليها أميراً وجنداً لحماية السلطة الإسلامية الجديدة ومنع أهلها من الردة تحت إغواء الأُمراء المغلوبين بإغراء من فرنسا وحلفائهم<sup>(٩)</sup>.

ويذهب بول مارتي إلى أنه كانت تكفي الحاج لو أنه تمكن من الاستمرار على السرعة والقوة اللتين كان يسير بهما في جهاده عشر سنوات فقط لإقامة أكبر إمبراطورية إسلامية بين أعالي نهر السنغال ونهر جولييا في القرن التاسع عشر الميلادي<sup>(١٠)</sup>.

لكن الفرنسيين مع حلفائهم من المواطنين ظلوا يضغطون عليه من خلفه كي لا يستقر الدين الجديد في القلوب الحديثة العهد أو يقر للحاج نفسه قرار في أي مكان يستولى عليه لكي لا يستوعب الناس دعوته جيداً. فدفعوه إلى الأمام حتى اصطدم بيامبارا واحتل عاصمتهم عام ١٨٥٢م، ثم اشتبك في النهاية مع فلان ماسنا واستولى على عاصمتهم " حمد الله " في سنة ١٨٦٢م، وأخيراً بجيوش الأَرما والسنغاي ليحتل مدينة تمبكتو في عام ١٨٦٣م<sup>(١١)</sup>.

ولما طلب وجهاء ماسنا في حمد الله النجدة من البكاي سارع في الاستجابة لهم، لأنه لم يكن ينتظر إلا مثل تلك اللحظات الحاسمة لإشهار السلاح في وجه الحاج عمر ومواجهة ذلك المجاهد الذي يريد أن يفرض طريقته على هذه المنطقة الخاضعة لسلطة القادرية. فبعد أن ظل يتردد في أخذ السلاح أعواماً كان طوالها يرسل الحاج دبلوماسياً ويثني على جهاده مطرباً إياه بجميل الأشعار التي كانت تتضمن معانٍ ساخرة بالحاج، وكان هذا الأخير يستشف منها مدحاً وذمماً معاً، ولذا لم يكن يثق بأقواله ولا يرد على رسائله إلا عن طريق معاونيه من الكتاب<sup>(١٢)</sup>.

ويذهب "مارتي" إلى أنه لم يحل عام ١٨٦١م حتى استعد البكاي عن لمواجهة الحاج فأصدر فتوى شديدة اللهجة يصفه فيها بالدجال وبالمارق المعتدي، مطالباً أحلافه بطرده من الأراضي الفلانية، ثم ما فتئ يتداول الأمر مع الفلان ويعبئ الجيوش لشن الهجوم على الحاج، بل استنفر عليه الإنجليز والفرنسيين حيث بعث إليهم سفراءه مقابل فتح ربوع البلاد الأفريقية لهم. فلما تباطأ عليه ردهم بهذا الخصوص أخذ يهيب جنده بنفسه<sup>(١٣)</sup>.

غير أن سلوك البكاي هذا لم يمض بدون مشاكل، إذ خرج بعض أفراد قبيلته عليه منكرين مواقفهم الحربية من الحاج وإقدامه على التحالف مع سيقو ضده مخالفة للشرع وموالاته لغير المسلمين. فانشقت عصا القبيلة الكنتية من يومئذ، وقد البكاي منذ ذلك الوقت السيطرة على جزء غير هين منها. لكن ذلك لم يلهه عن

(١) الحاج عمر، ص ١٧٨.

(٢) تمبكتو لجنة الإدماج ص ١٦٩.

(٣) أحمد البكاي ص ٢٦٤.

(٤) كنته الشرفيون ص ١٠٥.

(٥) كانت مدينة وثنية أيام الحاج عمر، واليوم هي مدينة سياحية تقع في سلسلة جبلية وراء ماسنا.

(٦) سكان مدينة باجنقارا، خليط من أعراق زنجية يشتركون في لغة واحدة.

خطه الحربية ورغبته في الانضمام إلى الفولبي. فسافر إلى "سوكوتو" مركز القادرية في "تيجيري"، طلباً للمدد. وأثناء غيابه احتل الفوتيون العاصمة الفلانية **حمد الله** ثم استولوا على **تمبكتو**. ولما عاد من رحلته لم ير بدأً من حشد جنوده من كنته والطوارق، ثم اتجه تلقاء **ماسنا** لتحرير عاصمتها من يد **الحاج عمر تال** بعد مقتل الأمير الشيخ "أحمد أحمد". فحاصرها لمدة ٩ أشهر لم يقع خلالها سوى مناوشات قليلة(٤).

عقب هذه المدة أصبحت الأوضاع لا تطاق في المدينة بسبب شدة الحصار، فقرر **الحاج** أن يذهب للقاء ابن أخيه "تيدياني أمادو" الذي كان قد بعثه أياماً قبل ذلك إلى سلسلة جبال "باجناقارا(٥)" لطلب المدد من جماعة "دوقون(٦)"، وفي جنح الليل أشعل النار في مخزن البارود، ما أحدث انفجاراً هائلاً وفوضى عارمة استغلها فرصة للهرب إلى مدينة "باجناقارا"، ولكن سكان المدينة أصابهم الفزع مما يمكن أن يصيبهم من جراء وجود

الحاج بين ظهرانيهم، ففضلوا إخفاءه في مغارة "دقيمبيري(١)"، بدلاً من إخفائه في البلدة نفسها خوفاً من الشبهة وتجنباً لأية حملة انتقامية. فتوفي **الحاج** هناك في اليوم الثالث عشر من شهر فبراير سنة ١٨٦٤م في ظروف مأساوية غامضة لم تتضح حتى اليوم. فيما يروج البعض أن وفاته كانت بسبب انفجار في المغارة، ولقي معه المصير نفسه أبنائه الثلاثة(٢).

لكن التحالف الكنتي - الفولاني لم يصمد بعد هزيمة **الحاج عمر** وانكشاف الغمة، لأن **البكاي** لما طالب الفلان بإنجاز الوعود التي كان قد قطعوها له نكثوا على أعقابهم وقلبوا له ظهر المجن. فانحل التحالف وانقسموا فيما بينهم ثم دخلوا في حرب لا هوادة فيها(٣).

وفي هذه اللحظات من صراع حليفي الأمس وصل **تيدياني أمادو** بجيوشه فهزم جموع الكنتيين والفلان معاً وأعاد السيطرة على "حمد الله" من جديد، وأقام انطلاقاً منها امبراطورية **التوكلور** التي استمرت حتى استيلاء الفرنسيين على كل أراضي جمهورية مالي في ١٨٩٣م تاريخ انتهائهم من غزو **تمبكتو**(٤).

٣٨

(١) المغارة التي اختفى فيها **الحاج** أثناء هروبه أمام جيوش الفلان وكنته.  
(٢) إبراهيم باري، "تيدياني أمادو"، مقال في الحضارة الإسلامية في مالي ص ٢٠٥.  
(٣) المرجع السابق ص ٢٠٦. وينظر كنته الشرقيون ص ١٠٦.  
(٤) المرجع السابق ص ٢٠٦.

الفصل الأول  
الحركة الأدبية في تمبكتو

## • مدخل:

تجمع المصادر على أن العلماء والفقهاء الذين تخرجوا في المدارس التمبكتية اشتهروا بالتبحر في العلوم الإسلامية واللغة العربية وآدابها وتملكوا منها النواصي، حتى تكونت لدى معظمهم — إضافة إلى عروبة بعضهم — سليقة عربية وسجية أدبية، غدا بها أكثرهم على عجمتهم وبعدهم عن الجزيرة العربية — مهد الإسلام واللغة العربية وآدابها — كأنهم عرب أقحاح، جاءت بهم الصدفة إلى هذه الأراضي النائية<sup>(١)</sup>. فصاروا يؤلفون في شتى الموضوعات الدينية واللغوية والأدبية. وقد بلغ بعضهم من النضج الفكري والأدبي أن أصبحوا ينشئون رسائلهم الشخصية بالقصائد والأشعار، وهم يرون من يعجز عن مثل ذلك الإبداع الفني من الزعانف الذين لم يبلغوا الحلم ولم يلحقوا بعد بشأو العلماء الأجلاء<sup>(٢)</sup>.

غير أن المتأمل في النصوص الأدبية التي وردت من عهود مبكرة انطلاقاً من العهد السنغي إلى العهد الباشوي المغربي ولا عبرة بالعهود التي سبقتها لعدم وصول شيء منها إلينا يلاحظ فيها ضعفاً عرويضياً وركاكة تعبيرية ينأى بها عن الشعر الجميل الذي يعتد به النقاد عادة<sup>(٣)</sup>. ولعل ذلك ما حدا بالدكتور ميغا إلى القول: إن السودان الغربي ليس فيه شعراء مستقلون يقرضون الشعر العربي كما موجود في المشرق الإسلامي والأندلس، وإنما كان العلماء والفقهاء هم القائمون بدور الشعراء، لأنهم الذين أجادوا اللغة العربية وتدوقوا سحرها وبلاغتها وأسرارها، فاتخذوها أداة للتعبير عن مشاعرهم وما يجيش في صدورهم من معان<sup>(٤)</sup>.

وخير دليل على ذلك هذه الأبيات المأثورة عن العالم السوداني الكبير أحمد بابا بيت في حنينه إلى وطنه، انطلاقاً من منفاه في مراكش المغرب<sup>(٥)</sup>:

أيا قاصداً كاغو فعج نحو بلدتي  
وزمزم لهم باسمي وبلغ أحبتي

٣٩

(١) أزواد أو صحراء التينيري، ص ١٠٥.

(٢) المرجع السابق ص ٢١٤.

(٣) بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ص ٥٤٤.

(٤) أبوبكر إسماعيل ميغا، " الحركة العلمية في السودان الغربي "، ص ٢٣٦.

(٥) بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ص ٥٤٤.

(٦) د. محمد سعيد الفشاط، " من نقائض الشعراء العرب في الصحراء "، دار الملتقى للطباعة والنشر، طبعة ١، بيروت، لبنان ١٩٩٦ ص ١٩.

سلاماً عطيراً من غريب وشائق  
وعندي أقارب هناك أعزّة  
وشبان بيتي سارعوا عن أخيرهم  
فوا أسفاً منهم وحزني عليهم  
إلى وطن الأحباب رهطي وجيرتي  
على السادة الأولى دفنت بغربتي  
إلى ملك الأملاك في وقت غربتي  
فيارب فارحمهم بوسع رحمة

لكن النهضة الأدبية الحقيقية إنما كانت في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي على أيدي شعراء القبائل العربية الكبيرة والمشهورة التي كانت تسكن صحراء تمبكتو من طوارق وأنصار وكنته ومن تتلمذ على أيديهم<sup>(١)</sup>.

ففي هذا العصر نبغ شعراء كثيرون لمعت أسماؤهم فشرقت وغربت، وكان من أبرزهم: الشيخ سيدي المختار الكبير الكنتي (١٧٢٩م - ١٨١١م)، والشيخ سيدي محمد المختار الكنتي (١٧٦٥م/١٨٢٦م)، والشيخ سيدي أحمد البكاي الكنتي (١٨٠٣م/١٨٦٥م)<sup>(٢)</sup>، والشيخ أحمد سالم بن السالك الطارقي<sup>(٣)</sup>، والشيخ (هم) محمد بن الطاهر الأنصاري<sup>(٤)</sup>، والشيخ محمد المختار بن حود الأنصاري<sup>(٥)</sup>. وكلهم شعراء أفذاذ كانت لهم صولات وجولات في العديد من أبواب الشعر العربي لا يسع الواقف عليها إلا أن يعترف بنبوغهم وبراعتهم في الأدب ومجالاته المتعددة على الرغم من أنها أنتجت في بيئات أعجمية لا ينطق سكانها باللغة العربية ولا يتذوقون آدابها أصالة<sup>(٥)</sup>.

وقد تعاصر بعضهم وتزامنت عهوده حتى إنهم من أجل المنافسات القبلية والمصالح الفردية لم يسلموا - أحياناً - من التناطح فيما بينهم، كما حدث بين البكاي وبين كل من أحمد سالم وشاعري الأنصار محمد (هم) بن الطاهر، ومحمد المختار بن حود. لقد اشتبكوا في صراعات حادة لا هودة فيها استمرت سنوات بعد أن تركوا آثاراً أدبية تمثل جزءاً مهماً من الثقافة المحلية المكتوبة باللغة العربية. لكن تلك الحروب اندثرت آثارها اليوم بزوال أسبابها واندمجت قبائلهم جميعاً تحت حكم موحد هو دولة مالي الحديثة<sup>(٦)</sup>.

فلا غرو إن كان تعلقهم بالشعر وبعروضه الخليلي كبيراً وعدوه مجالاً رحباً وميداناً واسعاً لحمل أفكارهم وحفظ تراثهم الذي كانوا يسعون إلى ترسيخه في الأذهان وتثبيتته في العقول. فقد كانوا يتعشقون قول الشعر ويطربون لترنيمه، كما أنهم كانوا يتحرقون إلى تلقيه وسماعه ويتشوقون إلى حفظه وتلقيه كأنما يخافون ضياعه أو يجدون في انتمائهم إليه فخراً<sup>(٧)</sup>.

(١) من نقائض الشعراء العرب في الصحراء ص ١٩.  
(٢) د. محمود عبده زبير، "التراث المكتوب"، مقال في الحضارة الإسلامية في مالي ص ٣٣١، ٣٣٢.  
(٣) من نقائض الشعراء العرب في الصحراء ص ١٩.  
(٤) المرجع السابق ص ٢١.  
(٥) المرجع السابق ص ٢٢.  
(٦) المرجع السابق ص ٩.  
(٧) المرجع السابق ص ٩.  
(٨) المرجع السابق ص ٩.

ولأجل هذا الدافع نفسه، كانوا يميلون إلى كتابة موضوعات من العلوم الدينية، والفنون اللغوية شعراً، فنظموا بعضها رجزاً، في عبارات موجزة، خالية من الزخرفة اللفظية، والتميق البياني، كمنظومات الفقه، والسنن، والنحو، وقواعد اللغة؛ ليسهل حفظها، ويتشوق الدارسون إليها، بعد أن لخصها النظم، وخفف من جفافها(٨).

أما الشعر الغنائي بعواطفه الجياشة ومشاعره الفياضة كما يمثله البكاي وأقرانه من مديح وغزل وهجاء وفخر، ورتاء، إضافة إلى الأغراض الصوفية التي طغت لدى بعضهم على الموضوعات الشعرية المألوفة بصورة كادت أن تجعل الأدب التمبكتي يظهر في مظهر الشعر الديني الخالص فإنه قد حفل بالعديد من القصائد الطوال والأبيات الرقاق شاءت الخصائص الفنية أن تخلدها لما توافر فيها من ميزات فنية وخصائص أسلوبية، جعلت فوائدها لا تتدثر مع الزمن وقيمتها لا تزول مع البعد(١).

ويلاحظ في آثار العلماء هنا أيضاً - كشأن نظرائهم في كل بيئة علمية ووسط فكري - أنهم دأبوا على التنافس والتبارز بالقصائد عن طريق المراسلات بالخطابات والأجوبة كل يحاول إظهار ما عنده من قدرة لغوية، وموهبة فنية ويسعى إلى أن يشهد له بالعلبة والتفوق، لما يترتب على ذلك من مكانة وتقدير ينشدها كل عالم أو فقيه(٢).

لقد كان الكثير من تلك المنافسات يتطور - في بعض الحالات - إلى نزاعات قبلية تزرع الأحقاد وتؤدي إلى مناوشات أو حروب. فلا يحفل الجانب المضطغن بالدلائل والبراهين التي تدحض مواقفه. فينساق وراء أفكاره تعنتاً وتعصباً ويستمر على الخطأ تكبراً وتعسفاً كما كان الحال بين البكاي مع معاصريه المنافسين له، محمد (هم) الأنصاري، ومحمد المختار بن حود، وأحمد سالم، ومحمد أحمد عبد الله أكنسوس، والحاج عمر تال، وبين هذا الأخير وأحمد أحمد أمير ماسنا، ولا شك أنهم لم يكونوا كلهم على حق في مواقفهم أو صادقين في وجهات نظرهم. ومع ذلك استمر الخلاف بينهم واحتدم الجدل كل يدعي صحة مذهبه دون اعتراف بالخطأ(٣).

غير أن ما تجدر الإشارة إليه هو أن البكاي - بشهادة المؤرخين - كان عميد هذا الأدب وزعيمه غير المنازع. إذ استطاع بحيويته الأدبية أن يؤثر تأثيراً ملحوظاً على مجريات الأمور في المنطقة، حرك روحها الأدبية وفجر طاقاتها الكامنة. فجادت القرائح بالعديد من الأشعار رقت بالذوق الأدبي العام لتوصله إلى أقصى مدارك الإنتاج والإبداع أعادت لتمبكتو شيئاً من مجدها الفكري وبريقها الأدبي بعد أن تدهورا بسبب الغزو المغربي السعدي الذي أغرقها في ظلام الجهل والركود الذهني لمدة قرنين متواليين(٤).

(١) صحراء العرب الكبرى ص ١٥٣.

(٢) المرجع السابق ص ٢٢.

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٨.

(٤) أزواد أو صحراء التينيري ص ١٠٦.

### • عوامل ازدهار الأدب التمبكتي:

إن موجة الاضطرابات والفوضى السياسية التي اجتاحت المنطقة السودانية في عهد البكاي، وما نجم عنها، من تعقيدات اجتماعية وعدم استقرار أمني، تمخضت عنها حروب أهلية دامية طوال منتصف القرن التاسع عشر الميلادي هي التي انعكست عنها تلك المؤثرات الثقافية والفكرية التي كانت حافزة، لبعث الأدب التمبكتي سواءً في الشعر أو في المكاتبات وفن الرسائل التي ازدهرت بين البكاي وأقرانه من علماء وسلاطين عصره اقتضتها ظروف المشاحنات والحاجة إلى توضيح المواقف أو الدفاع عن المصالح.

ولعل تلك الأحداث السياسية والاجتماعية التي ألهمت المنطقة وتأججت بسببها نيران الحروب الأهلية حدثت إلى تحرير العديد من الرسائل والمكاتبات النثرية، ومن أبرز تلك الأحداث توسع الطريقة التجانية بقيام الحركة العمرية وتوغلها في أعماق السودان الغربي حتى اجتاحت مدينة تمبكتو معقل الطريقة القادرية التي يترجمها البكاي.

لقد كانت المنطقة أيامها منقسمة إلى شيع كل يدعى الأحقية في قيادتها ابتداءً من المستعمر الفرنسي الذي بدأ في الزحف من سان لويس بالسنغال واسقر في قلعة " مدينا " في مدينة " كاي " بمالي، وحركة الجهاد العمرية من الغرب بزعامه الحاج عمر الفوتي، والمملكة البمبارية في الوسط في " سيقو " ، بزعامه "بنا علي"، والسلطنة الفلانية في ماسنا في وادي النيجير بزعامه أحمد بن أحمد، ثم الأسرة الكنتية في تمبكتو بزعامه الشيخ سيدي أحمد البكاي كنته، و أخيراً الطوارق في الشمال . فكانت لتلك العوامل السياسية كلها أثرها الواضح في تأجج أوار الفتنة واتساع هوة الفرقة والشقاق بين شعوب المنطقة، وهو ما لم يغيب صداه وتداعياته عن أدب ذلك الوقت.

لقد كانت تلك الصراعات والمشاحنات الإقليمية- بحق - مصدر إلهام للعديد من الكتاب وحافزاً قوياً للبكاي خاصة الذي كان يرى - بوصفه زعيماً للطائفة القادرية - ضرورة الوقوف أمام الزحف التجاني باتخاذ كافة الوسائل لصدّه ومنعه من الوصول إلى عاصمته المقدسة(٥). فراح يحبر الرسائل و يحرر الخطابات مستهدفاً منها تعبئة جيوشه وإشعال الأرض تحت أقدام التجانية وجيوشها . وقد تضمنت تلك الرسائل مجمل آرائه وأفكاره الدينية أي الصوفية التي كرس كل جهوده الأدبية والسياسية للدفاع عنها والترويج لها. ولذلك راجت المراسلات الأدبية لديه وبلغت ذروتها من العمق والجدية، وذلك بسبب محبته الشديدة لمذهبه



القادري والذي تجلت فيه ملامح الانفعال والغضب الطاعين بصورة اتخذت في النهاية طابع العنف والقوة وأدت إلى اشتباكه مع أكبر قواد الجهاد الإسلامي وأعظم رواد حركة المقاومة الوطنية ضد الاستعمار. ولربما أمكننا أن نلاحظ أن الطرق الصوفية على الرغم من إنكارنا الشديد لها بوصفها بدعة مذمومة كانت عنصراً مهماً في نشر الإسلام والتعليم العربي في السودان الغربي، كما أنها كانت عاملاً حاسماً ومباشراً في إحياء الحركة الأدبية وراقيها وتطورها في تلك البلاد، إذ إنها أمدت هذه الحركة بالأفكار والموضوعات الحية التي استلهمت من الواقع المضطرب الذي كان يعيشه السودان الغربي في ذلك العهد، وكان لها صداها الواضح في أدب الرسائل عند البكاي وبشكل كاد أن ينسيه سائر موضوعات الحياة إلا قليلاً.

### المبحث الأول

#### • مظاهر الشعر التمبكتي:

سجل الشعر التمبكتي جميع مظاهر الحياة الاجتماعية والنفسية في الصحراء كمواضيع العشق والغرام والحرب والبطولة ومظاهر البداوة والمصائب التي تنتاب المنطقة بين الفنية والأخرى وغيرها من الموضوعات التي تناولها بكثرة وفي قصائد مطولة يصل بعضها إلى المائة بيت أو يزيد حتى يشبه الملحمة الشعرية مما يصعب استيعابها أو جمعها كلامية البكاي في الهجاء<sup>(١)</sup>.

والتي يقول في مطلعها:

وسنان من طول السرى في الهوجل	طرفت نفيسة والدجى لم ينجل
فأرقت لا للعارض المتهلل	باتت تمثلها لعيني طيفها
قرشية من الطراز الأول	غيداء كنتاوية أموية
فأب إلى عدنان غير مضلل	لكن من المنتي ينميها أب

ويستمر الشاعر يتحدث عن محبوبته (نفيسة) الكنتاوية التي يرجع نسبها إلى بني أمية من قريش، ثم

ينتقل إلى وصفها:

فأهيم منها في خواي بهولة	جملاء في أنف الشباب الأجل
خرعوبة رعبوبة بهنانة	وهنانة نفج الحقيبة عيطل
رود بخنداة رداح خدلم	خود برخداة أناة عطيل
لعب الهوى بجونحي وجوارحي	ما بين مبتسم لها ومقبل
فيه شفاء الصب من برحائه	وحياة قلب بالغرام مقتل <sup>٢</sup>

ويستمر يصف حبيبته إلى أن يصل إلى الصحراء التي تفصله عنها، فيصفها بألفاظ حوشية وخشنة

تذكر بالشعر الجاهلي، حيث يقول:<sup>٣</sup>

(١) القشاط، "صحراء العرب الكبرى" ص ٢٢٠.

أضحت نفيسة دونها كم ننفف  
وصحاصح ووصافصف وفدافد  
تتقطع الآمال حسرى دونها  
وبعد ذلك ينتقل إلى وصف ناقته التي يقول فيها:

حرف سبنداة سناد حرة  
وما قرب الأحباب والحاجات ما  
يا حسن مسراها على قولي لها  
حتي تجيئي إلى نفيسة إنها  
ومعود أجد الفقار مبتل  
بعدت بإذن الله مثل البزل  
ياناقة اخدي بي خدي بي فارقلي  
ألمي وجمع هواي عند تألمي

ويرجع إلى وصف حبيبته في مجموعة من الأبيات، ولا يخلص إلى موضوعه إلا بعد قرابة سبعين بيت، يستهله بالسخرية من المهجو الذي يفخر بشد الإزار عن محبوبته استعداداً للحرب، وهو علامة جبن في نظر الشاعر.

إن امرأ ينسى الهوى ينسى الوغى  
عقد الإزار للحروب يشدها  
هلا يشد إزاره عن أكلة  
هو للحبوب وللطعام بمنزل  
شغلا بهمي مشرب ومأكل  
دون النساء فدهرها لم تحلل  
أو شربة في دركها لا يأتلي  
وعن الحبائب والوصال بمعزل  
ثم ينتقل إلى وصف المعارك كان النصر فيها لقومه.

وفي قصيدة أخرى يعير قبائل الطوارق بأنهم من قوم جالوت فيقول(١):

كفوا عن الحرب لستم أهلها أنبي  
جالوت والتزموا المحراث والبقرا

فهو يعيرهم بالزراعة وبتربية البقر. مع أن الطوارق في أغلبهم صيادون ورعاة ولا يمارسون الزراعة إلا إذا سكنوا في المواطن الزراعية وقليل ما هم . وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على احتقار البكاي للأعمال الشريفة التي يعد الزراعة من أهمها. وليست الزراعة وخاصة في البيئة السودانية عيباً يخجل منها الناس أو ينفرون ممن يمارسونها.

وقد عارضه شاعر الأنصار محمد المختار بن حود في قصيدة قال في مطلعها(٢):

اخساً أيا كلب من حي القوين ومن  
ينسب لقين فبئس المرء إذ خسرا

فهو يعيره بأنه ابن قين، وهو نفس العيب الذي يعير به الفرزدق جريراً في نقائضه.

ويقول الشاعر الأنصاري الآخر محمد(هم) بن الطاهر مفتخراً بنسبه إلى الأنصار ويفخر بيوم بدر

ويهجو كنته الذين هممن أمية ويقول إنهم كانوا جند الكفر يوم بدر(٣):

ألا بلغ إلى المتمردينا  
بني الكنتي وغد الأوغدينا

(٢) أزواد أو صحراء التينيري ص ١٠٦.

أما في التصوف فهناك مئات القصائد في التضرع إلى الله والابتهال إليه والثناء عليه والدعاء لجلب الخيرات والمنافع وتخفيف الويلات وإزالة المشكلات وفي امتداح الطريقة القادرية خاصة عند شعراء كنته، بما أن تمبكتو مهد هذه الطريقة ومركزها في السودان الغربي، كقصيدة المختار التي يعدد فيها مشايخ الطريقة ويمدحهم.

ومما أجمع هذه العاطفة الصوفية في شعر المنطقة جهاد الحاج عمر تال الفوتي ومحاولته فرض التجانية على أهلها(١).

وللبكاي العديد من القصائد في ذكر الله تعالي وطلب العون منه وفي مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والتوسل به. بعضها وجدت مكانة عظيمة في قلوب أهل. فهم ما يزالون ينشدونها في المناسبات الدينية، وخاصة في الاحتفال بمولد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم. وأشهر تلك القصائد لاميته التي جاءت في (١٣٢ بيتاً). ومطلعها:

يا صاح عج بالجمال	على الربوع البوالي
ديار سلمى قديماً	من الليالي الخوالي
غيداء جيداء رود	كالشمس عند الزوال

وما زال التمبكتيون إلي اليوم ينظرون إلى هذه القصيدة بعين الإجلال والتقدير حيث يرددونها مع بعض القصائد الأخرى في الدعاء والابتهال بمناسبة الاحتفال بالأعياد الدينية(٢).

ومنها يائيته المشهورة التي يقال إنه قالها عند اشتداد الحرب بينه وبين الحاج عمر على أبواب مدينة "حمد الله" عاصمة "ماسنا" يطلب فيها العون والنصر من الله عز وجل والاستجارة به سبحانه، يقول(٣):

دعوتك يا من لا يخيب داعياً	وجئت إلى أبواب فضلك ساعياً
وما خاب من يدعوك يا من لوعده	وعن أمره يدعوه من كان داعياً
وأنت لمطلوبي تعاليت واسع	قدير عليه عالم بسؤالياً

وتستمر القصيدة على هذا المنوال مائة بيت، كلها في ذكر الله تعالي والتسبيح بفضله وعزته وقدرته - جل شأنه.

(٢) المرجع السابق ص ١٠٧. وانظر له "أعلام من الصحراء" ص ٢١.  
(٣) أزواد أو صحراء التينيري" ص ١٠٧.

(١) أحمد البكاي ص ٢٦٥.

(٢) أزواد أو صحراء التينيري ص ١١٧.

(٣) المرجع السابق ص ١١٧.

(٤) أحد شعراء الفلان اشتهر بلقب (سيكو بيركوي تالفي) ومعناه في اللغة المحلية: "الذي يحميه الله". وذلك أنه ولد أعرج. لكنه بالرغم من أنه كان آية في الذكاء والفطنة. وكان عالماً كبيراً له العديد من المؤلفات والأشعار. وكان سريعاً في مشيئته لذلك أسند إليه حمل البريد من حمد الله إلى المدن الأخرى. وكان يقطع المسافات وهو يرتل القرآن الكريم دون تعجل في القراءة. وكان عزيز العلم متواضعاً لا يظهر تفوقه. وبشوشاً لا يبدي الغضب أو نفاذ الصبر إزاء أحد. لحق بالحاج عمر ووضع نفسه رهن إشارته. وتعرف الحاج عمر فوراً على خصاله الحميدة فجعله موطن سره، ولم يعد يخوض معركة قبل أن يستشير مريره المخلص. ولما تدخل ابكاي في حرب الفلان ضد شيخه الحاج عمر تال ألف في انتقاده كتيباً شديداً اللهجة والانتقاص سماه "تبكيت البكاي" وللأسف لم نعثر عليه. انظر ترجمته لأمامي مالك باتارا في الحضارة الإسلامية ص ٢٥٣-٢٥٥.

(٥) أزواد أو صحراء التينيري ص ١١١.

ولما نظم الشاعر الفلاني (حمدون بلكو) (٤) قصيدة يمجّد فيها طريقتهم التجانية قائلاً (٥):

قدماه فوق رقاب كل الأولياء في الكون حتي الكامل الجيلاني

ولم يكن البكاي ليتساهل مع مثل هذه الانتقادات. فرد عليه الشيخ ذاماً تلك الطريقة هاجياً أتباعها في قصيدة مطولة. قال في ثناياها:

قدماه في دنياه كيف تكون فو ق الساكنين بجنة الرضوان

ماقلت ما قد قلت عنه تنقصاً لكن لرد الكذب من فلاني

• سمات الشعر التمبكتي:

يمكننا أن نلاحظ من خلال النماذج المتقدمة أن الشعر التمبكتي - في أغلبه - تقليدي يعتمد على محاكاة الشعر الجاهلي في فنونه وأغراضه وفي تشبيهاته وإيراد حوشي اللفظ وغريبه كخوضه في الغزل والهجاء والفخر والمدح واستخدام الكثير من المفردات القديمة.

وأورد القشاطر العديد من نماذج الشعراء التي يرجع أكثرها إلى العقود المتأخرة ذاهباً إلى أنهم كانوا حريصين على افتتاح قصائدهم بالنسيب أو البكاء على الأطلال والوقوف عليها، وأنهم بعد أن يستغرقوا في وصف المحبوبة وانتجاعها وارتحالها، يصفون المطية التي يركبونها للوصول إلى ديار المحبوبة، ثم يشرعون في مساءلة الأماكن والآبار والطرق ومخاطبة الرفيق في الرحلة ومراعاة النجوم والقمر وسهر الليل ومساءلة الصباح وتشبيه المحبوبة بالغزال والمهابة وأنها تمشي الهويني كما يمشي الوجي الوحل وأنها نؤومة الضحي إلى غير ذلك من الوصف الجاهلي للمرأة (١).

ومن سمات هذا الأدب أنه معد للعلماء ولكل من هو راسخ في اللغة العربية، إذ كثيراً ما يكتب أصحاب القلم، بعضهم لبعض ويرسل بعضهم إلى بعض رقاعاً يتبارون فيها بالشعر. فهو في الأغلب عرضة لأتباعهم وتلاميذهم وطلابهم قبل كل شيء، وإن لم يكن كلهم على فهم عميق باللغة العربية بله الآخرين الأعجمين. غير أن أهل القلم مطمئنون إلى من حولهم من الأدباء أو إلى بعض طلابهم الذين قد يتباهون بنفسير مآثراتهم للجهال أثناء الحفلات الدينية أو في المدارس.

ومن سمات هذا الأدب أيضاً أنه يعكس الحياة الاجتماعية وأحوال الأدباء في تمبكتو وما انطبوعوا عليه من قيم ومشاعر باطنية وحسد تبرز ما انجبلوا عليه من البداوة والإحساس بضرورة الوفاء للقبيلة والدفاع عن الشرف والحرمات في بذل وتفان متأصلة في أعماق التراث السوداني في غرب أفريقيا. ولعل لامية البكاي التي يرى القشاطر أنها قد بلغت في الروايات الشعبية (٧٠٠) سبع مائة بيت (٢)، خير نموذج يثبت أن الشعر التمبكتي جاء على نمط الشعر الجاهلي وسار على نهجه في شتى أوجهه الموضوعية والفنية.

وبناءً على ذلك يمكننا القول: إن أدب هذا العصر كان وليد الحياة ونبت البيئة فرضته الظروف السياسية والاجتماعية التي عكسها صورة واضحة وواقعية حياً في كل أبعاده وملابساته، ما يجعلنا نعد هذا

الأدب تراثاً مهماً ذا قيمة تاريخية وفنية أصيلة عكس طبيعة الحياة التمبكتية، إذ عرض الكثير من الأحداث والأمر الصعبة التي انتظمت أرجاء المنطقة.

٤٧

## المبحث الثاني

أبرز شعراء تمبكتو الذين كان لهم صلة بالبكاي

أولاً: الشيخ أحمد سالم بن السالك

### • حياته:

من قبيلة أدوالحاج وهي إحدى القبائل الطارقية التي سكنت في الصحراء الكبرى في منطقة شنقيط، وتفرعت منها بطون قطن جزء منها بمنطقة تمبكتو، وإليهم ينتسب الشاعر أحمد سالم بن السالك. (١) ولكن المصادر التي استقينا منها هذه الترجمة الموجزة لم تسعنا في معرفة تاريخ ميلاده. إلا أنه من علماء القرن التاسع عشر الميلادي. وذهب القشاطر إلى أنه توفي في عام (١٢٧٨هـ) بعد أن تقدمت به السن. (٢) ما يدل على أن الشاعر رغم جودة عمله وانتشار العديد من قصائده لم ينل حظاً كبيراً في التعريف به ولا بأعماله الأدبية.

ومما لا شك فيه أنه كان عالماً ولغوياً وأديباً معروفاً بالصلاح والفضل موصوفاً بجميل الشمائل والأخلاق. اشتهر بذكائه وتفوقه مبكراً في علوم اللغة والدين، وتكونت لديه سليفة عربية قوية وفصاحة أدبية صارت له سجية وطبعاً (٣). ومن كمال عقله وعلمه أنه كانت له محاضرة (مدرسة) كبيرة كانت سبباً في شهرته والتحاق العديد من طلبة العلم من جنسيات متعددة بخيامه (٤). وكان إضافة إلى ذلك فارساً بأسلاً ومحارباً شجاعاً، قاد فرسان قومه في حروبهم ضد كنته، فكان محل الثقة وموضع الأمل الذي استحق به زعامة القبيلة، وصار بها صاحب الكلمة المسموعة فيها (٥). وكان إلى جانب تبحره في العلوم الشرعية والفنون اللغوية بحراً زاخراً في الشعر متفنناً في قواعد العروض والقافية. فكان لسان قومه الذي نافح عنهم حيث تعرض للبكاي شاعر كنته فهجاه بأقذع الأبيات (٦).<sup>٤٩</sup>

- 
- (١) صحراء العرب الكبرى ص ٢١٤.
  - (٢) من نقائض الشعراء العرب في الصحراء ص ١٩.
  - (٣) من نقائض الشعراء العرب في الصحراء ص ١٧.
  - (٤) المرجع السابق ص ١٧.
  - (٥) أزواد أو صحراء التينيري ص ١٦٥.
  - (٦) أعلام من الصحراء ص ٣٣.
  - (٧) من نقائض الشعراء العرب في الصحراء ص ١٧.
  - (٨) المرجع السابق ص ١٧، وينظر أزواد أو صحراء التينيري ص ١٦٥.
  - (٩) أعلام من الصحراء ص ٣٢.
  - (١٠) أزواد أو صحراء التينيري ص ١٦٥.

• نماذج من شعره: (٧)

يذهب القشاطر إلى أن لأحمد سالم مجموعة كبيرة من القصائد، إلا أنها- مع الأسف - لم تجمع في ديوان شعري خاص به. وأنه لم يصل إلينا من تلك القصائد، بل ومن سائر أعماله الأدبية، سوى ثلاث قصائد في هجاء كنته، اشتملت على خصائص الأدب الجاهلي<sup>(٨)</sup>. وأجملها قصيدته اللامية التي رثى فيها أخاه ماجداً أو الخاشع الذي سقط في معركة البوسيفية الثانية وهي إحدى حروبهم الدامية مع كنته. ويبلغ عدد أبيات هذه القصيدة مائة وتسعة وعشرين بيتاً. وفيها يتحدث عن هزيمتهم في المعركة ويتوجع لموت أخيه ذاكراً إياه بما يستحقه من مديح، ووصف بالشجاعة حاجياً فيها كنته هجاءً لاذعاً. يقول في مرثيته التي في نحو مائة وعشرين بيتاً انتهج فيها نهج الجاهليين في جزيرة العرب قبل الإسلام<sup>(٩)</sup>:

أرقت لبرق العارض المتهلل عيناك فانهمتا بدع مسبل

أحسبته لمعان بارق ثغر من تهوى فبت بحسرة وتلمل

ولما رد عليه البكاي مناقضة هجاه في قصيدة ثانية أكثر سخرية وتهكماً يرد فيها الاعتبار لقومه، ويسب البكاي بألفاظ جارحة يحملها ضعة المهجو وتعريه من هالة المجد التي تحيط بشخصيته<sup>(١٠)</sup> استهل القصيدة بقوله:

تبلت فؤادك زينب بدلالها وبهجراها وبضنها ونوالها

حسنا قد برعت وراقت نضرة ما بين أخمص رجلها وقذالها

حوراء خافرة غضيض طرفها تسبي الفؤاد بغنجها ودلالها

قنواء في شمم أسيل خدها لمياء في لعس تصيد بخالها

ويمضي في وصف محبوبته وصفاً تقليدياً ورثه عن الشعر الجاهلي شعرها وعينها وقوامها وأناملها وعكنا وأردافها جماء المفاصل إلى غير ذلك من الوصف الحسي، فيقول<sup>(١١)</sup>:

وبريق وجنتها وبارق ثغرها وبجبهة كالشمس قبل زوالها

ويواصل في الغزل على طريقة شعراء الجاهلية حتى ينتقل إلى الفخر، حيث يقول:

وسلي أميمة إن جهلت مكانتي عني العدا هل خمت عن أبطالها

ويستمر في فخره بنفسه وأنه الشجاع الذي لا تلين قناته ولا يرهب الحرب ويرجع الفرسان على أعقابها بالطعن<sup>(١٢)</sup>:

وأنا الذي شهدت كنانة بأسه وأنا المعد لغيظها ونكالها

(١) أزواد أو صحراء التينيري ص ١٠٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٠٨.

(٣) المرجع السابق ص ١٠٨.

(٤) أعلام من الصحراء ص ٣٢.

(٥) أزواد أو صحراء التينيري ص ١٠٩.

(٦) أعلام من الصحراء ص ٣٢.

وبعد أكثر من نصف القصيدة يخلص إلى غرضه وما يقصده من هجاء كئنته وتوعدهم فيعرج إلى مطلع قصيدة البكاي الذي يذكر فيها نفيسة فيتندر عليه متخذاً من اسمه مدخلاً يدعوهُ إلى البكاء والانتحاب مع النسوة بقوله: اذهب و(انفس) أي (لد) مع النوافس ومع نفيسة<sup>(٥)</sup> فيقول<sup>(٦)</sup>:

موتوا بغيطكم كناية إنني      أنا ذاكم مردي العدا بنبالها  
فليبيكين مع البواكي حاسرا      بكاؤهن ويجلسن بخلالها  
أو ينفسن كنفيسة ونسائها      إذ لم ينفس من عظيم وبالها

ثانياً: الشيخ محمد (هم) بن الطاهر الأنصاري

• حياته:

هو محمد (هم) بن محمد المختار الأنصاري الخزرجي. وينتمي إلى قبيلة الأنصار شمالي تمبكتو، القائلين إن جدهم معاذ بن جبل<sup>(١)</sup>، وإنهم نزحوا من المدينة المنورة أيام فتنة علي ومعاوية تجنباً للحرب والخوض فيها. كما جاءت مجموعات أخرى منهم جاءت مع الفتوحات الأولى واستقرت بالصحراء في تمبكتو وما حولها<sup>(٢)</sup>.

لم يعثر على تاريخ مولده بالتحديد غير أنه كان معاصراً للبكاي في القرن التاسع عشر الميلادي ووقعت بينهما مهاجات شعرية في المناقحة عن قبيلتيهما. كما أنه كان قاضياً أيام السيطرة الماسنية على تمبكتو في أول عهودها<sup>(٣)</sup>.

نشأ في بحبوحة من العيش إذ كان أبوه شيخ القبيلة ورئيسها. فترعرع بين العلماء وطلبة العلم. ما أتاح له أن يحفظ القرآن الكريم وهو صغير وأن يتدرج في العلوم الشرعية والعربية حتى نبغ عالماً وشاعراً<sup>(٤)</sup>.

وكذلك تدرّب - كدأب أبناء القبيلة آنذاك - على ركوب الخيل والرماية وسائر فنون الحرب. ما أسهم في بناء وتنمية شخصيته الحربية<sup>(٥)</sup>.

أنشأ مدرسة كبيرة أمها الطلاب من كل نواحي بلده. وكان العلماء يرتادونه للاستفادة من علمه. واضطر لكثرة تلاميذه إلى إنشاء مسجد قربه حفل بحركة تعليمية عالية. وكان ثرياً جواداً محباً للعلم قيماً عليه وأهله مسخراً نفسه وماله لذلك<sup>(٦)</sup>. اشتهر بشدة التمسك بالسنة ومحاربة البدع حتى وفاته. لكنه لم يعقب<sup>(٧)</sup>.

(١) نثار الأخبار عن بقايا الأنصار في صحراء تمبكتو (مخطوط) ص ٧٦. وينظر أعلام من الصحراء ص ٢١٤.

(٢) المرجع السابق ص ١٧١.

(٣) المرجع السابق ص ٢١٤.

(٤) المرجع السابق ص ٧٦.

(٥) المرجع السابق ص ٧٦.

(٦) المرجع السابق ص ٧٦.

(٧) المرجع السابق ص ٧٧.

(٨) المرجع السابق ص ٧٧، وينظر أزواد أو صحراء التينيري ص ١٦٥.

(٩) أعلام من الصحراء ص ٢١٤.

وكان شاعراً فحلاً مطبوعاً وله قدرة بارعة في ارتجال الشعر. وقد نشبت بينه وبين أحمد البكاي نقائض ومناظرات بسبب الحروب التي وقعت بين القبيلتين (٨).

#### • نماذج من شعره:

للشيخ محمد قصائد كثيرة لم تجمع بعد في ديوان. وأجملها في هجاء كنته بسبب الحروب التي نشبت بينهم. فقد كان الأنصار في تمبكتو يتعصبون لأنصار المدينة وكنته يتعصبون لبني أمية ونقلوا خلافاتهم إلى الصحراء الكبرى يقول (هم) مخاطباً قبيلة كنته التي تنتمي إلى بني أمية (٩):

لاحت لريا بسفح الطود أطلال كأنها من برود الوشي أسمال

ثم ينتقص كنته ويشتمهم في قصيدته التي تربو على (٣٢ بيتاً) ويذكر المعارك التي كانت بينهم.

والممتع لقصيدة (هم) وكذلك بقية قصائده يتبين مدى شاعريته وتمكنه من الفصحى وخاصة قصيدته

التي يشتم فيها البكاي شخصياً ويقول في مطلعها (١):

اخساً أيا كلب من حي القوين ومن ينسب لقين فبئس المرء إذ خسرا

ويقول مشيراً إلى تدفق قريحته وقدرته على ارتجال الشعر (٢):

وليلق سمعا ما كنت أرويه عن القريحة من بالقول أعنيه<sup>٥٢</sup>

ويقول في القصيدة نفسها:

هذي مقالة من لو كنت تتصفه في ذي المقالة لم تتطق له إيه

ما إن تفارغ للمنثور ينسجه لكنها كلم تلقى على فيه

ومن ذلك قوله في قصيدة أخرى:

بسيط شعري لا تنفك تبسطه على لساني أبحار وأسيال (٣):

وفي قصيدة أخرى ومطلعها (٤):

ما زال طعن الكماة السادة الصيد دأبي ورشف رضاب الخرد الغيد

وفي قصيدة أخرى ومطلعها (٥):

إني أقول لمن أضحت معاقله غيضة جن وينتاب بها أيكا

ثالثاً: الشيخ محمد المختار بن حود الأنصاري:

#### • حياته:

(١) أعلام من الصحراء ص ٢١٥.. (٢) أزواد أو صحراء التينيري ص ١٠٧.

(٣) نثار الأخبار عن بقايا الأنصار في صحراء تمبكتو ص ٧٩.

(٤) المرجع السابق ص ٧٩. (٥) المرجع السابق ص ٧٩.

(٦) من نقائض الشعراء العرب في الصحراء ص ٢٢. (٧) أزواد أو صحراء التينيري ص ١٦٦.

(٨) المرجع السابق ص ١٦٦. وينظر من نقائض الشعراء العرب في الصحراء ص ٢٢.

(٩) أعلام من الصحراء ص ١٦٩.



لم يُعثر على تاريخ ولادته ولا على تاريخ وفاته بالتحديد. غير أنه يُعد من علماء المنطقة وشعرائها المجيدين في القرن التاسع عشر الميلادي ينتمي إلى قبيلة الأنصار ومن المعاصرين للبكاي الكنتي ومن المشتركين في حروب الأنصار وكنته(٦). وقد جرت المشاحنات مع قبيلة كنته إلى هجو الشيخ أحمد البكاي، ومساجلته في أشعار جيدة(٧).

#### • نماذج من شعره:

له قصائد كثيرة لم تصل إلينا إذا استثنينا قصيدته الطويلة التي يهجو فيها البكاي ويعدد فيها مفاخر الأنصار ومناقبهم، ويهجو بني أمية الذين قتلوا الحسين، ليخلص إلى أن كنته من أحفادهم، وهو يقصد انتقاصها، والقدرح فيها(٨). فبيدأ بشتهم في مطلع القصيدة(٩):

ألا أبلغ إلى المتمردينا	بني الكنتي وغد الأوغدينا
وبلغ للأولي قتلوا حسينا	جدودهم فباءوا خاسرينا
وقال مقلداً الشعراء الجاهليين في وصف بعيره وهو يركض في الصحراء(١):	
فلما رأيت الشوق لا بد قاتلي	نهضت إلى أقتاد أعوج بازل
هبل كأن الرحل فوق سراته	على قارح من ماء كروس ناهل
يبيت نسيف البقل حول كناسه	ويسحل عن أتن حيال حلائل <sup>٣</sup>
يطاردها في الآل كل هجيرة	على محز إلا صلاب ذوابل
يشج بها أعلى الشعاف وتارة	يطوف بها حول الهضاب القواعل
على مثله أجلو الهموم وأمتطي	إذا ما أتت إحدى الليالي بهائل
نعم قد وردنا ماء هور غدية	فقلت ألا هل من مجيب لسائل
فقلت لنا سوداء لا در درها	أفي فدفد قفر محط المسائل
فبرح بي فقد الأحبة كلهم	وزاد الذي بي من هوى غير زائل
فقلت لناج تحت رحلي ضامر	يخب ويربي جذبه بالتناقيل
مناحك وادي الجن وادي جبنكر	فتقس فصنف عهد ظني بنازل

(١) من نماذج من الشعر العربي في الصحراء ص ٢٧.

### المبحث الثالث

#### الأسرة الكنتية:

إن نظرة سريعة إلى الحركة الأدبية في تمبكتو خلال النصف الأول، من القرن التاسع عشر الميلادي كفيلاً بأن تكشف في وضوح بروز أسرة علمية نابهة مكونة من جد وأب وحفيد؛ وهي أسرة كنته العربية ذات الشأن الرفيع في نشر الإسلام واللغة العربية والأثر البليغ في إحياء الحركة الأدبية وتنشيطها في منطقة تمبكتو<sup>(١)</sup>.

هي أسرة عربية عريقة توارثت العلوم الإسلامية والعربية أباً عن جد، اشتهروا كلهم بالعلم والثقافة والتدين الشديد وتعليم القرآن الكريم وزعامة الطريقة القادرية، اتخذت من تجارة الكتب وسيلة لنشر الدين وترويج العلوم الإسلامية والعربية<sup>(٢)</sup>. فبنت العديد من الزوايا للدراسة والتصوف عبر الصحراء. فكان لنشاطهم هذا، الأثر الفعال في كثرة أتباعهم واتساع دائرة المتقنين في المناطق الشهيبة؛ مثل "قاو" و"كيدال" و"أروان" و"تمبكتو" و"بوجيبهة" و"ماسنا"، وغيرها من القرى والمدن التي أصبح لها فيها تلاميذ مطيعون ومريدون مخلصون<sup>(٣)</sup>.

لكن الأسرة استطاعت — بفضلها ونبلها — أن تضيف إلى هيمنتها الروحية والتجارية هيبة الحكم التي كرس لها نفوذاً كبيراً في شئون المنطقة. فكان من أهم أدوارها التوسط في الصراعات والنزاعات التي تنتش بين سكان المنطقة مختلفي الأجناس والأعراق. لأن الجميع كانوا يقبلون قولها وينفذون حكمها لما تتمتع به عندهم من نفوذ قوي قوامه اعتقاد الناس بشرفها العظيم وفضلها الكبير.

(١) أزواد أو صحراء التينيري ص ٣٤ . وينظر البرابيش ص ٣٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨ . وينظر صحراء العرب الكبرى ص ٩٢ .

(٣) المراجع السابقة والصفحات نفسها .

ولما جاء البكاى مدفوعاً بطموحه الكبير ونفوذه الواسع أوصل الأسرة إلى أقصى مدارك الشهرة والعظمة. حتى كاد بتألق شخصيته وغازرة علمه أن يخمل ذكر بقية العلماء والشعراء الكبار في المنطقة قاطبة، بمن فيهم أبوه وجده اللذان بدأت بظهورهما فترة خصوبة ونضرة اعتبرت فترة انطلاقة جديدة للثقافة الإسلامية والعربية في صحراء تمبكتو وما حولها. وفيما يلي ترجمة أبرز ثلاثة رجال كالتالي:

أولاً: الشيخ سيدي المختار الكبير (١٧٢٩م-١٨١١م): ..

• حياته:

لم تخل القبيلة الكنتية في أي من فترات وجودها في الصحراء الكبرى من علماء وفقهاء صالحين، استجلبوا بفضل جهودهم العلمية وصفاتهم الشخصية تقدير المجتمعات المحيطة بهم حتى ظن في أكثرهم صلاح أو ولاية بفضل ما أحرزوه من علم ومعرفة ومكانة اجتماعية عالية (١). غير أن هذه العظمة وتلك الوجاهة لم تبلغ أوجهها في أي زمن مثلما بلغتا فيما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين عندما برز نجم المختار الكبير (٢).

فهو الشيخ سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر بن محمد بن حبيب الله بن الوافي بن أحمد بن أحمد البكاى، متصلاً في سلسلة النسب الكنتية، إلى الصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهري فاتح أفريقيا (٣). وُلد حسب رواية بول مارتي في سنة ١٧٢٩م في كتيب " وغالا " بمنطقة " أروان " في شمال صحراء تمبكتو (٤).<sup>٥٦</sup>

ويذكر أنه أنهى دراسة الكتب الشرعية واللغوية الأساسية والمشهورة في الصحراء على يد جده لأمه، ثم أخيه الأكبر قبل أن يبدأ الترحال بين القبائل والأحياء رغبة في تحصيل المزيد من العلم. فقادته خطاه إلى تمبكتو حيث كانت شهرته قد سبقته إليها وخلقت في نفوس وجهائها حساسيات جعلتهم يستقبلونه بفتور اضطر

(١) عزيز بطران " سيدي المختار الكنتي ودوره في نشر الإسلام وطريقة القادرية في غرب أفريقيا "، الموقف عدد ٢، شوال / يونيه ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، الرباط، المغرب، ص ٢١٥.  
(٢) أعلام من الصحراء، ص ٦٠.  
(٣) المرجع السابق ص ٦٠.  
(٤) كنته الشرقيون، ص ٣٩.  
(٥) محمد المختار " الطرانف و التلاند في كرامات الشيخين الوالدة والوالد " (مخطوط رقم ١١٧٣) مركز أحمد بابا، ص ٤٥.  
(٦) كنته الشرقيون ص ٣٩.  
(٧) أبو عبد الله الطالب البرتيلي " فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور " تحقيق إبراهيم الكتاني، دار المغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨١م ، ص ١٥٢.

بسببه إلى تقصير مدة إقامته في المدينة بحثاً عن شيخ يأخذ عنه العلم، فوجد ضالته في الشيخ سيدي علي النجيب، أكبر معلم في أزواد في ذلك العصر. فاستقى منه ما أمكن ليصبح أبرز علماء الصحراء وأوجههم علماً وثقافة(٥).

وإضافة إلى ما تميز به من حكمة سياسية وقدرة على استمالة الناس عد الشيخ مجدداً جاء ليعيد للدين بريقه وينشر فضائله عندما آلت إليه القيادة القادرية بعد وفاة شيخه النجيب(٦). فنشر الطريقة على نطاق واسع ووضع لها أذكراً وأوراداً جديدة جعلت الطريقة تنسب إليه ويوصف بالولاية. ويقول عنه البرتلي: "إنه الولي الصالح ذو البركات الشهيرات وشيخ الأشياخ والسادات من ظهرت بركته شرقاً وغرباً ساقى المرید ومحمدة أهل التوحيد شيخ المحققين السالكين(٧)".

ووصفه الشنقيطي في الوسيط قائلاً: "كان من أفراد عصره علماً وصلاً ولم نر أحداً يطعن في ولايته، وكيفيه أن الشيخ "سيديا" حسنة من حسناته وهو عالم موريتانيا الكبير ووليها الشهير. الذي اشتهر عنه قوله في شيخه: "جئتُه وقد انتهيت من تحصيل العلوم فردني مبتدئاً(١)".<sup>٧٧</sup>

استقر بعد تطوافه الطويل في قرية "بولنوار" شمالي تمبكتو، حيث أسس زاويته الشهيرة التي أصبحت مركزاً علمياً مشهوداً يقصده الطلبة والمريدون من كل مكان. كما وفد إليه المتقنون يطلبون إجازته(٢)، فكان له بعودة تلاميذه إلى بلادهم أتباع وأنصار في تلك البلاد، كما كان الأثرياء والسلطين يتوددون إليه ويبادلونه المراسلات والخطابات في البحث عن إجابات فقهية أو مسائل سياسية واجتماعية، ما عزز صلاته بأصحابها ومن يليهم من الأعراق بين جنبات السودان الأربع(٣).

وقد مكنته تلك العلاقات الودية والمحترمة من تصفية النزاعات التي كانت بين كنته وقبائل الصحراء، مثل الطوارق والأنصار. كما تصالحت بجهوده قبائل الصحراء المتناحرة(٤).

وقد عدت تلك الموافقات من كراماته التي تبسط فيها البدو ونقلها بعض الكتاب المعجبين بسيرته(٥). ترك الشيخ سيدي المختار عند وفاته سنة (١٨١١م) ثمانية أبناء انبثق منهم زعماء الفروع والجماعات الكنتية، مثل "هيل الشيخ" أي المنحدرون منه وغيرهم من عائلات أزواد وبعض زعماء كنته بالحوض في موريتانيا(٦): تفرغ في أواخر عمره للتأليف حتى وصل عدد مؤلفاته إلى اثنين وتسعين كتاباً(٧) لا تزال مخطوطات اغتالت معظمها يد الزمان ولم ينشر منها غير كتاب واحد هو "فتح الورود(٨)".<sup>٧٨</sup>

(١) أحمد الأمين الوسيط في أدباء شنقيط ص ٣٦١.

(٢) الطرانف والتلاند، ص ٢١٦.

(٣) أعلام من الصحراء ص ٦١.

(٤) كنته الشريقيون ص ٥٥.

(٥) أزواد أو صحراء التينيري، ص ١٥٣.

(٦) محمود زبير " الشيخ سيدي المختار الكبير " مقال في الحضارة الإسلامية في مالي ص ٢٤٧.

(٧) سيدي المختار الكنتي ودوره في نشر الإسلام والطريقة القادرية في غرب أفريقيا ص ٣١٨.

(٨) أعلام من الصحراء ص ٦٢.

(٩) كنته الشريقيون ص ٢١٠.

من آثاره:

ومن كتبه في لائحة بول مارتي التي وصلت إلى (٤١) كتاباً ما يلي(٩):

١- هداية الطلاب (مختصر فقهي على المذهب المالكي).

٢- المنة في اعتقاد أهل السنة (ويسمى أيضاً الإرشاد في الهداية وحسن الاعتقاد).

٣- الشموس الأحمدية في العقائد الأحدية (في التوحيد)، ورفات.

٤- زوال الإلباس في طرد الشيطان الخناس.

٥- نزهة الراوي وبغية الحاوي.

مع العديد من الفتاوى النثرية والنظمية والقصائد التي تغلب عليها موضوعات الاستسقاء والدعاء والتوسل.

• نموذج من شعره:

يقول متحدثاً عن السلسلة القادرية لطريقتهم(١):

أهل السعادة سادتي خلصاني	إني بسادة هذه الأزمان
وجهادهم للنفس والشيطان	خلفوا الصحابة في الغروب عن الدنا
وصيانة وديانة وأمان	الوارثين تراثهم من عفة
وتجمع من شاحط الأوطان	ونزاهة وتورع وتخشع
عن موجبات القدح والنقصان	وولاية ودراية ومروءة
متسيرين بسيرة القرآن	قوم إذا صاحبتهم ألفيتهم
يشقى ولا يخشى من الخسران	قوم جليسهم مدى الأيام لا
وإذا دجا ليل فكالرهبان	أسد إذا طلع النهار عليهم
ليسوا بإخوان وكالإخوان	طلبوا إلههم فألف بينهم
عنها لحب الواحد الديان	هجرو العشائر والبلاد وهاجروا

وتستمر القصيدة على هذا المنوال، يذكرهم واحداً واحداً، مسلسلاً الحديث عن نسبه وأشياخه، حتى

يصل إلى أشياخ الطريقة الأول. ثم يختم القصيدة بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم(٢).

(١) أزواد أو صحراء التينيري ص ١٠٩.

(٢) المرجع السابق ص ١١٠.

ثانياً: سيدي محمد بن المختار الكبير (١٧٥٦ - ١٨٢٦م):

• حياته: ٦٠

كان مولده حوالي ١٧٦٥م، في إحدى قرى تمبكتو شمالاً. وتميز منذ بكرة سنه بالنباهة والفتنة، كما اشتهر بالموهبة في العلوم الشرعية. ويُعد الشيخ سيدي محمد بن المختار الكنتي من أفقه علماء الصحراء وأكرمهم. وكان زهده وصلاحه مضرب الأمثال (١)، حتى كان الناس يتناقلون خوارقه العلمية وكراماته الصوفية (٢)، ما جعله أحب أبناء والده المختار إليه وأعزهم عنده فألصقه به وكان لا يقوم إلا به ولا يجلس إلا معه ويصحبه في جميع أعماله ويشركه في كل شئونه، فكأنما كان يدر به بذلك على خلافته وإدارة أمور القبيلة من بعده (٣). فعلمه في الدين واللغة والأدب وفقهه في أسرار الصوفية وبواطنها، كما روضه على الزهد والتنسك. وكان الشيخ يسند إليه جميع مهامه الأسرية ما جعله يخلف أباه بعد موته على الزعامة والمشيخة اللتين تم استعداده وتهيؤه لهما بقوة وذكاء (٤). وكان ذلك في غياب إخوته الذين غادروا الموطن غير مرة منه وغيباً مما كان يناله من حفاوة أبيهم ومعزته من دونهم، حيث كانوا قد فضلوا الرحيل طلباً لأسباب المجد والفضل بمجهوداتهم الذاتية ونشاطاتهم الشخصية بدلاً من الاعتماد على فضل سبقهم إليه أخوهم الأصغر (٥).

(١) أزواد أو صحراء التينيري ص ١٥٣.

(٢) كنته الشرقيون ص ٧٩.

(٣) المرجع السابق ص ٧٩. وينظر الكنتي الشيخ سيدي محمد مقال في الحضارة الإسلامية في مالي ص ٢٤٧.

(٤) المرجع السابق ص ٨٣.

(٥) سيدي عمار ولد علي " الكنتي الشيخ سيدي محمد " ص ٢٤٧.

(٦) المرجع السابق ص ٢٤٨.

(٧) كنته الشرقيون ص ٧٩.

(٨) المرجع السابق ص ٨١. (٩) المرجع السابق ص ٧٩.

(١٠) المرجع السابق ص ٧٩.

(١١) كنته الشرقيون ص ٨٠.

ولا شك أن الشيخ قد توافرت لديه إمكانيات فكرية ونفسية أهلتها للقيام بتلك المسؤولية الجسيمة التي أداها بطريقة ضمنت له مزيداً من الشرف والعز. (٦) فقد تمكن بسياسته الرشيدة وقيادته الحكيمة من تعزيز وحدة القبيلة وإكثار أتباع الطريقة حوله في وئام وانسجام (٧).

قضى خمس عشرة سنة في زعامة القبيلة، وكان من جهوده وإخلاصه ومحبة الناس له وتقنتهم العظيمة فيه أن درأ عن تمبكتو قبيل موته كارثة دموية كانت تهددها من قبل الفلان الذين استجابوا لطلبه وتركوا المدينة (٩). لكن الموت عاجله سنة ١٨٢٦م وهو في عز نشاطه العلمي والأدبي، مخلفاً تراثاً علمياً وأدبياً عظيماً قوامه الفقه والتصوف نثراً وشعراً لا يزال مخطوطاً، لم ينشر منه إلا كتابه المشهور " الطرائف والتلائد في كرامة الشيخين الوالدة والوالد (١٠) ".

وهو كما يروي بول مارتي كتاب مهدي إلى أبويه، ويشمل ذكراً لأهم أحداث القرنين الثامن عشر والتاسع عشر التي كان لجماعة كنته نصيب وافر فيها، وبخاصة في فترة عظمة والده المختار. وهذا الكتاب مخطوط يزيد عدد صفحاته على الأربعمئة (١١).

وتنسب إلي الشيخ "سيدي محمد" عدة مراسلات لها أهمية تاريخية وثقافية قيمة. وهناك ثلاثون مؤلفاً مخطوطاً اجتمعت للشيخ بمركز أحمد بابا بتمبكتو، ويهيمن الفقه والتصوف على مجمل تأليفه (١). "

#### • من آثاره (٢):

- ١- إرشاد السالك إلى أقوم المسالك.
- ٢- الفوائد النورانية في شرح اسم الله الأعظم.
- ٣- العقد النظيم في أقوال العلماء في الاسم الأعظم.
- ٤- نظم الورقات لأبي المعالي الجويني، إمام الحرمين في الأصول.
- ٥- الطرائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالدة والوالد.
- ٦- الفتوحات البيئات الأشعريات (شرح الصلاة النارية الدرعية).

(١) الكنتي الشيخ سيدي محمد ص ٢٤٨.

(٢) مولاي أحمد بابير الأرواني " السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تمبكتو البهية " (مخطوط) ص ٨٩.

ثالثاً: الابن: الشيخ سيدي أحمد البكاي الكنتي (١٨٠٣-١٨٦٥م):

• مولده ونشأته:

هو الشيخ سيدي أحمد البكاي بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار بن أحمد بن حبيب الله بن الوافي بن الشيخ سيدي عمر بن الشيخ سيدي امحمد الكنتي بن سيدي علي بن سيدي يحيى بن سيدي عثمان بن عمر، الملقب دومان بن عبد الله، الملقب بيهس بن سيدي شاكر، الملقب ورد بن يعقوب بن العاقب بن عقبة بن نافع الفهري القرشي، فاتح الشمال الأفريقي<sup>(١)</sup>. وهو ثالث أعلام الأسرة الكنتية الشرقية<sup>(٢)</sup>. اشتهر بلقبه أكثر من اسمه الذي اختير له تعظيماً لجد الأسرة الأعلى وتخليداً لسلفهم الأكبر "أحمد البكاي" الذي توفي ودفن بـ"ولاته" في بداية القرن السادس عشر الميلادي فكان من محبته في الأسرة أن علق به هذا اللقب واكتفي به علماً عليه<sup>(٣)</sup>.

وسمي الجد الأكبر بـ "البكاي أبو دمعة" أي الكثير البكاء من قبل معاصريه تقديراً لتقواه. إذ روي أنه فاتته الصلاة في المسجد مرة واحدة، فسبب له الندم على ذلك جريئاً غزيراً في دموعه لمدة مائة عام دون أن يتوقف عن البكاء؟ أو على الأقل ظلت عيناه مبتلتين. هكذا كما رواه "بول مارتي" في كنته الشرقيين<sup>(٤)</sup>. كان مولده حوالي ١٨٠٣م في ضواحي المبروك<sup>(٥)</sup> بصحراء تمبكتو الشمالية. ونشأ في نعمة عظيمة يرعاه جده الذي تولى بنفسه تعليمه الابتدائي، ثم تلقى دراساته التالية على يد أبيه بعد وفاة جده في عام ١٨١١م.

(١) السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تمبكتو البهية ص ٨٩.  
(٢) من نقاض الشعراء العرب في الصحراء ص ١٨.



## • علمه ومعرفته:

حفظ القرآن الكريم صغيراً واستظهر العديد من المتون الشرعية واللغوية على عادة أهل الصحراء في

تلك الأيام •

انتقل بعد وفاة أبيه سنة ١٨٢٦م إلى جوار أخيه الأكبر سيدي المختار الصغير حيث انكب على حفظ كتب الشريعة واللغة والأدب وصرف جل اهتمامه إلى البحث والمطالعة، لتحصيل المزيد من العلم(٥). فبرع في شتى العلوم والفنون حتى صار متفهماً في الدين وحجة في اللغة وإماماً في الأدب، شاعراً فحلاً من فحول الشعراء العرب في الصحراء الكبرى. فشاع خبر نبوغه في الآفاق واثال عليه المريدون من كل البلاد لينهلوا من معينه الزاخر ويحظوا بشرف التلمذ على يديه(٦).

وجاء في حواشي تمبكتو التي حررها مولاي أحمد بابير أحد الكتاب المتأخرين في معرض حديثه عن الشيخ سيدي محمد الكنتي، ما يلي: "من بين أولياء المدينة ابنه (أي ابن سيدي محمد) الشيخ سيدي البكاي، فقد كان رحمه الله عالماً لغوياً وفقهاً كبيراً اختص في علوم كثيرة حتى كان ابن العصر – كما يقال – وكان غزير المعرفة بالأداب حافظاً للكثير من القرآن • كما أنه ناضل بسيفه وقلمه ضد أعدائه من المذاهب الصوفية الأخرى(١) •".

أما "بول مارتى" الذي صاحب الكنتيين فترة طويلة ويُعد أوثق وأهم مصدر عنهم فقد تحدث عن حياة الشيخ وصفاته الخلقية والعلمية، ذاهباً إلى أنه كان وقوراً عالي الهمة جم المعارف شديد الحزم حكيماً في التدبير يترفع عن صغائر الأمور وسفاسفها ويبتعد عن المزاح والجدال، جواداً كريماً ينفق بسخاء ويهب بلا سؤال(٢). ويرى أن ما عرف به الشيخ من شمائل طيبة وخصائل حميدة تميزت بحسن الصحبة وطيب المعاملة جعلته يكسب قلوب أغلب سكان الصحراء ويحظى باحترامهم؛ إذ كانوا يرون فيه أحد أولياء الله الصالحين. ما جعل له نفوذاً ينتشر على نطاق واسع في الصحراء وسلطة تجاوزت عقفة النهر. فكان له بها تدخلات متكررة لإنهاء الخلافات والنزعات بين قبائل المنطقة، وكانت مساعيه – دائماً – تتكلل بالنجاح والتوفيق ويخرج من وسطاته معزراً مكرماً مسموع الكلمة(٣). ٦٤

ولأجل هذه المكانة العظيمة التي حظي بها في نفوس قبائل الصحراء كان أخوه الكبير منذ انتقل إليه، يعتمد عليه اعتماداً كلياً. فنقل إليه أسرار الأسرة وجعله نائبه الفعلي بتوكيله في كل ما يلم. ولم يلبث أن أصبح لنبوغه وسعة عقله عمود الأسرة والقبيلة معاً، لا سيما عندما ضعف هذا الأخ وأعجزه المرض(٤). وبعد وفاة

(٣) أحمد البكاي ص ٢٦٣.

(٤) كنته الشرقيون ص ٢٩.

(٥) اسم قرية •

(٦) كنته الشرقيون ص ٩٩ • وينظر أحمد البكاي ص ٢٦٣. وينظر باسكال جيمس إمبراطو " المعجم التاريخي لمالي " ص ٢٢٠.

وينظر من نقائص الشعراء العرب في الصحراء ص ١٨.

(١) أحمد البكاي ص ٢٦٥.

(٢) كنته الشرقيون ص ٩٩.

(٣) المرجع السابق ص ٩٩.

أخيه تربع على كرسي الخلافة القبلية والمشیخة القادرية في آن ليرث المدرسة الأسرية بما حوتها من مئات التلاميذ إضافة إلى مريديه وأصفيائه من الطوارق المحننين به (٥).<sup>٦٥</sup>

#### • شجاعته وطموحه:

كان البكاي قائد كنته في حروبها ضد القبائل المجاورة أمثال إدوالحاج والأصهار. كما أنه كان لسان القبيلة الذي يذود عنها الهجائين من الشعراء (٦).

ويذكر القشاطر نقلاً عن الأستاذ كادي درامي أن البكاي كان ذا طموح كبير، يرى نفسه في مرتبة السلاطين وأنه كفؤ وند لأمرء الدولتين الفلانية والفوتية جميعاً وفوق جميع شيوخ القبائل والطرق لا يفضلونه في شيء (٧). كما ذهب سيد عمار ولد علي إلى أنه بفضل الاضطراب الذي كان يهز المنطقة كان له سعي غير معن عنه لإقامة مملكة تحت قيادته (٨). وأنه لأجل ذلك كان مولعاً بالتزوي بزوي الملوك واتخذ الخدم والحشم (٩).

كما أنه كان معجباً بالزينة تستهويه اللذة ويشده الطرب، ما جعله يسلك مسالك الملوك الأفريقيين في اتخاذ القوالين والمغنين والمطبلين ليشيدوا بشرفه وينشدوا أمجاده (١).<sup>٦٦</sup>

#### • علاقته بالأوروبيين:

وأما علاقته بالأوروبيين فليس فيها بدعاً لأنها عادة قديمة في الصحراء شجعها فيهم الأوروبيون عندما اعتمدوا على زعماء القبائل وسلاطينها المحليين لتسهيل مهام مستكشفيهم وحمايتهم من التعرض لمخاطر الأراضي الجديدة، ما جعلهم ينالون خدمات جليلة فتحت أمامهم مدن وقرى أفريقيا الغربية. وفي مقدمتهم الشيخ سيدي محمد الذي قدم حماية كاملة للمستكشف الإنجليزي الماجور "غوردن لينج" حين نزل عليه في تمبكتو عام ١٨٢٦م (٢).

كما أن ابن عم البكاي قدم تسهيلات كبيرة للجاسوس الفرنسي "دوفريتي"، في عام ١٨٦١م. ما أمكنه من الإقامة لفترة طويلة في الصحراء (٣).

لكن البكاي كان أكثرهم حماساً في حماية المستكشف "هنريش بارث" الألماني الأصل العامل في خدمة التاج البريطاني حين قدم تمبكتو عام ١٨٥٣م ومكث فيها مدة ٩ أشهر. فقد استقبله بحفاوة كبيرة وتقدير عظيم وأنزله بالقرب من منزله وكان تلاميذه ومريده يقومون بخدمته وحراسته (٤).<sup>٦٧</sup>

(٤) المرجع السابق ص ١٠٠.

(٥) المرجع السابق ص ١٠٠.

(٦) من نقاض الشعراء العرب في الصحراء ص ١٩.

(٧) أحمد البكاي ص ٢٦٦. (٨) المرجع السابق ص ٢٦٧.

(٩) من نقاض الشعراء العرب في الصحراء ص ١٩.

(١) أعلام من الصحراء ص ٢١.

(٢) كنته الشرقيون ص ١٨.

(٣) المرجع السابق ص ١٠١.

(٤) المرجع السابق ص ١٠٠.

(٥) أحمد البكاي ص ٢٦٥.

(٦) كنته الشرقيون ص ١٠٢.

(٧) أحمد البكاي ص ٢٦٥. وينظر أعلام من الصحراء ص ١٩، ٢٠ وكنته الشرقيون ص ١٨، و ص ١٠١.

وقد حاول بعض الكتاب أن يعللوا سلوكه ذلك فذهبوا إلى أن الشيخ كان حريصاً على الحفاظ على ما حظيت به أسرته من مكانة عليّة في الصحراء فكان بقوة شخصيته يسعى جاهداً وراء الأسباب التي يحقق بها تلك الطموحات الكبيرة(٥). وأن حرصه على حماية لبارث يدخل من ذلك الباب، إذ كان يطمع في دعم من بريطانيا يعتمد عليه في تعزيز نفوذه وهيمنته في المنطقة. ومن أجل ذلك - كما يرويّه المؤرخون - أوفد مع بارث عند عودته إلى بريطانيا رسالة يذكر الملكة بوعد قديم قطعت له غير أن الملكة لم تف بوعدها وإنما اكتفت بتقريظه كما قدمت إليه هدايا غير ذات قيمة(٦).

ولما حان رحيل "بارث" من تمبكتو إلى "سوكوتو" في "نيجريا" زوده البكاي بحاجته من المؤن وأوفد معه أدلاء مودعاً إياه شخصياً عبر الصحراء إلى مسافة تربو على ٥٠٠ كلم، قبل أن يعود أدراجه تاركاً معه رجالاً يرافقونه حتى يزول الخطر ويبلغ مأمنه. وكان قد كتب له تصريح مرور إلى شعوب المنطقة التي تقدره وتعظمه مطالباً إياها بفتح حدودها له وأن تقدم له كل ما يحتاج إليه من تسهيلات في مهامه. وكان الأمر كذلك، إذ لم يتعرض له أحد بسوء حتى بلغ غايته(٧).

#### • دوره السياسي في السودان الغربي:

ظل نجم البكاي يعلو ويسطع طوال السيطرة الماسنية على تمبكتو، وكانت مكانته تزداد في قلوب سكان المنطقة بفضل الطريقة القادرية التي كان البكاي آنذاك يعد أحد شيوخها البارزين(٨).

ولذلك، لم يحل عام ١٨٣٢م حتى طالبه نبلاء تمبكتو إثر نزاعهم مع ماسنا ونجاح توسطه بينهم بالسكنى داخل المدينة، كي يحتموا بمنزلته الروحية التي يحترمها الفلان(٩). وحال استقراره في المدينة ابتنى داراً ومسجداً وزاويةً كانت مركزه الرئيسي الذي ينطلق منها علمه ومعرفته إلى أرجاء الصحراء. فهُرِع إليه طلاب العلم من جميع الأجناس والآفاق، فكانت أصواتهم - وهم يتدارسون العلوم في المسجد ويرتلون الأذكار في الزاوية - يتردد دويها بالصدى من مكان بعيد(١٠).

وبذلك فسح له "الأرما" أرضهم ووسعوا له صدورهم فتأمر عليهم وسما وأصبح نفوذه يقوى يوماً فيوماً. وقد بلغ هذا السلطان الجديد مكانة عالية حتى سمي بأمر المؤمنين. لكن ذلك لم يكن ليتهيأ ويمر بسهولة لوجود أنداد ومنافسين أقوياء، ولذلك بدأت علاقاته معهم تفسد لتصل إلى ذروة النفور والشقاق ما أدى إلى أعنف الحروب في المنطقة مع وصول الحاج عمر إلى ماسنا(١١).

ويذهب سيد عمار ولد علي إلى أن البكاي كان سياسياً طموحاً غير راض بالدور التقليدي الذي لعبه أبوه وجده، وأنه إنما أخذ منهما دبلوماسيتهما وقيمهما الثقافية ووعيهما الديني الذي ينزع نحو المودعة والسلم، لكنه لحرصه على أن يحافظ على عظمة أسرته ونفوذه نأى عن وداعة والديه وسلمهما ووجنح إلى العنف في سبيل الوصول إلى أهدافه(١٢).

(١) كنته الشرقيون ص ٩٩.  
(٢) تمبكتو، لجنة الإدماج ص ١٦٨. وأحمد البكاي ص ٢٦٤.  
(٣) مقال "أحمد البكاي" ص ٢٦٤.

فكان لرسائله التي كان يوجهها إلى الأمير الشيخ أحمد بن أحمد دور بارز في اشتباك هذا الأخير مع الحاج عمر الفتوي ذلك الاشتباك الذي جر على المنطقة ويلات وفتناً فرقت كلمة المسلمين وأودت بحياتهم جميعاً. بينما كان بإمكانهم لو أنهم قد تفاهموا فيما بينهم وتعاونوا وتناصروا أن يقيموا إمبراطورية إسلامية ضخمة في غرب أفريقيا تتمتع بالقوة على دفع الاستعمار الفرنسي ومنعه من بسط سيطرته بتلك السهولة على بلدان المنطقة<sup>(٦)</sup>.

ويرى الكاتب أن طموح البكاي الكبير هو الذي جر عليه نقمة الأمير الفلاني الذي لم يكن يعترف بإمارته للمؤمنين لصغر سنه، فكان لذلك لا يحترمه ولا ينظر إليه إلا كما ينظر إلى عبد أسود<sup>(٧)</sup>. ويرجع الكاتب إلى ذلك سبب معارضة الأمير له معارضة شديدة بلغت أوجها عند وصول الضيف الأوروبي "هنريش بارث" الذي حاول أهل تمبكتو مراراً بقيادة القاضي "سنشرف"<sup>(٨)</sup> و"حمادي" ابن عم البكاي نفسه أن يخرجوه من المدينة بالقوة، لكن البكاي وقف دونه بعسكر من أصدقائه الطوارق مدافعاً عنه بشدة، حتى كادت تقع بسببه حرب أهلية في المدينة، فكان يخفيه في أيام الخطر في خيامه بالضاحية<sup>(٩)</sup>. ويمكن أن يعد هذا الخلاف من العوامل الإيجابية التي أطلقت قريحة البكاي الشعاعية، إذ إنه لما ضاق أهل تمبكتو ذرعاً بوجود "بارث" بين ظهرانيهم استنفروا عليه الأمير "أحمد أحمد"، فبعث هذا الأخير عسكرياً إلى البكاي مطالباً إياه بتسليم الضيف إليه، فما كان من البكاي إلا أن رفض تسليم الضيف وأنشأ في ذلك قصيدة يفخر فيها ببياض لون ضيفه ويعير الأمير بسواده وعبوديته مهدداً إياه بجند من الطوارق والعرب المستعدين لخوض الحرب من أجله<sup>(١٠)</sup>:

أياخذه والسيف والرمح قائم	على شرف إن كان للشيخ مقصد
أياخذه أين الطوارق كلها	ومن عرب كهل وشيخ وأمرد
وإني لتكفيني من الرد دعوة	إلى الله في جوف من الليل تصعد <sup>١١</sup>

(٤) كنته الشرفيون ص ١٠٣.

(٥) أحمد البكاي ص ٢٦٧.

(٦) المصدر السابق ص ٢٦٤ ، ٢٦٦.

(٧) بنتو سانانكو " أماد أماد " مقال في الحضارة الإسلامية في مالي ص ١٨٢. لم يكن عمر الأمير في ذلك الوقت يتجاوز عشرين سنة حين تولى السلطة بعد وفاة أبيه، سنة ١٨٥٣م) ص ١٨١ و ١٨٢. كما أنه توفي في ١٨٦٢م، حيث لم تتجاوز عمره واحداً وثلاثين سنة، إذ كان مولده في ١٨٣٣م.

(١) حاكم المدينة، واسمه عثمان الكاهية. ينظر كنته الشرفيون ص ٢٦.

(٢) أحمد البكاي ص ٢٦٦.

(٣) المصدر السابق ص ٢٦٣ - ٢٦٦.

(٤) المصدر السابق ص ٢٦٤.

(٥) المصدر السابق ص ٢٦٤.

(٦) المصدر السابق ص ٢٦٤.

(٧) المصدر السابق ص ٢٦٤.

(٨) المصدر السابق ص ٢٦٤.

وهذا ما دفع الكاتب إلى القول بأن البكاي استخدم كل مهاراته الدبلوماسية ووظف كامل قدراته الفكرية والجسمية للحفاظ على وحدة الطوارق حوله ليستعين بهم في وقت الحاجة(٤). وهذا ما جعله في موضع مناسب لمواجهة منافسيه من أمراء العصر، حيث ناظر الشيوخ وهاجى القبائل وحارب السلاطين ودخل ضد بعضهم في صراعات حادة انتهت إلى مطاحنات دموية في المنطقة(٥).

وما كانت هذه المشاكل الجديدة لتخفف من مصائب تمبكتو التي وجدت نفسها - لسوء حظها - في خضم جميع المشاكل السياسية والاجتماعية التي مرت بالمنطقة منذ الغزو المغربي في نهاية القرن السادس عشر، حتى منتصف القرن التاسع عشر، في حالة مضطربة مستهدفة من قبل القوات الغازية من كل قبيل. بدءاً من الطوارق الذين عاودوا عليها هجماتهم منذ عام ١٧٩١م، إلى السلطات الماسنية التي انتزعتها منهم ام ١٨٢٦م، مروراً بالجهاد العمري الذي احتلها في عام ١٨٦٢م(٦)، وأخيراً البكاي الذي يرى سيد عمار أنه ما قطنها إلا ليحميها من أعدائها ثم ما لبث أن تسبب وجوده فيها في إثارة العديد من التعقيدات التي كدرت صفو الحياة في المدينة(٨).

#### • نهايته وأسبابها:

عندما استولى الحاج عمر على مدينة "حمد الله" عاصمة "ماسنا"، استتجد البول بالبكاي في تمبكتو واعدن إياه بتتصيبه زعيماً عليهم إن طرد عن دولتهم الفوتيين، فاستنفر القبائل العربية والطارقية المحاربة تحت رايته لإخراج الحاج عمر من المدينة(١).

لكن التحالف الكنتي - الفولاني لم يصمد بعد هزيمة الحاج وتحرير المدينة، لأن البكاي لما طالب الفلان بإنجاز وعودهم فوجئ بخيانتهم ونكوثهم، إذ رفضوا تعيينه ملكاً عليهم وقلبوا له ظهر المجن، فنشب الخلاف بينهم، وانحل تحالفهم ودخلوا في حروب متتالية لا هوادة فيها(٢).

وأصبح البكاي منذ ذلك الحين محل سخرية الفلان واستهزائهم يقودهم في ذلك "بالبو" عم الأمير المتوفى الذي حرض عليه الفلاحين والصيادين من سكان البوادي والقرى وشواطئ النهر يشتمونه ويعوقون مشاريعه وتحركاته(٣).

وفي هذه اللحظات من صراع حليفي الأمس، وصل تيدياني أمادو، بجيوشه، فهزم جموع الكنتيين والفلان معاً، واستولى على العاصمة "حمد الله" من جديد، ليقم انطلاقة منها إمبراطورية التوكلور، التي استمرت، حتى استيلاء الفرنسيين على كل أراضي جمهورية مالي، في ١٨٩٣م تاريخ انتهائهم من غزو

تمبكتو(٤) ٧٠

(١) أحمد البكاي ص ٢٦٦.  
(٢) تيدياني أمادو ص ٢٠٦. وينظر كنته الشرقيون ص ١٠٦.  
(٣) كنته الشرقيون ص ١٠٦.  
(٤) تيدياني أمادو ص ٢٠٦.  
(٥) كنته الشرقيون ص ١٠٦.  
(٦) أحمد البكاي ص ٢٦٦.

ولم يكن للبكاي، لما عرف من إباطه وشممه أن يستسلم لليأس أو يتقبل المهزلة التي آل إليها أمره، عندما انقلب عليه من كانوا بالأمس يعظمونه ويتبركون بخدمته. فأرسل حملتين لمحاربة الفولان والفوتيين على السواء، لكن تيدياني كان يهزم كل قوة تتحرك ضده<sup>(٥)</sup>. ثم خرج منهكاً من ثقل السنين ووطأة الإرهاق على رأس حملة ضعيفة لاسترداد مجد عفا عليه الزمن وانقرض عهده<sup>(٦)</sup>. فاشتبك مع بابلو وجيوشه الفلان وانتهت المعركة بهزيمته البكاي وموته. ودفن بـ"ساردينا"<sup>(٧)</sup> في فبراير سنة ١٨٦٥م أي بعد بضعة أشهر فقط من موت الحاج عمر الفتوى وقد قضى عمره في العلم والتعليم والحرب<sup>(٨)</sup>. وانتهى بذلك تاريخ حافل بالنزاع وسيرة معطرة بالإبداع الأدبي ليخلو الجو بموت البكاي للطوارق الذين استولوا على تمبكتو وأعادوا سيطرتهم عليها حتى استلبها الفرنسيون في عام ١٨٩٤م<sup>(٩)</sup>. فيما ذهب القشاط إلى أنه توفي عن عمر يناهز الثمانين عاماً وهذا بعيد لأن أحداً لم يرو له تاريخاً يخرج عن حدود عامي (١٨٠٣م - ١٨٦٥م)<sup>(١٠)</sup>.

إن تلك الأحداث الجسام التي هزت أرجاء المنطقة والتي أثر فيها البكاي بوصفه زعيم قبيلة وشيخ طريقة هي الوقود الذي أشعل نار الحركة الأدبية، في مالي القديمة التي كان للبكاي فيها اليد الطولى أسهم فيها بكل قدراته السياسية ومواهبه الفنية<sup>(١)</sup>.

#### • أبناؤه:

وقد أنجب خمسة أبناء ذكور هم<sup>(٢)</sup>:

- أ) سيد المختار الملقب بادي الذي خلفه في الزعامة الروحية على طريقتهم القادرية، لكنه بهدوئه ووقاره أعاد إليها سيرتها الأولى من المسالمة والمهادنة رافضاً سياسية القوة التي انتهجها أبوه.
- ب) سيد محمد مات أبتز دون عقب.
- ج) بابا أحمد وله ثلاثة أولاد بنتان وذكر.
- د) زين العابدين.
- هـ) باي الذي سمي أحد أولاده الثلاثة " أحمد البكاي " تخليداً لذكر أبيه.

وقد حاول أولاده مع أبناء أعمامهم بقيادة زين العابدين استعادة ما فقدته أسرة كنته بموت البكاي من مجد وسيادة في المنطقة لكن دون جدوى، إذ كانت الشمعة قد انطفأت والنور قد خمد برحيل من رفعهما عالياً وحقق للأسرة الكنتية شهرة دائمة خلدت ذكرها في صفحات التاريخ المشرقة<sup>(٣)</sup>.

#### • مكانته التاريخية:

(٧) معناها قرية الدين، أي القرية الإسلامية. ينظر كنته الشرقيون ص ١٠٥.

(٨) كنته الشرقيون ص ١٠٥. وينظر أحمد البكاي ص ٢٦٦.

(٩) دانيوكو، تمبكتو، ص ٨٣.

(١٠) أحمد البكاي ص ٢٦٦. وينظر أعلام من الصحراء ص ٢٠. ومن نقاض الشعراء العرب في الصحراء ص ١٩.

وأخيراً لا يسعنا إلا أن نقول إن الشيخ، على الرغم من نهايته المأساوية وكل الاضطرابات التي هزت المنطقة في عهده لم يفقد ولو بعد موته احترام سكان الصحراء وتعظيمهم لاسمه. فلا يزال هناك العديد منهم حتى اليوم من يكونون له محبة عظيمة وتقديراً كبيراً يتجلبان في اهتمامهم بدراسة قصائده وإنشاد أشعاره(٤). وانطلاقاً من هذه المكانة التي حظي بها البكاي في نفوس التمبكتيين وتقديراً للخدمات التي قدمها للمستكشف " بارث " أثناء وجوده في الصحراء أقام له العقيد الفرنسي " ترنتيان " في تمبكتو فور استيلاء فرنسا على المدينة عام ١٨٩٥م ضريحاً مشيداً يزوره أتباع القادرية حتى اليوم إحياء لذكراه(٥). كما أن دولة مالي الحديثة اختارت بعد استقلالها عام ١٩٦٠م، أن تسمى قلعة تمبكتو العسكرية التي أقامها المستعمرون في مضارب الشيخ القديمة بشمال المدينة " قلعة الشيخ سيدي أحمد البكاي ". فرحم الله البكاي رحمة واسعة(٦).

## الفصل الثاني

### نثر البكاي

---

(١) أزواد أو صحراء التينيري ص ٥٧.

(٢) أحمد البكاي ص ٢٦٦.

(٣) كنته الشرفيون ص ١٠٧.

(٤) أحمد البكاي ص ٢٦٥.

(٥) المرجع السابق ص ٢٦٥.

(٦) المرجع السابق ص ٢٦٥.

## المبحث الأول

### المادة النظرية عند البكاي:

إن النثر الذي نحن بصدد دراسته هو نثر كاتب عربي كبير ممن توطنوا منذ قرون مضت في الجزء الغربي من القارة الأفريقية، وبالأخص صحراء تمبكتو في السودان الغربي التي تحولت إلى اسم جمهورية مالي، منذ تم الاستقلال لذلك القطر المسلم من أيدي المستعمر الفرنسي في بداية الستينات من القرن الماضي هو الأديب الشيخ سيدي أحمد البكاي الكنتي الذي كان يعيش في أعماق أفريقيا المجهولة في ذلك العصر من القرن التاسع عشر.

وكما رأينا من ترجمته المستفيضة كان البكاي عالماً نحرياً وشيخاً مهيباً، اكتمل نضجه الفكري ونبوغه العلمي وبلغ الذروة من التفتح الذهني والتألق الثقافي، ذا ثقافة دينية واسعة وخبرة لغوية وفيرة، جامعاً لشتى الفنون الدينية والألوان الأدبية، غدا بها كأنه بحر عميق يزخر بلألى العلوم وجواهر الآداب، مع علو في الهمة وسمو في الطموح وشدة في الحماس الصوفي، له في كل شأن من شؤون المنطقة موقف وفي كل قضية من قضاياها نظرة كان يسعى إلى بسطهما بشتى الوسائل الإقناعية من حوار وجدل، أدبا به إلى خصومات وحروب غير متناهية مع أطراف متعددة كما سجلها الكتاب في تواريخهم، وكما يتجلى في نصوصه الأدبية، إذ لا يلبث من يمعن النظر فيها أن يدرك أن الرجل كان من أكبر صناعات التاريخ والأدب في هذا الجزء من أفريقيا في فجر الحملات الاستعمارية.



ونحن لا نشك أن من يتأمل في المخطوطات الأدبية التي أفرزتها عبقرية هذا الكاتب لا يستغرب من اهتمامنا به واختيارنا له موضوعاً لهذه الرسالة، إذ إنه سيتبين له أنه يستحق أكثر من دراسة، ربما أكثر من العديد الذين سلط عليهم الضوء لقرب أماكنهم أو توافر آثارهم.

غير أن ما يدعو إلى العجب في شأن البكاي أنه - على الرغم من سعة علمه وقدرته الكتابية الفائقة - كما تشهد له بذلك آثاره التي بين أيدينا - لم يحفل كثيراً بالتأليف النثري أو التحرير العلمي أي أنه لم ينشط في ذلك المجال، كما كان يجدر بمثله، إذ لم يُعثر عنه على كتاب علمي ومنهجي يقصد منه إلى المساهمة في نشر العلم وتطوير التراث الثقافي على الأقل في محيطه.

وإن ما اشتهر باسم كتاب مسند إليه في تصنيف مركز أحمد بابا بتمبكتو عبارة عن مخطوطين اثنين أحدهما يحمل عنوان: "بغية الألف في جواب يركوي تالف"، وثانيهما يُسمى "فتح القدوس في جواب محمد بن أحمد أكنسوس"، وكلاهما في الرد والخصومة الكلامية حول الطرق الصوفية.

وفي محاولتنا لتحقيق هذين المخطوطين تبين أنهما في أصلهما ليسا سوى رسالتين مثل كل تلك الرسائل الشخصية أو الاجتماعية، وإذا شئنا قلنا العلمية لما ظهر فيهما من بعض الصبغة العلمية والدينية، بفضل ما يحملان من جدل صوفي بين عالمين يحاول كل منهما أن يثبت وجهة نظره، بتنفيذ أقوال منافسه ودحض حججه. لكن أن فنيي مركز أحمد بابا - على ما يبدو - لم ينتبهوا لتلك الحقيقة أثناء قيامهم بتصنيف المخطوطات التي كانت متوافرة بحوزتهم آنذاك. ويحملنا على هذا التوجه ثلاثة أمور:

**أولها:** أن كلا المخطوطين موجه في تعبيره وقصده إلى شخص معين معروف ومشهور في دولته، أحدهما: شاعر فلاني اشتهر بلقبه (سيكو يركوي تالف) أكثر من اسمه الحقيقي (حمدون بلكو)، والآخر وزير مغربي، واسمه أبو عبد الله محمد بن أحمد أكنسوس<sup>(١)</sup>. وقد دأب البكاي نفسه على الإشارة إلى كل منهما، إما باسمه أو بضميره بالمفرد المخاطب أو الجمع المخاطب والغائب، قاصداً من ذلك إما الخصم وحده أو شيخه وحده أو سائر جماعته من ورائه، كما ورد ذلك مراراً في المخطوطين.

ومثال ذلك قوله في **بغية الألف في جواب يركوي تالف** عند الإشارة إلى الشخص الذي حاوره: "أتعلم أيها الأخ، الصحيح والحق الصريح الذي إذا قلته لأحد من زماننا هذا غمض عينيه وأصر أذنيه<sup>(٢)</sup>."

وقوله في **فتح القدوس في جواب محمد بن أحمد أكنسوس** عند الإشارة إلى الأكنسوس نفسه: "أما أنت فلا علم لك بالطرق ولا بالحال ولا بالشطح، إنما تقول كما قيل لا تملك أن تعدل أو تميل<sup>(٣)</sup>".

وقوله: "انظر يا أخي سيد محمد هل يقول هذه الكلمة من له عقل؟<sup>(٤)</sup>".

وقوله: "فما تقول في ذلك يا أخي سيد محمد؟ فساد هذا لانطيل به، بل نكله إليكم<sup>(٥)</sup>".

**ثانياً:** أنه كثيراً ما يقسم بعمر المخاطب أو يحلف بعيشه، ولا شك أن ذلك لا يعني دعاء له بطول حياة أو عيشة هنيئة، لأن طبيعة الجدل ولهجة الإنكار اللتين يستخدمهما البكاي مع محاوره لا يسمح بتخيل مثل تلك الطيبة وحسن النية لأولئك التجانية الذين خالفوا الأمة، بما استحدثوا من بدعة على المهجة البيضاء تعجز

العين المبصرة والقلب الغيور على تلك السنة الغراء أن يقبلها أو يُقر عليها من يمارسها، غياباً أو على مرأى منه إلا بعد عجزه عن منعه بطرق الإنكار المشهورة في الحديث، بل العكس أقرب إلى القبول وهو الدعوة على الخصم ورجاء هلاكه، تشهد على ذلك شتائه المتعددة له وسخرياته المتكررة به.

ومما قاله في ذلك: "لعمرك ما يستقيم هذا المذهب المخترع المبتدع أبداً في هذه الشريعة السمحة

الحنيفة(٦) ". ٧٢

وقوله: " وهذا أي حال لعمرك ما تدريه ولا تعقله ولا في التجانيين ولا فيهم من يعقله(٧) ".

وقوله: " بعيشك من الصادق المحبوب غير العالم بأسماء الله التي من أحصاها دخل الجنة(٨) ".

ثالثاً: أن المخطوط بعيد كل البعد عن المنهج الموضوعي المعهود في المؤلفات العلمية، وذلك لما يفتح عليه

من عواطف شخصية عارمة وانفعالات ساخطة، تخرج - بفرط حساسياتها الحادة - مكتوبه من سلك

المصنفات لعلمية .

ومن تلك العواطف قوله: " فإن ذمتموه ولكم به علم وعندكم به سهم فقبيح أي قبيح، وإن ذمتموه

ولا علم لكم به ولا سهم لكم منه فأنتم أدنى الناس، حتى هؤلاء(١) فوقكم(٢) ".

فمن أين إذا أتت تسمية المكتوب كتاباً؟

إذا أمعنا النظر في مكتوبات البكاي نلاحظ - بوضوح - أنه لم يستخدم كلمة " رسل " يرسل، رسالة،

إلا بلفظة " رسول " الذي يعنى به ذلك الشخص الذي تم أو يتم إرساله برسالة من طرف إلى آخر . فمن ذلك

قوله في رسالته الأولى إلى الحاج عمر يلاطفه ويتجسس نبضه ليعرف حقيقة ما يضمرة له منذ تم له النصر

على الأمير الشيخ أحمد بن أحمد: " فأرسلت رسولاً فتوافق مع أصحابك قادمين من عند أواب(٣) ". وقوله: "

فقد أرسلني كبيرهم محمد بل(٤) ". ٧٣

(١) أكنسوس هو أبو عبد الله ابن أحمد . من الكتاب من أهل السوس، بالمغرب الأقصى . تعلم بفاس، وولي فيها الوزارة، وديوان الإنشاء . وعزله المولى عبد الرحمن بن هشام . وتوفي بمراكش . له كتاب "الجيش العرمم في تاريخ دولة الأشراف، بالمغرب"، و"الحلل الزنجفورية، في أجوبة الأسئلة الطيفورية"، و"ديوان شعر" في مجلد، و"حسام الانتصار، في وزارة بني الأنصار"، و"خمانل الورد والنسرين، في وزارة بني عشرين"، و"الجواب المسكت، على من تكلم في الطريقة التجانية" (مخطوط في خزانة الرباط ٨١٧جلوي) ينظر الأعلام للزركلي ص ١٩ (كنسوس) .

(٢) مخطوط، رقم ٤٨٦٠. ص ٥

(٣) فتح القدوس (مخطوط رقم ٥٦٧) ص ١١٧ .

(٤) المصدر السابق ص ١٢٠ .

(٥) المصدر السابق ص ١٢٠ .

(٦) بغية الألف (مخطوط رقم ٤٨٦٠) ص ١٧ -

(٧) فتح القدوس ص ١١١ .

(٨) المصدر السابق ص ١١٣ .

(١) أي الأنعام.

(٢) فتح القدوس ص ١١٥ .

(٣) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر، (مخطوط، رقم ٥٠٥٦) ص ٣ .

(٤) الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر (مخطوط، رقم ٥٠٥٦) ص ١ .

(٥) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر ص ٣ .

(٦) المصدر السابق ص ٣ .

(٧) الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر ص ١ .

(٨) المصدر السابق ص ٢ .

(٩) المصدر السابق ص ٢-١ .

(١٠) الرسالة الثانية إلى الحاج عمر (مخطوط، رقم ٥٠٥٦) ص ١ .

وإنما اختار لفظة " كتاب " كلما عن له أن يستخدم كلمة "رسالة". وذلك عن محض اختيار، لا جهلاً بالمصطلح. من ذلك قوله: " وقد بعثت بكتابي خير تلاميذي(٥) " وقوله: " وبعثت معهم الكتاب، الذي كتبت إليه، مع رسولي قبلهم ".(٦) وقوله: " فقد جاءني رسولي إليك، بكتابك وكلامك. إلا أنك لم تتعرض لجواب كتابي، بقليل ولا بكثير(٧)". وقوله: " فأجنيبني-أيك الله- على كتابي ذلك(٨)". وقوله: " بلغني أنك قلت في كتابي إليك، وكتابي إلى سلطان سيقو، وكتبي إلى أحمد ابن أحمد - رحمه الله - أنها متناقضة، وهي من رجل واحد(٩)". وقوله في رسالته الثانية إلى الحاج عمر: " فإن حامل الكتاب " بدلاً من حامل الرسالة "(١٠). وقوله في رسالته الأولى إلى أحمد بن أحمد: " فقد جاءني رسولك الحبيب بكتابك المقبول، وأملا على كلامك المعسول، فقبلت الكلام والكتاب. فأقدم الكلام على كلامك، قبل الكلام على كتابك فإن كلامك أحب إلي من الكتاب وأشهى(١١)". وفيما نظن لما تأسس مركز أحمد بابا بتمبكتو لأول مرة وجمعت فيه المخطوطات، وجاء دور الترقيم والتصنيف نظر الباحثون والعاملون الأوائل فيه إلى المكتوبين من جهة حجمها فقط ثم أطلقوا عليهما اسم كتاب.

ويبدو أن البكاي نفسه باستخدامه لفظة " كتاب " في مقام " رسالة " هو الذي وجههم إلى هذه التسمية الخاطئة.

لكننا نعذرهم في الحاليتين لأن كلا المخطوطين ضاعت منه المقدمة، بالإضافة إلى جزء لا بأس به من الصفحات الأولى في نسخة فتح القدوس التي تبتدئ من الصفحة الخامسة عشرة. إن من يطلع على المخطوطين في شكلهما الحاضر وما يتسمان به من جدل صوفي عقيم ومستعر، إضافة إلى خلوهما من أي إشارة تساعد على تحديد ملامح المكتوب من بسملة وصلاة وتسليم أو إشارة إلى المصدر أو الوجهة أو تنويه على الغرض أو الموضوع، أي كل ما يسمح بتصنيف المكتوب وتمييز لونه العلمي أو الأدبي، فإنه إذا لم يعط نفسه جهداً لمطالعة كامل المكتوب أو جلّه لا يستطيع أن يهتدي إلى طبيعته بسهولة، ومن ثم يُسرع في إعطائه اسم كتاب.

ويمكن أن نجزم أن هذا هو الذي حدث أثناء التصنيف منذ الوهلة الأولى، غير أن الخطأ استمر حتى اليوم، إذ لم يقم أحد قبل عملنا هذا بالبحث حول الكتابين ليعرف كنههما، ومن ثم الإشارة إلى ضرورة تعديل الخطأ بإثبات أنهما رسالتان وليسا كتابين.

وإذا لم يطلقوا على الرسالة الأخيرة الموجهة إلى الأمير الشيخ أحمد بن أحمد اسم كتاب وهو في مثل حجم بغية الألف فلأن شكل الترسل باد عليها من مقدمتها بأنها مجرد رسالة. وتلك الثلاث هي أطول رسائل الشيخ التي قلما قصرت عن صفحة أو صفحتين، إذ تصل - أحياناً - إلى الثمانية، كما في الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد.

(١١) لرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد (مخطوط رقم ٢٢٣٠) ص ١.

لذا، فإن النتيجة التي انتهينا إليها في هذا التحقيق السريع هي أن المخطوطين - على الرغم من ضخامتهما وعنوان تسجيلهما بالمركز - لا يخرجان عن كونهما رسالتين عاديتين كتلك التي يتبادلها العلماء في بعض المسائل الدينية أو الاجتماعية دون أن يهدفوا إلى تأليف منهجي حقيقي مقصود.

وخلاصة القول أن البكاي على غزارة معرفته وقدرته على التنثير الجيد لم يحرص على ضبط علومه أو تسجيل معارفه أو حفظ أفكاره في كتب، وكأنه لم يكن حريصاً على أن يضيف على التراث البشري رصيماً علمياً يضمن به لنفسه سيرورة آثاره عبر الأجيال، مع ما في النثر من سلاسة وانسيابية تطلقان عنان الكاتب بما يفسح له المجال الواسع أكثر من الشعر.

لكن إذا أردنا أن نبسط له العذر أو أن نلتمس له مخرجاً في عزوفه عن التأليف المنهجي الموضوعي، فإنه يمكننا أن نزع - مع مؤرخي هذه الفترة - أن انغماس الرجل الكلي في القضايا السياسية هو الذي شغل باله إلى درجة صرفته عن التأليف إلى تحبير الرسائل التي تعد في وقته أكبر وأهم الوسائل الإعلامية فاعلية في تمرير الأفكار والأوامر.

إن مما لا شك فيه أن الشطحات الصوفية والاختلاف حول القضايا المذهبية، خاصة مع نظراء أقوياء الشكيمة تشكل مجالاً خصباً لنمو الجدل والشقاق اللذين فرقا بينه وبين الكثير من أقرانه رؤساء القبائل والأمراء، ولا سيما أشياخ الطريقة التجانية الذين كرس لمقارعتهم وتسخيف معتقداتهم جل جهوده نصره للقادرية طريقته المفضلة، فإنه قلما كتب رسالة مهمة دون أن يضمنها هجوماً على تلك الطريقة، حتى خصص لذلك أهم رسالتين كتبهما في حياته.

ولما كانت تلك المتناقضات السلطوية أو الروحية هي التي حظيت بأكبر حيز من نشاطه الثقافي والأدبي فإنه يمكننا القول: بأن الوقت لم يسعفه في التفكير الجاد الذي يقتضيه التأليف العلمي من بحث وقلب على الرغم من تبحره العلمي العميق وحصيلته المعرفية الواسعة التي لا تقدر.

#### مجموع المادة النثرية المتوافرة عن البكاي:

- ١- وثيقة رقم (٣٥٥٤) في التأمين، في صفحة واحدة (٨ أسطر).
- ٢- إفادة رقم (٢٨٨٠) في الهبة، في صفحة واحدة (٦ أسطر).
- ٣- فتوى رقم (٤٠٢٥) في الزواج، في صفحة واحدة (٧ أسطر).
- ٤- فتوى رقم (٥٩٤٣) في تحليل المطلقة ثلاثاً في صفحتين (٣٤ سطراً).
- ٥- وصية رقم (٣٩١١) في النصيحة، في صفحة واحدة (٢٠ سطراً).
- ٦- الرسالة الأولى في مجموعة رقم (٥٠٥٦)، في ثلاث صفحات (٣ ص).
- ٧- الرسالة الثانية في مجموعة رقم (٥٠٥٦)، في صفحة واحدة (١ ص).
- ٨- الرسالة الثالثة في مجموعة رقم (٥٠٥٦)، في أربع صفحات (٤ ص).
- ٩- الرسالة الأولى (رقم ٢٢٣٠) في التحريض، في ثمان صفحات (٨ ص).
- ١٠- الرسالة رقم (٢٨٨٣) في النصيحة، في ثلاث صفحات (٣ ص).

١١- الرسالة الأخيرة (رقم ١) في الخلافات الاجتماعية والسياسية، في إحدى وأربعين صفحة (٤١ ص).

١٢- بغية الألف في جواب يركوي تالف، رقم (٤٨٦٠) في تسع وثلاثين صفحة (٣٩ ص).

١٣- فتح القدوس في جواب محمد بن أحمد الأكنسوس، رقم (٥٦٧) في مائة وثلاثين صفحة (٣٣ ص).

## المبحث الثاني

### أغراض النثر عند البكاي:

إن مخطوطات البكاي النثرية بالنظر إلى أنها جميعاً - دون استثناء - قد انصبغت في جميع صورها وأشكالها من حيث المعنى واللفظ بالروح الإسلامية فكراً وصياغة، وخاصة بتلك الصبغة الصوفية التي طفحت بشكل طاغ على أعماله، فهي تنحصر جميعاً تحت غرضين اثنين لا ثالث لهما، وهما الغرض السياسي والغرض الاجتماعي، علماً بأن الغرض السياسي - وإن كان مسيطراً على عقله وقلبه في جميع أوقاته وإلى حد بعيد - لم يكن مستقلاً أبداً، بل يأتي دائماً مشوباً بالمواضيع الأخرى وخاصة الصوفية التي لم يكن للكاتب قدرة على الفكاك منها.

### (١) الغرض السياسي:

لقد ترتب على انحصار فكر الكاتب في دائرة التصوف الضيقة وسعيه الحثيث في محاربة التجانية أن ضاقت الأغراض النثرية لديه، فلم تنتوع كما كان يمكن أن يتوقع من كاتب قدير وعالم متبحر مثله، إذ لم يعثر له خارج الجدل الصوفي بين التجانية والقادرية سوى موضوعات ضئيلة، لا تتجاوز نصوصها الصفحة أو نصفها.<sup>٧٤</sup>

(١) مخطوط رقم ٣٥٥٤، ص ١.

ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نشير إلى مجموعة معينة من مخطوطاته على أنها سياسية بحتة، ومن ذلك رسالتاه بغية الألف وفتح القدوس اللتان يبدو أنه خصصهما للجدل الصوفي، وكذلك الرسالتان الطويلتان الأولى والأخيرة إلى الأمير الشيخ أحمد بن أحمد، فإن الهدف البعيد لهما وغير الظاهر كان سياسياً يرمي إلى نفوذه الروحي في المنطقة. ولذا كان يحارب التجانية ويهاجم الحركة العمرية. ومن أجل ذلك أيضاً طال نفسه في تلك المخطوطتين وغلب عليهما طابع الجدل والإنكار على التجانية والحاج الذي يمثلها في هذا العصر، بينما يمكننا في الجانب الآخر أن نميز بسهولة رسائله الاجتماعية المختصة التي اتسمت في غالبها بالقصر والإيجاز.

وذلك أن البكاي على الرغم من أنه لم يُنصب ملكاً لدولة ولم يُعين سلطاناً على شعب إلا أنه كان يعد نفسه ولياً وخليفة على المسلمين وخاصة أهل الطريقة القادرية، ما جعله لا يتحدث إلى الناس إلا بلهجة الملك إلى رعيته أو السلطان إلى شعبه. فكثرت في مكاتباته اللهجة الأمرة والحاكمة كقوله في الوثيقة التي كتبها في تأمين أحد المرتدين من القادرية إلى التجانية ثم منها إلى القادرية مرة ثانية: "أما بعد ليعلم من سيقف عليه أن أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين الشيخ سيدي أحمد البكاي بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار، نجل السادات الأبرار (١)".

لقد انعكست هذه النظرة الرسمية على جميع رسائله التي اتخذها وسيلة إعلامية مهمة يبيث عن طريقها أوامره وتوجهاته السلطانية، بحيث جاءت صدى قوياً للواقع السياسي الذي كان يسود المنطقة في عهده. ومما لا شك فيه أن الغرض في المخطوطتين "بغية الألف" و"فتح القدوس" واحد لا يختلف أحدهما عن الآخر، فكلاهما يدور حول عقائد الطريقتين الصوفية في تمجيد وترويج للقادرية ومهاجمة للتجانية بتكذيب أصولها ومبادئها وتقنين عقائدها وادعاءاتها، لكن بحجج متكررة دون فروق كبيرة تذكر بين العملين إلا من ناحية التوسع في الشتائم والتحقير والإسهاب في الذم واللعنة، مع الاكثار من التهديد والترهيب والسخرية والتهمك في فتح القدوس.

لقد وُجه كل من المخطوطتين وكذلك المخطوطات (رقم ٥٠٥٦) والمخطوطات رقم ١ و ٢٢٣٠ إلى علماء أصوليين وفقهاء مثله بغض النظر عن هو أبحر من الآخر في العلم، ما عدا في حالة الأمير الشيخ أحمد الذي تتفق الروايات على أنه كان صغير السن في حدود العشرين من العمر، وإن كانت له محاولات في الأدب (١) ولكنه إلا أنه لم يبلغ في درجة في العلم الشرعي شأواً واحد من مجموعة الأدباء الكبار كشعراء الطوارق والأنصار أو الحاج عمر أو يركوي تالف، والأكنسوس الضالعين في اللغة والدين، إذ كان كل واحد منهم يتميز بعقل جدلي فلسفي واع وسعة في إجابة النظر وتدبر المعاني وصياغة الأفكار ويرد الصاع صاعين أو أكثر. غير أن الأمير الشيخ أحمد قد تجاوزهم جميعاً في الجاه والسلطان، ما عدا الجاح عمر الذي كان إمبراطوراً حيث فاق الجميع في السلطة. أما الأخيران يركوي تالف والأكنسوس لم يتجاوزا مرتبة وزير في دولتيهما.

أما في رسائله الثلاثة إلى الأمير أحمد بن أحمد فقد جاء الغرض فيها متعددًا ومتشعبًا، إذ تراوح بين الوصية والنصيحة والحث على الطاعة والمشورة السياسية والحض على الحرب والقتال ومقاطعة التجانية. وتعد هاتان الرسالتان إضافة إلى المخطوطين السابقين الذكر والمجموعة التي وجهها إلى الحاج عمر الفوتي من عيون أعماله النثرية.

(ب) الغرض الاجتماعي: <sup>٧٥</sup>

إن رسائل البكاي في هذا الباب محدودة ومحصورة، وهي في أغلبها قصيرة وموجزة تقتصر على موضوع واحد عادة دون أن يخالطه موضوع آخر. أما الرسالة الثالثة إلى أحمد بن أحمد فموضوعه الوحيد هو التوجيه والإرشاد وليس النصيحة كما هو مدون في عنوان تصنيف المخطوط، وهي في ثلاث صفحات غير كاملة. وهناك ثلاث رسائل مصنفة في مجموعة واحدة مضمومة إلى بعضها ومسجلة كلها معا تحت رقم واحد، هو (٥٠٥٦)، وتحمل عنوان: مجموعة رسائل من أحمد البكاي إلى الحاج عمر الفوتي. الأولى في الاعتذار في ثلاث صفحات، والثانية في الشفاعة في صفحة واحدة، والثالثة في العتاب في أربع صفحات. وتوجد مجموعة أخرى من الأغراض الاجتماعية القليلة التي وردت في رسائله الأخرى لكن دون اختصاص بغرض إلا نادراً كالوصية والوعظ والفتوى. أما بقية الأغراض كالاعتذار والعتاب وطلب الشفاعة، فإنها جاءت مجتمعة مختلطة في بعض الرسائل لكن بفروق بسيطة غير ذي بال.

بعض الأغراض الواردة في النصوص النثرية عند البكاي:

#### • العتاب واللوم:

أما العتاب فالغالب عنده أن ينلبس بالعنف والشدة والقسوة، لكن المرة الوحيدة التي كادت أن تغلت من تلك الصبغة هي المرة التي جاء فيها خفيفاً مخفياً في بداية رسالته الأولى إلى الأمير الشيخ أحمد بن أحمد غير صريحة، وذلك في قوله:

"أيها الأمير أرى كلامك مع حلاوته وطلاوته كأنك هائب أو رائب يريبك رائب. وأي شيء تهاب؟ فإنك إما أن تعتقد في أنني إنما أنا رجل كسائر الرجال وما عليك من رجل وأنت سلطان... وإما أن تعتقد أنني عبد من عباد الله ترجو منه وتخاف ما يرجي ويخاف من عباد الله من أنبيائه(١)".

ثم لا يلبث أن يشند ويعظم في نفسه فوق الأمير ومن في منزلة الأمير والسلطان. فيقول بالقوة والقهر: "فاستقم في ذلك وأقم فيه وجهك خالصاً لله تعالى(٢)". ثم يخلط ذلك بالتهديد والتخويف. لأنه يعلم في قرارة نفسه أن ذلك مطلب صعب إن لم يكن مستحيلاً.

(١) له قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم مطلعها: بحمد الله رب العالمينا بدأت مديح خير المرسلينا  
إلى أن يقول: ألا مبلغ الكنتناوينا بأن الله خير الفاتحين  
وبلغ يا أخي الفتاوين بأن الله خير الحاكمين

## • الاعتذار وطلب الصفح: ٧٦

لم يفرط من البكاي في جميع مخطوطاته طلب الاعتذار والصفح سوى مرة واحدة وذلك بعد استيلاء الحاج عمر على مملكة ماسنا بعد اجتياحه لمملكة سيقو وإزاحة جميع حلفاء البكاي الذين كان يعتمد عليهم لصد الحركة العمرية التي انتهت إلى الانتشار الواسع في كل المنطقة.

ولربما كان لتلك الحوادث السياسية صداها القوي في نفس البكاي الذي لم يكن يتوقع مثل هذا النجاح لحركة الجهاد العمري، إذ كان واثقاً بأن أولئك الذين ظل يحرضهم على الحاج ويلوح لهم بالنصر بفضل دعواته المباركة، التي تبين عدم جدواها لانتصار العدو الساحق. فأوجس في نفسه خيفة من مغبة اطلاع الحاج عمر على الدور الذي لعبه في تحريض الناس عليه من خلال تلك الرسائل التي تبادلها مع الأمراء المهزومين، فبادر إلى مصالحته والاعتذار عن ما بدر منه من قول أو فعل ضده، فقال:

"فإني أعتذر إليك وأطلب منك أن تصفح عن أشياء حملني عليها أمران: أحدهما لا أذكره لك الآن، ولعلك تسمعه من غيري. ثانيهما كلام الناس وما ينقلون عنك وأنت تقول إنك روح الله المسيح بن مريم رسول الله. فنفرني ذلك كما تعلم أنه منفر. بل من لم ينفره هذا علمت أنه لا دين له... فاعف عنا من مثل هذه الكلمات، واعف عنا فيما سلف مما سببته هذه الكلمات... فإني معتذر إليك مما فرط كل الاعتذار ومستغفر منه كل الاستغفار والكريم يقبل العذ، ويغفر الذنب ويعفو عن السوء ولا يحقد(١)".

## • طلب الشفاعة: ٧٧

ورد عن البكاي من هذا الطلب أربع مرات في رسائله الثلاثة إلى الحاج عمر الذي يبدو أنه لم يستجب لأي من طلباته عندما سقطت في يده المملكتان الماسنية والبيبارية، ليصبح بذلك أحد أكبر إمبراطور إسلامي، يهيمن على أغلب مناطق السودان الغربي من سيقو إلى تمبكتو، التي كان للبكاي فيها مصالح كثيرة، بفضل تحالفاته مع البيبارا والفلان، فمنذ وقوع المنطقة كاملة في يد الحاج أصبحت تلك المصالح مهددة، ما يفسر موقفه العدائي من الحاج، إذ كان لزاماً عليه في هذه الحالة أن يصالحه ليتمكن من استرداد بعض خيراته، وربما بعض نفوذه. فاحتاج لذلك، إلى مجاملة الإمبراطور الجديد، لطلب الشفاعة، لأحد الشرفاء، المتوسلين به لدى الحاج في أمة أخرى له شخصياً وأموال خاصة به وقعت في يد رجال الحاج، وكذلك لحلفائه الذين تسبب في وقوعهم في الأسر كالأمير أحمد بن أحمد راجياً منه أن يرفق به وبجميع آله وأيضاً لأصدقائه الطوارق الذين عزموا العودة إلى الصحراء، لأنهم فقدوا بعض مواقعهم ومصالحهم بسقوط ماسنا،

(١) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ١.

(٢) المصدر السابق ص ١.

(١) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر، ص ١.

(٢) الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر ص ٣.



مطالباً إياه أن يسكنهم في تمبكتو التي لا يرى لها قوماً بدونهم، وكذلك في أهل أتوات الذين اعتبرهم من خاصته، فقال:

"ومما أطلب منك أيها الأمير أن تطلق لي امرأة كانت صفية لي من آل الشيخ أحمد ثم آل ابن أخيه "بالبو". بلغني أن عمالك هنا عاملوها معاملة الإمام وزعموا أن ذلك لأنها كافرة(٢)"".

"فإن حامل الكتاب شريف من أهل البيت النبوي جاءني بنية المسير إليك والشكوى من بعض عمالك، وذلك أنه كانت له سرية فأخذوها منه حاملاً منه. فطلب أن يفتديها بأكثر من ثمنها فأبوا وادعوا أنها حرة...وها هو الشريف سائر إليك وأثق بمحبتك لأبائه وتعظيمك لأبنائهم فاقض حاجته وأكرمه وأحسن إليه يجازيك الله ويكافيك نبيه صلى الله عليه وسلم، وقد كتبت لك فيه شفاعاة حسنة وهو نفسه كاف لنفسه شافعاً وأكبر من ذلك شفاعاة النسب الشريف فيه وله(٣)"".

"ومما لا بد من الكلام لك فيه بعد أن أقدم لك مقدمة عليه أمر الطوارق... ثم لما ملكت هذه الأرض قطعوا الطمع من سكنها معك فعزموا على الانتقال والانحياز إلى إخوانهم وسلطينهم ورأوا أن يقضوا أربهم منها بمرة فكلمتهم وثبتهم حتى أكلمك فيهم ونهيتهم عما نوا من الفساد وقلت لهم إن الأرض اليوم للحاج عمر فإن الفلان كأنهم عزلوا سلطاناً وأقاموا آخر...فمطلبي أن تسكنهم لعمارة هذه الأرض. لا سيما تمبكتو فإنها لا عمارة لها إلا بالطوارق ولا أريد منك أن تقربهم على الظلم بل انههم عنه وردهم ودع لهم من عوائدهم وأحوالهم لا من الظلم. فإن أهل البوادي وأرباب المواشي عمارة الأرض والقرى. فاكتب إلي بما رأيت أن تقول لهم وما ترضى منهم(١)"".

"وأيضاً أكلمك وأشفع إليك في أحمد بن أحمد بن الشيخ أحمد أن تحسن إليه، وتعفو عنه وترفق به، وكذلك بجميع آل الشيخ أحمد لبو وجميع ماسنا ثم أشفع إليك في أصحابه وأرقائه الذين وصلوا إلي واستجاروا بي فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين، وقد أراك الله ما تحب من الظفر فليرفيك ما يحب من العفو والإحسان خير ما أوعيت في الزاد والله يقلب الليل والنهار(٢)"".

ولو افترضنا أن هذه الشفاعات قد خرجت من صميم قلب منكر قلبت الهزيمة موازينه وعكرت اعتقاداته السابقة فإن البكاي لم يلبث بعد أن النقطة أنفاسه وتقبل الواقع على مرارته أن تشجع وعاد إلى تحدياته مع كل من ينازعه سلطاته الاجتماعية والروحية، فنراه يتكلم بشموخ وترفع وكأنه لا يبالي أقضيت حاجاته أم لا، لأن الغاية أن لا منهم ضعف، أو يحس الطرف الآخر بأنه يستكين له. ومن أجل ذلك وهو في موقع التشفع الذي يقتضي - في العادة - التواضع أو الانكسار لاستجلاب القبول أو الرأفة والرحمة من قلب الحاكم الغالب يقول في لهجة جافة، غير خاضعة:

(٣) الرسالة الثانية إلى الحاج عمر، ص ١.

" فأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين، ولا تأمن مكر الله إنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ولا تقنط من رحمة الله إنه لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون. قلت لك هذا في حال الشيخ أحمد نصيحة لك، وشفقة عليك من الله ولأخوة الإسلام التي بيني وبينك وبينهم. ومن ملك فليسمح ومن قدر فليعف ومن قال فليحسن(٣)". ٧١

وعلى الرغم من أنه يتمثل بمضمون آيات فإنه يمكننا أن نلاحظ كيف أنه لم يستطع التجرد من روحه الأبوية التي مهما طلبت أو تمت لا تتنفس إلا عن أنفة وكبرياء لا تعرفان خضوعاً ولا استكانة مهما صعبت الظروف.

## رسائل البكاي

### ١- رسالة إلى غداد بن علي يعطيه رأيه في مسألة زواج(١)

الغرض من هذه الرسالة الإفتاء في مسألة فقهية وإهداء السلام إلى الإمام الشيخ أحمد بن أحمد. اقتصرنا هذه الرسالة لإيجازها الشديد على موضوع واحد فقط هو المشاورة في مسألة زواج، وقد حرص الكاتب فيها على التتميق والزخرفة اللفظية من بداية الرسالة حتى نهايتها، محاولاً أن يبدع فيها قدر الإمكان. فجعلها مسجوعة بكاملها ليحدث فيها نغمات صوتية دافئة تتسجم مع ما استخدمها من عبارات دالة على المودة والعطف بينه وبين هذا الشخص الذي يعده ويصفه بالأخ والحبیب، ما يجعله أهلاً لملاطفته وملاينته.

فقد حاول أن يقوي من جنان السائل بما ضمنه في كلامه من آية كريمة (فإذا عزم فتوكل على الله)(٢) لكي ينفي عنه كل تردد يمكن أن تحدثه في نفسه مثبطات الكارهين، فكرر لا النافية ليطمئنه بأنه لن يلقى في مشروعه ما ينافي الخير والسعادة قائلاً: " فلا بأس ولا ضرر بل الخير لا غير".  
غير أن النص على إيجازه لم يخل من إطناب غير مجد، وذلك حين انساق وراء عاطفته الودية المتبسطة فكرر - بدون داع - كلمتي " أخ " و " حبيب " مرتين في قوله: " أخي وأخيك وحببي وحببيك " . إذ لا يظهر لها غرض سوى الملاطفة لأشتراكهما في ذلك الأخ الحبيب، وقد كان يكفيه أن يقول: " أخينا وحبينا " وانتهى . كما أنه كرر لفظة الإمام - دون جدوى - في قوله: " الإمام أحمد بن الإمام أحمد " وللغرض نفسه.

(١) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر، ص ٢-٣.

(٢) المصدر السابق ص ٣.

(٣) الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر ص ٤.

أما استدراكه بالسلام في قوله: " على جميع آلك وعيالك " بعد قوله: " ثم على ابنك " فقد جاء فقط تذكيراً له بوده وتأكيداً لاهتمامه بجميع أهله، وربما فعل ذلك استمراراً للنغمة الموسيقية التي أولع بالانسحاق وراءها.

٨٠

## (٢) وثيقة في تأمين جاوندو كبار أمانة تامة (٣)

تتضمن هذه الوثيقة تبرئة ذمة الرجل المذكور في العنوان الذي يبدو أنه كان متهماً أو مطلوباً لاتباعه الحاج عمر الفوتي في وقت من الأوقات . ثم لما اشتدت عليه الضغوط وهُدد بالموت لوجوده في أوساط القادرية، فقد اضطر إلى ترك التجانية والعودة إلى نحلته الأولى، لكن تعزيراً له وردعاً لغيره فرض عليه البكاي كشرط لقبوله مجدداً في التجمع الطائفي غرامة مالية ثقيلة يقصد منها إلى تحرير رقبتة نظير توبته فلا يسمح لأحد بعدئذ أن يمسه بسوء .

تميز هذا الخطاب أيضاً بإيجازه الشديد، فهو لم يتجاوز ثمانية أسطر في أصل المخطوط، إذ خلا من جميع صور الإطناب والحشو إلا ما كان من تكرار الجار والمجرور في قوله " تقبل الله منا ومنه "، لأن " منه " يدخل - بلا شك - من ضمن المذكورين في " منا " الأولى، ولم يكن ثمة حاجة إلى لفظة تخصصه إلا إن كان الغرض منه إظهار عهديته الحديثة بعودته إلى النحلة بعد ارتداده منها .

أما لفظة " خليفة رسول رب العالمين " فإنها جاءت للتأكيد والتذكير بما يشعر به الكاتب حيال نفسه من مرتبة دينية عالية وقيمة روحية كبيرة تُضفي على أوامره ونواهيهِ قوة شرعية، بحيث تُعد مخالفتها خروجاً عن طاعة الله وعن طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما أنها تعطيه الحق في إيقاع العقاب وتجريم المخالف .

ويلاحظ أنه - على الرغم من قصر هذا الخطاب وإيجازه - لم يستطع من فرط الغضب أن يمتنع من وصف الحاج عمر " بالدجال (١)"، في قوله: " من إعانته لقوم الدجال "، وكان من الأيسر أن يذكر اسمه صراحة لما في ذلك من التبيين والإيضاح، إذ المعلوم أنه وحده الذي يُطلق عليه هذا الوصف في المنطقة .

٨١

ومن الملاحظ فيها أيضاً أنه لم يحرص على التتميق والزخرفة، فهو لم يسجع فيها إلا سجعة واحدة جاءت في قوله: " أن أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين " .

أما العبارة الأخيرة ولفظها: " وبه كتب من أمر بكتبه عبيد ربه أبو العباس بن عمر بن سيد زيان كان الله له ولسلامة المحمدية ولياً ونصيراً أمين "، فلا يخفى منها أنها من كلام الناسخ الذي سمح لنفسه بتلك

(١) مخطوط، رقم ٤٠٢٥ .

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩ .

(٣) مخطوط، رقم ٣٥٥٤ .

(١) يقصد به غريمه الحاج عمر . أما الدجال فأخوذ من الدجل، وهو طلاء البعير بالقطران. سمي بذلك لأنه يغطي الحق ويستتره بسحره وكذبه، كما يغطي جرب البعير، بالقطران. وهو الدجال الأكبر الذي يُختم به الكذابين والدجالون الذين تنبأ الرسول صلى الله عليه وسلم بخروجهم، يدعي الملك في أول أمره، ثم يثني بالنبوّة، ثم يختم بالفرية الكبرى بادعاء الربوبية. ينظر أشراف الساعة الصغرى والكبرى، ص ٩٨ .

(٢) مخطوط، رقم ٢٨٨٠ .

الإضافة الطويلة، ويا ليته كتبها على خط منفصل تحت الخطاب حتى لا يتداخل تعليقه مع نص كلام الملمي، اللهم إلا إن كانت الرسالة منقولة عن مخطوط آخر لم ترد فيها هذه الملحوظة الأخيرة.

### ٣- إفادة إلى الشيخ أحمد بن أحمد في شأن دار(٢)

الغرض من هذه الرسالة هو إفادة الأمير أحمد بن أحمد بأنه أعطى للأخ (بابيراه بن الفقيه عم) داره التي في "جيني" أن يسكن فيها ما شاء الله. تميزت هذه الرسالة أيضاً بالإيجاز الشديد، فهي لم تتجاوز ستة أسطر في أصل المخطوط، ولم تحمل غرضاً آخر غير الإفادة بهبته الدار والنهي عن التعرض لصاحبها الجديد. لم يسجع فيها سوى سجتين خفيفتين، وذلك في أول الخطاب: "بالسلام والإكرام، إلى الإمام الهمام". وكذلك في ختامها: "أحسن جزاء الكرام والسلام عليك والسلام".

ولم يحاول أن يحليها بزخارفه اللفظية المعتادة، لأن غرضه مجرد الإفادة والإعلام، فكان صدر ذلك لا يتسع للتميق والتوشية اللفظية التي تؤدي إلى التطويل والحشو أحياناً فاقترصر على توصيل المراد بأقل الألفاظ. وفي ذلك بلاغة أخرى لها قيمتها الفنية في إبعاد العقل عن اللبس والغموض والاحتمالات التي قد تضيع فائدة الرسالة.

ويلاحظ فيها صيغة النهي القاطع الذي حاول - في النهاية - أن يلينه ويلطفه بالدعاء. ومع ذلك فإن الخطاب على هذا الإيجاز لم يسلم من محاولة إطناب تمثل في الحشو الوارد في قوله: "والله يجازيك عنا وعن الإسلام"، إذ كان بإمكانه أن يستغنى بالجزء الأول دون إضافة كلمة الإسلام الذي يريد به أهله، وقد قام مقامه لفظة "عنا" التي تقدمت قبله. كما أنه أثقل العبارة بتوالي الإضافة في "أحسن جزاء الكرام"، وبتكرار لفظة "السلام" الأخير الذي لم يزد شيئاً من قوة الكلام وإنما أعطى بالعكس انطباعاً مفاجئاً يؤهم بالاستخفاف وعدم التقدير.

وأما اختلاف الضمير في "أعطيت" بالمفرد و"دارنا" بالجمع فقد يكون سهواً منه أو خطأً من الناسخ، ويمكن أن يكون المعنى للبكاي والتعبير للناسخ، غير أن ذلك مستبعد لما في الخطاب من صيغة النهي القاطع الذي عودنا عليه الكاتب، فهو ينظر إلى الأمير وكأنه مجرد عامل له يجب عليه تعميم محتوى المكتوبة لعامة سكان المدينة.

### ٤- الرسالة الجوابية، في حكم المطلقة ثلاثاً(١)

هذا المخطوط عبارة عن رسالة جوابية لاستفسار أحدهم حول موضوع طلاق بائن بين رجل مؤسر وامرأة، وقد أصيبت المرأة بعد الفراق بخبل من فرط حزنها وأسفها ورغبتها في العودة إلى زوجها. وكذلك الرجل أيضاً فإنه لم يسلم بدوره من وسوسة يخشى عليه من خبالها، لذا فإن الأقرباء يرجون مسوغاً للمراجعة بينهما مخافة الهلاك لكليهما.

(١) مخطوط، رقم ٥٩٤٣.

بدأ المخطوط وفوقه نص السؤال الموجه إلى البكاي، ثم تلاه نص الجواب بدون فاصل بتحية أو ذكر مصدر أو وجهة. وليس لهذه الحالة سوى دلالة واحدة هي أن هذا المخطوط ليس المخطوط الأصلي الذي أرسل إلى البكاي، كما أنه لا يفهم منه سوى أن الناسخ أو المنسوخ له أراد بالجمع بين النصين مجرد الإيناس أو التذكير بالموضوع الأساسي الذي يطلب له جواب الشيخ.

لم يبدأ نص الجواب بالبسملة المعتادة في عدد من مخطوطاته، كما أننا لا نستطيع أن نجزم أن استخدام السائل الأسجاع هو الذي دفع الكاتب إلى الانسياق وراء تلك الزخرفة اللفظية، إذ إنها وافقت عادة قديمة ومحبوبة لدى الكاتب.

ثم إنه لو أراد المتابعة في ذلك لحرص على أن يجعل كامل الرسالة أسجاعاً، وخصوصاً أنها ليست في ذلك الطول الذي يرهق مثله.

والرسالة بمعلوماتها الوفيرة وحقائقها الجلية - وإن لم تتضمن نصوصاً شرعية تزيد من قوة حجتها - دليل على ثقافة الرجل الدينية العميقة التي تجعله جديراً بالقيام بدور المفتي. وكان من علمه بتلك القدرة من نفسه أنه أصبح يقدم كل معلومة مؤكدة بأن ومحققة، يلتزم فيها بالغرض وحده دون تطرق إلى مواضيع خارجية، مع تخفيف الأسجاع رغبة في توجيز الرسالة.

وليس في هذه الرسالة - بصورة عامة - سوى مظاهر قليلة من الإطناب، تجلت في تكرار بعض الألفاظ كالضرورة والشريعة وفي محاولة الكاتب تفصيل المحارم التي يرى أن الكافر لا يتورع من نكاحهن. وتظهر العاطفة القوية في قوله: "أما قول بعض المبتدعة الفسفة الكذبة"، وفي قوله: "فإنه مجرد حماقة وكفر"، غير أنها تزداد حدة وشدة وفي شكل تعجب يضخم به كل ما في تلك الألفاظ من معنى، قاصداً بذلك إلى تخويف السائل وترهيبه من الإقدام على ذلك الفعل الشنيع الذي يبدو وكأنه فهم من لهجة السؤال أن القوم مزمعون عليه وأنهم لا محالة سيفعلونه، وإنما ينتظرون ترخيصه الذي سيطمئنهم فحسب، ولذلك ختم الرسالة بتهديد شديد يقطع الأمل ويرعد المفصل، فقال: "ولا يفعله إلا فاسق جد فاسق ولا يقوله إلا كافر جد كافر" ليسد بذلك جميع أبواب الطمع والتوهم والاجترار على القبيح المحرم.

## ٥) الوصية الموجهة إلى أبنائه الخمسة (١) <sup>٨٢</sup>

غرض هذه الرسالة الأساسية نم الدنيا والتقليل من قيمتها وترغيب النفوس في الزهد فيها. لأن خيرى الدنيا والآخرة موقوفان على ذلك. ثم ذكر الأسباب والطرق التي لا يتوصل إليهما إلا بها. من ذلك طلب العلم والاعتصام بالجماعة والقناعة والحذر من الذنوب والأخلاق السيئة. إضافة إلى سلسلة من الحكم أنهاها بالدعوة إلى عدم احتقار الرجال والحرص على مصاحبة الأخيار والابتعاد عن مخالطة الأشرار.

بدأ النص بصورة رائعة من المراوغة ومحاولة التخلص من الخطر هرباً من العدو أو المهاجم. وكان ينتظر أن يطول أو يكثر من مثل هذا النص الذي يكتظ بكم هائل من النصائح الإسلامية والعربية التي لا

(١) مخطوط، رقم ٣٩١١.

ينضب معيها سواء ما قيل قبله أو ما يمكن أن يكون من إضافاته الشخصية، لكن يبدو أنه كان حريصاً على اختيارات خاصة من تلك الوصايا المعروفة والحكم المشهورة، فاختار منها مجموعة صغيرة زانها بصياغته الخاصة، معتمداً على تكثيف أسماء الفاعل لخلق إيقاعات موسيقية متوازنة.

وليس في النص أي ملمح للإطناب، وأما تكرار حرف الجر ولا النافية في الفقرة الأخيرة فإن الغرض منه مجرد استقصاء المعاني والأحوال، ومن قبل ذلك تكرار الشرط في أول الحكم الذي لم يستفد منه معنى زائداً، لأن وضع الشرط في أول الأحكام طبيعية في صياغة الحكم باللغة العربية.

والغريب أنه لم يحرص فيها على السجع إلا نادراً وما ورد منه كان عفو الخاطر ومناسباً لموقعه من

المضمون.

والجديد في هذه الوصية أن البكاي تقمص فيها قميص المعلم الفاهم والمربي الحكيم والواعظ المرشد الذي يعلم مكارم الأخلاق ويوجه إلى جميل السلوك والتصرفات. ولعل ذلك لأنه يخاطب أبناءه. فقد تدثر بالرفق والحنان، ما دفعه للمرة الأولى أن يختم خطابه بالدعاء والثناء على الله تعالى مع الصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك ليس من عادته في رسائله.

## ٦) نصيحة موجهة إلى الإمام أحمد بن أحمد الماسني(١)

لا تمت هذه الرسالة - أساساً - إلى النصيحة كما هو مفهوم من عنوانها الذي وضعه المصنفون في مركز المخطوطات بتمبكتو بقدر ما يرتبط بالوعظ أو الإرشاد. فهي رسالة متوسطة في ثلاث صفحات لم تحمل سوى نصيحة واحدة في بدايتها حول تقوى الله وفي عبارة مقتضبة لم تتجاوز السطر الواحد، بينما كرس بقية الخطاب للوعظ والإرشاد، وذلك بالتعريف بأحوال الناس وصفاتهم في الدنيا، وكيف يتقلبون في حياتهم بين أعمال التقوى والفجور وبين الخير والشر، حتى تؤدي بهم بعد الممات إما إلى الجنة أو إلى النار. ويبدو أن هذه الرسالة كتبت في أيام الود والصفاء بين الرجلين. فالبكاي يريد أن يعلم الأمير بعض أسرار النفس البشرية وما انطبعت عليها من صفات وأحوال تصنع السعادة أو الشقاوة الأخروية. وورغبة منه في زرع الثقة في نفس الأمير بصلاحيته لإسداء النصائح والتوجيهات الروحية حاول أن يذكر الأمير بما كان يتسم به أسلافه من ورع وتقوى جعلتهم يستحقون الولاية الحقة لرب العالمين، ما يؤهلهم للدخول في زمرة الفائزين بالجنة.

وهي إحدى رسائله التي لم يحرص فيها على السجع إلا في مقدمتها الطويلة التي أسهب فيها من الثناء على الله، ثم الصلاة والتسليم على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهي مقدمة مشحونة بعواطف المحبة لله ولرسوله، أضفى عليها هالة كبيرة من العظمة والتقدير بتدفق أسماء التفضيل التي بلغت ثلاثة عشر اسماً في

(١) مخطوط، رقم ٢٨٨٣.  
(٢) مخطوط ١، ضمن مجموعة رقم ٥٠٥٦.

سبعة أسطر، ختمها بدعاء عريض يوحي بفرط الأمل والسعادة الباطنية والنشوة الروحانية، ما أدى بلا خفاء إلى تكرار ركيك لحرف الجر " إلى " وكلمتي " الجمع واليوم " . وتستمر هذه العاطفة معه حتى في السلام الذي يفتح به المخاطب، إذ عطره بالنور والعلو لما يتسم به مخاطبه - عنده - ذلك اليوم من صفات جليلة يعتقد سفورها للعيان وحقها من مزيد الذكر والإشهار . والرسالة مشحونة بالمقابلات بين أعمال التقوى والفجور وبين صفات الخير والشر وبين دخول الجنة والنار . وجاء تطويلها من رغبته في التفصيل والدقيق والشرح الوافي كي يُوصل الفكرة واضحة دون لبس ولا غموض .

#### ٧) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر الفتوي(٢):

جاءت هذه الرسالة في ثلاث صفحات بمقدمة متوسطة وبسملة واحدة وحمدلة وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . ويظهر من أغراضها الخاصة: الاعتذار وطلب الصفح والشفاعة والاستعطاف وأنها كتبت بعد استيلاء الحاج عمر على مدينة حمدالله عاصمة المملكة الماسنية وقد أسر الأمير الشيخ أحمد بن أحمد وآله، قبل أن يُجري فيهم حكمه . وبما أن الحاج عمر في حالة قوة ونصر فقد كان لزاماً على البكاي أن يلاطفه ويلاينه، ولا سيما أنه يطمع منه في أمور صعبة يخشى أن يرفضها . ولذا فقد ألقى عليه سلاماً عطراً مبدياً له رضاه عن كونه أميراً . أعقب ذلك بدعاء النصر والفتح وهنأه بالفوز وكأنه يشجعه على الاستمرار في جهاده، مؤكداً له أن عمله هذا مما يُرضي الله ويستحق عليه الثناء والشكر . ما يُوهم أنه كان يعتقد في قرارة نفسه أن حركة الحاج عمر جهاد حقيقي، وأنه لولا خوفه من امتداد الطريقة الجديدة بسط نفوذها على الرقعة التي ظلت القادرية تهيمن عليها لما كان هناك تنافر ولا تناذب بين الأمراء في المنطقة.

ثم مهد لمطالبه بتذكير الحاج بآيات الصفح والعتو وكظم الغيظ، ليُهيئه لقبول معذرتة مستخدماً حديثاً قدسياً في المعنى نفسه . ثم بسط عذره صراحة راجياً أن يقبله منه. ويلاحظ أنه فعل ذلك في غير تذلل ولا استكانة، إذ عول موافقه السلبيية من الحاج على ما بلغه عنه من أمور تُوحى بما يُخرج صاحبها من الملة . بعد ذلك طلب من الحاج أن يوضح له ما ينتظره منه في ظل الظروف الحالية، إن كان يريد قربه منه أو بعده عنه توكياً من فساد الود بينهما بفعل أعيان مدينة تمبكتو الذين يصفهم بالمنافقين وأنهم دأبوا على الإيقاع بينه وبين من يتوadd معهم من الأمراء . بعد ذلك أخذ يعرض نفسه على الحاج آملاً أن يقبله إلى قربه بوصفه عالماً، وذلك اقتداءً بسنة كبار الصحابة محذراً إياه من الاقتداء بملوك الدنيا الذين لا يراعون للعلماء مقاماً ولا يحفظون لهم حرمة.

و يلاحظ أنه لم يعمد إلى السجع في هذه الرسالة إلا في قوله: " وقطع بك الظلم وأهله وأحيا بك العلم وعدله وأظهر بك الدين وفضله(١)". وفي قوله: " علمنا تعليم الجاهل وتقويم المائل وإعطاء السائل(٢). كما أنه حرص على أن يختم خطابه بالتواد نفسه الذي بدأه به فكرر السلام أربع مرات والدعاء مرتين . والرسالة تثبت إمامه الواسع بالتاريخ الإسلامي ورجاله .

الغرض من هذه الرسالة هو الشفاعة لأحد الشرفاء في سرية له حامل وقعت في أيدي رجال الحاج أسيرة حرب أي أمة. فهو يذكره بمكانة آل البيت النبوي لدى المسلمين ليدفعه إلى الرضوخ لشفاعته فيرجع الأمة إلى مولاها الذي يستعد للمسير إليه.

كُتبت هذه الرسالة أيضاً والحاج لا يزال موجوداً داخل مدينة حمد الله.

وكعادته في رسائله إلى الحاج جاءت موجزة اقتصر فيها على عرض مطلبه بعيدة عن التوشيات اللفظية ويُفهم منها أن الأجواء لا زالت صافية نوعاً ما بين الرجلين لذا فهو يحرص على تلقيه بالأمير وتعطير سلامه، ثم تعقيبه بالدعاء له بالنصر على الأعداء في حملته الجهادية.

ركز البكاي في هذه الرسالة على عظمة قدر المشفوع له بوصفه شريفاً من آل البيت النبوي، ما يجعله مفضولاً يستحق كل التعظيم من كل المسلمين وتلبية رغباته جميعاً، مع إشعاره بالرضى وقبول خدمته. ثم إن هناك ملحوظة مهمة في آخر هذه الرسالة هي استدراك في ذيل المخطوط، فلا ندري أهو نص خطاب ثانٍ بعث به البكاي إلى الحاج استدراكاً منه على عدم ذهاب الشريف إليه أم أنه تعمد كتابته في ذيل الخطاب الأصلي الذي لم يتم إرساله بعد، ثم بعثها كذلك إلى الحاج؟

على أنه لو ثبت أن البكاي إنما أراد بذلك الاستهزاء والاستخفاف بشخص من يتشفع عنده، فهل يحق له في هذه الحالة أن يرجو استجابة ما لمطالبه؟ إذ كان من السهل عليه إذا كان الاستدراك جاداً والخطاب لم يخرج من حوزته حتى الآن أن يمزق النص الأول ثم يحرر خطاباً ثانياً من غير إشعار الحاج بأنه هو الذي منع الرجل من الحركة، ليُظهر بذلك تحكماً في مجريات الأمور أو نفوذاً لا يزيد الوضع إلا تأزماً بينه وبين الحاج. أو ترى قد ذهب الخطاب الأصلي، ثم أردفه بالخطاب الثاني، وأن ناسخاً جديداً هو الذي أراد أن يقرن الخطابين في مخطوط واحد استثناساً ولتقريب منالهما معاً؟

وعلى أي حال يكمننا أن نفهم من الأعداء التي قدمها البكاي للحاج عمر حول عدم رغبته في رحيل الشريف إليه شخصياً أنه يريد أن يختبر إلى أي حد وصل احترام الحاج لآل البيت، وإلى قدرته هو على التأثير عليه من بعيد وهو في أوج سلطته وقدرته.

وقبل أن يختم الرسالة بسلامين مستديمين اختار بلباقته التعبيرية أن يخاتل الحاج ويمنيه في لطف بحسن الثواب.

والرسالة على إيجازها وخلوها من الزخرفة اللفظية لم تتضمن سوى سجتين خفيفتين فيهما شيء كبير من التماسك والترابط.

## ٩ الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر الفوتي (١)

(١) مخطوط ١، ص ٣.  
(٢) المصدر السابق ص ٢.  
(٣) مخطوط ٢، ضمن مجموعة رقم ٥٠٥٦.



جاءت مقدمة هذه الرسالة مقتضبة جداً إذاناً ببداية التنافر بين الرجلين • وأن البكاي الذي كان لا يخفي امتعاضه من الجفاء الذي يتعامل به الحاج معه وما كان يبديه نحوه من تغافل عن قدره وإهمال لمطالبه قد استعد للقطيعة والمناذة •

فالخطاب على طوله لا يحمل سوى حمدلة وصلاة قصيرتين • ولا يعني تكرار السلام الذي لم يتصل بالإكرام هذه المرة تعظيماً أو اهتماماً بقدر ما نلمس فيه من اللامبالاة والاستخفاف •

وإن دخوله المباشر إلى عرضه دون مقدمات منمقة - على عادته في رسائله المهمة - وتجنب الزخرفة والأسجاع في الثناء على الله والتسليم على نبيه كل ذلك يُوحى باحتقاره للمرسل إليه •

وعندما يشكو من عدم رد الحاج على خطابه بما كان ينتظره منه فهو يخلط كلامه بتهديد ظاهر، لأن تصرف الحاج من شأنه أن يؤدي إلى القطيعة المحرمة بين مسلمين، بينما المعروف أن التواصل بينهما بوصفهما أميرين للمسلمين لا يخلو من فوائد مثلما كان الحال بين موسى والخضر عليهما السلام، إذ هما المؤهلان في الساحة بعد موت الأمير الشيخ أحمد بن أحمد لتوجيه وقيادة خلق الله • وقد مر في الفصل الأول أن الحاج عمر لم يكن يرد بنفسه على خطابات البكاي، لما كان يستشف فيها من سخرية واستخفاف يقوم على سوء طويته نحوه، وإنما كان أحد معاونيه هو الذي يتولى أمر الرد عليه لإخفاء مقاصده الحقيقية عليه •

لكن البكاي اضطر في النهاية إلى المصارحة بحقيقة نواياه تجاهه ما دام تحرك كل منهما نحو الآخر يتعذر، لسبب لم يشأ الإفصاح عنه: " فلا أدري أنتظر به أن تصل إلي أنت إلى أرضنا هنا أم أصل أنا إليك إلى أرضكم هناك، ووصولك أنت ثقيل، ووصولي أنا غير خفيف ولا سريع، فتوقف الكلام بيننا إلى ذلك يفوت كثيراً من الأمور والخير ويمنع كثيراً من المقاصد والفوائد "، وقوله " فمسيرتي إلى حمدالله إنما يحسن بعد أن تخبرني أنك محب راض ولو لم تفعل لي غيرها " .

ويبدو أن البكاي كان ينتظر أن يطلب الحاج منه الدخول تحت حكمه ببيعة هو سيرفضها حتماً، بحجة تلك الشروط التي يرى أنها لا تتوافر في غير العرب ، وذلك أن العرب؛ مسلمهم وكافرهم، ولو الجاهلي منهم مكرمون عند الله، في طبيعة خلقتهم، فلا يجوز أن يملكهم من ليس من عرقهم •

وعندما يؤكد هذه الفلسفة بنصوص من الحديث النبوي، فإن ذلك يعني عنده استحالة رضوخه للحاج، وعندئذ لا ينتظر إذا أصر الحاج على مبايعته إلا أن تنفصم العروة بينهما • ولا يخفى ما يترتب على ذلك من عواقب وخيمة لا تحمد عقباه، وخاصة أن الحاج قد صدر منه أشياء لا يجوز لولي مثله أن يسكت عليها • ولذا حرص على توضيح أقواله وتبرير موافقه، راداً على الحاج كل ما يعتبره من منكرات الأقوال أشد الإنكار، محذراً إياه من مغبة التماذي فيها، لما عليه من ابتعاد عن الملة المحمدية، كدعواه النبوة والرسالة ومتابعة عيسى عليه السلام • فهو يدعوه إلى التوبة منها والرجوع إلى جادة الطريق •

ولا يفوته أن يرفع إلى الحاج طلباً بخصوص تطليق امرأة أخرى يعدها صافية له وقعت في أسر رجال الحاج . غير أن هذا الطلب اصطبغ بالشدة والتهديد المضمن في آيات الفساد والمكر والقنوط التي حاول تليينها بآية الإحسان والكرم.

ثم وكأنه استشعر غلظته في الطلب، فحاول في ختام الرسالة أن يخفف من وطأتها بدعاء منمق وسلام معطر بالتكرار استغرق آل الحاج وأقرب خلصائه . ويلاحظ أنه قلل السجع في هذه الرسالة، وإن جاءت قوية متينة زانها بشيء من المثل والشعر .<sup>٨٧</sup>

والملاحظة الأخرى على هذه الرسالة أنها شاهد قوي على أن " بنا على " ملك بمبارا لم يسلم حتى مقتله، بشهادة البكاي نفسه في قوله: " ومن العجب عندي أن يتعجب مثلك من تناقض، وكيف لا يتناقض وبعضها إليك وبعضها إلى سلطان سيقو، وأنتما النقيضان إذ أنت مسلم وهو كافر(١)". وقد قال ذلك بعد مقتل الملك، ولو أنه كان موقفاً بإسلام الملك حين كان على مملكته في سيقو أو حتى أثناء وجوده بماسنا في حماية الأمير لما قال بكفره حينئذ ولا ننسى أنه هو الذي كان قد أشار إلى الأمير بأن يزعم للحاج أن الملك قد أسلم على يديه دون أن يقع ذلك حقيقة، بل كان الغرض من ذلك التبرير بالحاج ودفعه عن سيقو حتى تخلو للأمير . ولو أنه كان قد أسلم ثم قتله الحاج لاتهمه البكاي بقتل مسلم آخر، وهو الذي لا يعدم حجة تبرر موافقه .

ثم يختم الرسالة بالتهديد والتخويف، قائلاً: " واعلم أيها الأخ الأمير أنني وإياك، إما أن نكون وليين، فلا بد أن نتوالى، ونتوافق، ونتحاب، ونتصاحب، بولاية الله، وإما أن يكون أحدنا عدو الله-أعدنا الله- فإنه لا يصح أن يتوافق، ويتوالى ولي الله وعدو له(١)".

#### (١) الرسالة الأولى إلى الأمير الشيخ أحمد بن أحمد فيما ينبغي عمله مع الحاج عمر(٢)

يبدو أن هذه الرسالة حررت والمياه صافية بين الرجلين نوعاً ما . كما أنه يظهر أنها ليست الأولى من نوعها إلى الأمير فقد سُبقت بخطابات أخرى كثيرة أشار البكاي إلى اثنين منها، في قوله: " فقد سبقت إليك بمثل هذا قبل أن تستفتيني في كتابين .. قبل هذا بأعوا، جعلته سراً بيني وبينك(٣)".

لكن مع ذلك ثمة كُدرة كانت تعكر صفو هذه العلاقة مليئة بالحذر وعدم الثقة بين الرجلين كانت قائمة بينهما منذ ذلك الوقت لربما من أمد أبعد ولو بصورة خفية بدليل قوله: " ولعلك استغششتني فيه أو لم تبال به حينئذ(٤)". وتدل على أن علاقتهما كانت ظاهرية وسطحية وإنما جمعتهما المصلحة العامة التي تكمن في دفع الخطر الذي كان يمثله جهاد الحاج عمر سواء على سياسة ماسنا التوسعية من جهة الأمير أو على هينمة القادرية من جهة البكاي نفسه . وهذا- كما يقولون- مربوط الفرس أو بيت القصيد، يقول: " فإنه إن ملك سيقو

(١)الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر، ص ٣.

عنك وصارت له قوة ذلك الإقليم كله من خيله ورجل، وماله ورجاله وذهبه وودعه ونعمه وزرعه فما تصنع أنت حينئذ؟(٥).

إن لا شك أن مدينة سيقو كحليفة مهمة في مواجهة الطريقة الجديدة يجب أن لا تسقط في قبضة العدو . بل يجب منع ذلك بأي وسيلة مهما كلف ذلك، لذا فهو يؤكد للأمير خطورة ترك ذلك الإقليم للحاج، وينصحه عن طريق التكرار أن يفعل كل شيء للحيلولة دون وصوله إلى سيقو ولو وقف كل الدنيا إثناء عزيمته في ذلك، يقول: " لا تتركه له لا تتركه له ولو قالها لك كل عربي وكل فلاني فلا تسمع لهم لا تسمع لهم مسلمين كانوا أو كفاراً . بل اجعلهم مسلميك أو كفارك ولا تتركهم للحاج عمر... فكل من طلب منك أن تترك له سيقو فإنه إما جاهل بالرأي أو غير تام العقل... لا تترك سيقو للحاج عمر وإن أفتاك كل مفت(٦)".

فبدأ الرسالة بالبسملة ثم ثناها بصلاة كاملة استغرقت المال والأصحاب ثم حمل مسجماً بخفة مقبولة. لكن ما لبث أن أثقلها بصلاة وتسليم طويلين في موازنة متكلفة ومملة كادت تشين جمال العبارات بالاصرار على حرف واحد أبعدها عن الرواق الذي سعى جاهداً إليه، يقول:

" الحمد لله الملك الكريم الذي هدانا بكتابه الحكيم إلى صراطه المستقيم مهديين في الحكم والتحكيم معديين عن الظلم والتظلم . وصلى الله على نبيه الزعيم الرؤوف بالأمّة الرحيم الشديد على الأعداء بالتصميم مبين الرشد بالتميم في سنته على التعميم حتى للأعمى السقيم، وعلى أصحابه في العزيم ووزرائه في العظيم من الصلاة والتسليم والرضى والتكريم ما لا يحد بالتنقسم ولا يعد بالتقويم وعلى خلفائهم في التقديم وورثتهم في التعليم أهل التحديث والتكليم والإلهام والتفهيم(١) ."

وما لا يخفى من هذه الزخرفة اللفظية الطويلة، تظاهره بملاطفة الأمير واستمالته للنفوذ إلى قلبه . يؤيد ذلك كل تلك الألفاظ الدالة على المحبة والتواد والتواصل التي طالت ما بعد الأمير نفسه إلى أولئك الرسلالذين أوصلوا إليه الرسالة وقد بلغ من حفاوته بها أن انفجر سعادة وكاد يعرض عليها بالنواجذ يشير إلى ذلك في قوله: " إلى ابنه، ابن أخيه، وأخيه، بلا شبيه الأمير النبيه . . فقد جاءني رسولك الحبيب إلي واليك الكريم علي وعليك المكين لدي ولديك فأديا إلي كتابك المقبول وأمليا علي كلامك المعسول فقبلت الكلام والكتاب، وأقبلت عليها الطاب الطاب رغبة في مخاللتك ومحبة لمواصلتك(٢)".

(١) الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر ، ص ٤ .  
(٢) مخطوط، رقم ٢٢٣٠ . (٣) المصدر السابق، ص ٢ .  
(٤) المصدر السابق، ص ٢ .  
(٥) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ٣ .  
(٦) المصدر السابق ص ٣ .

وكم في تكرار لفظة " الطاب" ضمن العبارة الأخيرة المعطرة بألفاظ الحب والقبول والعسل وفي توالي أسماء التفضيل من معنى يُوهم بصدق ما يظهره من شدة الحفاوة بالأمير والسعادة بخطابه، وكذلك في قوله: "فإن كلامك أحب إلي من الكتاب وأشهى إلي وهو أكد وأبلغ في المطلوب".<sup>٨٩</sup>

وليُعطي كلامه قوة روحية توجب طاعته والاهتمام بمشورته بدأ بتذكير الأمير بمكانته السامية وقدره العالي، وذلك بفضل ما ورثه من ولاية وفضل عن أبويه، وفي ذلك يقول: "فإني إما أن تعتقد في أنني إنما أنا رجل، كسائر الرجال وما عليك من رجل وأنت سلطان والسلطان يعظم ولا يعظم ويكرم ولا يكرم ويخاف ولا يخاف ويهاب ولا يهاب إلا أن يعظم ويكرم ويخاف ويهاب الله الجبار . وإما أن تعتقد في أنني عبد من عباد الله، ترجو منه وتخاف ما يرجى ويخاف من عباد الله من أنبيائه وأوليائه . فاستقم في ذلك وأقم فيه وجهك خالصاً لله تعالى(٣)".

بعد هذا أخذ يلخص فحوى رسالة الأمير التي هو بصدد الإجابة عليها . ومن ذلك أن الأمير يطلب رأيه فيما ينبغي عليه القيام به لصد الحاج عمر ووقف جهاده: "أما استفتاؤك أيها الأمير فأصبت فيه كل الصواب وسلكت فيه طريق أولي الألباب(٤) لكن بدلاً من أن يذكر صيغة الاستفتاء أو يرد عليها مباشرة يثنى على لجوء الأمير إليه لأن ذلك - في عينه - اعتراف منه بدولته ومكانته التي يريد أن يعرفها الكل ويحترمها . فأخذ قوي جنانه على مواجهة الحاج عمر . ولما كان يعلم بما في مثل ذلك الرأي من تناقض مع موقف الشرع الحكيم الذي يمنع النقاتل بين الفئتين المسلمتين، وأنه من الصعب عليه تفسير الآيات التي تمنع موالاته الكفار مما حرص على التنبيه عليها، فما كان عليه - والأمر في هذه الصعوبة والتعقيد - إلا أن قلب بظاهر اليد كل تلك الآيات التي ذكر بها، أولاً للدلالة على أنه يتذكرها تماماً لكنها لا تنطبق على حالة الأمير والحاج عمر، فقال:

"فهذه الآيات محكمات غير منسوخة... لكن رب من سمعها ما وعاهها ولا عرف معناها(١)".

ثم عمد إلى التقليل من شأن من سيعتمد على تلك الآيات بالصورة التي تكذب اتجاهاته فيها، مشيراً إلى أن علم القرآن وتفسيره لا يكون لكل عالم ما لم يكن ولياً، يقول: "وإنما يفسر القرآن ويعلم علمه من لم يكن له شغل سواه ثم قرأه وتلقاه وفسره ووعاه من آخر...إلى آخر واحد عن واحد كابرًا عن كابر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أصحابه(٢)".

(١) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ٣.

(٢) المصدر السابق ص ١.

(٣) المصدر السابق ص ١.

(٤) المصدر السابق ص ٢.

(١) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ٤.

(٢) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٥ .

(٤) المصدر السابق ص ٨.

وكان المنتظر أن يقدم تفسيراً ظاهراً لتلك الآيات حسب ما يقتضيه الظرف، ولأنه سبب الخلاف بين الأمير وبعض معاونيه، لكنه فضل تأجيل تلك المهمة قائلاً: "فإن أشكل عليكم أمر هذه الآيات ومعناها ومنحائها فأعيدوا السؤال تزيلوا الإشكال، فإني أعجلت الآن عن تبينها أو لم أفتكم فإني لا أخالف كتاب الله، بفتوى أو برأي، فرأيي عليكم هو الصواب عنهم(٣)".

ثم عمد في نهاية الرسالة إلى الوعظ وإسداء بعض النصائح للأمير حول اليقظة والاجتهاد ومصاحبة الأخيار ومجانبة الصغار والأشرار وكذلك حول بعض الأمور النافعة في السياسة.

ولم يكن البكاي ليختم الخطاب دون التفات عنيفة على التجانية لكونها العدو اللدود التي بدأت تهدد القادرية في أحسن معاقلها تمبكتو. فلا بد إذن - والحال هذه - من بيان بطلانها وتسفيه عقائدها ليخرب على الحاج عمر أهم الأسس التي يقوم عليها جهاده، وخاصة أنه أوشك أن يجرف جميع السلطات السياسية والروحية في المنطقة. فوجه معاول الهدم إلى بعض أهم ركائزهم العقيدية القائمة على زعمهم(٤):

- أن لا شيخ لشيخهم غير النبي صلى الله عليه وسلم.
- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي أخبرهم دون غيرهم من جميع الأمة سلفهم وخلفهم أن من زار ولياً ثم زار بعده ولياً آخر لم ينتفع بالأول ولا بالآخر ولا بولي أبداً.
- أن جنتهم التي لهم خاصة هي عليون.
- أن شيخهم يصعد للعرش.
- أنه يرى الله تعالى.

أما رده على تلك المزاعم فقد كان في أغلبه عاطفياً أكثر منه علمياً، إذ كان يبدو أنه مهتم بسبب التجانية وذمهم أكثر من فضح أكاذيبهم ورد أباطيلهم بالأدلة النقلية التي يحتاج إليه الظرف في مثل هذه الحالة، لكن للأسف لم يذكر واحداً من تلك الأدلة المتواترة التي تذكر وتردد على المنابر في معظم الخطب الأسبوعية على مدار السنة والتي يعد من أبرزها ما رواه العرباض بن سارية، قال: "صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله! كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار(١)".

والمعلوم أن البدع ترد بالنصوص لا بالعواطف وأن النصوص في هذا الباب متوافرة وعلى متناول يد كل من يريد. وسبب ذلك على ما يبدو هو الخوف من أن تتهم الطريقة القادرية أيضاً بالادعاء والباطل، ما دفعه إلى تتكبر استخدام الأدلة الشرعية النقلية، لأنها لا تهدم التجانية فحسب بل كل الطرق الصوفية والمذاهب العقائدية الباطلة والفكرية المنحرفة أياً كان مدعوها أو مؤسسوها.

وليس ثمة شك أنه متمسك بها أشد التمسك ومستعد للقتال من أجلها بالقلم والدم، كما يظهر من تمجيده لها، وكما أثبتته المؤرخون. فالطريقة القادرية - بدورها - وإن كان شيخها هو الجيلي نفسه لا تخرج عن كونها بدعة ضالة وزيادة مستحدثة وخطيرة في الدين. لم يقلها ولم يأمر بها صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام.

كما أنه قد أغلق باب الوحي والتنزيل بالتحاقه صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى. والمعلوم من الدين شرعاً وعقلاً وضرورة أن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار هي وصاحبها فما يصدق على التجانية، يصدق على القادرية، لأن كليهما صوفية وكل صوفية بدعة أو شرك يجب رفضه ومحاربته حتى يندحر كي لا تبقى إلا السنة المحمدية وحدها ناصعة لا يشوبها شيء من فتن الشيوخ وجهالة المريدين. ولذلك تجافى اللجوء إلى الأدلة الشرعية لكيلا يفضح نفسه وترجع عليه أسلحته التي ظل يحارب بها التجانية لمصلحته الخاصة لا للسنة التي تسير على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا من ضل وغوى. ولذا لم يجد أكثر من العواطف والأمزجة، التي ظن أنها كافية لهدم أصول تلك الطريقة، فراح يصب عليها جاماً من الغضب ووابلاً من الشتائم التي لم تفد شيئاً في كسر شوكتها، إذ إنها لا يزال حتى اليوم يدين بها الآلاف من المغلوبين، على عقولهم، من أمية المنطقة وجهلائها، بل وليس لديهم أي استعداد، للإصغاء إلى منطق الحق، لشدة فنتتهم بالأشياخ، الذين يحكمون قبضتهم في نفوسهم.

وفي آخر الرسالة يحاول أن يدافع عن التجاني وينزعه من طريقته التي ابتدعها بيده بعد أن جعلها باطلاً وحماقةً وجهلاً وزندقةً ليلصقها بأتباعه، ذاهباً إلى أنه أقرب إلى التجاني بوصفه عربياً من الحاج بوصفه سودانياً، فقال: "فإني أولى به منه" (١) وليس بولي في القصاص في أن قتلته أو ضربته أو تكلمت فيه بل أولياؤه عصبته ثم الشرفاء ثم قريش بعدهم، فإن فني بنو هاشم وفنيت قريش فغيرهم في العرب، فإن فنيت العرب ففارس والروم من بني سام، فإن فني بنو سام فالسودان والقبط والبربر ويأجوج ومأجوج (٢) فيه سواء وإلا فإني أعلم أن له من العقل ما يريه أن هذا محال وأن له من العلم ما يدلله أن هذا باطل وأن له من التقوى ما يحجزه عن رواية مثل هذا والكلام به والنقل له (٣)."

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: ١٢٧/٤، ١٢٦.

(٢) يعني الحاج عمر، لسواده وعجمته.  
(٣) أمتان عظيمتان، تخرجان في آخر الزمان عند قرب قيام الساعة، تفسدان في الرض، وتغلبان أهلها، ثم يقضي الله عليهما ببركة دعاء عيسى عليه السلام. ينظر الأمين الحاج أحمد، أشراف الساعة الصغرى والكبرى، ص ١١٨.

ويلاحظ في هذه الرسالة أن الكاتب قد تقلب - بلباقة متعمدة - بين عواطف عدة أثناء تحرير هذا الخطاب. فبعد أن بدأه بالملاطفة ختمها بالشدة والغلظة متحدثاً عن الأسواء المنتشرة في أقوام الأمير مروراً بالتجانية التي نسب أهلها إلى الزندقة والكفر ليقطع كل رغبة لمن يريد الانخراط في سلوكهم ولضرب تلاميذهم المنتشرين في محيطه في الوقت نفسه. غير أن هذه العواطف الساخنة لم تمنع رسالته أن تكون بشكل عام إحدى أجمل رسائله التي حرص على تنميقها بزخم من الأسجاع الموفقة.

#### ١٠) الرسالة الأخيرة إلى أمير الفلان الشيخ أحمد بن أحمد (٤)

لا شك أن الخلافات قد نشبت بين البكاي والشيخ أحمد بن أحمد، قبل وصول جيش الحاج عمر إلى ماسنا، وذلك أن الأمير قد أسر في الغزو ضد الحاج عمر ولم تعد له سلطة. ويظهر كذلك أنه كتبها، وقد خرج من مدينة تمبكتو، إثر الهجوم على بيته ومسجده، ما ألجأه إلى الاحتماء في الصحراء، محاطاً بأصدقائه الأوفياء من طوارق أوليmeden.

وكانت القطيعة - كما يروي المؤرخون - قد نفذت بينهما بفضل الدسائس التي حاكها ضده أعيان تمبكتو، لدى الأمير أحمد بن أحمد الذي كانت السلطة السياسية في المدينة بيده، حين استأثروا من نفوذه المتنامي بين ظهرائهم وهو لا يفتأ ينتقدهم في أخلاقهم ومعاملاتهم وينسبهم إلى الحماقاة والجهل في لهجات قاسية انتهت بإغاظتهم وأولعت العداوة بينهم، فاستعانوا بالأمير عليه.

لم نعثر على صفحات الرسالة الأولى التي تحمل البسمة والحمدلة والصلاة والتسليم، وإذ لم تعد لدينا إمكانية، لمعرفة الصورة التي وردت فيها تلك المقدمات فإننا على الأقل نشعر بأنها قد طالت نوعاً ما، نظراً إلى أن المصدر والجهة لم يردا إلا في الصفحة الثالثة.

وإن ما لا شك فيه أيضاً، أنها حملت ذكر بعض الأنبياء وحكاية أحوالهم مع كفار أقوامهم الذين اختلفوا عليهم، وشقوا عليهم عصا الطاعة معهم، فأوقع الله بهم ما شاء من العذاب نصرة لأوليائه. ولذلك اعتمد تلك القصص في أول خطابه للتهديد والتخويف مشيراً بها إلى أن مصير الأمير الذي يُعاديهِ ويتمرد عليه وهو ولي الله المختار لن يختلف عن مصير أولئك الجبابرة الذين أهلكهم الله عن آخرهم انتقاماً منهم لأنبيائه.<sup>٣</sup>

ويبدو من طول المقدمة التي استغرقت ثلاث صفحات أنه بدأ القصص ملخصة إما من نوح أو إبراهيم ملخصاً لينتهي إلى محمد عليهم السلام في الصفحة الثالثة، حيث جاء السلام والمصدر والوجهة لكن في أسلوب فاتر ساخر ينبئ بما سيأتي من الجفاء والقطيعة. إذ إنه بدلاً من إلقاء السلام طيباً عطراً - كما هو

(٣) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ٨.  
(٤) مخطوط، رقم ١.

(١) الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد ص ٣.

المعتاد - اختار إرجاع سلام الأمير نفسه إليه في عبارة مقتضبة ملؤها الاحتقار والازدراء ولم يفد شيئاً مجيئاً منمقاً مسجوعاً، يقول: " فرد السلام بمثله والجواب على شكله(١)".

أما لفظة " الغنى" التي وصف بها كلمة " رب " لا توحى بأكثر من غضب واستغناء يريد أن يظهر بها اكتفاءه عن خدمات الأمير التي يبدو أنه كان يتكل عليها دون جدوى . ولا سيما أن الأمير بوشاية أعيان تمبكتو، كان قد جرد إليه جيشاً ليقبضوا على " بارث " المستكشف الإنجليزي الذي دعا جيوش الطوارق لحمايته . ويبدو أن الأمير لما استشعر هذه المنعة وهو لا يزال شاكاً في نوايا الرجل الطامعة في قيادة المنطقة، وبما اشتهر به من مكائد ووسائل تزيل الثقة عنه وتفقد الطمأنينة إليه، ولو مع وجوده خارج المدينة فقد حاول هذا الأخير أن يحتويه، ويغمره ليعود إلى تمبكتو أو أن يرحل إلى " حمدالله " بقربه . حيث يتمكن بسهولة من الهيمنة عليه والتحكم على تصرفاته . فقد قال له في ذلك:

" ليكن في علمك أنا اخترنا الوفاق الحسن على الشرع والطبع وهو أن ترجع وتقيم بين أظهرنا من غير اعتراض ولا طعن وتجري عليك أحكامنا وعلى جميع من تعلق بك من غير اعتراض ولا طعن وتجري عليك أحكامنا في القليل والكثير ولا يسمع منك غوغاء الناس في سر ولاعلن تغييبنا ونسبتنا إلى الظلم والجهل والعياذ بالله - فإننا بحمد الله على بصيرة من ديننا وعلى سنة الشيخين(٢) ولن نضل إن شاء الله ما تمسكنا بها لاتخاذهما الكتاب والسنة سبيلاً ومنهجاً حتى أتاهما اليقين(٣). "

فقد جاء رده على هذا المطلب المعجز لمن يعرف نفسه الكبيرة وما انطبعت عليها من إباء وشمم أكثر شدة وقسوة، رافضاً كل العروض بأنفة ونفور لا يمكن أن يزيد الأمير وفلانته سوى تحفظاً وغضباً . لكنه لا يبالي بتعبه ما يقوله أو سيفعله الأمير . فإن معه ربه سيتولاه وينصره على جميع من يعاديه: " فأقول في جواب كلامكم، أو كلام أميركم(١) إني لا أعلم وفاقاً هو الرجوع والإقامة فمعنى كلامكم أرجع وأقيم ولم أطلب منكم ولم أعدكم به ثم إلى أين؟ فإن كنتم تعنون تمبكتو وفيها فلا فإني خرجت منها قبل أن تخرجوني ولا أعود إليها لقولكم هذا . أما إقامتي بين أظهركم على ما وصفتم فأعود بالله منها ومنه. فلا أرجع إلى تمبكتو بإرجاعكم لي هذا . ولا أخرج من الأرض بإخراجكم لي هذا . وإنما أنظر في صنع الله تعالى بي ولي وأختار بنفسني لنفسي(٢) فهو لا يمكن أن يسمع للأمير أو يطيع له أمراً لأن الأمير يحكم قومه الفلان السودان ولا يمكن أن يحكمه هو الرجل العربي القرشي لأن الأمير ليس في نظره سوى عبد أسود ولولا أنه أمير لما وصل عنده إلى مستوى تلميذ فضلاً عن أن يتعداه أو يساويه . وعلى ذلك فعلى الأمير أن يخضع هو له ويتبعه لا أن يتبع هو الأمير، يقول: " أما أنا فلا أَرْضى بك إلا تلميذاً لي وإلا فصيديقاً أجنبياً أو عدواً أجنبياً إن شئت(٣)".

بل عليه إن طمع في السعادة الدنيوية والأخروية معاً أن يتخذة قدوة ونبراساً، يقول: "بل أنت اقتد بي وأطع أمري واسمع كلامي تهتد وترشد ونفز وتسعد وإلا ضللت وشقيت وبقيت جاهلاً ما بقيت(٤)".

(٢) يعني والديه: جده سيكو أحمد، وأباه أحمدو سيكو.

(٣) الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد ص ٤.



فهو لا يستطيع أن يتصور ذلك اليوم الذي يمكن أن يخضع فيه لسوداني مهما بلغت مرتبته، يقول: "لعمرك ما أعلم صعباً في الدنيا أصعب عندي من أن أكون في حكم سوداني ما(٥)". وقوله: " فكل شر خير من اتباعك بل كل شر في اتباعك(٦)", وقوله: " فدعني لأدعك واسمعي لأسمعك(٧)". وقوله: " فدعوني من شركم وسلموا أنفسكم من شري(٨)".

بعد ذلك أسهب في تبرير أقواله وأفعاله لينفي عن نفسه التهم بإلقاء اللائمة كلها على الأمير والفلان أنفسهم ويعلل ذلك بما التصق بهم من الجهل والظلم، يقول: " فما أنا عبتكم بقولي ولكن عبتكم أنفسكم بفعلكم ثم بمصاحبتكم وموالفتكم للأشرار والفجار ومجانبتكم ومخالفتكم للأبرار الأخيار(٩)".

ثم يُنهي الرسالة بهذا التهديد الشديد الذي يرجو أن ينفذ في إذلال أعناق الفلان فيعودوا عن الشقاق ويطلبوا رضاه قبل أن يحل بهم وبدولتهم بعد ملكهم ما يندمون عليه إلى الأبد، يقول: " وأعلمك تعليمة واحدة أن تعلم أنني لو رضيت لك بالبيعة أو بأن تجري أحكامك علي أو تمكنت أنت من ذلك بلا رضى مني فإن دولتك تضمحل للوقت وتتحل بالمقت(١٠)".

تمتاز هذه الرسالة في جميع أطوارها بمتانة ألفاظها وقوة أسلوبها لولا ما يطفح عليها من عاطفة ساخنة ساخطة تدل عليها كثرة المعطوف التي يقصد بها إلى الاستقصاء والاستغراق والتأكيد والسخرية . وإذا كان قد أرخى حبال السجع كثيراً أثناء الخطاب أو نسيه من خضم عواطفه فإنه ساق منه سلسلة منسقة ومنمقة ليحقق مخرجاً جميلاً - على الأقل - من الناحية الفنية: " على أنه آخر دولتك وناخر صولتك فأنت وأيامها في آخر شقي الرماق وعلى خافية جناح الغاق . فتداركوا بالتوبة ما حزقتم، وارفعوا بالأوبة ماخرقتم . فكثيراً ما تُدورك بالمتاب ما أشفى على الذهاب(١١)".

## (١١) بغية الألف في جواب يركوي تالف(٢)

يمتاز هذا المخطوط بأسلوب خطابي واضح موجه إلى شخص الشاعر الوزير الذي كان يُعد في زمنه من أكبر المعارضين على الحرب ضد الحاج عمر الفوتي في بلاط الأمير الشيخ أحمد بن أحمد . وإن ما يجدر التنويه عليه هو أن الشاعر الفلاني يركوي تالف لم يوجه رسالة إلى البكاي خاصة لا ابتداء ولا رداً ويُفهم ذلك من قول الكاتب نفسه: إنه إنما اطلع صدفة على رسالة تحتوي على أباطيل أثارته

(١) الخطاب موجه في الوقت نفسه إلى الفلان مع أميرهم جميعاً.

(٢) الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد، ص ٤.

(٣) المصدر السابق ص ٥.

(٤) المصدر السابق ص ٥.

(٥) المصدر السابق ص ١٥.

(٦) المصدر السابق ص ١٥.

(٧) المصدر السابق ص ١٥.

(٨) المصدر السابق ص ٣٨.

(٩) الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد، ص ٦.

(١٠) المصدر السابق ص ٤١.

(١١) الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد، ص ٤.

(٢) مخطوط رقم ٤٨٦٠.

وحفزه إلى الرد عليها. ولا سيما أنه ومن أجل إصرار الأمير على مشروعه الحربي ضد الحاج عمر غادر يركوي تالف مدينة حمد الله عاصمة المملكة الماسنية ليلتحق بالمجاهدين في إقليم " سيقو " .

وأشار في نهاية الرسالة إلى مناسبة الرسالة قائلاً: " وكنت أتجنب الكلام فيهم بعدما طلب مني بعض تلاميذ أخي الشيخ السيد المختار(٣) أن أجيب شاعر التجانية من الفلان بعدما أجابهم أخي وتلاميذه(٤) فقلت للطالب: لا أكلمهم ولا حاجة لي في كلامهم ولا ضرورة تدعو إليه فإن لكل ورد فضلاً وإن كان لا يقارب ورد القادرية ورد ولا يشاكل أهلها أهل وذلك في عام ثلاث وستين بعد الألف ومائتين، ففي ثمان وستين بينما أنا مضطجع كأني نائم وحولي بعض الأصحاب قد ناموا غير اثنين منهم إلى أن ذكرنا في حديثهما وأنا أسمع ما لم أسمع قط من أحوالهم وأقوالهم . حتى أنشدا بيتاً لشاعر فلاني تجاني فيه أن قدمي التجاني على رقبة كل ولي حتى شيخنا وسيدنا عبدالقادر الجيلي(٥) ."

فمن هذه اللحظة بدأ في رصد المزاعم الصوفية(٦) التي تقوم عليها عقائد التجانية للرد عليها وتكذيبها بتجهيلهم وتسفيههم لكن في حماس شديد طغا على مواقفه الصائبة والقيمة. ويا ليته كان التزم فيها بالموضوعية العلمية لكانت كافية بل وصالحة لا في الرد على التجانية فحسب بل وفي إبطال كل تلك البدع والطرق التي حادت عن جادة السنة المطهرة .<sup>١٧</sup>

ففي هذه الرسالة حدد البكاي - بجلاء - موقفه من الصوفية عموماً والطريقة القادرية خاصة. وهو موقف اعتقادي بارز ترتب عليه نمو عاطفة قوية انبثقت منها معظم أساليبه وفنونه وكان من حماسه الشديد لهذا المذهب أنه لا يرضى أن يُدح فيها لذلك انبرى قائلاً في تمجيد الصوفية: " ليست الصوفية أمراً منكراً في الإسلام غاية ما يذم عليهم رقص الأقدام على صفة الوجد والهيام ثم هم أصدق الناس وأطهرهم قلباً ومهجة وأظهرهم حجة ومحجة".

فالصوفية عنده إذاً أحسن العقائد الدينية وأجملها طريقة وأصفاها مسلماً ولذا فهو يرى أنه يجب على كل مسلم الدخول فيها والحرص على اقتناء أورادها .  
أما الطريقة القادرية فهي أفضل الطرق على الإطلاق وأعظم المناهج الصوفية كما أن أتباعها هم خير من كل من لا يشاركونهم في مذهبهم. وللتعبير عن ذلك يفرغ كل ما في قلبه من عاطفة طاغية من المحبة والإيمان والحماس الشديد الذي يدفعه إلى توالي العديد من أسماء التفضيل و يتجلى ذلك في قوله:

(٣) أخوه الكبير، الذي انتقل إلى كنفه بعد وفاة والده.

(٤) ما عثرنا على تلك الردود.

(٥) بغية الألف، ص ٣٧.

(٦) يلاحظ أن هناك فروقاً جوهرية بين مفهومي الزهد والتصوف، عند أهل السنة والجماعة، أهمها: أن الزهد مأمور به، والتصوف: جنوح عن طريق الحق، الذي اختطه أهل السنة والجماعة. أما مصطلح التصوف والصوفية، والصوفية حركة دينية، ظهرت كنزعات فردية، تدعو إلى الزهد وشدة العبادة، كرد فعل مضاد للانغماس في الترف الحضري، الذي عم أرجاء العالم الإسلامي. ثم تطورت تلك النزعات بعد ذلك، حتى صارت طرقاً مميزة، معروفة باسم الصوفية. وظهرت الصوفية أول ما ظهرت في الكوفة، بسبب قربها من بلاد فارس، والتأثر بالفلسفة اليونانية، بعد عصر الترجمة، ثم بسلوكيات رهبان أهل الكتاب. ويتوخى المتصوفة تربية النفس والسمو بها، بغية الوصول إلى معرفة الله تعالى بالكشف والمشاهدة، لا عن طريق اتباع الوسائل الشرعية، ولذا جنحوا في المسار، حتى تداخلت طريقتهم مع الفلسفات الوثنية: الهندية، والفارسية، واليونانية المختلفة. ويذهب ابن تيمية إلى أن أول من عرف بالصوفي هو أبو هشام الكوفي ت ١٥٠ هـ، أو ١٦٢ هـ بالشام بعد أن انتقل إليها، وكان معاصراً لسفيان الثوري ت ١٥٥ هـ، ولجعفر الصادق، وينسب إلى الشيعة الأوائيل، ويسميه الشيعة مخترع الصوفية. ومن أعلام الصوفية، الذين يذكرهم البكاي: الجنيد، والسري والبسطامي، والحلاج، والشاذلي وغيرهم. د.ماتع بن حماد الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ص ٢٥٣.

" فإن ورد الشيخ عبد القادر الجيلي هو أصح الأوراد وأشهرها وأشرفها وأظهرها لا يؤخذ إلا على شيخ واصل(١)." .

وقال أيضاً في قطع كل شك في أفضلية طريقتهم: " وإن كان ورد القادرية لا يقاربها ورد ولا يشاكل أهلها أهل(٢)." .

ولذلك فإن أحق الشيوخ بالاتباع هو الجيلي: " يعتقد ويؤتم بمثل سيدي عبد القادر الجيلي الذي لم يختلف في ولايته ورياسته اثتان، ثم جربه أهل العلم والسنة ثم جربوه حتى علموه جديلاً المحكك وعذيقها المرجب. بمثله يقتدي ويؤتم بعدما عرف منه الكيف والكم(٣)." .

ويرى البكاي أن من بركة شيخه وفضله أن كل من دخل في طريقته مقارنة بالطريقة التجانية نال الشرف والتكريم: " وما أبعد حالهم من أهل الطريق القادري فإنه لا يدخل فيه ولا يأخذ ورده أحد إلا وقر في الأمور وكبر في الصدور وظهر عليه بارق النور ثم هو بعين الكمل بين الأخير منهم والأول له معول كل معول . إن عثر ألقى مغيباً مقيماً وإن قام لم يعدم عديماً نديماً لا كمن يقطع نفسه منهم ويمتتع من نفعهم فلا ينتفع(٤)." .<sup>٩٨</sup>

وبما أن الصفحات الأولى من الرسالة مفقودة في الأصل ونتوقع أنها بلا شك تضمنت تلك المقدمات الخطابية المعتادة في رسائله الأخرى من بسملة وصلاة على النبي والموجه والمرسل إليه فإننا نبدأ دراستنا للمخطوط من الصفحة الثالثة التي تبدأ بها نسختنا .

ونلاحظ أنه قبل الرد المباشر فضل أن يسد الباب أمام ادعاءات التجانية بالإشارة إلى ما يتميزون به من عناد ومكابرة على الحق لكن في تعريض سافر بهم فحواه: أن كلامه سيذهب أدراج الرياح وأنه لا يرتجي منه فائدة الاستجابة له، لأن المخاطب وأتباع طريقته - حتماً - سيرفضون الحق الذي سيقوله حول عقيدتهم الفاسدة وسيعرضون عنه عناداً وكبراً بمذهبهم .

وقد مثل حاله معهم في ذلك بصورة يظهر هو فيها عالماً منفتحاً يريد خصمه القاصر أن يبلغ شأوه من الفهم والفضل ويبدل في سبيل ذلك كل ما في وسعه من جهد لكن دون جدوى كالضعيف الذي يحاول - فاشلاً - أن يجاري قوياً كي يدرك ما حققه من نجاح، لكنه لم يقل ذلك مباشرة وإنما توصل إلى تلك الصورة عن طريق وصف مزرٍ تناول فيه حالة العناد المنفشي في عامة الناس في عصرهم .<sup>٩٩</sup>

وفي ذلك يقول: " اعلم أيها الأخ الصحيح والحق الصريح الذي إذا قلته لأحد في زماننا هذا غمض عنه عينيه وأصم أذنيه أن تعلم أن الشريعة من كلام الله تعالى لا نسبة بينها وبين ظن المخلوق، ولكن فحول

(١) بغية الألف، ص ٢٨ .  
(٢) المصدر السابق ص ٢٨ .  
(٣) المصدر السابق ص ٢٨ .  
(٤) المصدر السابق ص ٣٦ .

(١) بغية الألف ، ص ٥ .

الرجال نياتهم وظنونهم إليها ناظرة وعنها قاصرة تريدها إرادة الضعيف للعزير وتعجزها الشريعة إعجاز القوي للضعيف، فيجهد كل منهم للعمل بما ينجيه ونيته وإن خالف كنية أخيه ولا يقول أحد منهم ها هو حكم الله ولا أنه حكم الله في هذا(١).

ثم شرع في ذكر المسألة الأولى التي تدل على أن ردوده تبدأ دائماً بذكر الفكرة الرئيسية من المسألة في عبارة مختصرة على شكل الحواريفتحه بكلمة: "ثم إنك قلت"، ثم يورد بعدها كلام الخصوم، قبل أن يرد عليها بعد كلمة: "أقول"، وملخص قول الخصوم أن الاجتهاد جائز وأن المحظور منه - عنده - أن ينكر بعض المجتهدين على بعضهم إشارة منه إلى عدم جواز إنكار القادرية على التجانية بما أنهم جميعاً قادرية وتجانية، مجتهدون في إنشاء طرقهم.

وإننا وإن كنا لا ندري - في الحقيقة - سبب الجدل بين الرجلين حول موضوع الاجتهاد الذي استغرق من نصف الرسالة أو ما يزيد قبل وصوله إلى الموضوع الرئيسي الذي لم يأخذ القلم - كما أفاد هو نفسه بذلك - إلا من أجله هو تكذيب العقائد التجانية إلا أن تركيزه الشديد على إنكار مذهب الشاعر الفلاني في الاجتهاد ونفي قاعدته فيه نفيًا قاطعاً ونفيًا يوهم بأن الشاعر - ربما - لم يدع ما ادعاه إلا ليثبت أن شيخه مجتهد في طريقته، كما أن الجبلي كان مجتهداً، حين أنشأ طريقة حملت اسمه فلا يجوز إذاً لمبتدع أن ينكر على مبتدع.

والمعلوم - كما يشير إليه - أن غرض الرسالة هي إنكار بدعة التجانية وتفنيدها مزامعها. غير أنه انطلاقاً من حساسيته ضد كل ما يُهدد القادرية، فإن الرد الذي كان ينتظر منه هو رفض تلك القاعدة التي يرتكز عليها يركوي تالف رفضاً قاطعاً حتى لا يعطيه فرصة لإثبات باطله الذي يعتمد عليها التجانية عقيدة، يضللون بها الغافلين من السذج وبسطاء العقول فقد قرر فوراً أن المحظور من الاجتهاد في إجماع العلماء إنما هو عدم جواز اقتداء مجتهد بآخر، لما يحتمل على كل مجتهد من خطأ يحرم تقليده. فعنده أنه مهما كانت درجة المجتهد فلكل من له نظر أن ينكر عليه ويظهر الحق الذي يثبت لديه بالدلائل المتاحة له وبوسائله الخاصة وأساليبه الشخصية، ما دفعه إلى الاعتماد فقط في ردوده على عقله وعاطفته تاركاً النصوص والأدلة الشرعية جانباً، يقول: "ثم إنك قلت: وقد أجمع العلماء وتواتر عندهم أنه لا ينكر مجتهد على مجتهد قوله... فأقول لا أعلم إجماعاً للعلماء ولا وفاقاً لهم أنه لا ينكر مجتهد على مجتهد، وإنما المعلوم عندي أنه لا يقلد مجتهد مجتهداً(١)".

ثم شرع في نقد أصول التجانية وتقويض مبادئها الفكرية. وهو لب الموضوع وصلبه لكنه تتكبه طويلاً ليظهر فيه نوعاً من الزهد قليلاً من شأنه وازدراءً بأهله. ثم تناولها انطلاقاً من أبرز ركائزها وأخطرها فكراً وعقيدة. فأخذ يعرض المسائل واحدة تلو أخرى ينقدها جزءاً جزءاً مظهراً أثناء ذلك سخطاً كبيراً لكونها كفراً وزندقة.

(١) بغية الألف ص ٥.

(٢) المصدر السابق ص ٢٨.

(٣) المصدر السابق ص ٣٦.

(٤) المصدر السابق ص ٣٦.

لكن الغريب في حملة البكاي ضد التجانية التي لم تُدع باسمها هذا إلا تحقيقاً لنسبتها إلى منشئها الأول والأصلي كما أنه - على الرغم - من عداوته الشديدة لشخص التجاني نفسه، ثم بعد العناء الكبير الذي تكبده في تنفيذ بدعته وتفتير الناس منها، فإنه يحاول أن يُبرئ ذمته من طريقته التجانية التي اخترعها وأصلها بيده ونفخ فيها من روحه . فهو أكثر من مرة يدعي أن التجانية مكذوبة على صاحبها، وأنه لم يقلها وإنما قالها وافتراها عليه قوم آخرون، يقول في ذلك: " وما يدريكم أنه ورده ولم ينقله إليكم عنه ثقة بل التجانية ينفون الولاية عن أنفسهم، وعن غيرهم بقولهم أنه خاتم الأولياء(٢) ".

ويقول أيضاً: " ولم نعب نفسه بعيب ولم يرب نفسه عندنا بريب، وإنما كذب عليه كاذب ناقل، ولم يلقنا عنه فاضل عاقل(٣) ".

وقبل أن يختم الرسالة أفرغ ما في نفسه من شحنات غاضبة ملؤها السخرية والاستخفاف بهذه الطريقة المتبذعة التي لا يُقدر أهلها شيخه الجيلي ولا طريقته القادرية . فلا بد إذن من هدمها والإجهاز عليها قبل أن يضع القلم، فقال:

" فإن أكثر مدعية طريقه مجانيين وفي الدين والتميز يتامى مساكين حتى جرب المجربون أنه يكون الرجل ذا عقل ونبيل حتى إذا أخذ طريقهم ودخلها خف عقله وحلمه وطاش لبه وفهمه . ومصدق ذلك وبرهانه ما هم فيه من أباطيل الأفاعيل وأكاذيب الأقاويل مما يكذبه الصبيان ويخطئه العميان(٤) ".  
ولذلك فهو يهددهم ويحذرهم من الاستمرار على باطلهم متوعداً إياهم باللفظ القرآني ومنذراً لهم من عواقب الابتعاد عن مذهبه القادري قائلاً: " فيول لهم مما تصف ألسنتهم من الكذب وما تعتقده أفئدتهم من الهزء في دينهم واللعب(٥) ".

## ١٢ فتح القدوس في جواب محمد بن أحمد أكنسوس(١)

هذا المخطوط في مجمله كسابقه في المعنى والمقصد، أي دفاع حامٍ عن الطريقة القادرية ودم لاذعٍ للطريقة التجانية في سخرية مرة واستخفاف شديد بكافة أهلها انطلاقاً من شيخهم إلى كل من يسمع بها دون إنكار لها.

ويبدو أن خصم البكاي في المغرب كان على علم بنشاطه ضد الطريقة التجانية وما يشن عليها من حملات قوية لا هوادة فيها كي يصرف عنها أهلها الذين يقربون إليه نسباً أو جواراً إلى نظيرتها القادرية التي لا يفتأ يروج لها بعاطفة عارمة من المحبة والتقدير . فكتب رسالته المسماة بـ " الجواب المسكت لمن تكلم في التجانية(٢) "، دفاعاً عن طريقته ولتوضيح مقاصدها من بعض القواعد الأساسية التي وجه إليها البكاي معاول الهدم.

(٥) المصدر السابق ص ٣٨.

(١) مخطوط، رقم ٥٦٧.

(٢) لم نجد لها، ويقال إنها في مكتبة الرباط ببلده بالمغرب.

وكان من سوء حظ ذلك الكاتب أن تعرض عمداً أو مدفوعاً بالتعصب والحماس الطائفي لشيخ القادرية بالقبح والتحقير رامياً إياه بالشطح وأن ما يدعي له تلاميذه من كرمات وتصرفات ظاهرة يفتخر بها القاديون ليس سوى مجرد شطحات لا قيمة لها عند التجانية في الميزان الصوفي، لأن تلك خوارق لا يحتاجها إلا صغار الأولياء الذين لم يكتمل نضجهم الروحاني، ولذلك لم يكن شيخهم التجاني في حاجة إلى ظهور شيء من تلك الكرامات في يده لاكتمال ولايته دونما حاجة إلى شطحات يفخر بها أتباعه.

وهنا أيضاً يقول البكاي (٣) إنه كان قبل تسلم هذه الرسالة مسالماً للتجانية حيث كان ينظر إليها على أنها ورد عادي كسائر الأوراد التي يهدف منها أهلها إلى التقرب إلى الله بالذكر والدعاء، بل وكان ينكر ما يقوم به أمراء ماسنا ضد تجانيي بلادهم من اضطهاد وملاحقة وتعذيب ليخرجوهم منها ويردوهم إلى القادرية ملء الدولة الرسمية، فكان يكره تلك التصرفات ويرى فيها ظلماً وتعسفاً بنحلة أخت لم تتكشف له معاييبها بعد حتى وقعت في يده رسالة أكنسوس، وكذلك كتاب آخر منسوب إلى شيخ التجانية الزمني الحاج عمر الفتوي. ١٢٣ ويبدو من هذين الموقفين أن البكاي مولعاً بتصوير نفسه بالبراءة والعموية ليظهر أنه كان غافلاً فانتبه فجأة، إلى مساوئ العقيدية التجانية وخطورتها على العقل الإسلامي. وأعظم من ذلك انتقادها لشيخ القادرية وتساميتها على طريقتها، وكان من حماسه أنه لا يقبل أن يمس لشيخه شعرة واحدة، ولذلك ثار غيرة على مذهبه ضد تلك الطريقة المنافسة، فلم يكن منه إلا أن شمر عن ساعد قلم النقد للرد على خرافاتها وتقويض أصولها المنحرفة.

ولما كان البكاي واقعاً تحت تأثير الحماس الشديد لمذهبه فقد انقلب القلم في يده إلى شريان واسع يضخ من خلالها ما يعتمل في دواخله من شحنات ساخنة ومشاعر سالبة ضد التجانية، بحيث جاءت ردوده في شكل سخرية وتهكم بعيدة كل البعد عن الموضوعية والمنهجية المطلوبة في الكتابات العلمية، فلا تكاد توجد صفحة إلا وفيها ما يصعب استقصاؤها جميعاً في هذه العجالة، ومما قال في ذلك: "لذلك عادى أمير الفلان الشيخ أحمد وابنه الأمير أحمد التجانية، فكان ينقب عن كل من عنده ورد التجانية من رعيته فينتقم منه. وكنت أنكر ذلك منه إذ لا علم لي إذ ذاك به، وكنت أقول لهم إن الطريقة القادرية ليست بفرض على الناس ولا وردها، وإن الورد ليس بحرام عليهم وكل ذلك ذكر الله تعالى وظفه ولي الله تعالى، وذلك لحسن ظني به وسمعي عنه أنه ولي، فما عرفت حقيقة التجانية ولا اطلعت على عوارها إلا بعدما جاءني كتابك. فبعد شروعي في جوابك وقع إلي كتاب منسوب إلى الحج عمر الفتاوي، فيه من كلام التجانية ما عرفني أن الشيخ أحمد الماسني مصيب في الإنكار على التجانية بل الإنكار عليها لازم معين (١)".

(٣) مر في (البيغة)، المخطوط، رقم ٤٨٦٠، حكاية مماثلة، يدعي فيها أنه ما عرف التجانية إلا بالصدفة البرينة، التي يبدو أنه مولع بإخفاء نواياه وراءها، من تجاهل للتجانية، التي سبق أن رأى كتابات أخيه وتلاميذه في الرد عليها بشهادته واعترافه شخصياً بذلك ثم إنه كان يكتب حولها إلى الأمير الفلاني الماسني، أحمد بن أحمد، لتحذيره هو قومه منها. فكيف بعد ذلك كله، ييقول منه قوله: إنه لم يكن على علم بها؟ بما يجعله ينكرها ويحاربها. لكن الحقيقة أنه لم يحاربها الله، وإنما فعل ذلك ليدفع غائلتها عن الطريقة القادرية، التي أصبحت مهددة، منذ انفجار الجهاد العمري، الذي لم ينظر إليه إلا بوصفه غريماً، جاء لينافسه على أرضه، ويسلب منه تلاميذه، ويحول دون مصالحه الخاصة.

وفي هذه الرسالة أيضاً يحدد البكاي مواقف الإيمانية في الصوفية عموماً وعن الطريقتين القادرية والتجانية، ويبيد نظرتة الخاصة إلى كلا الشيوخ مؤسسي الطريقتين المتنافستين ابتداءً بالجيلي شيخه المفضل لسبق عهده ولأن طريقته هي الأولى في الظهور وسيدة الطرق الصوفية في أفريقيا في تلك الأيام.

#### (١) الجيلاني (٢) وطريقته: ١٠٠

انطلاقاً من إيمانه القوي بولاية الجيلاني وتصديقه لمذهبه يعتقد بأفضليته على جميع من يتسمون بالأولياء في المفهوم الصوفي ابتداءً من عصره حتى تقوم الساعة، لا تأتي طريقة أحسن - عنده - وأفضل منها. لذا فقد صرف جهوده وكرس عمره في الصراع مع التجانية دفاعاً عن عظمة الجيلي وإبراز مصداقية طريقته. من ذلك قوله في مقام التعريض بـ: "الجيلي ما أراد أصاب وما دعا استجاب وما سأل أتحنف وما تصرف أسعف وما توجه شرف وما ذكر حضر وما غاب عظم(٣)".

وقوله: " فإن الإمام الأعظم إنما هو الجنيد(٤)، في الطريقة والجيلي في الولاية لا تقال لغيرهما وكذلك شيخ المشايخ إنما تقال في علم الطريقة للجنيد وإنما تقال في شؤون الولاية للجيلاني - رضي الله عنه(٥)".

وقوله: " فكل ولي من الأولياء وشيخ من الأشياخ من عهد وزمن الجيلي - رضي الله عنه - إلى اليوم وبعده قدم الجيلاني على رقبته... فكل من أنكر أن قدم الجيلاني على رقبته فليس بولي(١)". وقوله: " فإذا رأيت من لا يعترف له فاشهد له بعدم الولاية بل جهلها(٢)". وقوله: " ولا يفتقر الجيلي إلى أن يتعصب له متعصب. فإن الخاصة تعرف فضله ولو جحد منها جاحد. وأما العامة فتكاد تكفر من لا يفضله على غيره أويساوي غيره به(٣)". وقوله: " السيد عبد القادر الجيلي الولي القطبالغوث العالم العاقل الثبت المتكلم بالحق لا بالكذب والناطق بالصدق والصواب لا يقول محالاً ولا يناقض مقالاً(٤)".

#### (ب) التجاني وطريقته: ١٠٠

(١) فتح القدوس ص ٧٧.

(٢) هو عبد القادر الجيلاني (٤٧٠-٥٦١هـ) المدفون في بغداد، حيث تزوره، كل عام، جموع غفيرة من أتباعه، للتبرك به. وقد رزق بتسعة وأربعين ولداً، حمل أحد عشر منهم تعاليمه، ونشروها في العالم الإسلامي. ويزعم أتباعه أنه أخذ الخرقه والتصوف عن الحسن البصري، عن الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، رغم عدم لقائه بالحسن البصري. كما نسبوا إليه من الأمور العظيمة، فيما لا يقدر عليها إلا الله تعالى، من معرفة الغيب، وإحياء الموتى، وتصرفه في الكون، حياً أو ميتاً، بالإضافة إلى مجموعة من الأذكار والأوراد والأقوال الشنيعة. ومن هذه الأقوال، التي يرسخها البكاي، في هذا المخطوط، وخاصة تلك التي اختلف مع الأكنسوس حولها، كقوله: " قدمي هذه على رقبة كل ولي لله ". وكان يقول: " من استغاث بي في كربة كشفت عنه، ومن ناداني في شدة فرجت عنه، ومن توسل بي في حاجة قضيت له ". ولا يخفى ما في هذه الأقوال من الشرك وادعاء الربوبية. ولربما كان ذلك من دوافع رفض الأكنسوس فكرة الخوارق والتصرفات، ونفاها عن شيخه.

(٣) فتح القدوس ص ٢٠.

(٤) هو أبو القاسم الخراز ت ٢٩٨هـ، يلقيه الصوفية بسيد الطائفة، ولذلك يعد من أهم الشخصيات التي يعتمد المتصوفة على أقواله وأرائه، وبخاصة في التوحيد والمعرفة والمحبة. وقد تأثر بآراء ذي النون المصري، فهذبها وجمعها ونشرها من بعده تلميذه الشبلي، ولكنه خالف طريقة ذي النون والحلاج والبسطامي في الفناء الذي اتخذ عنده معنى آخر. وقد أنكر على المتصوفة سقوط التكاليف. وتأثر الجنيد بأستاذه الحارث المحاسبي، والذي يعد أول من خلط الكلام بالتصوف، وبخاله السري السقطي ت ٢٥٣هـ. السوعة الميسرة في الأديان ص ٢٥٧.

(٥) فتح القدوس، ص ٣٠.

(١) فتح القدوس ص ٢٨.

(٢) المصدر السابق ص ٣١.

(٣) المصدر السابق ص ٣٢.

(٤) المصدر السابق ص ١٠٦.

(٥) المصدر السابق ص ٨٢.

(٦) المصدر السابق ص ٢٩.

(٧) المصدر السابق ص ٦٥.

وفي سخريه كبيرة واستخفاف بالغ مقترن بالتكفير والزندقه يضع شيخ التجانية بطريقته المذمومة على طرف النقيض من الصدق والصواب، فيقول في اندفاع شديد:

" ويلكم معشر التجانية ما أضلكم وأزلكم وما أقلكم وأذلكم وما أعلكم وما أكلكم، تقبلون مثل هذا وأنتم مسلمون أو يخفى عليكم معناه وأنتم كافرون(٥)". ويقول في رفض وإنكار ولاية مقارنة بالجيلي: " ثم ليتك وجدت شهوداً عدولاً من العلماء والألبياء، على أن التجاني ولي ما أو أنه حصلت له ولاية ما(٦)". ويقول في تكفيره: " ويح التجانية ما أكفرهم وما أفجرهم(٧)".

وقوله أيضاً: " وقد شهدت التجانية أن شيخها معتقد للكفر ولكنه خائف من الناس أن يقتلوه لكفره(٨)". وقوله في انفعال شديد دفعه إلى توالي المعطوف وتكرار لفظة " كل " لزيادة التأكيد والجزم والاستغراق مصراً وملحاً على أن الأكنسوس مهما كذب وادعى فلن يبلغ شيخه التجاني شأو الشيخ الجيلي الذي شهد الكل بولايته الحقه وبفضله: " ولو تعبت كل تعب ونصبت كل نصب ونسلت من كل حرب ونزلت في كل صيب وخرجت من كل أدب ودخلت في كل حلب لم تجد لغيره أخرى للتجاني ما يكون به ملحقاً بالجيلي أخرى أن يكون مثله. جنني بها قولاً لأحد نصاً فيه، فلا عبرة بكلام التجانية فإنهم غير علماء ولا حلما(٩)".

وفي تشريكه يقول: " هو مشرك بهذا الكلام فإنه جعل الأرزاق فائضة من الأنبياء إليه ثم جعل نفسه رباً لغير الأنبياء من الخلائق يرزقهم(١٠)".

وقوله: " لكنهم كذبة فجرة بل حمقاء بقرة(١١)".

ويجعلهم أقل من الزنادقة في العقل والفكر، فيقول: " لم أجزم أن التجانية زنادقة بل جزمت أنه لا عقل لهم، يتزندقون به، فإن الزنادقة إنما تزندقوا لعقل أضلهم وعلم أعلهم، والتجانية حمقوا فكذبوا لا علم لهم بالإسلام ولا بزندقة فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء(١)".

وقوله: " أما شيخهما(٢) فلعله جاهل أوداهل أو مجنون أو واهل".

ولا يقتصر من غضبه وحنقه على ذم منافسيه من التجانية الذين تحملوا كبر نشر هذه البدعة العظيمة، والتي يقع عليهم وحدهم وزرها ووزر من عمل بها من الضعفاء والسذج، وإنما يتناول على كل من سمع بالطريقة فلم ينكرها أو لم يشن عليها حرباً كحربه هو أو أشد، يقول في ذلك:

" إنما أعجب لغير التجانية في قبولها التجانية(٣)". وقوله: " ولا أعجب من حماقة رجل واحد، وإنما أعجب لحماقة قوم كثير يسمعون كأنهم لا يسمعون(٤)".

(٨) المصدر السابق ص ٧٢. وفيه إشارة إلى العلاج، أبي مغيث الحسين بن منصور(٢٤٤-٣٠٩ هـ) أشهر الحلوليين والاتحاديين، رمي بالكفر، قتل مصلوباً لتهم أربع، وجهت إليه: اتصاله بالقراطة، وقوله: أنا الحق، واعتقاد أتباعه ألوهيته، وقوله إن الحج إلى البيت الحرام ليس من الفرائض الواجب أداؤها. كانت في شخصيته كثير من الغموض، فضلاً عن كونه متشدداً وعينياً ومغالياً.

(٩) فتح القدوس، ص ١٧٢.

(١٠) المصدر السابق ص ١٧٧.

(١١) المصدر السابق ص ١٠٣.



وقوله: " التجانية وجدوا زماناً أهله لا عاقل فيهم ولا عالم منهم فوجدوا أن يكذبوا كيف شاؤوا بلا عقل ولا حجة لا نهاهم تنهاهم ولا لحاهم تلحاهم(٥)".<sup>١٠٦</sup>

وفي هذه الرسالة أيضاً يقوم البكاي بمحاولة لينفي كون التجاني منشئ الطريقة. فبعد أن نسب إلى الكفر والشرك والزندقة يشمر للدفاع عنه وتبرئته من إثم الطريقة التي أنشأها بفكره وذكائه فيقول فيه شيئاً لم يقله أحد لا من قبله ولا من بعده؛ مفاده أن الطريقة - واسمها - كما أسلفنا مشتق من اسم منشئها " التجاني " منقولة عنه ومكذوبة عليه. يقول: " أظن أنها مكذوبة عليه فإنها لو كانت حقاً لذكرها صاحب جواهر المعاني، ومما أظن أنها مكذوبة أن صاحب جواهر المعاني ذكر أن التجاني - يرحمه الله - مزق الكتاب الذي ألف تلميذه فيه ونهاهم عنه، وما فعل ذلك إلا لأحد أمرين: إما أنه اطلع لهم على كذبهم بقره، وإما أنه - حاشاه - كذب عليهم، فأحب ستره. وعلى كل أنزهه عن هذه الأكاذيب ولا أظن ولا أزن بها أصحابه، فلو كانت منه لكتبها وجلبها صاحب جواهر المعاني لأنه الأقدم منهم فيهم(٦)".

وقوله في سخريه لاذعة: " فإن هذا أمنية أمة زاوي مرابط مسكين(٧)، ولا يكون شريفاً ولا قرشياً فإن لهم من عزة النفس والأنفة ما لا يقول أحدهم هذا لخوف ولا طمع ولو جهل ما جهل وفسق ما فسق وكفر ما كفر، ودليله أنه ما ادعى قرشي النبوءة، وقد ادعاها غيرهم من العرب فما عرف ادعاء مثل هذا في قریش. فإن صح هذا عن التجاني - ولا أظنه يصح - فما تقول وإن كان شريفاً حسنياً قرشياً فإنه لا يقول هذا وهذا مكذوب عليه(٨)".

ثم يقول في إقرار صريح منه يدل دلالة واضحة على أنه يؤمن حقيقة الإيمان بأن هو نفسه مؤسس الطريقة وإنما يحاول من أجل السخريه بالمحاور أن يبرئه من البدعة ليلصق قبح وزورها إلى الأقسام الآخرين: " ولم يقل ما يقال ولكنه وجد قوماً عجمياً بربرياً لا عقول لهم ولا أحلام ولا كلام لهم ولا أفهام فأخذ يقول ما يشاء ويلز نفسه بالأنبياء فيسمعون ولا يعون وهذا لا يحتاج إلى الكلام لولا ضعف أهل الزمان(١)".

ولما كانت التجانية - لديه - بهذا الشكل المزري من حماقة والجهل فقد سمحت لنفسها أن تقول كلما خطر على بالها دون حياء ولا تفكير بمن سيتلقاها أو يسمعها منهم، وسبب ذلك أنها تفتقد إلى قدرة عقلية تمدها بملكة التمييز وتدفعها قبل الكلام إلى تقديم اللب على اللسان، يقول في ذلك مكذباً ومستخفاً بعقول أصحابها: " إن التجانية كلما شاءت قالت: قال لنا رسول الله يقظة لا مناماً ثم يفترون على رسول الله ما لا يقول رسول الله ولا يليق به قوله بل ولا يجوز(٢)".<sup>١٠٧</sup>

(١) يعني بهما الأكنسوس والحاج عمر. المصدر السابق ص ١٠٣.

(٢) فتح القدوس، ص ١٠٣.

(٣) المصدر السابق ص ٦٥.

(٤) المصدر السابق ص ٨٢.

(٥) المصدر السابق ص ٦٣.

(٦) فتح القدوس، ص ٦٨.

(٧) يقصد به الأكنسوس نفسه.

(٨) فتح القدوس ص ٦٨.

(١) فتح القدوس ص ٦٨.

ثم أخذ يصف ورد القادرية بقوله: " فإن من ورده بعد كل فريضة أو في أوقاتها وهي الأوقات الفاضلة ذكر الحسبة ثم ذكر الاستغفار، ومن ورده ذكر الهيلة الذي هو الأعظم ومن ورده الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم(٣)..." ثم إنه وضع أدعية مختصرة مسبعة، يدعو بها بعد المغرب كل ليلة ٠٠ ثم إنه جعل من ورده ركعات خفيفة ٠٠ فإن ركوع وردنا ست ركعات بإثر المغرب أو بين المغرب والعشاء، وركعتان في نصف الليل الأخير(٤)."

في شروط الورد القادري يقول: " سن لنا في وردنا أن نخفيه ولا نظهره ولا نجهر به ٠٠ وكذلك لا يعطى الورد منهم إلا مهذب عن النقائص مشذب لا كاذب ولا مكذب ولا يعطاه إلا مجرب في الدين مدرب(٥)."

وأما ما يخص الورد التجاني فقد جاء في الموسوعة الميسرة في الأديان أن للتجانية أيضاً كما للقادرية ورد، يقرأ صباحاً ومساءً، ووظيفة تقرأ في اليوم مرة صباحاً أو مساءً، وذكر ينعد بعد العصر من يوم الجمعة، على أن يكون متصلاً بالغروب والأخيران: أي الوظيفة والذكر يحتاجان إلى طهارة مائة، وهناك العديد من الأوراد الأخرى لمناسبات مختلفة(٦).

إن من ينظر إلى هذين الوردين المكذوبين كلاهما في أخذهما من الرسول المعظم صلى الله عليه وسلم ليعجب كل العجب أن يهجم أحدهما على الآخر إذ لولا اختلاف التسمية والمنشئ ولولا القدم والأسبقية فإنه ليس ثمة فروق يذكر بينهما إلا من حيث الجانب الذي يجد فيه الحاكم نفسه وإلا فالظاهر الجلي أن الطريقتين أختان شقيقتان أو وجهان لعملة واحدة لما بينهما من تشابه ظاهر للعيان وهي فروق لا عبرة بها في منطق التشريع الذي لا يعدهما سوى بدعتين مذمومتين أشبه الابن فيهما أباه. وإذا كان الثابت أن الوحي والتشريع قد انقطعا بانتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ما يعني استحالة أن يكلم أحداً بعد ذلك كائناً من كان أو يوحي إليه بما لم ينزل الله به سلطاناً وأنه صلى الله عليه وسلم لم يدع إلى شيء من تلك البدع والخرافات التي لم تعرف في حياته ولا سنهها ولا عمل بها من بعده أحد من خلفائه الأربعة المهديين، فمن غير الإنصاف أن نرفض بدعة من جانب ثم نقبل بدعة أخرى مشابهة.

إن الورد القادري - بشهادة البكاي نفسه - يبشر من يأخذها بدخول الجنة وفي الزمرة الذين يدخلونها قبل الناس ثم في الفردوس أعلى مراتب الجنة مع النبي صلى الله عليه وسلم وجوههم منورة كسطح القمر ليلة النصف من الشهر بعد أن أنكر على التجانية قولها: بأن جنة عليين مأواهم يوم القيامة؟ يقول في ذلك:

(٢) المصدر السابق ص ٧٦.

(٣) المصدر السابق ص ١٠٧.

(٤) المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٥) المصدر السابق ص ١١٢.

(٦) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ص ٢٨٨.

(١) الورد القادري.

(٢) التابع الذي يذكر الورد.

(٣) فتح القدوس، ص ١٢١.

" ثم إنه (١) يجعله (٢) بإذن الله من الزمرة التي تدخل الجنة أولاً كل واحد منهم كالبدر ليلة تمامه ٠٠٠ . ثم إنه يجعله بإذن الله من أهل الفردوس التي هي أعلى الجنان بخبر النبي الصادق لا بخبر الكاذب من . ثم إنه يكون ممن يرون الله أكثر من غيرهم (٣)." .

الحاصل أن الورد القادري أيضاً كتنظيره التجاني من البدع الكبيرة التي فتحت أبواب الأذكار والأوراد الباطلة التي لم ترد في السنة. فكلاهما بدعة محظورة لما فيها من تشريع وتسنين وعبادة لم يأذن بها الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم. ولا يكفي لإجازة البدعة وقبولها تجميل الكلام ولا تنميق العبارة لإغراء الناس بقبولها. وليس عدلاً ولا منطقياً أن يدعونا داعٍ إلى رفض بدعة غيره ثم يجيز لنا قبول مثلها منه. لأن المعادلة واضحة والمعيار صريح: البدعة هي البدعة مذمومة ومرفوضة في أي وقت ومن أي كان!

ومع ذلك لا يمكن إنكار أن الموقف السلبي الذي اتخذته خصوم القادرية منها من هذه الطريقة هو أحد الأسباب وراء ما أبداه الكاتب في ردوده من عاطفة عارمة ومتدفقة، دفعته إلى كثرة الاستطراد والتكرار، ما أدى إلى إطالة الرسالة ولا سيما عندما وصف الأكنسوس شيخ القادرية بالشاطح وأقواله بالشطحات، ما كان له الدور الكبير في إثارة البكاي وفوران عاطفته فصرف جل جهوه في رد تلك التهمة بالهجوم الساخر والمقذع على الطريقة الأخرى كأسلوب أمثل لتنزيه شيخه وإعلاء شأن طريقته .

فبدأ هجومه بمناقشة مستفيضة حول مفهوم كلمة الشطح لدى القادرية، ليثبت أن الخصم وشيخه وكل جماعتهما هم الشاطحون، بل الكفرة الفجرة . ذاهباً إلى أن أكنسوس متقول كاذب لم يفهم معنى الشطح لأنه جاهل يخوض فيما لا يعلمه، ما جره إلى وصف الجيلي بما لا يليق بمكانه .

ولربما كان حرصه الشديد على الرد المفحم بالتعبير المبدع هو الذي أنساه عن ربط أفكاره وتنظيمها بالشكل الذي يسمح بترتيبها حسب الصفحات . فقد جاءت مناقشاته في هذه الرسالة مضطربة أحياناً غير مرتبة الأجزاء، إذ إنه لا يكاد ينتهي من فكرة ويدخل في أخرى حتى يعود فجأة إلى الورا ليعبر ما يخيل إليه أنه تركه أو نسيه ثم لا يلبث أن يرتد إلى حيث قطع الكلام سابقاً .

فكم مرة يستطرد البكاي حول فكرة قالها من قبل، ثم يعود للإشارة إليها بعد تحوله عنها . وقد حاولنا قدر الإمكان ترتيب تلك الأفكار وربط بعضها ببعض كي تتجلى عقيدته ناصع لا يشوبها خلط، ما جعلت الصفحات تتداخل مثل أفكار الكاتب تماماً . ومن أمثلة ذلك مسألة القدم الموضوعية على رتبة جميع الأولياء من الأزل إلى الأبد فقد استقبل هذه الخرافة التي يدافع عنها الأكنسوس باستنكار عظيم وسخرية بالغة وذلك لما يترتب عليها من معنى فاسد يدخل فيه شيخه الجيلي ناهيك من الصحابة الكرام فلذلك استنفذ كل طاقاته في تفنيد ذلك الباطل فقال: " فكل ولي من الأولياء وشيخ من الأشياخ من عهد زمن الجيلي رضي الله عنه إلى اليوم وبعده قدم الجيلي على رقبته...ومن أنكر أن قدم الجيلي على رقبته فليس بولي (١)." .

ثم قال في مكان آخر: "فادعاء التجانية أن قدم شيخهم الحسية على رقبة كل ولي الحسية محال لا يقوله إلا تجاني وأقل منه عقلاً وأكثر جهلاً يستمع له" (٢).<sup>١٠١</sup>

وفي أسجاع طويلة يرجع إلى مسألة القدم دون ذكر نصوص شرعية تثبت الحق وتدحض الباطل، فقال: " فإن قالت التجانية ذلك الذي يعني أنه يظهر يوم القيامة فضله وتوضع قدمه الحسية على الرقاب أو فضله قلنا أخرتم فضلكم جداً ولم تجدوا من تأخيره بدأ، إذ لم تعطوا تفضيلاً ولم تجدوا عليه دليلاً والمستقبل محتمل والكذب مستعمل ولو كان مثل هذا الشأن يحصل للإنسان بادعاء اللسان لكثرت الأفاضل واشتهرت وعمت الفضائل وانتشرت (٣)".

ثم ختم البكاي الرسالة بتعداد بعض الكرامات والتصرفات الظاهرة التي أجراها الله على أيدي آبائه الأولياء الكمل مع تلاميذهم ليثبت صفاءهم وقربهم من الحضرة الإلهية بتمسكهم بأسماء الله الحسنى التي يزعم أن التجانية ينكرونها لجهلهم بما فيها من فوائد جمة لا يقدرها إلا من أعطيها. وكان يشهدا منذ صغره قبل أفول تلك الشموش التي سلمته الشعلة بوصفه أحق وريث لأفضل أسيخ المنطقة في هذا العصر من القرن التاسع عشر الميلادي.

وأما صفحات الرسالة الأخيرة فمشقوقة وممزقة الأطراف لا تتضح منها السطور ما جعل الربط بين عباراتها صعباً أو مستحيلاً.

### المبحث الثالث

#### الدراسة الفنية لنثر البكاي

أولاً: السمات الشكلية:

#### • المقدمة

---

(١) فتح القدوس ص ٢٨ .  
(٢) المصدر السابق ص ٦٦ .  
(٣) المصدر السابق ، ص ٦٧ ..

يستهل البكاي رسائله في الغالب بالبسملة المعتادة ما عدا رسالتين أو ثلاثة كما يلاحظ في رسالته الأولى والثانية إلى **الحاج عمر** وفي رسالته إلى **أحمد أحمد** يبلغه بأنه أعطى داراً لأخيه **بابيراه**، لم يذكر في أولها البسملة. وقد لا يعني ذلك استخفاف المرسل إليه بمقدار ما يكون عجلة أو نسياناً، كما يفهم من خطاب **غداد** (رقم ٤٠٢٥) الذي ترك البسملة في بدايتها، وكأن الأمر غير ذي بال لأن **غداداً** من أحد أحب وأقرب الناس إليه، مجده في هذا الخطاب ولاطفه كثيراً ودعا له بخالص نية. <sup>١١</sup>

وعندما لا يبسم فإنه يبدأ بحمدلة مقتضبة يتبعها بالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، إما مقصورتين عليه هو وحده أو يمدهما إلى آله وصحبه ويقف عند ذلك الحد إلا في رسالته الأولى إلى الأمير **أحمد بن أحمد** (رقم ٢٢٣٠) حيث أطال فيها الصلاة والتسليم لكن بسجع ركيك أفقد شيئاً من ديباجتها.

ومن أوفق حمدلاته ما جاء في مستهل فتواه في حكم تحليل المطلقة ثلاثاً حيث قال: الحمد لله منزل الكتاب، مبين الصواب لأولي الألباب". فالظرف يقتضي الاجتهاد الذي يتطلب توفيقاً من الله تعالى الذي يهدي إلى الحق عن طريق البحث في نصوص كتابه الحكيم(١).

ومن حمدلاته الطويلة المنمقة، قوله: " الحمد لله الواحد، لا من عدد، الحي القيوم لا من والد ولا من ولد، الغني الجواد بالرحمة الواسعة والمدد، الوهاب الرزاق من عهد الأزل إلى امتداد الأمد، في كل وقت ونفس بلا حد وعدد، لكل شيء ولكل أحد، ولم ينتقص ولم ينتقص ما عنده، ولا ضاق ولا غاض ولا نفذ(٢)".

أما الصلاة فقد وردت موجزة لكن بالصورة التي تحقق غرضه من التوازن والإيقاع الصوتي كقوله: "...والصلاة والسلام بلا حساب على النبي الأبي ". وجاءت في الغالب بلفظ " وصلى الله على من لا نبي بعده "، كما ورد في رسالته الثانية والثالثة (رقم ٥٠٥٦) إلى **الحاج عمر** والرسالة (رقم ٢٨٨٠) والرسالة (رقم ٤٠٢٥) أو بلفظ " وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً " كما ورد في بقية الرسائل ما عدا الوثيقة (رقم ٣٥٥٤)، حيث وردت بلفظ " وصلى الله على نبيه الكريم". ولا ندري هل ذلك الاختلاف منه شخصياً أو من الناسخين، الذين يميلون - أحياناً - إلى توجيز العبارات الاصطلاحية.

ومن صلواته المحبرة والمنمقة قوله: " والصلاة والسلام على السيد الأبد، الأعز الأبر المحمد الأحمد، الحبيب الخليل الكليم في كل حال ومقام وأسمى وأسنى وأسعد وأصعد ووسيلتي ووسيلة الكل إلى قدم الصدق ومقعده، وإلى كل قدم ومقعد القائم في المقام المحمود بلواء الحمد وحده لا يشاركه فيه ولا يدفع عنه ولا يرد، وعلى آله وصحبه أشرف خدم لأشرف مخدم وأكرمهم وأمجده ولا نجد وعلى خلفائه وخلفائهم من بعده ومن

(١)الفتوى في حكم المطلقة ثلاثاً، ص ١.

(٢)الرسالة الثالثة إلى أحمد بن أحمد، ص ١.

بعدهم وكل شرف مؤثّل وسؤدد أقعد فرضي الله عن الجميع والمجموع، من ذلك اليوم إلى اليوم وإلى ما بعد وإلى الدهر وإلى السرمد(١) .

ويلاحظ في هذه الصلاة الطويلة غلبتها على الحمدلة وإصراره على حرف الدال التي ركز عليها كفاصلة لتحقيق ما يصبو إليه من نعمة عن طريق الأسجاع، إذ اضطرته صعوبة ذلك إلى حشد مجموعة من الألفاظ غير المناسبة وترصيص العديد من أسماء التفضيل، فجاءت عباراته - مع فصاحتها - ركيكة ومعانيه صوفية معقدة، ولم يقتصر هذه المرة على الآل والأصحاب، بل أدخل فيهم خلفاءهم، بل وكل من أتى أو يأتي بعدهم، لاستغراق الزمن .<sup>١١١</sup>

يبدأ البكاي - عادة - بذكر اسمه بوصفه موجه الخطاب مقروناً دائماً بلفظة العبودية مسندة إلى لفظة رب مضافة إلى ضمير مفرد غائب أو جمع، وقد يعقبها - أحياناً - موصوفةً بلفظة الغنى كأن يقول: " من عبد ربه " كما ورد في المخطوطات رقم (٥٠٥٦) و(٤٠٢٥) و(٢٨٨٠) أو يقول: " من عبد ربهه "، مخطوط رقم (٢٨٨٣). وليس في المخطوط رقم (٣٩١١) شيء من ذلك. أما وصف الرب فقد ورد في هذه الصيغة مرتين "من عبد ربه الغنى". وذلك في رسالتيه الطويلتين الأولى والأخيرة إلى أحمد بن أحمد لتفيد معنى اكتفائه بربه الذي يغنيه عن صداقة عدوه الذي يحاول أن يذله ولم ترد عنه في غير ذلك .

وجاء الوصف الثاني بلفظ " المشرف بحبهم " في المخطوط (رقم ٢٨٨٣) دون زيادة . وكثيراً ما يتبعه بذكر نسبه إلى جده الثاني كقوله: " من عبد ربه أحمد البكاي بن محمد بن المختار بن أحمد(٢) " .

يأتي سلام البكاي - دائماً - ملحقاً بالاسم الأخير مجروراً بالياء وقد يعطف عليه لفظة الإكرام سعياً وراء السجع كقوله، بصيغة: " بالسلام والإكرام(٣) "، أو بوصف كلتا الكلمتين بكلمتين مثلهما: " بالسلام السليم والإكرام الكريم(٤) " أو بفاصلتين مسجوعتين بصيغة: " بسلام كالبدر في الارتفاع وإكرام كالسما والأرض في الاتساع(٥) " .

يشير البكاي - في الغالب - إلى المرسل إليه بلفظة " الأخ " مضافة إلى نفسه مشيداً بالصدقة والمحبة بينهما أو مشفوعاً برتبة ومقام المرسل إليه، ثم يذكر باسمه الصريح مضافاً إليه نسبه أحياناً. وغالباً ما يصفه بما يمجده أو يثنى عليه كقوله: " أخيه حقاً وحببيه صرفاً وصديقه قطعاً وصفيه شرعاً وأليفه طبعاً السيد السخي غداد بن علي(١) "

(١) الرسالة الثانية إلى أحمد بن أحمد، ص ١ . (٢) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر ص ١ .  
(٣) المصدر السابق ص ١ . (٤) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ١ .  
(٥) نصيحة إلى أحمد بن أحمد ص ١ .

وقوله: " إلى أخيه في الشهادة والغيب وحببيه بلا شك ولا ريب خلف السلف وسلف الخلف صاحب الأسرار الطاهرة والخلائق المقدسة والطرائق المؤسسة للإمام المذكور والجواد المشهور الشيخ أحمد بن أحمد الماسني(٢)، " وقوله: " إلى أخيه ابن أخيه أخيه، بلا شبيهه، الأمير النبيه، الشيخ أحمد بن الشيخ أحمد بن محمد(٣). " " ويأتي دعاؤه مسجوعاً دائماً لكن في صيغ مختلفة، من ذلك قوله: " رحم الله السلف وبارك في الخلف(٤). " وقوله: " أيد الله به الدين وأيده وسدد به المسلمين وسدده(٥). "

وقوله: " أيد الله به الدين وقمع به المفسدين ونصره على المعتدين(٦). "

وقوله: " أيد الله ونصره وشرح بالإسلام صدره(٧). "

أما طريقة البكاي في الإشارة إلى وصول أو استلام بريد المخاطب، فقد جاءت في صيغتين إحداهما: " فقد جاءني رسولك الحبيب - فأديا إلي كتابك المقبول، وأمليا على كلامك المعسول(٨). " وقوله " فقد جاءني رسولي إليك بكتابك وكلامك(٩). "

وثانيهما: قوله: " قد رأيت سؤالك وتصفح مقالك(١٠). " ويلاحظ أنه دائماً يردف بالكتاب لفظة الكلام

أو المقال •

ليس من عادة البكاي طلب المراسلة والمواصلة وما جاء منه في رسالتين فحسب وفي صيغ مختلفة منها قوله: " فأجيبني أيها الأخ الأمير في أمر أهل أتوات(١١). " وقوله: " فاكتب إلي بما رأيت أن تقول لهم وما ترضى منهم(١٢). " وقوله: " وأحب أن تعرفني بحالك وعملك معي(١٣). "

#### • الخاتمة:

تختلفت خواتيم رسائل البكاي باختلاف ظروف إنشائها، فهو - كما قلنا - لا يطلب في العادة إجابة

لأن كل ما يقوله كأنه مراسيم - في نظره - أو حقائق مسلمة بها يجب أن يؤخذ بها محمل الجد وينفذ إن كان أمراً •

---

(١) رسالة إلى غداد ص ١.  
(٢) نصيحة إلى أحمد بن أحمد ص ١.  
(٣) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ١.  
(٤) المصدر السابق ص ١.  
(٥) نصيحة إلى أحمد بن أحمد ص ١.  
(٦) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر ص ١.  
(٧) الرسالة الثانية إلى الحاج عمر ص ١.  
(٨) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ١.  
(٩) الرسالة الثانية إلى الحاج عمر، ص ١.  
(١٠) الرسالة في حكم المطلقة ثلاثاً، ص ١.  
(١١) الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر، ص ٢.  
(١٢) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر ص ٣.  
(١٣) المصدر السابق، ص ٢.

فقلما ختم الرسالة بالصلاة أو التسليم على النبي صلى الله عليه وسلم. وإنما ورد ذلك مرة واحدة فقط في وصيته لأبنائه بصيغة: " وصلى الله علي سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليماً (١) ". "

أما الاستثناء بمشيئة الله فإنها لم ترد في ختام أية رسالة ولا ضمنها، ربما لأن رسائله لا تحمل وعداً أو موعداً أو عهداً يحتاج إلى تفويض الأمر فيه إلى البارئ المقدر لما يشاء.

وأحياناً يختم بالدعاء، كقوله: "جمعني الله وإياكم بولايته وتولنا وإياكم بعين عنايته (٢) ". وقوله: "أستودعكم الله تعالى وهو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير (٣) ". وقوله: " تقبل الله منا ومنه (٤) ".

وقوله: " سلمنا الله وإياكم وعافانا وعافاكم (٥) ".

وربما كانت ملاطفته في ختام رسالته الثانية إلى **الحاج عمر** بدلاً عن الدعاء، حيث قال: " وفي فمه من الكلام ما يقوله لك بين يديك ومثلك من الكرام لا يخيب من قصده ويرفد من استرفده (٦) ". وقوله: " بارك الله في الجميع (٧) ".

أما السلام فلم يلتزم فيه بطريقة واحدة، فقد يأتي مكرراً هكذا بضمير الجمع: " والسلام عليكم والسلام (٨) " وبضمير المفرد: " والسلام عليك والسلام (٩) ".

وربما حشر بين السلامين تحيات أخرى كقوله: " وسلم مني على أخي وأخيك وحببي وحببيك الإمام أحمد، ثم على ابنك بل على جميع آلك وعيالك (١٠) "، وقوله: " والسلام عليك ما تكرم كريمة وتفضل فاضل والسلام (١١) ".

وربما قطع الرسالة بسلام واحد مبتور وجاف، كقوله: " وقد بدا لي أن أتزحج قليلاً إلى منازل أبناء إخوتي لأقرب منهم وأبعد قليلاً من عمالك، في القرية خشية أن أخالفهم أو يخالفوني قبل معرفة ما عندك والسكوت على المنكر منك، والسلام (١) ".

---

(١) وصية إلى أبنائه ص ١.  
(٢) الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر ص ٤.  
(٣) وصية لأبنائه ص ١.  
(٤) وثيقة التأمين ص ١.  
(٥) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر ص ٣.  
(٦) الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر ص ١.  
(٧) رسالة إلى غداد ص ١.  
(٨) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ١.  
(٩) الرسالة الأولى ص ٨.  
(١٠) رسالة إلى غداد ص ١.  
(١١) الرسالة الثانية إلى الحاج عمر ص ١.



وقد لا يذكر سلاماً كما فعل في وصيته لأبنائه وفي وثيقة التأمين حيث ختم الأولى بالدعاء والصلاة معاً والثانية بالدعاء فقط.

لم يهتم البكاي بتدوين تاريخ كتاباته فليس في أي مخطوط ذكر ليوم أو شهر أو سنة أو وقت تمت فيه كتابة نص من نصوصه بيده أو بيد المملى عليه أو من أمره بالكتابة، إلا ما كان من تاريخ متأخر لكاتب، ينقل المخطوط إما لنفسه أو لغيره.

هذا ولا يوجد في أي مخطوط أن هذا من خط يده، بل يبدو أن جميعها من ناسخين غير جيدين - في الأغلب - لما فيها من أخطاء كثيرة، لا يمكن نسبتها إلى البكاي نفسه ولو نسياناً أو ذهولاً. ومع ذلك لم يرد في المخطوطات سوى أسماء ثلاثة نساخ فقط، أحدهم بصيغة: "وبه كتب من أمره بكتبه عبيد ربه أبو العباس عمرو بن سيد زيان كان الله له لسلامة المحمدية ولياً ونصيراً، أمين(٢)".

وثانيهم بصيغة: "انتهت بحمد الله، وحسن عونه، على يد محمد المختار أحمد الحبيب(٣)".

وثالثهم: بصيغة: "انتهت الرسالة المباركة، بحمد الله تعالى، وحسن عونه، على يد كويتبها لأخيه في الله حقاً، وحببيه صدقاً سيد عبدل وكان الفراغ منها عشية الجمعة ستة عشر يوماً من شهر الله ذي القعدة بتاريخ ١٣٣٩ عام من الهجرة النبوية وعلى صاحبها أفضل الصلاة والسلام، كتبه له أحمد بن بابير بن ألفا مغيا المتوفى التمبكتي داراً ومنشأ اللهم اغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات ءامين ٧ مرات(٤)".

أما الإشارة التي وردت في ختام الفتوى (رقم ٥٩٤٣) بصيغة: "قال هذا وكتبه عبد ربه أحمد البكاي بن محمد بن المختار بن أحمد كان الله له أمين"، وإن دلت على أنها من كلامه فليس هناك ما يثبت أن هذا المخطوط هو عين ما كتبه بيده، وذلك لأن نص السؤال ونص الجواب مكتوبان فوق بعضهما في المخطوط نفسه ومن الصعب قبول أن يكون البكاي قد أرجع السؤال مع الجواب معاً. وإنما المحتمل القريب أن ناسخاً ما أحب أن يجمع النصين في ورقة واحدة.

وهذا يدل على أن الناس كانوا يستكتبون المخطوطات لبعضهم، وأن كل كاتب كان يكتب حسب قدراته اللغوية والإملائية والفنية، ولذا فقد كثرت نسخ المخطوطة الواحدة واختلفت من حيث الجودة والجمال.

ثانياً: سمات المضمون:١١٠

(١) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر ص ٣.  
(٢) وثيقة التأمين، ص ١.  
(٣) الرسالة الثانية إلى الحاج عمر، ص ١.  
(٤) الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد، ص ٤١.  
(١) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ١.  
(٢) الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر، ص ١.

لا يدخل البكاي - عادة - في الموضوع إلا بعد أن يفصل بينه وبين المقدمة بلفظة "بعد" يسبقها في الغالب الواو فتأتي الصيغة هكذا: "وبعد" كما ورد ذلك في مخطوطاته (رقم ٢٨٨٣) و(٥٠٥٦) و(٢٢٣٠) و(٢٨٨٠) وقدم عليها "أما" مرة واحدة فقط، في الوثيقة (رقم ٣٥٥٤) وصيغتها "أما بعد"، والجملتها بعدها مبدوءة دائماً بالفاء الملحقة إما بقوله "فقد جاءني رسولك الحبيب(١)"، وقوله: "فقد جاءني رسولي إليك(٢)"، أو بإن كقوله: "فإننا نهنيك بما أعطاك الله(٣)" بضمير الجمع مرة واحدة فقط وقوله: "فإن حامل الكتاب شريف(٤)"، و"فإنني أعطيت لأخي(٥)" بضمير المفرد أو بمن مرة واحدة كقوله: "فمن عبد ربهم(٦)" أو بدون شيء كقوله: "يا أخي يا حبيبي(٧)"، وقوله: "يا بني اعلموا(٨)".

لكن ثمة ظاهرة كبرى مهمة وحاسمة تظهر في أدب البكاي هي التي نبع منها معظم سماته الفنية وإنبنى عليها أسلوبه في الكتابة، وهي من أوضح الملاحظات التي تجلت في نصوصه عامة وبصورة لا يمكن إغفالها ألا وهي العاطفة القوية النابعة من حبه العميق وحماسه الشديد لطريقته القادرية وغيرته عليها وحرصه على الدفاع المستميت عنها.

ومنشأ ذلك أنه وجد نفسه في فترة مضطربة دينياً تتنازع فيها وعلى نفس الرقعة الأرضية طريقتان صوفيتان، الغالبة والمنتشرة منهما هي التي ستمسك بزمام المنطقة وتدير كل هيئاتها الاجتماعية والروحية، حيث تسند إلى زعمائها سمات من القدسية والصلاح التي تجعل في أيدي أولئك الشيوخ السيادة والنفوذ التي تفتح لهم قلوب شعوب المنطقة وتحكم قبضاتهم على رقابهم باسم الدين والولاية. واتفق أن القادرية سابقة على التجانية في الانتشار والسيطرة على معظم بقاع السودان الغربي في ذلك الوقت. غير أن التجانية - وهي حديثة عهد بالمنطقة لكنها تستمد قوتها من الجهاد العمري الذي أسهم إلى قدر كبير في انتشارها وبلوغها المساحات الواسعة في فترة زمنية وجيزة - تمكنت فيها من التوغل والارتكاز في أعماق الأراضي الصحراوية التي يحكمها البكاي بوصفه شيخ القادرية الزمني وزعيمها غير المنازع حينذاك، بما في ذلك تمكنت العاصمة الروحية والسياسية للبكاي. ولم يكن لشيخ القادرية أن يسمح لهذا الضيف الثقيل والمنافس المتوغل في أعماق حدوده المقدسة أن يسكت على الواغل الذي يهدد وجود طريقته، وهو الولي الكامل الذي ورث بفعل الله الصفاء والسمو والمنزلة من أسلافه الذين وعدهم الله بأنه لن ينقطع من أصلابهم الأولياء إلى آخر الزمان، يقول في ذلك: "فقد أعطى الله تعالى لجدي الشيخ سيدي أحمد البكاي بن سيدي محمد الكنتي أنه

(٣) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر، ص ١.

(٤) الرسالة الثانية إلى الحاج عمر، ص ١.

(٥) الرسالة الرابعة إلى أحمد بن أحمد، ص ١.

(٦) الرسالة الثالثة إلى أحمد بن أحمد، ص ١.

(٧) رسالة في مسألة فقهية، ص ١.

(٨) وصية إلى أبنائه، ص ١.

لا يزال في ذريته ولي كامل للحجة حامل، يعز أهل الديانة ويذل أهل الخيانة وأعطاه كذلك لجدي الشيخ سيدي المختار بن أحمد(١)."

وقال أيضاً في المعني ذاته: "وقد رباني أبي بأخلاقهم(٢) ورباه أبوه كذلك متسلسلاً إلى جدنا الأعلى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم " وقوله أيضاً وهو يصف أباه بأنه يتبع سنته وطريقته: " كما أقتدي بولي عالم كامل قطب(٣)".

ما دفعه إلى جعلهم مصادره الأولى التي لا يفتأ يشير إليها بثقة وإيمان كبيرين متخذاً من أقوالهم وأفعالهم شواهد قوية على صحة مواقفه واتجاهاته، بل ومنطقاً يعتمد عليه في إصدار الأحكام. فكان يعدد لهم ما يعتقد كرامات(٤) كقوله: " قل ما الحال الذي أزال به الشيخ الجد - رضوان الله عليه - الجبل وسار إليه حتى وقف لديه فهو الأب في موضعه ذلك تعرفه الناس هنالك؟ وما الحال الذي أحيا به الفرس بعد ثلاثة أيام بإذن الله فقامت وعاشت؟ وما الحال الذي أزال به دولة أولاد بل في ثلاثة أيام كما قال لهم؟ وما الحال الذي دعا به السحابة وأنا أنظر إليه حتى أشار إليها بأصبعه فرجعت إلينا حتى التقطت من عبقرها وأنا صبي، وكان في البيت يسأل عنها ويسمع رعداً حتى قال بعضهم قد جاوزتنا وقام من كان معه غيري فقام ينظر إليها وقمت وراءه فأشار إليها فرجعت أدرجها فأمطرتنا للوقت؟(٥)".

ولذلك كان كثير الانتساب إلى جد أعلى يتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم. ويتجلى ذلك من قوله للشيخ أحمد بن أحمد: " كذلك وجدت أبي وجدي وجده إلى جدنا الأعلى الصحابي بل وجدونا في الجاهلية(٦)".

فكان لا بد له أمام هذه التهديدات الخطيرة أن يتسمى بأمر المؤمنين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليثبت بذلك صلاحيته وأحقيته في تربع كرسي الولاية والخلافة في المنطقة كما سبقت الإشارة إليه(٧).

ولربما كانت هذه النظرة إلى تلك الموهبة الربانية هي التي قللت حديث البكاي عن علمه والتفاخر بثقافته الواسعة التي قد تكون أبرز سمة يمكن أن تميزه عن علماء المنطقة وتكسبه مكانة أسمى وأرفع من تلك الولاية التي كافح بكل الوسائل المتاحة من أجل إثباتها أمام من لم يكن له سبيل إلى إقناعهم بمصداقيتها إلا بالنزاع والحرب، ما شغله وصرفه عن التفكير في بسط معارفه وتخليدها بالتأليف.

(١) الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد، ص ٢٠.

(٢) الأنبياء.

(٣) الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد، ص ٥.

(٤) الكرامة أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوة النبوة، ولا مقدمة لها، غير مشروط فيها التحدي كالمعجزة.

(٥) فتح القدوس ص ٢٣.

(٦) الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر ص ٢.

(٧) وثيقة التأمين ص ١.

## • عرض الفكرة:

حرص البكاي بشكل عام أثناء عرض أفكاره على توضيح جميع ما في دواخله عن طريق أفكار جزئية ترتبط بالأفكار الأساسية التي يدور حولها حوارها وتذكر بها ولو بعد استطراد، لكن في لغة مبسطة وصورة واضحة رغبة منه في الغالب في رفع كل لبس أو غموض. وربما كان هذا من أحد دوافع الإسهاب وطول الكلام لديه. ومن ذلك ما أراد توضيحه حول دخول المؤمن العاصي في النار أولاً لقضاء فترة من العقوبة جزاء المعاصي التي كان يرتكبها في الدنيا، ثم خروجه منها وتحوله بعد ذلك إلى الجنة بشكل دائم وخالد.

كقوله: "وقد عرفنا وتقرر عندنا أن التقوى خير والفجور شر لأن التقوى من الجنة وإلى الجنة، والفجور من النار وإلى النار. ولا خير إلا ما كان من الجنة وإليها. ولا شر إلا ما كان من النار وإليها. فإذا رأينا عاملاً يعمل من التقوى رأينا كاسياً من الجنة في الحال عارياً من النار فيه، فحكمتنا عليه في الحال بأنه من أهل الجنة ويعمل أهل الجنة، أو بأنه من أهل النار ويعمل أهل النار. فإن دام له أحد الوصفين ودام هو عليه فهو للوصف الدائم له لا يكون للوصف الآخر. ولا يكون الوصف له إلا أن يتحول عنه أو يتحول عليه بعدل أو رحمة العدل إلى الرحمن بسبق الكتاب وفتح الوهاب. بهذا جرى الوعد الإلهي الذي لا يخلف ولا يتخلف. وبين هذين من يعرى من هذا مرة ومن هذا مرة، فهو في الدنيا من أهل الجنة مرة ومن أهل النار مرة. وفي الآخرة تجمع له مرات النار فيدخل بها النار، ثم يخرج منها بمرات الجنة فيدخل بها الجنة، فلا يخرج منها إلى النار(١)".<sup>١١٨</sup>

ويمكن أن نلاحظ في هذه الفقرات أنه اعتمد على التكرار والإطناب لتوضيح كل ما في نفسه من فكرة حول هذا الموضوع الذي يخيل إليه أنه لا يفهمه الكثير من الناس. فظن أن من واجبه الإخلاص في شرح وإزالة كل ما يلبس أو يستبهم منه.

ومن ذلك أيضاً طريقته في عرض الفكرة في فتواه حين قال: "الضرورة المبيحة للمحذور هو ما كان من تسليط الله على العبد ومن قضائه عليه دون سبب من العبد ولا إدخال على نفسه كالجوع المضر وكالإكراه المحض. وأما تعلقه بامرأة فإنه تسبب له وأدخله على نفسه بتسليط فكره على استمالة ذلك الشخص وتعليق همه به فلا يجيز ذلك له أن يفتح النهي وأن يتعداه بحده(٢)".

ومن طريقة البكاي أيضاً أنه يلح على الفكرة بتكرارها لتتغرس جيداً وبصورة قوية، في عقل المخاطب كي تظل عالقة بذهنه، فلا يقدر على الفكاك منها حتى ينفذها أو يعمل بمقتضاها فلا يتصرف إلا على ضوئها.

(١) الرسالة الثالثة إلى أحمد بن أحمد، ص ١، ٢.  
(٢) فتوى في حكم المطلقة ص ١.

من ذلك ما ورد في رسالته الأولى إلى الأمير أحمد بن أحمد يحثه على اتخاذ التدابير العاجلة لكسر جهاد الحاج عمر ويحذره من الإصغاء إلى كل من يمكن أن يشير عليه بعكس ما أشار هو إليه كائناً من كان يقول: " فرأيي عليك ما قدمت لك وأعيده عليك فلا تسمع من فلاني ولا غيره فترك سيقو للحاج عمر بل امنعهم منه وقم دونهم(١)".

وقوله: " ولا تساعد عمك في ترك ملكك للحاج عمر بل يساعدك عمك في عدم تركه له أعني بملكك سيقو، فإن تركتما سيقو للحاج عمر ضرر كما ذلك في دنياكم كل الضرر(٢)."

### • النزعة التقريرية والتعليمية:

ويلاحظ من طريقة البكاي أيضاً نزعة إلى التقرير التي تبدو منها رغبته في تعليم المخاطب ما يجهل أو تأكيد ما يبدو وكأنه متشكك في عدم وضوحه فيعمل على إثباتها وتقريرها. وكثيراً ما استخدم أداة التأكيد لذلك الغرض. ويتجلى ذلك في قوله وهو يحاور الوزير المغربي حول عقائدهم الصوفية: " فإن الشطح هو غلبة الضعيف في الطريقة وضيقة الحال فلا يضبط من نفسه قولاً ولا فعلاً(٣)".

ومنه ما ورد في الرسالة الأولى إلى الأمير أحمد بن أحمد في التحريض على الحاج عمر قبل وصول الأخير إلى سيقو وذلك في الوقت الذي يعترف فيه بعدم جواز القتال بين المسلمين، لذلك فهو يلجأ إلى حيل كلامية يخفي بها مسؤوليته المباشرة في دفع الأمير إلى مواجهة الحاج عمر يقول: " واعلم أن قولي لك: لا تبدأ بالقتال وقولي: لا يحل لك ولا له أريد به نهياً مطلقاً ولا أجعله لك فتوى ولكن هو الأصل، لا يخفى عليك ولا عليه ولا على غيرنا أن القتال في الإسلام حرام ولكن حالما عليه أتكلم(٤)".

ومن نزعة البكاي التعليمية محاولته تلخيص طريقة التربية الصوفية بالشكل الذي يوضح مفهومها لدى القادرية، كقوله في بيان مهام الشيخ في الطريقة: " إن الشيخ من انتصب ليعلم مريد السنة وطريقها... فإذا وصل المريد إلى مقام صاحب فقد وصل فلا يربى فإنما كان يربى لهذا(٥)".  
وقوله: " فإن عبادة بلا علم كهباء منثور(٦)".

### • الجدل والحوار:

(١) الرسالة الأولى إلى أحمد أحمد، ص ٤.  
(٢) المصدر السابق ص ٥.  
(٣) فتح القدوس، ص ١٨.  
(٤) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ٥.  
(٥) بغية الألف ص ٣٠، ص ١، ٢.  
(٦) وصية لأبنائه ص ١.

ربما كانت ظاهرة الجدل والحوار من أبرز السمات الأسلوبية التي اعتمدها البكاي في كتاباته وقد يكون منشأ ذلك لأن طبيعة الرجل الأبية وحب الغلبة والتفوق هي التي تجعله لا يرضخ لغيره ولا يقبل مذهباً يتخذه غيره لا في دين ولا في سياسة. وقد رأينا كيف أنه دخل في خلاف مع العديد من العلماء المعاصرين له سواء إذ لم يخضع لأي رجل فوقه أو مساو له في الرتبة العلمية أو الاجتماعية أو السياسية، بل تتنازع معهم جميعاً وفاضلهم سواء باللسان والقلم أو السيف، ما جعله يظهر بمظهر المنافس القوي الذي لا يرى الحق إلا من جانبه ولا يقبل من القول إلا ما يوافق نظرته الخاصة إلى الأمور. وتتجلى هذه القدرة الجدلية والحوارية - بصورة واضحة - في مناقشاته مع أقرانه المتصوفة.

ومن أمثلة البكاي الجدلية والحوارية قوله: " فإن قلت: هي في الأنبياء دليل الكمال وفي الأولياء دليل على عدم الكمال قلت هذا من الخبال والكلام المحال كيف يكون في الأعلى كمالاً وفي الأدنى نقصاً؟(١)".

و قال في رسالته الأولى إلى أحمد بن أحمد في شأن الحاج عمر: " فإنه لعل قائلاً منكم يقول: إني ما أفنتيكم وإنما قلت لكم رأياً(٢)".

وقوله في رسالته الثانية إلى أحمد بن أحمد: " فإن قال قائل: كيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد أهل هذا المقام لما قالت له المرأة الصالحة للرجل الصالح: هنيئاً لك الجنة ما يدريك أنا رسول الله والله ما أدري ما يفعل بي وقيل له: أتخاف يا رسول الله؟ قال: وما يؤمنني؟ قلنا: ذلك الخوف المطلق من النظر إلى الجلال المطلق ودونه(٣)". وقوله: " فإن قلت: وكيف صورة الكذب مع وجود الفعل والأثر منه قلنا: نعم ما سألت عنه أما صورة الكذب..(٤)".

ومن طريقتة في الجدل والمناقشة أنه يحاول أن يرصد مواطن التعارض والتناقض في كلام خصوم، ليوقع عليه الحجة ويثبت عليه الكذب وضعف العقل، كقوله: " وقلت إن الشطح كلمة صادقة صادرة إلخ فجعلت كلما يصدر من ولي الله من كل فعل خارق وكل قول شطحاً وعبت الشاطح، ثم زعمت أنه كاذب في هذا كله وكيف يكون كاذباً وأنت صدقته بجعلك إياه عالماً بخواص الأسماء(٥)".

وقوله أيضاً: " ومن العجب أنك تسميه(٦) عالماً بأسماء الله تعالى متصرفاً بها ثم تدعي أنه كاذب ممقوت(٧)".

وهذا ما يدفعه إلى السخرية من الخصوم وطريقتة في الجدل لأنه يخالف القواعد التي وضعها لنفسه، ثم لم يعتبرها وكأنه طفل صغير يحاور أمثاله من الأطفال، فيقول: " أتقرر قواعدك وتفرغ منها لتدخل فيها أو تخرج قواعدك إن وجدت من حملها على ما يعم زمانه(٨)". وغيره لجأت إليها وقاتلت بها وعنها ظلاماً وجوراً،

(١)فتح القدوس ص ١٧.

(٢)الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ٤.

(٣)الرسالة الثانية إلى الحاج عمر ص ٢.

(٤)فتح القدوس ص ٢٠.

(٥)المصدر السابق ص ١١٠. (٦)أي الجبلي.

(٧)فتح القدوس ص ٣٠. (٨)المصدر السابق ص ٢٣.

وإن لم تجد من يحمل كلمة الشيخ على ما تكره طرحت القواعد وقطعت الزوائد ففعلت وقلت ما أحببت بلا قاعدة ولا فائدة كأنك تكلم من تعودت وتعود كلامه كلامك(١).

### التحدي: ٣

نتجت عن شعور البكاي بمكانته الاجتماعية والروحية العالية نزعته إلى التحدي وعدم الإذعان لأحد مهما كانت مرتبته الدنيوية أو العلمية. فكم من تحد سافر ألقاه على العلماء والأمرءاء. ففي رسالته الأولى إلى أحمد بن أحمد فقط عبارات عديدة تطفح كلها بروح التحدي وطلب المبارزة التي يبدو من لهجته فيها أنه بلا شك متيقن بنتيجتها المسبقة في صالحه، كقوله: " فإن استجاب لك أو أبي أو نازعك في ذلك أحد من الفلان من قومك أو من غيرهم فاكتب إلي حينئذ فإني أكتب إليك كتاباً من العلم الصحيح لا يجد الحاج عمر ولا أحد من الفلان ولا من العجم كلها ولا من العرب محيداً عنه ولا محيصاً(٢)".

وقوله: " فإن استشكل أحد منكم التعرض للحاج عمر أو رآه ممنوعاً فليكتب لي بما يرى في ذلك(٣)".

وإلى جانب التحدي فقد غلبت الغلظة والتهديد على أسلوب البكاي حتى أنه كان في مجال النصيحة أو الطلب والشفاعة التي تقتضي التذلل والاستكانة لا يستطيع الفكاك منها، فلا يبدأ الكلام ولو باللين حتى يخالطه أو يختمه بالتهديد يقول للحاج عمر متشفعاً إليه في شأن بعض القبائل التي وقعت في قبضته.

" فأجبنى أيها الأخ الأمير لا سيما في أمر أهل أتوات فإن تركهم لي فيه أجر وشكر وفخر وذخر ولا يليق بصاحب دولة أن يؤذيني فيهم أو بهم فيجمع على نفسه معصية ومضرة. والاحسان لمثلك من مؤمن عاقل حر أن يسعفني لطلبتي فيهم فيسلم من مالهم الحرام ويسلم من تعلق همتي بالله من أجلهم. قلت هذه النصيحة ولم أطل فيها فمن أسمع الله سمع واتبع وانتفع(٤)".

ومن التخويف قوله: " ثم أتراه يقعد عنك حينئذ ولو قعدت عنه؟ لو صح ذلك وهو لا يصح لجاهه أهلك أرضك، يهرعون إليهم لسبق إليه رجال هنا معي في تمبكتو ورجال هناك معك في حمد الله. وأنا أعلم أنه يريدك، إذا فرغ من سيقو وأنت تعلم ذلك أو تظنه لأنك تعلم أن الحاج عمر يريدك أنت لا يرى له دون

(١) فتح القدوس، ص ٣٠..

(٢) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ٤.

(٣) المصدر السابق ص ٤.

(٤) المصدر السابق ص ٢.

بيضتك رياً ولا شعباً<sup>(١)</sup>". وقوله: " فقد لقي الشيخ أحمد الأكبر والشيخ أحمد سلطان وهو مسكين فجاهده بلسانه وقلبه وأنكر عليه بين يديه ومن خلفه والشيخ أحمد هو أفضل الفلان فكيف يترك بنيه؟ وكيف لا يجاهدكم لما صار سلطاناً؟<sup>(٢)</sup>".

وكذلك أكثر البكاي الاعتماد على أسلوب التحذير والتنبيه. وخاصة عندما استولى الحاج عمر على "حمد الله" عاصمة ماسنا خاف البكاي من الفلان أن يوقعوا بينه وبين الحاج، إذ لا يزالون يتذكرون النصائح والتوجيهات التي ضمنها رسالته الأولى إلى الأمير الشيخ أحمد بن أحمد لدفعه إلى مهاجمة الحاج عمر على أنه دجال يجب دفعه ومقاتلته، فأراد أن يسبقهم ويسد أمامهم الباب ليحول دون وصول كلامهم إلى الحاج أو قبول هذا الأخير لوشاتهم ضده، فوصفهم بالنائم والغشاشين الغادرين الماكرين كي يدفع الحاج إلى التوقي منهم والحذر فلا يقربهم لكيلا يسمع لقولهم<sup>١٢٢</sup>.

فقال: " وإنما قلت لك خوفاً عليك من نائم أهل أرضنا فإنهم أهل نائم وغش وغدر ومكر ما زالوا بآل الشيخ أحمد حتى غيروا علينا صفاءه وإخاءه، ولولا ما طبع عليه عامة الفلان من حبنا وتكريمنا لتعدوا فينا إلى العداوة التي بينهم قديمة، لأن الأمراء قل منهم من يحب الأنبياء والأولياء بل العداوة بينهم قديمة لأن الأمراء أبناء دنيا، والعلماء أبناء الآخرة<sup>(٣)</sup>".

ومن مظاهر التحريض المباشر في نصوص البكاي قوله للأمير أحمد بن أحمد: " فمن الرأي عندي بل هو أول الرأي ورأسه لك الذي ما قبله إلا التقوى ألا تترك " سيقو " للحاج عمر لا تتركه له لا تتركه له فكل من طلب منك أن تترك له سيقو فإنه إما جاهل بالرأي أو غير تام العقل وهو عدو لك.. لا تترك " سيقو " للحاج وإن أفتاك كل مفت.. ولا أجد لك حيلة تسلم بها من ظلمه وتسلم بها منه قبل أن تقوم له دون سيقو<sup>(٤)</sup>".

وقوله: " بل اصدع بما تتو وتريد وأظهره قائماً جهاراً واجمع قومك عليه<sup>(٥)</sup>".

ومن التحريض غير المباشر أي القائم على الإيعاز والإيحاء محاولة البكاي وضع الأمير أمام الأمر الواقع وإلقاء مسؤولية كل ما سيقول له في شأن الحاج عمر بحيث ظهر الأمير كأنه هو الذي دفعه إلى اتخاذ ذلك الموقف الصعب في الإشارة إليه بشن الحرب على الحاج عمر دون أن تكون لديه رغبة ما سابقة في ذلك، يقول: " وأما طلبك الرأي مني فإني لا أتوقف فيه ولا أوقف على شيء إلا أنني أراك حملتني فيه شططاً، فحملته نفسي حباً لك وحسن ظن بك فإنك تحملني على عداوة أهل فوته كلهم أو على إسخاطهم، لا سيما أميرهم قبل أن أعلم بعد ما جرى أو أسمع أو أرى<sup>(٦)</sup>".

(١) الرسالة الأولى إلى أحمد بن ص ٤.

(٢) المصدر السابق ص ٥.

(٣) الرسالة الثالثة على الحاج عمر، ص ٢.

(٤) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ٣.

(٥) المصدر السابق ص ٥.

(٦) المصدر السابق ص ٢.



و قوله له أيضاً: "فإن مرادك الحقيقي أن أبين لك هل يجوز لك دفع الحاج عمر من بعيد قبل أن يتقوى عليك بسيقو أو بغيره(١)" مشيراً بذلك إلى تلك الرغبة الدفينة في نفسيهما والتي في الحقيقة هي الناشط النفسي أو الحافز السياسي الأكبر الذي يجمع بينهما في هذه اللحظات التي يتم التواصل فيها بينهما.

**استخدم الأدلة العقلية:**

ومن أساليب البكاي الجدلية، اعتماده على الأدلة العقلية المبنية على القياس المنطقي والتي لا يسع القارئ عند الاطلاع عليها إلا أن يسلم بها ويقتنع بصحتها، إذ لا يرى من ورائها حجة أبلغ وأدعى منها إلى القبول. من ذلك ما جاء في فتواه وهو يرد على ما يزعمه بعض الجهلة من المبتدعة أن الفسحة واسعة أمام المؤمن. بحيث يجوز له ارتكاب بعض المحرمات أو إتيان المكروهات عند الضرورة التي لا يجد معها حلاً إلا اقتراف ذلك المحرم، يقول:

" إن مثل هذا لا تجيزه ضرورة ولا يسيغه نظر فإن نكاح الحرام ليس بنكاح بل فاحشة(٢)".

وقوله: " فإن من المعلوم من الشرع وفي الطبع أن المؤمن هو الذي تغلق عليه الأبواب وتحجر عليه الجهات(٣)".

والجدير بالإشارة إليه أن قدرة البكاي الاحتجاجية هذه استندت على ثقة بالغة في النفس تميل إلى تعليل الأمور وذكر أسبابها التي صنعت مواقفه ووجهت ميوله. ويستخدم لذلك اللام مؤكدة في الغالب بأن ليظهر أن قوله ثابت لا يمكن رده.

ومن ذلك قوله في الوعظ حول التقوى والفجور وأثر كل منهما في حياة المرء وبعد مماته: "وقد عرفنا وتقرر عندنا أن التقوى خير وأن الفجور شر. لأن التقوى من الجنة وإلى الجنة وأن الفجور من النار وإلى النار(٤)".<sup>١٢٣</sup>

وقوله في فتواه، في التمييز بين الضرورة المبيحة، والفاحشة الممنوعة: "أكل الميتة وإن كان محرماً فليس بفاحشة ولو كان ممنوعاً شرعاً فإنه غير ممنوع طبعاً. والفاحشة ممنوعة عقلاً وشرعاً فلذلك لا تجدها حلالاً، في شريعة أبداً بخلاف غير الفاحشة(٥)".

(١) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ٤.  
(٢) فتوى في حكم المطلقة ص ١.  
(٣) المصدر السابق ص ١.  
(٤) نصيحة إلى أحمد بن أحمد، ص ٣.  
(٥) فتوى في حكم المطلقة ص ١.

ومما لا شك فيه أن غرض البكاي من الجدل والحوار المدعم بالعلل والدلائل هو محاولة إقناع المحاور، بصحة أقواله وصواب آرائه التي جهد كثيراً في تبريرها وإثبات قوتها معتمداً في ذلك على ما تميز به من ثقافات متعددة الجوانب في الدين والتاريخ واللغة.

لكن الغريب عند البكاي أنه لم يعتمد عند معالجة بعض القضايا الشرعية إلا على عقله دون أن يسوق نصاً واحداً صريحاً يستند عليه لتأكيد أو تأييد حكمه. ومع اعترافنا بأن ذلك لا يعني بوجه من الوجوه قلة معرفة دينية لديه لأن الإشارات القرآنية المتعددة التي تطفح بها نصوصه تعطينا انطباعاً قوياً بأن ثقافته الدينية كانت واسعة إلى حد يدعو إلى الإعجاب والتقدير، إذ لم يحتج في قضية أو في موضوع إلى استدعاء نصوص للسخرية والاستهزاء إلا وجد من ذلك معيناً زاحراً يغرف منه بلا كد، بل ويضع كل ذلك في مكانه المناسب من الكلام ويبقى فيه من الارتباط والتماسك والوضوح ما تجلي به الأفهام وتنير به الآفاق فإننا لا نجد سبباً أقرب إلى الواقع من أن ثقته الزائدة في نفسه واقتناعه القطعي بأنه يتمتع بالولاية هي التي جعلته يعتمد على عقله بدلاً من الاستدلال بالنصوص الشرعية ما دام مقتنعاً بأنه لا يخالف كلام الله في فتوى ولا في رأي - كما قال في رسالته الأولى إلى أحمد بن أحمد (١).

وكما فعل في فتاواه في مسألة التحريم والفصل بين المحظور الذي قد يبيحه الشرع لضرورة، والمحظور الذي لا يبيحه أي ضرورة، ولا شك أنه فعل ذلك مع علمه بأن الصواب في الفتوى ألا تكون بدون استناد على أدلة نقلية، يفاص عليها عن طريق أوجه الشبه بحيث يجب على كل مؤمن بعد ذلك أن يقف عند حدودها ويلتزم بما فيها أمراً كان أو نهياً. (٢)

ومن دليل تبحر البكاي العلمي وإمامه الواسع بعلم القرآن وأسراره وإعجازه ما أورده أثناء الحديث عن قصة موسى مع ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استغاث به مرتين في خصومته مع المصريين، فقال في تفسير آية " فلن أكون ظهيراً للمجرمين": لأنه لم يؤمر به بعد، على ما يقول أهل التفسير، والذي يظهر لي أن محل خوفه واستغفاره كونه ظاهر ذلك الرجل الآخر ولا يعان مشرك ولا يستعان به (٣).

وقوله: " كلما أنزل حكماً أو قص خبراً أو ضرب مثلاً أو ذكر وعداً أو وعيداً ختمه، بقوله: " وكان الله عزيزاً حكيماً " و " كان الله غفوراً رحيماً (٣) ".

ويؤكد هذا التعمق العلمي الذي يتلأأ في نصوص البكاي زخم من الألفاظ والمصطلحات الإسلامية الكثيرة التي تتدفق لديه كالسيل العارم بما لا يمكن حصرها بحال من الأحوال، لكونها الركيزة الأساسية التي تقوم عليها أفكاره وتعابيره قاطبة. ومن ذلك على سبيل المثال قوله في الوثيقة (رقم ٣٥٥٤): أمير المؤمنين،

(١) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ٥.

(٢) الرسالة الثالثة إلى أحمد بن أحمد ص ٢.

(٣) فتح القدوس ص ٢٧.

وخليفة رب العالمين، ترديعاً، تاب، تقبل الله "٠ وقوله في الوصية (رقم ٣٩١١): دين، عبادة، كتاب الله، أستودعكم الله تعالى. وقوله في الرسالة الثانية إلى الحاج عمر (٥٠٥٦): الدعوات الإسلامية، أهل البيت النبوي، شفاعة النسب الشريف، طاعة الله، فعل الطاعة، ترك المعصية، يجازيك الله، ويكافيك نبيه. وقوله في الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر رقم (٥٠٥٦): التوراة، علم الله، حمد الله، إن شاء الله، البيعة، السلام عليكم، تقرباً إلى الله. أهل الله. ومنها أسماء العديد من الأنبياء والمرسلين: آدم، نوح، إبراهيم، هود، صالح، موسى، عيسى. وبعض أحباب الله من عباده المخلصين: الخضر، لقمان، مريم. وأسماء بعض الصحابة، والخلفاء الراشدين: أبي بكر، عمر، عثمان، علي. وآل البيت النبوي: خديجة، وعائشة، وفاطمة، والحسن، والحسين رضوان الله عليهم.

و كثيراً ما اعتمد البكاي في استدلالاته وإقناعه على القصص القرآني الديني التي من شأنها إن أحسن الكاتب استخدامها ووقعت في محلها من السياق أن تخدم أهدافه من توضيح أو تأكيد أو تقريب فهم أو تنوير للمخاطب. وله في ذلك نوعان من القصص والحكايات، أولها وأكثرها ما يسوقها من القصص القرآني التي وقعت لأنبيائه مع أقوامهم الكفرة المتمردين. والغرض من ذلك تهديد المخاطب وتخويله لأنه بدوره إما نبي مثلهم أو ولي تكلاه عناية الله التي تضعه في منزلتهم، فيعاقب الله إما بداءً أو بدعائه أعداءه. وكم مرة يردد ذلك التهديد والتخويل عامداً إلى قصص عدد من الأنبياء ولو ملخصاً موجزاً لكن في وجه واحد فقط هو خروج الكفار على أولئك الأنبياء وما أنزل الله بهم من الهلاك. من ذلك ما حكاه في مقدمة رسالته الأخيرة إلى الشيخ أحمد بن أحمد يهدده فيها بأن الله تعالى كما أيد رسله وأنبياءه بنصره وتأييده سيؤيده عليه هو أيضاً وكذلك على كل من يعاديه. وعلى الرغم من أن نسخة الرسالة التي وقعنا عليها ناقصة تبدأ من الصفحة الثانية فإنه يمكن أن نتبين منها ذلك الغرض، قال:

"فهاجر عنه إلى مدين، فجمعه الله تعالى بنبي من أنبيائه أقر به عينه وآنسه به من وحشة الغربة... ثم أيد عبده عيسى بروح القدس على بني إسرائيل. فكاده جميع ملوك الأجناس من جميع الناس فلم يقدر عليه منهم... ثم نصر الله عبده محمداً صلى الله عليه وسلم على قريش كلها ومن حولها من العرب عشر سنين.(١)".

ومنها قصة كافور الإخشيدي، مع ذلك العالم المصري الذي كان يغتابه قبل أن يحسن إليه كافور، ويسكته بالمال. فقال: "لله در كافور الإخشيدي، ملك مصر. بلغه أحد أصحابه كلمة عابه بها بعض علماء بلده، فقال كافور: نحن قصرنا في حقه ولذلك عابنا فبعث إليه بمال له قدر من الذهب ثم دس إليه من يسمع منه فقال: "ما أنجبت امرأة من السودان قط، إلا أم لقمان، وأم بلال بن رباح، وأم كافور، وكانت كلمته

(١) الرسالة الأخيرة إلى أحمد أحمد، ص ٢.

الأولى التي عابه بها، أن قال: من هوان مصر على الله تعالى أن ملكها امرأة في أول الزمان، وملكها سودانياً خصياً في آخره أي كافور(١).<sup>١١</sup>

أما ثقافته الأدبية فليس بغريب أن تكون واسعة وعميقة أولاً لتعلق عموم البدو والصحراويين بالشعر العربي، وحب روايته، والتمثل به في القليل والكثير من شؤون حياتهم، ثم لمن كان في مثل البكاي متبحراً في كل ما يمس الإسلام والعربية وعلومهما. وقد تجلى ذلك في العديد من الأبيات الشعرية التي استأنس بها في نصوصه. وهي لشعراء مختلفين وفي عصور متباينة. من ذلك ما أورده للشافعي(٢) عند شفاعته لأحد الشرفاء مذكراً بعظمته ومكانة آل البيت، في الإسلام:

يا آل بيت نبي الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله

يكفيكم من عظيم القدر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له(٣)

ومن دليل ثقافته اللغوية واطلاعه الواسع على المعاجم العربية التي كان يلجأ إليها لتوضيح معاني ودلالات بعض المفردات والتي كان يرى أن مخاطبه أساء فهمها أو أنه استخدمها خطأ قوله في شرح الآية: "إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف تذكروا فإذا هم مبصرون(٤)"، فالمامه إمام الطارق والطائف ومزاره مزار السارق الخائف يدل عليه ذكره بالطيف في قراءة؛ وهو اسم لأضعف وجود في الحس والخيال، وبالطائف في قراءة؛ وهو منبئ عن أضعف الحركات والأفعال(٥). وقوله في شرح كلمة "أرعن" التي يرى أن أكنسوس غلط في استعمالها في مسألة الشطح التي اختلفوا حولها: في القاموس: الأرعن الأهوج في منطقته والأحمق المسترخي من رعن رعونة ورعناً(٦).

#### • استخدام الأدلة النقلية:

كثيراً ما ساق البكاي آيات قرآنية، لتقوية كلامه، ودعم موقفه لكن في غير محل استدلال على حكم شرعي وإنما في مجال السخرية أو الاستهزاء، فقط فليس في جميع مخطوطاته التي بين أيدينا آية واحدة استدلت بها في تقرير حكم أو إثبات شرع. فكلما جاء بآية قصد بها إلى الذم أو الشماتة أو السخرية أو الفخر، فكأنه يتلهم بالآيات أو يضحك على المخاطب الذي يحاوره وحتى إذا ما ساق آية في محل استدلال فإنه -

(١) الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد ص ٨.

(٢) هو الإمام أبو محمد بن إدريس الشافعي القرشي المطلبي. أحد أئمة المذاهب الفقهية السنية الأربعة الكبرى في العلم الإسلامي. ولد في غزة سنة ١٥٠هـ، عام وفاة أبي حنيفة، وتوفي في مصر سنة ٤٠٤هـ.

(٣) محمد إبراهيم سليم، (ديوان الشافعي المسمى الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس الشافعي)، مكتبة السباعي ص ١٢١.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٢٠١.

(٥) الرسالة الثالثة إلى أحمد بن أحمد، ص ٣.

(٦) فتح القدوس، ص ١٩.

بدعوى أن الناس لم يفهموا المقصود من تلك الآية - يحاول أن يؤولها ويصرفها إلى غير المفهوم العام منها زاعماً أن فهمها ليس لكل أحد إلا من كان في مثل مرتبته من القرب والولاية وأولئك قليلون .

من ذلك ما أورده في مجال التذكير في رسالته الأولى إلى الأمير أحمد بن أحمد عند الوقعة بين الجماعتين المسلمتين محاولاً أن يلوي طي الآيات بصرف معناها عن عدم موالاته الكفار في حال دفاع الأمير عن مدينة " سيقو " ضد الحاج عمر، فقرر أن ما يفهمه الناس من تلك الآيات لا تنطبق على تلك الحالة لكن دون أن يقدم دليلاً يثبت ذلك من الكتاب والسنة، فعول أن الآيات تعني غير مفهومها الظاهر وشطح في ذلك شاطحاً لا قبل لأحد بفهمها، زاعماً أن فهم ذلك ليس لكل عالم ولو قرأ كل كتب الدنيا ما لم يرزق بشرف الولاية من الله، هو وسلفه يقول بعد أن يورد الآيات الأربع:

" فهذه الآيات محكمات غير منسوخات . ولكن رب من سمعها ما وعها ولا عرف معناها... فإن علم كتاب الله هو العلم النور ولكنه لا يكون إلا في قلب نور ما فيه إلا النور . فلا يكون عالماً ولا يسمى عالماً إلا من أوتي علمه ولو حفظ كل كتاب في الدنيا وعلم السنة هو فرعه وبيانه لا يكون علمهما إلا لولي كامل وارث الأنبياء ورأس الأولياء وغيرهما من العلم يحمله المسلم والكافر ويستوي فيه البر والفاجر(١)." .

وتشتمل هذه الأدلة على الآيات الصريحة كقوله تعالى: " لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء(٢)." . وقوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً(٣)." . وقوله تعالى: " أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عوكم ويستخلفكم في الأرض(٤)." .<sup>٣٧</sup>

واعتماداً على ثقافته القرآنية الواسعة كان البكاي - يضمن كلامه بألفاظ تشير بوضوح إلى بعض الآيات التي لا يجد القارئ صعوبة في استحضارها، كقوله في الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد: " لا أعتذر عن نفسي، إن أسأت بأني مقتد في الإساءة بشيخ لي أو أب بل أقر على نفسي وأبرؤه(٥)." . إشارة إلى قوله تعالى: "وما أبرؤ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم(٦)." .

وقوله لما أرسل الأمير إليه جيوشه لانتزاع الجاسوس النصراني من حمايته: " والحاصل اجهد على جهدك واستنفر إلي جندك واجلب علي بخيلك ورجلك(٧)." . إشارة إلى قوله تعالى: " واستنفرز من استطعت

(١) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ٤ .

(٢) سورة آل عمران، آية: ٢٨ .

(٣) سورة النساء، آية: ١١٤ .

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٢٩ .

(٥) الرسالة الأخيرة، إلى أحمد بن أحمد ص ١١ .

(٦) سورة يوسف، آية ٥٣ .

(٧) الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد، ص ٢١ .

منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد، وعدهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً<sup>(١)</sup>.

وإلى جانب هذه النصوص الصريحة هناك آيات كثيرة اقتبس منها البكاي، في كلامه العادي دون أن يذكرها صريحة وفي سياقها التي وردت فيها من القرآن الكريم، وهي كثيرة مبنوثة في ثنايا مخطوطاته يذكرها - أحياناً - بإضافات بسيطة أو تغييرات طفيفة ربما في ترتيب الكلمات فقط، ومن ذلك ما يلي: <sup>١٣٨</sup>

قوله: " أذكركم بالله تعالى وأدعوكم إلى دينه دين الإسلام والإيمان والإحسان . وأنهاكم عن الفحشاء والمنكر والبغي والعدوان(٢) " . إشارة إلى قوله تعالى: " إن الله يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون(٣) ". كما أن فيها إشارة إلى قوله تعالى: " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب(٤) " .

أما الأحاديث النبوية فإن البكاي لم يكثر من روايتها صراحة، بل كان يكتفي - غالباً - بالإشارة إلى المناسبات والأحداث التي وردت فيها دون أن يذكر النص كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم. وربما فعل ذلك لعلمه بأنه إنما يعتمد - في الأغلب - على الأحاديث الموضوعة أو من صنعه هو شخصياً، لأن أغلب الأحاديث التي يتبعها الصوفية، لترسيخ بدعهم وخرافاتهم مكذوبة على الرسول صلى الله عليه وسلم. ومن ذلك حديثان موضوعان لم نعثر لهما على أي مصدر يمكن الإشارة إليه. أحدهما: لا يشك أحد في أنه من وضع الصوفية لإثبات وجود الأشياخ الأخيار الذين يطلقون عليهم اسم الأبدال، وذلك في رسالته الأولى إلى الأمير أحمد بن أحمد في مجرى انتسابه إلى الأولياء، حيث قال:

" وقد وصف نبي الله أبدال(٥) أمته فذكر أنهم لم يفضلوا الناس بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بسخاوة النفوس وسلامة الصدور وحسن الخلق(٦) " .

أما الثانية فقد أوردتها لإثبات أفضلية العرب على سائر الجناس البشرية، وذلك في قوله: قال صلى الله عليه وسلم: الناس تبع لقريش مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم إلى أن قال: لا يعاديهم أحد إلا كبه الله لوجهه(٧) " .

(١) سورة الإسراء، آية: ٦٤ .

(٢) الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد ص ٣٧-٣٨ .

(٣) سورة النحل، آية ٩٠ .

(٤) سورة المائدة، آية ٢ .

(٥) جمع بدل، والأبدال أحد المراتب في الترتيب الطبقي للأولياء عند الصوفية. ويستدلون بحديث منكر أخرجه الطبراني في معجمه الكبير، وأبو نعيم في الحلية عن طريق ثابت بن عباس الأندلسي عن ابن مسعود مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم: " لا يزال أربعون رجلاً من أمتي قلوبهم على قلب إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، يدفع الله بهم عن أهل الأرض البلاء، يقال لهم الأبدال... الحديث " . قال العلماء: لم يصح في البديل حديث. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والحزاب المعصرة. ص ٩٥١ .

(٦) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ٢ .

(٧) الرسالة الثالثة أعلى الحاج عمر ص ٣ .

## • الحكمة:

لم نعثر عند البكاي على أقوال ذات طابع يوحى بالحكمة غير ما ورد في مخطوطين اثنين تبدأ بمن الشرطية ما عدا واحدة. وتوجد اثنتان من تلك الحكم في الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر إحداهما قوله: " الحر لا يغدر " والثانية قوله: " من ملك فليسمح ومن قدر فليعف ومن قال فليحسن(١)".

ثم سلسلة متتالية في الوصية(٢) التي وجهها إلى أبنائه، ومنها ما يلي: " من قنع بما قسم الله له مات غنيا ". و" من مد عينيه إلى ما في أيدي الناس مات فقيراً "، و" من لم يرض بما قسم الله له اتهم الله في رزقه "، و" من استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره "، و" من كشف عورة غيره انكشفت عورته "، و" من سل سيف البغي قتل به "، و" من حفر لأخيه بئراً وقع فيها "، و" من خالط السفهاء احتقر "، و" من خالط العلماء وقر "، و" من دخل مداخل السوء اتهم ".

ويلاحظ في هذه الحكم ما يلي:

— أن البكاي قصد إليها قصداً لأن النصيحة نادراً ما تأتي مجردة عن الحكم فقل من يحاول أن يسدي نصيحة دون أن يدبجها بالحكمة لأثرها البليغ في النفوس ووقعها الجميل في القلوب .

— أنها حكم بالغة وظريفة، معانيها عريضة وألفاظها في الدلالة سامية. وإذا علمنا أن أهم مخطوطاته ليس سوى عبارة عن شتائم وسباب فإنه في هذه الحال لا يسعنا إلا أن نحكم بأن وصيته التي تضمنت تلك الحكم المتوافرة هي من بين كل ما كتبه أصدق أقواله وأرقاها معنى ودلالة، وذلك لما اجتمع فيها من حصافة عقل وثقافة غنية وأسلوب بديع إضافة إلى الخلق العلي والمنطق الرفيع. <sup>٣٣</sup>

— أن فيها مسحة العلماء الإسلاميين في الصياغة والأداء وبعد الرؤية وجمال التعبير .

— أنها جاءت موافقة في النص ومناسبة لموقف النصيحة بحيث صارت جزءاً مهماً منه لا ينفصل عنه وجانباً قوياً يزيد من جماله وروعته. وإن الطريقة التي لخص بها معاني مكارم الأخلاق تمثل في صدق وواقعية الرؤية الإنسانية الصائبة للكاتب وخبرته الواسعة في الحياة ودرايته العميقة بالدين ومفاهيمه . وهذا يدل على ما يتمتع به من عقل ناضج سليم وفهم صحيح سديد.

وكان أحرى به - مع توافر الجم الغفير من الحكم في متناول يد كل عالم ومتعلم إضافة إلى كونه الصوفي المتعمق - أن ينزع إلى التعليم والتوجيه أو يكرس - على الأقل - للحكمة حيزاً كبيراً من النصوص لتعم فائدة رسائله بدلاً من تركيزه - فقط - على العقائد الصوفية الفاسدة التي لا تغرس سوى المزيد من الخرافة والبدعة وما يترتب على ذلك من فتنة وضلال، لكنه صدف عن ذلك لا لسبب ظاهر آخر لقدرة الرجل وسعة ثقافته، وإنما لفرط عاطفته الغاضبة التي لم يتمكن من التخلص منها حتى في مقام الجدل العلمي ليكرس

(١)الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر ص ٤ .

(٢)وصية لأبنائه ص ١ .

نصوصه للسخرية والاستهزاء. ما أعجزه - على الرغم من جمال حكمه وموافقته للمقام - عن الاتيان برؤى جديدة في الحياة أو نظرة تحمل طابعه الخاص الذي يميزه أو ينفرد به. ما يدفعنا إلى تعويل خموله هذا على رغبته في التقليد والمحاكاة وتغلب الغرض الصوفي الذي عرف به واشتهر وصار علماً عليه من أجله يزار ويتبرك به.

وإلى جانب الحكمة استخدم البكاي في جدله الأمثلة لتقريب الفهم والدلالة على ثقافته الواسعة. وهي في الغالب أمثلة قريبة بسيطة وسهلة وواضحة تزيد المراد وضوحاً ونصاعة، كقوله في رسالته الأولى إلى أحمد بن أحمد وهو يحدثه عن جدوى طاعة التابع للمتبوع، لما يترتب عليها من رافة وحسن جزاء وعن مغبة العصيان والخروج عن الطاعة الذي لا يجر على المخالف سوى الويل والمزيد من القسوة وسوء المعاملة، وذلك في قوله: "وأضرب لك مثلاً يفهمك ما قلت: سلطان له أربعة أعبد: أحد الأعبد أبي عن سيده واستبد بنفسه عنه... وثاني الأعبد لم يأتك ذلك الإباق ولم يخرج نفسه عن عبيد ربه إلا أنه يكذب عليه قريباً من كذب ذاك وينسب إليه الحيف والجور والظلم... ثالث الأعبد لو ضرب عنقه بالحسام لم يخرج عن ملك سيده ولم يتبدل به غيره... رابع الأعبد من حبه لسيده وتعظيمه له لا يعرج على نفسه ولا على هواها ولا يريد إلا ما يريد مولاه لا يخالفه في أمر ولا يجهله في قدر، فالأولان أهل للعقوبة بالاستحقاق... والآخرون أهل للعفو والرحمة بالاستحقاق(١)".

والثاني في الفتوى التي يرفض فيها تحليل المرأة المطلقة ثلاثاً إلا بعد زوج وهو قوله: "وليس هذا مما يباح بالضرورات من المحظورات فإن ذلك مثل الميتة للمضطر، وأكل الميتة وإن كان محرماً فليس بفاحشة ولو كان ممنوعاً شرعاً فإنه غير ممنوع طبعاً. والفاحشة ممنوعة عقلاً شرعاً فلذلك لا تجدها حلالاً في شريعة أبداً، بخلاف غير الفاحشة، ألا ترى أن نحو الجمع بين الأختين وأكل لحم الإبل فإنه يباح في شريعة دون شريعة ويحرم في شريعة دون شريعة؟(٢)".

(١) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ٧.  
(٢) فتوى في حكم المطلقة، ص ١.



## ثالثاً: السمات الأسلوبية

### • الإيجاز:

تتراوح أساليب البكاي بين الإيجاز والإطناب، وذلك حسب مقتضيات الأحوال والظروف. ففي مواضع التعليم والتفهيم لا يقتصد في الألفاظ، بل يسترسل فيها، حتى يشعر بأنه قد أدى الغرض وأوفى المعنى ما يحتاج إليه.

أما عندما يكون في حاجة إلى طلب شيء من المخاطب فإنه يسلك إلى ذلك سبيل الإيجاز والإطناب. فيعرض الحاجة فقط دون إطالة مستهدفاً من ذلك إلى تعليق ذهن المرجو بالحاجة التي تهمة لكي لا يشغله بمواضيع أخرى قد تهون الحاجة لدى صاحبها أو ينسيه عنها بلفطات، لا يؤمن أن تجرح شعور المرجو، فتنقسي قلبه، ومن ثم يرفض المطلب وخاصة في شأن الحاج عمر الذي لا توجد بينهما ثقة متبادلة.

ويلمس ذلك في طلبه إعادة امرأة إلى أحد الشرفاء كان رجال **الحاج عمر** قد أسروها أثناء الحرب، فقال: " فإن حامل الكتاب شريف من أهل البيت النبوي جاعني بنية المسير إليك والشكوى من بعض عمالك وذلك أنه كانت له سرية فأخذوها منه حاملاً منه فطلب أن يفتديها بأكثر من قيمتها فأبوا(١)".

وفي طلبه الشفاعة للطوارق الذين ارتكبوا منذ استولى **الحاج عمر** على مملكة " ماسنا " فقال: " ومما لا بد من الكلام لك فيه بعد أن أقدم لك مقدمة عليه أمر الطوارق... فمطلبي أن تسكنهم لعمارة هذه الأرض ولا سيما تمبكتو فإنها لا عمارة لها إلا بالطوارق(٢)".

فهو يعرض الحاجة حافية مجردة عن الحشو واللبس ودون تنميق ولا تكرار، كقوله: " وأيضاً أكلمك وأشفع إليك في أحمد بن أحمد بن الشيخ أحمد أن تحسن إليه وتعفو عنه وترفق به... ثم أشفع إليك في أصحابه وأقاربه الذين وصلوا إلي واستجاروا بي فاعف عنهم واصفح(٣)".

غير أن ميله إلى الإيجاز يأتي - أحياناً - بعد أن يكون قد استنفد ما عنده حول الموضوع واستوفى منه قصده فيقف عند ذلك الحد، كأنه يشير إلى عدم وجود حاجة إلى الإطالة ليُوهم القارئ أن هناك الكثير الذي يعلمه أو يريد قوله لكنه لم يبيح به أو أن ما أخفاه أهم وأجل مما أفصح عنه تشويقاً للمخاطب ودفعاً له إلى أن يكون أكثر استعداداً لتقبل آرائه ويتحفز أكثر للتواصل معه أو المتابعة. وكقوله: " يكفينا من هذا فإنه فيه بيان لمن له جنان (٤)". وقوله: " فإني كأني أطلت في الكتاب(٥) وقوله: " وإنما اختصرت في الخطاب وأحامل عليه أن يكون آخر كتاب إليك(٦). وقوله: " فالآن أختصر في الكلام وأقتصر في الفائدة(٧)". وقوله: " ثم لا أتعب

(١) الرسالة الثانية إلى الحاج عمر ص ١.  
(٢) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر ص ٣.  
(٣) المصدر السابق ص ٢٨.  
(٤) المصدر السابق ص ٢٧.  
(٥) المصدر السابق ص ٣٧.  
(٦) المصدر السابق ص ٣٧.  
(٧) المصدر السابق ص ٣٧.

القلم في ذلك ولا ذلك(١). وقوله: "وسياتي لهذا الباب مزيد لا ينكره سعيد وقد اختصرتها(٢)". وقوله: "ولو لا أنا لا حاجة بنا إلى الطويل لبينا" (٣) وقوله: "ولا نطيل في هذاحبرك فيه عيب لا يعرف وتكذيبي فيه عيب(٤)". وقوله: "اختصرنا من آخر النبي والصاحب والشيخ والمريد(٥)". وقوله: "وحسبي من هذا الكلام فإنه واف بالمرام كاف في هذا المقام(٦)". وقوله: "ولا سبيل الآن إلى التطويل في هذا(٧)". وقوله: "وهذا لا نطيل فيه ولا حاجة لأحد إليه اليوم(٨)". وقوله: "فشرط لها شروطاً ولا سبيل إلى التطويل(٩)". وقوله: "حسبنا من الكلام في هذا الباب فإن ما ورد فيه من كلام ربك وكلام نبيك تعرفه وتعلمه ولا تجهله ولا تنكره(١٠)".

### الإطناب:

عندما يختص الأمر عند البكاي بالمواضيع الفكرية والدفاع عن مواقفه السياسية واتجاهاته الصوفية لا يقف البكاي عند حد في الكلام بل يطلق العنان لنفسه مستخدماً في ذلك كل قدراته الذهنية والتعبيرية، لأنه - غالباً ما - يكون في حالة هجوم على معتقدات الخصم أو في حالة دفاع يسعى من خلاله إلى إقناع المخاطب بصحة مذهبه وصواب مواقفه.

وفي سبيل تحقيق تلك الغاية يسلك طريق الجدل والحوار فيورد طرفاً من كلام محاوره ثم يرد عليه، كما فعل ذلك كثيراً مع أحمد بن اكنسوس، ويركوي تالف، وفي رسالته الأخيرة إلى أمير الفلان أحمد بن أحمد.<sup>١٣٣</sup>

ويبدو من ولع البكاي بالتقسيم أنه كان يميل إلى استقصاء الأمور والإفصاح عن كل ما في نفسه، وكل ما يتعلق بالموضوع الذي يعالجه من جزئيات وتفاسي. مستهدفاً من ذلك إما إلى إشباع نفس المخاطب وعقله حتى لا تبقى له حاجة إلى طلب إتمام معلومة أو مزيد بيان، ما جعل معظم رسائله يتسم بالإطناب والطول، فقل أن توجد له رسالة مهمة دون الصفحتين أو الثلاث، وقد تصل إلى الأربعين أو المائة أو تزيد، كل ذلك لإيصال أغراض شخصية وإن اتخذ بعضها صبغة علمية تقوم على الجدل الصوفي العقيم، وإما إلى رغبته في التفصيل الدقيق والشرح المستفيض ليقفل - كما يقولون - الموضوع الذي يتحدث عنه بحثاً وقلباً أو يقضي وطره من الكلام، كقوله: "بيان هذا الأول أن مطلوب الله تعالى من عبده ومقصود النبي فيه ومراد الشيخ به أن يقوم ويصل إلى المعرفة الصحيحة والإيمان الصادق(١١)".

(١) بغية الألف، ص ٥.  
(٢) المصدر السابق ص ١٧.  
(٣) المصدر السابق ص ٢٦.  
(٤) المصدر السابق ص ٢٧.  
(٥) المصدر السابق ص ٢٧.  
(٦) المصدر السابق ص ٣٢.  
(٧) فتح القدوس، ص ١١٣.  
(٨) المصدر السابق ص ١١٧.  
(٩) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص  
(١٠) الرسالة الثانية إلى الحاج عمر، ص ١.  
(١١) بغية الألف، ص ٣٠.

وقوله رداً على وصف خصومه لعذاب النار بأنه صورة الأعمال السيئة التي يقترفها الإنسان في الحياة الدنيا، وأن نعيم الجنة صورة الأعمال الحسنة: "ليس هذا بصحيح فإنه يفهم منه معنيان سخيقتان: أما أحدهما: فمذهب الزنادقة ومن في معناهم... ثانيهما: ما يحمل عليه كلامك إلا أنه خطأ فإن عذاب النار فيها الآن ونعيم الجنة فيها الآن... إلى أن يقول: وهنا أتمنا ما قصدنا التنبية عليه..(١)".

وفي رسالته الأخيرة إلى أحمد بن أحمد أمير الفلان عندنا ما أراد الطوارق أن يهجموا على الفلان وقام هو بمنعهم عن ذلك فاستخفوا عقله واستضعفوه قال مدافعاً عن نفسه ومبيناً أنواع العقول:

" فقلت لهم إن العقل عقلان: عقل للأخرة هو الدين... وعقل للدنيا هو المعروف عن أهل الدنيا من مسلمهم وكافرهم يكون أهله الفلان والبنابر وموشي والحبشة والروم والترك(٢)".

وفي الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر حول الأسباب التي جعلته يعادي الحاج ويتخذ منه مواقف سلبية. يقول البكاي:

" .. وقد بلغني أخي سيدي حبيب الله قوله قلتها بل قولتين: أولاهما قلت له: " حمد الله أقرب من سكت... وقولتك الثانية: أني أتقرب إلى الأمراء بالهداية إليهم..(٣)".

و قوله: " حملني عليه أمران: أحدهما لا أذكره لك الآن ولعلك تسمعه من غيري. ثانيهما... (٤)" وفي رسالته الأولى إلى أحمد بن أحمد بعد أن بلغ مراده في تحريضه على الحاج عمر يقول في نصحه: " فإذا وفقك الله لذلك وشاءه الله وعلمت أنك لي وأني لك. فإنك لا تحتاج بعد ذلك إلا إلى أمرين: أحدهما لدنياك... أما الثاني الذي لدينك ودنياك.. (٥)".

وقوله في الرسالة نفسها وهو يشير إلى الأمير بما ينبغي أن يقوم به في تنظيم جيشه وقيادته: " وأمرتك ببالب لأمر: منها أنه أسلم الناس... ومنها أنه يحرص على دولتك كما تحرص عليها..(٦)".

ومن صور الإطناب التي اعتمد عليها الكاتب تزامم الألفاظ المعطوفة في عبارة واحدة. فكان كثيراً ما تدفعه الإثارة والانفعال إلى رص تلك الألفاظ ليبلغ غايته من التبجيل والتعظيم في حالة الرضى أو من الاستخفاف والتحقير في حالة السخط. وهي في الغالب متدرافات أو متناقضات يؤكد بعضها بعضاً ويوضح بعضها بعضاً. وإنما يفعل ذلك استقصاء منه واستغراقاً للمعاني والأحوال.

(١) بغية الألف، ص ٢٧.

(٢) الرسالة الأخيرة إلى الأمير أحمد بن أحمد، ص ٣٣.

(٣) الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر، ص ١، ٢.

(٤) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر، المصدر السابق ص ١.

(٥) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ٥، ٦.

(٦) المصدر السابق ص ٧.

ومن أمثلة الأفعال التي وردت عنه في ذلك قوله: "وكنت من قديم أكلمكم فيها وأعلمكم فيها وأنبهكم عليها وأفهمكم هي نظام الأمر الديني والدنيا كلها وبها قوامه(١)".

وقوله: " فإن أخي هو الذي غلهم وأجلهم وجمع كلالهم ثم عفى وأصلح وخط ونصح بعد أن حرق وخرق(٢)". وقوله: "والسلطان يعظم ولا يعظم ويكرم ولا يكرم ويخاف ولا يخاف ويهاب ولا يهاب إلا أن يعظم ويكرم ويخاف ويهاب لله الجبار(٣)".

و قوله: " لا نقول بذلك(٤) ولا نصدق من يقول به بل نكذبه ونفنده ونسخره ونسفه(٥)".

فبناءً على تلك العواطف والانفعالات المفرطة يمكن القول إن البكاي في صراعه ضد التجانية لم يكن حريصاً كل الحرص على تنفيذ البدعة وتنزيه السنة المطهرة مما علق بها من الشوائب والزيادات التي تنافس في وضعها بعض علماء الأمة من الصوفية المبتدعة(٦).

أما الأسماء فقد تكون مجرورة أو منصوبة أو مصادر أو أوصافاً كقوله: "فما يحملني على قبوله إلا أن أحب الرجوع إلى تمبكتو دار الظلم والخبث والهوان(٦)". وقوله: "بأن تكونوا أهل علم وحلم ودين ويقين(٧)", وقوله: "فما أنا عبتكم بقولي ولكن عبتم أنفسكم بفعلكم ثم بمصاحبتكم وموالفتكم للأشرار والفجار ومجانبتكم ومخالفتكم للأبرار والأخيار(٨)". وقوله: " وصارت له قوة ذلك الإقليم كله من خيله ورجله وماله ورجاله وذهبه وودعه ونعمه وزرعه فما تصنع أنت حينئذ؟(٩)", وقوله: "إلا أنه إثم وظلم وحشم وخجل وخزي ما نفع ولا انتفع(١٠)", وقوله: "فلقي العرب والترک والبربر واليهود والنصارى والسودان في الشرق والغرب وتعلم حيلهم وأحوالهم(١١)".

وأما الصفات فكانت تأتي في الغالب مناسبة لكل حالة انفعالية من رضى أو سخط، ويقصد من ذلك في الغالب إلى التفخيم والمبالغة مع مراعاة الإيقاع الموسيقي أحياناً، ومن أمثلة ذلك في حال البهجة والإعجاب قوله: " فإنه أيضاً حبيب شهى لذيد(١٢)". وقوله: " الصلاة والسلام على السيد الأبد والأغر الأبر

(١) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ٦.

(٢) الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد ص ٣٦.

(٣) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ١، ٢.

(٤) كون عدم ظهور الكرامات للأولياء كاملاً في حقهم للإكتفاء بظهور ولايتهم عياناً للناس وعدم احتياجهم إلى معجزة تثبت ذلك.

(٥) فتح القدوس، ص ١٨.

(٦) الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد ص ٥.

(٧) المصدر السابق ص ٥.

(٨) المصدر السابق ص ٥.

(٩) المصدر السابق ص ٦.

(١٠) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ٣.

(١١) الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد ص ٣٢.

(١٢) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ١.

المحمد الأحمد(١). وفي حال الغضب والحنق قوله: "إنهم كذبة فجرة فسفة جهلة سفلة(٢)", وقوله: "أما قول المبتدعة الفسفة الكذبة(٣)", وقوله: " فإياك وإياك وهذه الخصلة القبيحة الشنيعة الخبيثة(٤)".

ومن أساليب إطنابه أيضاً حشر ألفاظ وعبارات بين المتلازمات لشرح علله ومقاصده وقد تكون حشواً مفيداً إما أن يقوي المعنى أو يزيد في البيان أو تدل على العاطفة العارمة، وبعضها دعاء ولعنة، وقد يكون غير مفيد أحياناً لا جدوى منه سوى إطالة الكلام وإظهار الثروة اللغوية.

فمن الأول محاولة تفسير قول موسى عليه السلام دونما حاجة إلى ذلك، لأن الموقف ليس موقف تفسير ولا شرح مفصل: " فلن أكون ظهيراً للمجرمين "، فقال: وإنما خاف من قتل الكافر وهو غير معصوم الدم لأنه لم يؤمر به بعد.. إلى أن قال: فليتأمل فإنه واضح... (٥).<sup>١٥٠</sup>

ومن الثاني كثرة الفضول التي أوردها في مقدمة رسالته الأولى إلى الأمير أحمد بن أحمد، سعياً وراء الفواصل الموسيقية. كقوله " الحمد لله الملك الكريم الذي هدانا بكتابه الحكيم إلى صراطه المستقيم ": "مهديين في الحكم والتحكيم، معدين عن الظلم والتظلم، وصلى الله على نبيه الزعيم الرؤوف بالأمة الشديد على الأعداء بالتصميم، مبين الرشد بالنتيم، في سنته على التعميم، حتى للأعمى السقيم، وعلى أصحابه في العزيم، ووزرائه في العظيم، من الصلاة والتسليم، والرضى والتكريم، ما لا يحد بالتقسيم، ولا يعد بالتقويم، وعلى خلفائهم في التقديم، وورثتهم في التعليم، أهل التحديث والتكليم، والالهام والتفهيم(٦)". وقوله في تحية المقدمة نفسها: " بالسلام السليم، والإكرام الكريم، إلى ابنه أخيه أخيه، بلا شبيهه(٧)".

ومن الأدعية والمذام قوله في ذم المبتدعة: " إذ يطلون - قبحهم الله - لمن هوى محرمه؛ أمه أو بنته أو أخته أو زوج أبيه أو مرضعته أو أم امرأته أن ينكحها إذا خشي الفتنة(٨)". ومنه قوله: " فأعاذنا الله وأعاذ المسلمين مما يدعيه هؤلاء المبطلون المبتدعون(٩)". ومنه قوله في الدعاء في رسالته الأولى إلى الحاج عمر: " وذلك أنت - إن شاء الله تعالى أصلحك الله وأصلح بك وردع الظالمين وقطع بك الظلم وأهله(١٠)".

(١) الرسالة الثانية إلى أحمد بن أحمد ص ١.

(٢) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ٨.

(٣) فتوى في حكم المطلقة ثلاثاً، ص ١.

(٤) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ٧.

(٥) الرسالة الثانية إلى الأمير أحمد بن أحمد ص ٢.

(٦) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ١.

(٧) المصدر السابق ص ١.

(٨) فتوى في حكم المطلقة ص ١.

(٩) المصدر السابق ص ٦.

(١٠) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر، ص ٣.

وقد يخلط بين رغبتى الإيجاز والإطناب في موضوع واحد بأن يفتح الكلام في الموضوع ثم يقطعه فجأة مظهراً عدم ميله إلى الاسترسال لكنه لا يستأنفه كأن لم يكن قاصداً قولته السابقة، كقوله أثناء تناوله بعض مبادئ التجانية بالتكذيب والإنكار: " وقد تركت عجائب وغرائب من هذا(١) "، ثم يعود إلى الهجوم من جديد في محاولة لتبرئة ذمة التجاني من طريقته التي ابتدعتها بيديه، مسهياً في ذكر رابطة العروبة التي تربط بينه وبين التجاني، وذلك على ما بينهم من اختلاف في العقيدة والطريقة، تلك الرابطة التي جعله أولى بالتجاني من أتباعه السودان الذين يأتون - عنده - في آخر سلم البشرية مقرنين بياجوج ومأجوج(٢). ثم يلخص بعد ذلك بعض المبادئ التي يعتقدها التجانية.

وفي بعض الأحيان يظهر رغبة في الاقتصاد في جزء من الكلام فيتوقف عنه بعد الإشارة إليه، ثم يشرع في الجزء الآخر مسترسلاً مسهياً حتى يقضى وطره من الكلام، كقوله: " فلا أضن عليك بالرأي الحسن ولا أبخل عنك بالنصر طول الزمن فإني أعطيكم بعض الرأي فلا تهمله ولا تغفله وأدخر لك بعضه فلا تتسهولا تستعجله، حتى أري كيف حربك(٣)". وقوله: " ثم مأثم من مبيح صحيح تركناه خوف التطويل ورجاء أن يتصالح الفتان المسلمتان ونتركه معمى إلى أجل مسمى وندعه مستوراً لنستر محذوراً(٤)".

#### • المبالغة والتهويل:

فمن أجل المبالغة اعتمد البكاي في نصوصه على بعض الأساليب اللغوية والبلاغية التي جرت إليها عاطفته الساخنة المتدفقة بعضها يكثر منه والأخرى في مناسبات قليلة وقد تجتمع بعضها في عبارة واحدة.

ومن أساليبه في ذلك كثرة استخدام أفعال التفضيل من أجل تضخيم الأشياء وتجسيما لشدة انتباه القارئ، متحريراً في ذلك العديد من الأساليب البلاغية كالسجع والجناس. يدل على ذلك قوله في رسالته الأولى إلى أحمد بن أحمد: " فهي خصلة هي أطم وأهم وأعم وأتم(٥)".

وقوله: " هلا ناقضتها بما هو أصح وأصرح وأفصح وأنصح وأرجح وأوضح(٦)". وقوله: " ومن أعظم أباطيلهم وأكذب أكاذيبهم(٣)".

وقوله: " فإن نسبته إلى الله أعظم عند الله وأكبر وأنكر من فعله(٧)".

(١) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ٨.

(٢) المصدر السابق ص ٨.

(٣) المصدر السابق ص ٣.

(٤) المصدر السابق ص ٣.

(٥) المصدر السابق ص ٣.

(٦) فتح القدوس ص ٣٢.

(٧) بغية الألف ص ٣٥.

فهو على الرغم من سعيه الحثيث إلى إيداء أفكاره حافية كما هي في ذهنه لإقناع المتلقي بمصادقية آرائه وصحة موافقه، إلا أنه من فرط محبته بطريقته وحرصه على إيداء محاسنها وإظهار مساوئ الطريقة الأخرى لم يستطع أن يتجرد من الشحنات العاطفية العارمة التي كانت تتدفق في دواخله ما بين لينة ورقيقة، وغاضبة ساخطة.

لقد تجلت هذه العواطف كلها عند توصيل أفكاره في شكل أساليب خطابية نفسية، كان يستهدف منها إلى استمالة المخاطب إلى صفه أو قبوله رأيه أو الاستجابة لطلبه، وذلك بالتأثير القوي والمباشر عليه. وتظهر هذه العاطفة في نوعين متباينين:

أحدهما: العاطفة الرقيقة وقد تأتي صادقة مليئة بالمحبة والإعجاب والتعظيم والتبجيل، لكنها لم تظهر لديه كثيراً أو جاءت لكن غير صادقة فاترة لا يقصدها صراحة وإنما يرمي بها إلى المجاملة، غير أن القليل الذي ورد منه في ذلك يدل - بوضوح - على معرفته بأغوار النفوس ومهارته في التغلغل إلى أعماقها عندما يريد. وتتجلى شواهد ذلك في هذه العبارات المنمقة:

وتظهر هذه العاطفة جلية عند المفاضلة بين شيخه **عبد القادر الجيلي** مؤسس الطريقة القادرية وبين شيخ التجانية ليبيدي إلى أي مدى وصل إليه قبول الجيلي لدى الخاصة والعامة، فكأنه يشير بذلك إلى أن ما وصف به شيخه من صفات وأحوال لا يوجد نظيرها عند الشيخ الآخر الذي لا يتمتع سوى بأضدادها ونقائضها. وظهرت كذلك عند حديثه عن أسماء الله التي يرى أن القادرية يملكون التصرف الظاهر بها، ومرة واحدة عند الصلاة على النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم.

ومن أمثلة ذلك قوله في تعظيم الجيلي: "وقل ولي من أكابر الأولياء إلا قاله وذكره وصرح به وشهره"<sup>(١)</sup>.

وقوله: "أم تفرحون بالجيلي الذي ما أراد أصاب وما دعى استجيب وما سأل أتحف وما تصرف أسعف وما توجه شرف وما ذكر وما حضر أكرم وما غاب عظم"<sup>(٢)</sup>.

وقوله: "وأنت تعلم أن كلمة الجيلي أقدم وأكبر وأعظم، ومن التناقض والاعتراض أسلم ومن الاحتمال والحمل أحلم وأحكم"<sup>(٣)</sup>، وقوله: "أما تعلم أن اسم الله تعالى هو أعظم كل شيء وأكبره وأكرمه"<sup>(٤)</sup>، وقوله: "وما يريد النبي صلى الله عليه وسلم من حضور مجلسهم عن جميع المجالس في أمته التي هي أكرم وأفضل

(١)فتح القدوس ص ١٩..

(٢)المصدر السابق ص ٣٠.

(٣) المصدر السابق ص ٢٣.

(٤)المصدر السابق ص ٣١.

وأقر وأظهر من مجالسهم(١). وقوله: "فإن ورد الشيخ عبد القادر الجيلي الذي هو أصح الأوراد وأشهرها وأظهرها(٢)".

أما العاطفة غير الصادقة فهي التي شاعت في خطباته إلى التي قلما حاول فيها ملاطفة المرسل إليه أو التودد إليه وذلك أن طبيعته النفسية لا ترضى بالتزلف والتقرب إلى غيره. ما أدى إلى إفساد علاقاته مع كل الذين كان من الممكن أن يطور معهم ارتباطات طيبة وقوية كان من شأنها أن تفيد الأمة السودانية وتجنبها ويلات الفتن والحروب الأهلية. يقول للأمير الشيخ أحمد بن أحمد في بداية رسالته الأولى:

" فقد جاءني رسولك الحبيب إلي وإليك الكريم علي وعليك المكين لدي ولديك محمد بن علي بن مالك ومعه اللبيب المحب لنا الحبيب عثمان فأديا إلي بكتابك المقبول وأمليا على كلامك المعسول فقبلت الكلام والكتاب وأقبلت عليها رغبة في مخاللتك ومحبة لمواصلتك...إلى أن يقول: فإن كلامك أحب إلي من الكتاب، وأشهى إلي وأكد وأبلغ في المطلوب كله(٣)".

غير أن من يقرأ كامل هذه الرسالة ويطلع على ما هذه العبارات المنمقة من استخفافات وتهديدات مصرحة وموحية يتبين عكس ما أراد البكاي أن يظهره من احترام وتقدير للأمير في أول خطابه ويتأكد لديه أن نبرات صوته الحانية غير صادقة لا تأتي من أعماق قلبه، بل هي مجاملة يسعى من خلالها إلى إخفاء مقاصده الحقيقية في غضون الرسالة.

ومثلها أيضاً قوله للحاج عمر بعد انتصاره على الجيوش الماسنية: "فإننا نهنيك بما أعطاك الله تعالى من الدين وممكنك فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن هذا ما يهنئ به أهل الله تعالى وأما الدنيا وملكها فإنها فتنة وبلاء يهرب منه أهل الله ويستعيذون منه بالله تعالى(٤)".

ولا يخفى ما في هذه العبارات الأخيرة من تعريض بالحاج عمر بأن جهاده للدنيا وملكها لا إخلاص فيه أو لأنه ليس مؤهلاً للقيام بمثل هذا العمل المقدس بعد أن كان قد وصف الحاج للأمير الشيخ أحمد بن أحمد بالدجال الذي يجب قتاله وكسر حركته.

فهو لم يلاطفه إذاً إلا لحاجة سيعرضها عليه ويرجو استجابته إليها. ولما تأكد من أن الحاج لم يحفل بتلك المطالب ترك المجاملة واشتد في القول منذ رسالته الثانية، وقبل أن يقطع العروة بينهما في الرسالة الثالثة نهائياً.

(١) بغية الألف، ص ٢٥..  
(٢) المصدر السابق ص ٢٨.  
(٣) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ١.  
(٤) المصدر السابق ص ١.



أما النوع الثاني فهو العاطفة الساخطة والغاضبة التي جعلت البكاي يتحدث بسخرية لاذعة وتهكم شديد، كما فعل مع خصومه من التجانية والفلان بل بالسودان أجمعين، من ذلك قوله:

" لا يجوز لأحد من أمة نبينا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يبايع من ليس من أمته فإن السودان ليسوا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم(١)". وقوله أيضاً: "إنه لا تجوز البيعة إلا لإمام واحد ولا يكون إلا قريشياً وأنتم من السودان لا بيعة لكم . اطمع أيها الأمير بالشرطين والأسد أن تأخذهما باليد واطمع بالثريا والبطين والجدي والفرقدين أن تطأهما بالقدمين ولا تطمع في ما طلبت مني أبداً مادمت من السودان أحداً ومادام بلدهم لك بلداً وما كنت منهم والداً... فكيف وإنما أرى الفلان بنظر السيد إلى العبد والشيخ إلى المرید والوالد إلى الوليد(٢)".

وقوله: " ولعمرك ما أعلم صعباً في الدنيا أصعب عندي من أن أكون في حكم سوداني ما ولو كان محمد بل(٣) وكيف أنت؟ وحسبي من الملام أني في أرض السودان(٤)".

و قوله: " فأنتم أدنى الناس حتى هؤلاء(٥) فوقكم حسبكم من الضعة والشر والضيعة وإن كان فجوراً منكم ونفاقاً(٦)". وقوله: " فأنتم على هذا شر بني آدم وألهم لا خير فيكم ولا منكم ولا معكم(٧)".

وقوله: " فكيف له هذا الآخر المكذوب، من هذا الفاجر المختلف من هذا الأحمق الساخر؟ فهو الذي(٨) شطح ونطح وقلع وانبطح(٩)".

لقد دفعته عاطفته القوية - في بعض الأحيان - إلى استخدام ألفاظ غير فصيحة للدلالة على مدى ما في دواخله من التقزز والضجر بالسودان ومن الطريقة التجانية وأهلها، كقوله: " طيخ طيخ ثم كيخ كيخ(١٠)". وقوله: " أوف وتف لكلام التجانية وعقولها(١١)". ١٣٩

وما أكثر الشواهد التي تثبت أن البكاي كتب مجمل نصوصه وهو واقع تحت تأثير الحماس الشديد للطريقة القادرية أفقده القدرة على كبح جماح عواطفه الغاضبة التي أخرجته عن طوع العالم المعلم وأغفله عن رزاة الشيخ الداعية حتى اتخذ مواقف عدائية حيال مخالفيه وبصفة خاصة السود.

(١) الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد، ص ١٥.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢.

(٣) ابن عثمان بن دان فودي، أمير المؤمنين، في سوكونو، بنيجيريا.

(٤) الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد ص ١٤.

(٥) الأنعام.

(٦) فتح القدوس، ص ٢٥.

(٧) الرسالة الأخيرة، ص ٢٧.

(٨) شيخ التجانية.

(٩) بغية الألف، ص ٣٨.

(١٠) فتح القدوس، ص ١٩.

(١١) المصدر السابق ص ٣٥.

فقد راح يسخر من كل ما هو مخالف لاتجاهاته الصوفية ويذم كل من خالفه في الاعتقاد والمذهب بحماس قوي وانفعال شديد حتى غدت السخرية والاستهزاء من أبرز السمات وأقواها في نصوصه، بعد أن أهمل جميع المواضيع الدينية الأخرى، عدا الصوفية التي كرس كل جهوده الفنية والعلمية لترويجها والإعلاء من شأن الطريقة القادرية.

وتدل تلك العواطف الحادة على مقدار ما كان الشيخ يشعر به من احتقار واستخفاف شديدين بالسودان وبتلك الطريقة الدخيلة التي جاءت تنافس طريقته المفضلة.

ولا شك أن لإعجابه الشديد بشيخه الجيلي وحب الزائد لطريقته وثقته الكبيرة في فضلها دوراً مهماً في طغيان السخرية على أسلوبه، وقد ظهرت في أشكال فنية متعددة تراوحت بين نحوية وصرفية وبيانية وبديعية يمكن عدها الأساس الذي قام عليه أسلوبه في الكتابة الفنية. من ذلك كثرة استخدام اسم التفضيل وتكرار الألفاظ المعطوفة؛ أفعالاً وأسماءً وضمائر وشبه جمل والتعجب والاستغراب والاستفهام الاستتكري مؤظفاً إياها - في الغالب - لأغراض التوكيد أو التقدير أو المبالغة أو التهويل إما للسخرية أو التخويف أو التهديد أو الاستدراك أو الاستقصاء والاستغراق، والأغلب منها إنما جاء إمعاناً منه في الاستخفاف والسخرية والذم، ليوهم بأنه صاحب الحقيقة المطلقة أو صاحب النظرة الصائبة التي لا يملك غيره أحسن منها أو أصح أو أثبت مما عنده.

#### • الأساليب اللغوية والبلاغية:

#### • الإضراب:

إن كثرة لجوء البكاي إلى الاستدراك كأسلوب للإضراب لا تعني نسياناً ولا غفلة أو شكاً أو نقصاً في المعلومات، كما أنها لا تعني تردده في المواقف أو الأفكار التي يتخذها أو يقدمها. فهي إضافة إلى مجيئها الطبيعي عفو خاطر بسبب مقتضيات الظروف تأتي - أحياناً - من باب التأكيد والجزم، مقصورة ومحتمة، لا تحتمل التردد ولا الشك، إذ هو - كما قال عن نفسه - لا يقول شيئاً مخالفاً لصريح ما نزل به القرآن الكريم، كقوله: "فأظنهم من الصبيان لا من ذوي الأسنان بل أراهم كالأنعام لا من ذوي الأحلام بل إنما أعجب من عاقل يرى مسلکهم وينظر مهلكهم(١)".

وقوله: "بل من لم ينفره هذا علمت أنه لا دين له(٢)".

وقوله: "فإذا رأيت من لا يعترف له(٣) فاشهد له بعدم الولاية بل يجهلها(٤)".

(١) بغية الألف، ص ٣٦، ٣٥.

(٢) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر، ص ١.

(٣) أي الجيلي.

(٤) فتح القدوس، ص ٣١.

قد تكون النزعة إلى التحقيق عند البكاي هي التي دفعته إلى استخدام بعض الألفاظ والعبارات لزيادة تأكيد الأخبار أو المعلومات التي يسردها أو يدلي بها. فكثيراً ما استخدمها ليثبت ما يقوله أو يظهر أن الأمر مقطوع ومنته منه، بحيث يجب الوقوف عنده والتسليم له، وله في ذلك عدة أساليب منها:

**التأكيد بالنفي:** كقوله: " لا شيء عند الأحرار من الأبناء كالموروث من الأجداد(١)".

وقوله: " فلا يكون عالماً ولا يسمى عالماً إلا من أوتي علمه ولو حفظ كل كتاب في الدنيا(٢)".

**التأكيد بـإن:** ومما جاء في ذلك في الرسالة الأولى إلى الأمير الشيخ أحمد بن أحمد ما يلي:

قوله: " فإن السؤال عن الأحكام والتبصر عن الأمور العظام من أفعال الأعلام أهل الأحلام(٣)",  
 وقوله: " فإنك تحملني على عداوة أهل فوته كلهم(٤)", وقوله: " فإن الحاج عمر لا يترك أهل الشيخ(٥)", وقوله:  
 "فإنه حينئذ لا يقاتل سيقو، ولا يقاتلك(٦)", وقوله: " فإنك لا تحتاج بعد ذلك إلا إلى أمرين(٧)", وقوله: " فإن  
 ذنبهما لا يحسن العقل تركه ولا إهماله(٨)", وقوله: " فإن الخلاف يقل والمخالف يذل(٩)", وقوله: " فإنه منكر  
 عظيم(١٠)", وقوله: " فإن كل ذنب وشر دونهما بعد الشرك(١١)", وقوله: " فإن القاضي والحاكم بغير ما قال الله  
 ورسوله(١٢)", وقوله: " فإن عادتكم هذه في الشريعة منكر كبير(١٣)", وقوله: " فإن كل من دخل النار من  
 الموحدين وخرج منها لا يدخل الجنة حتى ينظر الله إليه ويزكيه(١٤)", وقوله: " فإن من له عقل لا يقول شيئاً  
 من هذا كله(١٥)", وقوله: " فإن ذلك لا يسخط علي أحداً من التجانية(١٦)", وقوله فإنني أولى به منه(١٧)", وقوله:  
 " فإنه إنما غره حسن الظن(١٨)"

### • كثرة استخدام الشرط:

وتتجلى هذه الظاهرة في استخدام البكاي المفرط للفاء قبل إن وتبدو هذه الظاهرة - بجلاء - في رسالة واحدة فقط تعبيراً عن التحدي. فهو يتظاهر بعدم التحقق من الشيء مع كونه على يقين من نتيجته وعلم

(١) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ١.

(٢) المصدر السابق ص ٤.

(٣) المصدر السابق ص ٢.

(٤) المصدر السابق ص ٢.

(٥) المصدر السابق ص ٥.

(٦) المصدر السابق ص ٥.

(٧) المصدر السابق ص ٦.

(٨) المصدر السابق ص ٦.

(٩) المصدر السابق ص ٦.

(١٠) المصدر السابق ص ٦.

(١١) المصدر السابق ص ٦.

(١٢) المصدر السابق ص ٧.

(١٣) المصدر السابق ص ٨.

(١٤) المصدر السابق ص ٦.

(١٥) المصدر السابق ص ٦.

(١٦) المصدر السابق ص ٨.

(١٧) المصدر السابق ص ٨.

(١٨) المصدر السابق ص ٨.

(١٣) المصدر السابق ص ٧.

(١٦) المصدر السابق ص ٨.

بما عسى أن يكون الجواب أو رد الفعل الذي يترتب على كلامه، فكأنما يهدف من ذلك إلى ترك فسحة للمخاطب للتفكير أو التيقن من جدية ما يقوله، كقوله: "فإن استجاب لك فادعه إلي(١)"، وقوله: "فإن استشكل أحد منكم التعرض للحاج عمر أو رآه ممنوعاً فليكتب لي بما يرى في ذلك(٢)".

## الاستفهام الإنكاري:

كثيراً ما استخدم البكاي هذا اللون من الكلام للاستخفاف بالمخاطب والازدراء به. فهو لا يقولها استفساراً ولا لطلب معلومة أو توضيح لأن ما عنده من علم أو خبر أوسع - دائماً - مما عند الخصم حتى إن كان وارداً من الآخر نفسه، لذلك كان استخدامه له نوعاً من التهكم اللاذع والسخرية الجارحة، كقوله: "كيف أقتدي بك وقد ذم الكفار من بمبارا ابن عمك بذلك، فلم ترضه الكفار فكيف أرضاه أنا لنفسي؟(٣)".

وقوله: "فكيف ينهاهم(٤) عن زيارة أولياء الله تعالى، بعد أن أمر بها، بل كيف يأمرهم بهجران أولياء الله، وينهاهم عن وصلهم، بل كيف يجسر مؤمن أن يكذب عليه(٥)".

وقوله: "كيف يكون هجران أولياء الله، ومقاطعتهم ومباعدتهم فعلاً لمؤمن ولا لعاقل حتى تكون له عقيدة يعتقدها وقاعدة يقتعدها(٦)".

و قوله: "أما تعلمون أن من وصل أولياء الله وصله ومن قطعهم قطعه ومن أحبهم أحبه ومن أبغضهم أبغضه ومن أجلهم أجله ومن أكرمهم أكرمه(٧)".

و قوله: "فكيف تذمونه(٨) وأنتم دونه وتسبونونه وأنتم تحبونونه وكيف ترغبون عنه وأنتم فقراء منه ولم تكذبون عليه وأنتم محتاجون إليه؟ فما بالكم معشر التجانية تهجرون زيارة أولياء الله وتذمون علم أسماء الله؟(٩)".

## التعجب والاستغراب:

ومن شواهد ذلك قوله: "فما أكذب مقالهم وأفضح عالمهم وأقبح حالهم(١٠)". وقوله: "سبحان الله! ما أجهل إن قاله(١١) وما أكذب التجانية إن تقولوه عليه(١٢)". وقوله: "ويح التجانية ما أكفرهم وأفجرهم(١٣)"، ما أكذب التجانية إن قالوه(١٤)، وما أحمقهم إن نالوه(١٥)".

(١) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ٤.

(٢) المصدر السابق ص ٤.

(٣) الرسالة الأخيرة، إلى أحمد بن أحمد ص ٥.

(٤) الرسول صلى الله عليه وسلم. (٥) بغية الألف ص ٣٢.

(٦) المصدر السابق ص ٣٣. (٧) المصدر السابق ص ٣٣.

(٨) علم أسماء الله تعالى. (٩) فتح القدوس، ص ٢٤.

(١٠) رسالة في حكم المطلق، ص ١. (١١) معرفة الغيب. (١٢) فتح القدوس، ص ٦٤.

(١٣) المصدر السابق ص ١٥٥. (١٤) أي لا شيخ لشيخهم غير النبي صلى الله عليه وسلم.

(١٥) المصدر السابق ص ٣٥. (١٤) المصدر السابق، ص ٣٣.

وقوله: " ما أضلهم وأزلهم وأقلهم وأذلهم(١)". وقوله: " فما أضعف قلوب التجانية وما أصغرهم في السن(٢)". وقوله: " ما أبعد حالهم من حال أهل الطريق القادري(٣)".

### التكرار:

اعتمد البكاي - كثيراً - على التكرار في نصوصه حتى كاد أن يغلب عليه بوصفه أبرز سمة في أسلوبه. فهو يأتي به من أجل التأكيد أو تقرير المعنى أو ترسيخ الفكرة في ذهن المخاطب أو لإفهامه مدى ما خطورة الأمر أو أهميته حتى لا يستهين بالموضوع أو يستخف به، كقوله في تحريض الأمير أحمد بن أحمد على الحاج عمر: " فأقول أيها الأمير الأخ لا تترك سيقو للحاج عمر وإن أفتاك كل مفت ولا تبدأ بالقتال عليهم ولا دونهم بل لا تبدأ بالقتال مطلقاً(٤)".

وقوله: " فمن الرأي عندي بل هو أول الرأي ورأسه لك الذي ما قبله إلا التقوى أن لا تترك " سيقو " للحاج عمر لا تتركه له لا تتركه له ولو قالها لك كل عربي وكل فلاني فلا تسمع لهم لا تسمع لهم مسلمين كانوا وكفاراً بل اجعلهم مسلميك أو كفارك ولا تتركهم للحج عمر(٥)".

وقوله: " وإنما يفسر القرآن ويعلم علمه من لم يكن له شغل سواه ثم قرأه وتلقاه وفسره ووعاه من آر، لم يكن له شغل سواه وفسره ووعاه و قرأه وتلقاه من آخر لم يكن له شغل سواه وقرأه وتلقاه وفسره ووعاه من آخر، إلى آخر واحد عن واحد كإبراً عن كإبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم(٦)".

و من التكرار ما يأتي من أجل المبالغة والتحويل تهديداً للمخاطب وتخويفاً له من مغبة الأمر الذي يتحدث عنه، كقوله: " إياك وإياك(٧)". وقوله: " فإن نسبة هذا أو مثله إلى الشريعة إثم كبير كبير كبير(٨)". وقوله: " فإن ذمتموه ولكم به علمو عندكم منه سهم، فقبیح أي قبیح(٩)". وقوله: " لأنهم يريدون أن يجمعوا بين التصوف بزعمهم والملك وهيئات هيهات لما يريدون(١٠)". وقوله: " فإن طلبتم أن أكون من بعض مدعية العلم فيكم فلا لا لا(١١)".

(١) بغية الألف، ص ٣٧.  
(٢) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ٣.  
(٣) المصدر السابق ص ٣.  
(٤) المصدر السابق ص ٤.  
(٥) المصدر السابق، ص ٧.  
(٦) المصدر السابق ص ٧.  
(٧) فتح القدوس، ص ٢٥.  
(٨) الرسالة الأخيرة إلى أحمد بن أحمد، ص ٣٥.  
(٩) المصدر السابق ص ٨.  
(١٠) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ٤.  
(١١) المصدر السابق ص ٨.

ومنه ما يأتي - أحياناً - رغبة في الاستقصاء أو الاستغراق أو تعميم الحكم، كقوله: " لا يجد الحاج عمر ولا أحد من الفلان ولا من العجم كلها ولا من العرب محيداً عنه ولا محيصاً ولا يرى ما يقول فيه(١)". وقوله: " فإن ظاهر هذا الكلام باطنه تغييب العلم بأسماء الله وتنقيص أهله ولا كفر فوقه ولا فسوق إلا دونه ولا جهل ولا حماقة مثله. وإنه لا علم ولا عمل ولا حال بل ولا فضل ولا نعمة ولا شرف ولا تشريف يعطاه العبد في الدنيا والآخرة أشرف ولا أرفع في الدنيا والآخرة من العلم بأسماء الله تعالى(٢)".

وقوله: " فلا تميزون بين قول وقول ولا تفرقون بين مقول من مقول وينتج لكم أنكم لا تحبون كريماً ولا عزيزاً ولا عالماً ولا صالحاً(٣)".

وقوله: " والكل لك عدو إلا ما ندر من لئيم لا كريم وسفيه لا حلیم وضعيف لا شريف وسخيف لا ظريف(٤)".

### السجع:

أكثر البكاي من السجع حرصاً منه على التوازن اللفظي والإيقاع الصوتي لتحقيق نوع من الموسيقى الداخلية في نصوصه، حتى غدا هذا اللون من الزخرفة اللفظية إحدى سماته البارزة، إذا لم تكن أهمها على الإطلاق. وقد جاءت طويلة أحياناً وقصيرة أحياناً أخرى تنتقل مرة وتختف أخرى، كقوله على سبيل المثال لا الحصر: " وأيضاً نضع بعض الجواب، في الحجاب، كالسيف في القراب، إلى يوم من الخطاب، كيوم من الضراب، فإنه من الصواب(٥)".

وقوله: " ثم اعلم يا أحمد، أنه قد أشار علي بعض الناس من البيضان، والسودان، والطوارق والفلان، أن ألائنك في الكلام، وأقارب في المرام، وأداهنك في المقال، وأدهن لك في الحال(٦)", وقوله: " واسكت سكاتك، واصمت صماتك، واستر نفسك، من ركيك الكلام، وجنبها طريق الملام، وخل شيخك لمثله من الأنام، ولا تقدمه أمام الإمام، فما منا إلا له مقام(٧)". وقوله: " لعمر ك لا يرضى بمقالك وكلامك، ويغضب بما تروم من مرامك، ويكذبك في طعنك ومقامك، ولا يعرفه إلا أشكالهم، ولا يفهم إلا أمثالهم(٨)". وقوله: " ألا تضيق بالفضيحة ذرعاً، لا تزال تأخذ منها صرعاً، ولا تفرع منها لتدخل فيها قرعاً، إلا ساءت أصلاً، أو ساءت فرعاً(٩)".

(١) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ٤.

(٢) فتح القدوس، ص ٢٥.

(٣) الرسالة الأخيرة، ص ٤٠.

(٤) المصدر السابق ص ٣٣.

(٥) المصدر السابق ص ١٥.

(٦) المصدر السابق ص ٤٠.

(٧) فتح القدوس ص ٢٩.

(٨) المصدر السابق، ص ٢٩.

(٩) المصدر السابق ص ٣٠.

وقوله: "فيه التنبيه على قدر النعمة، والتذكير بالشكر للعصمة، وليعلم أنها ليست للعبد صفة ذاتية، ولا له بملكة صفاتية، يضعها ما شاء بأمره، عن أمره، ويدفعها متى شاء بقدرته وقهره، وما عليهم من سلطان، في ذلك للشيطان، وإن كان الشيطان، قد سلط على الإنسان، وأعطى مفاتيح خزائن المكر والحيل، وأقيم في مقام التمكين من التلبيس في العلم والعمل، فهم أشد تحفظاً وتوقياً، وأبعد في العلم رقيماً وترقيماً، قد اطلعوا بالنور على مكانه ومكائده، ووقفوا بالعلم على مراصده ومصائده، إن دخل سارقاً باللمم، خرج مارقاً بالصمم(١)".

### • صيغ الأمر والنهي:

لقد ترتب على يقين البكاي الثابت بعلو منزلته العلمية والاجتماعية والسياسية أنه كثيراً ما كان يعطي الأوامر والنواهي، وأحياناً بصيغ جامدة وجافة وكأنها مراسيم سلطانية يجب على الفور تقبلها برضى ومن ثم تنفيذها حرفياً، لما يترتب على ذلك من فخر دنيوي وذخر أخروي، فكان لا يخاطب الأمراء والسلاطين بله عامة الناس ومن ليسوا بذوي بال إلا بهذه اللهجة المتسامية.

ومن الأمر قوله: "فقل له إنك قد أجرت هؤلاء الكفار أو هؤلاء المسلمين واطلب منه طلب المسلم إلى أخيه المسلم وادعه إلى الشرع فإن استجاب لك فادعه إلي(٢)"، وقوله: "أيها الأمير تيقظ وتنبه للدنيا والآخرة واجتهد فيهما ودع التواني والتراخي والراحة فإن أكثر جماعتك قد ألفوها ودع صحبة الشرار ومشورتهم واصحب الأخيار والكبار وشاورهم وقربهم(٣)"، وقوله: "بل مش رجالك واقعد وقلد أمر الجيوش إلى عمك بالبو وكن وإياه نفساً واحدة(٤)".<sup>١٤٥</sup>

وقليل من صيغ الأمر ما لا يعني بها أمراً حقيقياً ولا مباشراً، كقوله: "فاقتل من شئت ظلماً إن شئت ولا تنسبه إلى الله(٥)".

أما النهي فكقوله: "وأنت لا تغتر بنفسك ما استطعت(٦)"، وقوله: "فإني أعطيكم بعض الرأي فلا تهمله ولا تغفله وأدخر لك بعضه فلا تنسه ولا تستعجله(٧)"، وقوله: "فلا يتعرض له أحد بعد ذلك(٨)"، وقوله: "فلا يمنعه منها مانع(٩)".

(١) الرسالة الثالثة إلى أحمد بن أحمد، ص ٢، ٣.

(٢) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ٣، ٤.

(٣) المصدر السابق ص ٤.

(٤) المصدر السابق ص ٧.

(٥) المصدر السابق ص ٧.

(٦) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ٧.

(٧) المصدر السابق ص ٣.

(٨) الوثيقة في التامين، ص ١.

(٩) الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر، ص ١.

## صيغ القصر:

غالباً ما يستخدم البكاي في القصر " ما " الكافة بعد " إن " للتخصيص أو زيادة التأكيد، إذ يود أن يظهر كلامه قطعياً لا شيء يمكن أن يقال من بعده، فالحق من ناحيته وكما يراه هو ويصفه، كقوله: " وإنما الجنة من رحمة الله يرحم فيها من يشاء وإنما النار من عذاب الله يعذب بها من يشاء(١)"، وقوله: " إنما يتكلم الأولياء في خواص الأذكار والأسماء والحروف(٢)"، وقوله: " وإنما يعرف الفضل كأهل الفضل وذووه(٣)".<sup>١١١</sup>

## • الجنس:

استخدم البكاي العديد من الألفاظ المتجانسة إظهاراً لتمكنه من اللغة وتملكه من ناصية البيان وليحقق بها نوعاً من الإيقاع اللفظي التي أولع بالسعي وراءها عن طريق استخدام السجع، كما مر آنفاً، كقوله: " صلاح وفلاح، وجناح ونجاح(٤)".

وقوله: " فالمقامات والمقامات في الجنة والنار على حسب المقامات والمقامات في هذه الأحوال والصفات الآن في الدنيا(٥)".

## المقابلة:

صدرت من البكاي بعض المقابلات لغرض التفصيل والشرح ولإزالة ما يمكن أن يكتنف الموضوع من لبس أو إبهام، غير أنه اعتمد فيها على البساطة والسهولة لأنه في مقام التعليم والتفهيم فلم يبخل لا في المفردات ولا في العبارات، إذ جاءت تلك المقابلات طويلة استغرقت جميع المعاني والأفكار التي كان يود أن يقولها حول موضوعه، بحيث لا يستطيع أحد مهما حاول أن يضيف عليه شيئاً من عنده دون أن يكرر ما قاله الكاتب أو قرره.

يقول في بيان ما يترتب على أعمال المرء في الدنيا من نتائج حسنة توصله إلى الجنة أو قبيحة توبقه في النار: " إن التقوى أول رأس كل خير في الدنيا والآخرة، وإن الفجور أول رأس كل شر في الدنيا والآخرة. وإن من كساه التقوى عراه من الفجور، ومن كساه الفجور عراه من التقوى. وقد عرفنا وتقرر عندنا: أن التقوى خير وأن الفجور شر، لأن التقوى من الجنة وإلى الجنة والفجور من النار وإلى النار. ولا خير إلا ما كان من الجنة وإليها، ولا شر إلا ما كان من النار وإليها. فإننا إذا رأينا عاملاً يعمل بعمل من التقوى رأيناه

(١) بغية الألف، ص ٢٥.  
(٢) المصدر السابق ص ٢٩.  
(٣) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر، ص ٣.  
(٤) وثيقة الزواج، ص ١.  
(٥) الرسالة الثالثة إلى أحمد بن أحمد، ص ٢.



كاسياً من الجنة، في الحال عارياً من النار فيه . وإذا رأيناه عاملاً بعمل من الفجور رأيناه كاسياً من النار في الحال عارياً من الجنة فيه، فحكمتنا عليه في الحال بأنه من أهل الجنة بعمل أهل الجنة، أو بأنه من أهل النار بعمل أهل النار(١).<sup>١٤٧</sup>

وعندما أراد أن يمايز بين شخصيته الروحية التي لا تطمح إلا في رضاء الله ورحمته وبين شخصية الأمير الملكية جعل من نفسه زاهداً ذا همة أخروية، بينما الأمير وأهله في مقابل ذلك سلطويون لا يفكرون إلا في حطام الحياة الزائلة، فساق لبيان الصورتين المتناقضتين مقابلة ظريفة لكنها قاسية جداً فيها سخرية لاذعة وتهكم شديد.

فقال: "... لأن الأمراء أبناء الدنيا والعلماء أبناء الآخرة، وهما ضرطان وأبناؤهما خلافان؛ فالأمراء أمرهم وهمهم في الدنيا وللدنيا والعلماء أمرهم وهمهم في الآخرة وللآخرة، ومن أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه(٢)".

و قوله: "وكان شرفاً لهم في الدنيا والآخرة وذكراً حسناً لهم باقياً إلى يوم القيامة... فكان فضيحة لهم في الدنيا والآخرة وذكراً سيئاً ودليلاً على عداوتهم لله تعالى(٣)".

وقوله للحاج عمر: "كنت أفضل منك علماً أم كنت أفضل مني علماً(٥)", وقوله: "العفو شيمة الأولياء والحدق شأن الأشرار واللؤماء(٦)".

وقوله: " أنت على علم من علم الله علمك الله، لا أعلمه أنا وأنا على علم من الله علمني الله لا تعلمه أنت(٧)". وقوله: " وصولك أنت ثقيل ووصولي أنا غير خفيف ولا سريع(٨)".<sup>١٤٨</sup>

#### • الحذف:

من أساليب الاختصار التي اعتمدها البكاي حذف أحد أجزاء الكلام لقريئة واضحة تدل عليه لا يحتاج معها إلى ذكر كل العبارة لما سبق من الإشارة إليه.

(١) الرسالة الثالثة إلى أحمد بن أحمد ص ١.

(٢) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر، ص ٢.

(٣) المصدر السابق ص ٢.

(٤) سورة النجم: ٣٢.

(٥) الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر، ص ١.

(٦) الرسالة الأولى إلى الحاج عمر، ص ٢.

(٧) إشارة إلى حالة موسى والخضر عليهما السلام. الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر، ص ١.

(٨) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد ص ١.

ومن ذلك قوله: " لا تترك له سيقو ولو أفتاك كل مفت(١)"، أي أن تترك له سيقو".

" فمسيرتي إلى حمد الله إنما يحسن بعد أن تخبرني أنك محب راض(٢)"، أي عني.

#### • التقديم والتأخير:

من أمثلة التقديم والتأخير التي وردت عن البكاي لتحقيق السجع حرصاً منه على إحداث الموسيقى، قوله: " وقد أتبعه شهاب من العصمة ثاقب وأتبعه حسام من الهمة راقب(٣)". وقوله: " فيقاتلك لك ظالماً أو يتركك منه سالماً(٤)".

#### • الصورة الكاريكاتيرية:

نقف لدى البكاي على العديد من الصور الفنية استخدم بعضها للتهويل والمبالغة والأخرى للسخرية والتهكم.

من الأولى صورة الخائف الفار فرار المطلوب الذي يطارده العدو ويتعقبه من حيث ما حل . فهو دوماً في وجلٍ وترقبٍ يستخفي ويتستر كي لا يراه العدو فلا يستقر في مكان ولا يقر له قرار بل يراوغ مراوغة الثعلب الماكر ليفلت من ذلك القناص المتعنت الذي يبحث عنه ويركض وراءه أينما ذهب . وفي ذلك يقول: "اعلموا أن هذا الزمان لا يسلم لذي دين دينه إلا إذا فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهق إلى شاهق ومن جبل إلى جبل(٥)".<sup>١٤٩</sup>

ومن الثانية صورة الجاهل الساذج الذي يستغفله الرجل الذكي لدفعه إلى قبول باطله دون تأمل ولا نظر ويسعى إلى أن يقوده بخرطومه إلى حيث يريد كي يفعل به ما يشاء، وذلك في قوله: "أما أن تقول بفسك لعود قلمك ثم يأتي القول أعوج والقلم أهوج فنسلم لا نكلم لا نعلم فما نحن بشلوح ولا تيسوس في مسح يستعبتنا كل ناعق ويستوقفنا كل صاعق(٦)".

ومنها أيضاً صورة رجل راعع ومكب واضع قدمه على أرجل الدجاج وهو يمسك برأس الضحية بيده اليسرى بينما يمسك بيده الأخرى سكيناً لذبحها، وذلك في قوله:

" لا تكون قدماه كلتاها على رقبة ولا ولي واحد ولا إلا على رقبة ديك يذبح أو جدي يشلح(٧)".

(١) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ٣.

(٢) الرسالة الثالثة إلى الحاج عمر، ص ١.

(٣) المصدر السابق، ص ٣.

(٤) الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد، ص ٤.

(٥) وصية لأبنائه، ص ١.

(٦) فتح القدوس، ص ٢٩.

(٧) فتح القدوس ص ٧٣.

الفصل الثالث

شعر البكاي

## المبحث الأول

### مادة الشعر عند البكاي

١٥٠ إن الشعر الذي نحن بصدد الحديث عنه للشيخ سيدي أحمد البكاي الكنتي أحد شعراء تمبكتو المفلقين، وأبرزهم على الإطلاق، إذ كان أطولهم في الشعر باعاً وأمدهم نفساً وأوسعهم لفظاً وأقومهم عبارة وأرصنهم تركيباً. ولا أدل على ذلك من قصيدته المطولة (١) التي أثبتت ما كان يتمتع به هذا الشاعر من موهبة شعرية وثقافة أدبية واسعة بجانب قدرته العالية على تقليد أساليب الشعر الجاهلي (٢). فلا غرو إذن إذا جاء تركيزنا على تلك القصيدة في دراسة أدبه كأفضل نموذج للأدب التمبكتي، بل ومثالاً حياً للشعر المالي المكتوب بالعربية، إذ جمعت في ثناياها أهم السمات الفنية والخصائص الأسلوبية التي تميزت بها القصيدة العربية في جاهليتها وفي تمبكتو.

والبكاي - كما يظهر في هذه القصيدة - على الرغم من كثرة أسفاره وطول تجواله لم يتجرد من طبيعته الصحراوية المتأثرة بمواردها البدائية ونزاعاتها الحربية التي تفقد عباقرة الفكر وجهابذة البلاغة الرغبة في أن يصبوا لعوالم جديدة أو يتطلعوا إلى آفاق متطورة، انشغالاً منهم بمعركة الحياة أو الحفاظ على أسباب المعيشة الهائلة ضد أعداء نشطين يرومون اغتصابها، كما كان واقع الحياة في تمبكتو أيام الغارات المتكررة التي كان يقوم بها لصوص الصحراء بين الحين والآخر.

ومعنى ذلك أن أدبنا ظل كغيره من شعراء البادية يستوحي الشعر من دواوين العرب ويستمد طرائقه من أساليبها التعبيرية ويستلهم من خصائصها الفنية، بوصفها مرآة يعرض ويقاس عليها أي شعر للتعرف على جودته ونضجه.

وإن مظاهر التجديد التي بدت لديه مما يمكن اعتباره سمة مميّزة لشعره عن شعر الجاهليين إنما جاءت من ناحية الألفاظ والأفكار المستمدة من الثقافة الإسلامية التي تميز علماء تمبكتو بالتبحر فيها والصدور عنها في جميع أعمالهم، وذلك بقطع النظر عن الموضوعات التي عالجوها أو الأغراض التي تداولوها، إذ كانت أعمالهم كلها تغص بالفكر الإسلامي على الرغم من تجافي بعضها عن الروح الدينية كالإفحاش في الهجاء والنيل من الأعراض وخاصة عند البكاي نفسه.

وبناءً على ذلك فإن الخصم هو الذي فتح النزاع حين بعث إلى البكاي قصيدة من (٧٠) بيتاً يرثي فيها أخاه الذي يبدو أن كنته قتلوه في إحدى المعارك، ويفتخر أثناءها بنفسه وبقومه واصفاً شجاعتهم ومجداً بطولاتهم وانتصاراتهم، هاجياً البكاي وقبيلته ذاماً إياهم بكل ما يسوء من الجبن والضعف وما يقبح من العمل

(١) مخطوط، رقم ٣٨٣٤.

(٢) من نقائض الشعراء العرب في الصحراء ص ١٩.

والخلق، ساخراً من هزائمهم وفرارهم يوم الزحف، ما يدل على شجاعة هذا الخصم أيضاً وقوته وبسالته وإقدامه، ومطلع قصيدة الخصم(١):<sup>١٧</sup>

أرقت (٢) لبرق العارض(٣) المتهلل(٤) عيناك فانهمتا(٥) بدمع مسبل(٦)  
أحسبتها لمعان بارق ثغر من تهوى فبت بحسرة وتململ(٧)  
كم ذا بكنار(٨) وفوتة(٩) منهم من سائل متملق متطفل  
أكلوا لحوم حمير فوته كلها غابيتها والإنسي المتأهل  
كم ذا بساحة تيرس(١٠) من مارد عات ظلوم للعباد مضلل  
كم عاقر منهم لنقاة صالح من آل يعقوب وآل الأفضل  
جالوا بأرض وأفسدوا وتمردوا والبغي يهوي للحضيض الأسفل

فما إن تسلم البكاي المرثية واطلع على فحواها حتى فكر في مناقضتها بعد أن أدركته الحمية واستبدت به النخوة وفارت سورته غضباً لكرامته التي أهدرت، واستشراط غيرة لحرمة انتهكها ذلك العدو اللسن ولما يزل هو شيخ القبيلة وحاميتها الرئيس، فانبرى يخنقه الغضب ويشرقه الحقد يكذب الخصم ويكيل له الشتائم بكلمات متدفقة تنفجر على لسانه وتنساب على قلمه في انفعال شديد وحماس قوي، فإذا القصيدة تطول والشتائم تنهال وبجانبيها مفاخر متواصلة حاملة في طياتها أهم مميزات الشعر التمبكتي وأبرز تجليات الفكر الصحراوي.

ولما كانت القصيدة في أصلها رداً على هجاء وطعن فقد جاز أن نقول إن غرضها الأساسي هو الهجاء، بقصد التكذيب من الخصم والاستهزاء والسخرية به. وبما أن استعداد الشاعر للمناقضة كان قوياً وله في الهجاء باع طويل فإنه أعار هذه القصيدة كل اهتمامه وصرف فيها كل طاقاته التعبيرية، مستخدماً ما أوتي من ملكة فنية تدعمه فطنة في اللغة وخبرة في البيان وقدرة في التعبير.

(١) من نقائض الشعراء العرب في الصحراء، ص ١٧.

(٢) الأرق: السهر.

(٣) السحاب، يعترض في الأفق.

(٤) السحاب يتلألأ بالبرق.

(٥) انسكبتا.

(٦) المنصب.

(٧) الذي لا يستقر في فراشه.

(٨) موضع قبيلة.

(٩) قبائل الفلان القاطنين في غرب أفريقيا من جهة السنغال.

(١٠) موضع في منطقة تمبكتو.

لكن البكاي لم يشرع في الرد على عدوه مباشرة، بل سلك طريقة الجاهليين للتوصل إلى غرضه الأساسي، فحشد غرضين جزئيين آخرين في القصيدة هما الغزل والفخر إضافة إلى وصف بعض الوقائع الحربية التي تناولها من وجهة ريته الخاصة، التي تخالف تفسير العدو لما جر بين قبيلتيهما من أحداث في ساحات الحرب. غير أن تلك الأغراض الثانوية أخذت حيزاً مهماً في القصيدة، بحيث يمكن لو أفرد كل منها في أبيات مستقلة أن يمثل قصيدة كاملة، لما فيها من تكامل نسبي وما طرح فيها من قضية شعرية مهمة، وأيضاً لاحتوائها على الأهداف التي تساق لأجلها عادة، إضافة إلى أنها ليست هنا قضايا منفصلة عن الهجاء ذلك الموضوع الأساسي في القصيدة بل ترتبط به تمام الارتباط في انسجام تام وتوافق متكامل.

### هل اللامية ملحمة؟

ذهب **الفشاط** إلى أن عدد أبيات القصيدة في الأصل يربو على (٧٠٠ بيتاً) سبعمائة بيت، لكنه لم يجد منها سوى (٤٣٥)، واعتماداً على ذلك فقد قرر أن القصيدة ملحمة شعرية صحراوية وأن البكاي قد نجح في صوغها بأسلوب فريد خلد عمله ضمن الروائع الأدبية المكتوبة بالعربية<sup>(١)</sup>.

وربما أمكن القول مع الكاتب أنها - فعلاً - أشبهت الملحمة في طولها أولاً، إذ امتد نفسها بشكل غير مألوف حتى وصلت في المخطوط الذي طالعناه إلى أربعمئة وتسعة وعشرين بيتاً (٤٢٩) ثم في سفورها عن أعمال حربية دموية فظيعة تكاد تدخل في طور الخيال الملحمي لما فيها من إشارات وحشية تؤكد الجنوح البشري بامتداحه لوقائع الحروب وافتخاره بأحداث القتال معظماً شأن البطولات ومعتزلاً بالانتصارات وفي مقابل ذلك يسخر من هزائم الأعداء هاجياً ذاماً رامياً إياهم بأفزع المساوي وأفحش القبائح كما يتجلى في قول البكاي:

طرتم إليه فقتلتكم عنده      تقتيل آجال (٢) النعام الموجل

يومين في آثاركم ورجالكم      في الهيج بين مجدع ومجنذل

إن مثل هذه الصور الحربية والمغالات في تضخيم رسمها كفيلاً بأن تصنف القصيدة ضمن الملاحم لولا أنها تقتقد إلى شروط الملحمة الحقيقية القائمة على الصور الخارقة والأساطير الخرافية والمواقف العجيبة والنفسيات الغريبة التي تخرجها عن حدود الصعيد الإنساني العادي مثل الإلياذة والأوديسة وغيرها من الآثار الأدبية الكبيرة، كما أن الراوي الذي يجب أن يخفي في الملاحم كأحد شروط الملحمة ظل ظاهراً هنا للعيان لأنه كما يبدو من أسلوب رواية الشاعر للأحداث، هو نفسه الذي يتغلغل في جذور الأحداث التي يرويها.

(١) من نقائض الشعراء العرب في الصحراء، ص ١٩.

(٢) جمع أجل، وهو القطيع.

ولا سيما أن **القشاطر** أثبت أن **البكاي** كان قائد حرب (١) فبالنظر إلى ذلك كله لا نشك أنه كان من المشاركين في الأحداث ما يجعلنا - مع إعجابنا الشديد بها - نجح إلى عدم تصنيفها إلى جانب تلك الأعمال التاريخية الخالدة. ومن الشواهد الدالة على اشتراك الشاعر شخصياً في القتال قوله:

أإذا قتلناهم و نالوا نيلىة منا فخرت بفعل ما لم تفعل

هم من قتلناهم وقاتلتم بهم ولهم فلستم غير قوم دلدل(٢)١١٠

فالأحداث التي يحكيها الشاعر هنا ليست خيالات أسطورية ولا خوارق فوق العادة حتى نقر بتلك الملحمة مع القشاطر، بل هي حوادث واقعية وتجارب زمنية وفعلية، جرت فوق رمال الصحراء خاض الشاعر غماره، وتمرس بنيرانها، فكان فيها فارساً باسلاً وبطلاً مغوراً يقود قومه ويحقق لهم النصر (٣)، ثم عبر عنها بقلمه كشاهد عيان مضيفاً إليها - بدون شك - من رؤيته الخاصة التي تمثل - عنده - النموذج الأعلى والحقيقة المطلقة. ولذلك كان حريصاً على أن يعرض الأحداث ويرسمها بطريقة تجعل القارئ يقف في جانبه ويؤيد موقفه متألباً معه ضد خصمه باعتبار أنه على حق والمهجو على باطل، وأن الأحداث لم تكن لتحدث إلا كما شاء أن يرويها هو ويثبتها.

غير أن القصيدة - على الرغم من خلوها من تلك القصص الحربية المنتظمة والمواقف البطولية المتعددة، التي تتطلبها الملاحم، وبقوة الألفاظ ووفرة التشابيه - استطاعت أن تجعل الخصم صورة ممسوخة للإنسان.

على أنه يمكن بشيء كبير من التجاوز وذلك اعتماداً على مذهب **القشاطر** في هذه القضية - وإن كنا على يقين بأن الشاعر لم يكن لديه اطلاع على فنون الملحمة ولا دراية بتقسيماتها النقدية - ثم لعدم ورود مثل هذا العمل الحماسي الطويل من أحد غيره في **تمبكتو** أن نقول - إلى درجة ما - إن الشاعر قد نجح في ابتكار ملحمة صحراوية خاصة به، تثبت إلى مدى بعيد ما كان يتمتع به هذا الأديب من موهبة شعرية قوية وقدرة إبداعية فائقة.

(١) من نقائض الشعراء العرب في الصحراء ص ١٩.  
(٢) الدلدل ضرب من القنايف، لها أشواك. وتلدل القوم بين أمرين، لم يستقيموا.  
(٣) من نقائض الشعراء العرب في الصحراء ص ١٩.

## المبحث الثاني

### أعراض الشعر عند البكاي:

من خلال دراستنا للامية البكاي نتبين من أول نظرة أنه اعتمد فيها على أعراض وسمات الشعر الجاهلي الأساسية، وذلك على النحو الذي تلقاه من أشياخه ثم تشربته نفسه من دواوين الشعراء، غير أنها اختضبت عنده بعد ذلك بالمؤثرات الجغرافية والاجتماعية والدينية الناجمة عن حياة الصحراء التمبكتية الإسلامية.

ولما كانت طبيعة الحياة في الصحراء متماثلة في كثير من مظاهرها وأوضاعها إضافة إلى آثار التقليد الظاهرة في شعره يمكن القول أن أعراض البكاي جاءت كذلك وليدة البيئة التمبكتية، حيث عبرت عن حالة النفس البدوية متأثرة بقوة الطبيعة وما احتوته من شطف المعيشة وقسوة الظروف التي تمثل بذرات للخلافات التي قد تولد الأحقاد وتؤدي في غالب الأحيان إلى الحروب الأهلية بين شعوب المنطقة الواحدة.

وقد تراوحت تلك الأعراض الشعرية ما بين غزل وهجاء وفخر وحماسة والتي سنعرضها - إن شاء الله - كل عرض في مبحث خاص.

على أن ما تجدر الإشارة إليه - بداية - هو أن الشاعر على الرغم من انغلاقه داخل الأطر الجاهلية والصيغ القديمة لم يخصص قصائد للغزل أو الفخر وإنما جاء هذان الغرضان أثناء اللامية التي أراد أن يكرسها لهجاء أعدائه من أدولحاج، لكنه طولها ووسعها لتتضمن أغراضاً شعرية أخرى كالغزل والفخر أو الحماسة. ما دفع القشاط إلى وصف القصيدة بأنها أبرز جهود الشاعر الأدبية (١) إذ هي أطولها نفساً وأروعها بناءً وأبدعها فناً وأصدقها دلالةً على نفسه وشاعريته، بما احتوت من عواطف حقيقية وقدرة مبدعة ومهارات فنية، قامت على جزلة الألفاظ وقوة المعاني وصدق اللهجة وشدة الانفعال مع بساطة في الخيال وبدون مغالاة في الوصف ولا إغراق في الصورة.

فقد راح بقلمه السهل ولغته الخصبة الثرية يتفنن في عرضها ويتلون في بسطها في قوة ورصانة وسحر ينفذ إلى اللب ويأخذ بمجامع القلب، فيثير الوجدان ويهيج العواطف. ومن أجل ما اشتملت عليه من معان وأفكار، وما احتوته من ثراء لغوي وجمال فني تمثل الثقافة الإسلامية والعربية والأفريقية المتحكمة لديه فقد نالت القصيدة مكانة عظيمة لدى العلماء وحظيت بالقربى في نفوسهم فتواصوا بتعليمها للأولاد وحفظها للنائشة ومن ثم تناقلتها الركبان ورددتها الأندية طلباً للمتعة ورغبة في الموانسة ما يرشحها لتعد خير نموذج يمثل الأدب التمبكتي في خصائصه وفنونه.

فلا غرو إذن أن نعدّها من روائع الأدب في تمبكتو ونصنفها في عيون الشعر السوداني وبالتالي أن نتخذها نموذجاً لدراسة الشعر التمبكتي.



كان الشعر الجاهلي هو المثل الأعلى للشعر العربي في السودان الغربي إلى عهد قريب حيث ظل علماءنا معجبين بأساليبه ومنبهرين بطرائقه في الصياغة والمعنى. وقد تولدت من ذلك الإعجاب عند البكاي - أسوة بمعلميه - رغبة جامحة في تقليده طامحاً في الظهور بمظهر شعرائه الأفاضل. فهو وإن لم يعيش مثل تجاربهم الحقيقية وممارساتهم الغرامية في واقع الحياة إلا أن وسائلهم وأدواتهم التي قالوا بها ذلك الشعر المثالي كانت متوافرة لديه ما جعله ينجح في اتخاذه منهجهم نبراساً يسير على ضوئه ويقتدي بهداه بحذق وحنكة. فاختر لقصيدته مقدمة غزلية تمهيداً وتوطئة كما كان يفعل الجاهليون في قصائدهم قبل التخص إلى أغراضهم الأساسية. غير أن نسيبه وإن كنا نؤمن بأنه تقليد جاء معبراً عن حب عميق وهيام شديد بصورة كادت تشبه التجربة الفعلية، إذ تمسك فيه بحبيبة واحدة ذكرها بالاسم الصريح مشيداً بما افتتن به من سحرها وجمالها وما يكن نحوها من عشق وغرام.

لكن الجدير بالذكر أن البكاي لم يفرد قصيدة في الغزل، وربما أمكن إرجاع سبب ذلك من ناحية إلى افتقاده إلى التجارب الغرامية الحقيقية - كما أسلفنا آنفاً - ومن ناحية أخرى إلى المكانة الاجتماعية والروحية التي تتطلب من العلماء والأشياخ مثله حتى في الشعر زهداً وورعاً ومروءةً وحياءً أو تمنعاً وترفعاً.

ومن خلال دراستنا للمقدمة الغزلية التي بلغت (٧١) بيتاً في مستهل قصيدته اللامية المطولة يمكن استخلاص بعض المحاور التي طالما دارت وترددت حولها القصيدة الجاهلية، ومن ذلك ما يلي:

#### • وصف الحب والهيام:

نفيسة هي تلك الفتاة التي هام بها الشاعر وعلق حبها بشغاف قلبه، حتى أصبح خيالها يراوده في حلمه فيأرق ولا يستطيع النوم، بل يبقى ساهراً طوال الليل متمنياً وصلاً من طيفها ليستمتع بمنادمته إلى السحر، وفي ذلك يقول الشاعر:

طرقت (١) نفيسة (٢) والدجى (٣) لم ينجل (٤)      وسان (٥) من طول السرى (٦) في الهوجل (٧)  
باتت يمثها لعيني طيفها (٨)      فأرقت (٩) لا للعارض (١٠) المتهلل (١١)

(١) أطبقت عينها من أجل النوم. وطروق الطيف معروف في الشعر العربي القديم..  
(٢) معشوقة الشاعر.  
(٣) سواد الليل وظلمته.  
(٤) لم ينكشف، ولم يسفر.  
(٥) فاترة الطرف، من كثرة النعاس.  
(٦) سير عامة الليل.  
(٧) المفازة البعيدة التي لا علم بها.  
(٨) الخيال الذي يراه النائم.  
(٩) يعني نفسه يسهر الليل.  
(١٠) السحاب الذي يعترض في السماء.  
(١١) أي تلاً لأ السحاب بالبرق.

والسبب في ذلك أن نفيسة هي أول فتاة يغرق الشاعر في حبها فكان من عدم تجربتها أن أضناه الهوى، وأحرقه الغرام. ومع ذلك فهي تضن بوصالها وتشح بلقائها ما يضخم حبها في قلبه فيسد عليه بصائره. إذ لم تعد له رغبة في الإصاخة لناصح يرحم ضعفه ويخفف بالموعظة من لواعجه كي يقلل من برحائه، لكن دون جدوى لأن العيش عنده لم يعد مستساغاً بدون نفيسة التي يهون معها كل صعب ولا يمكن أن يتصور المعيشة بدونها.

ما همت لولاها بخود (١) قبلها  
إحدى بنى الكنتي ولا إحدى بلي  
فأهيم منها في هواي بهولة (٢)  
جملاء (٣) في أنف (٤) الشباب الأجل  
لعب الهوى بجوانحي وجوارحي  
ما زال ينمو في الضمير خلالها  
حتى غدا للروح من متخلل

• الوصف الحسي: <sup>١٥٦</sup>

كان للنساء نصيب كبير في شعر البكاي سواء في غزله أو في هجائه، ما يدل على تعلقه وانشغاله بهن ولو في أسوأ حالاتهن - كما سنرى إن شاء الله - أثناء الهجاء، بل ومن تركيزه الشديد عليهن بما يطلقه عليهن من أوصاف جميلة أو قبيحة وبعد تصريحاته الشخصية، أدركنا إلى أي مدى هو فخور بأصله العربي، ومعتز بانتمائه إلى قريش، إذ لم يلبث حتى استهل القصيدة بذكر نسب حبيبتيه وأصلها ليعلمنا بأن مثله لا يقع في غرام كل امرأة، فإن فتاة أحلامه ومحظية غرامه لا بد أن تكون امرأة استوفت جمال الفتاة البدوية، في جميع ملامحها البدنية وصفاتها الجسمية؛ من طول الجيد وامتلاء الأعضاء وثقل الأوراك، وضخامة الأرداف، وتلك صفات الجمال التي لا تكتسب إلا من الرفاهية التي تعيش فيها قبيلة كنته، فهم لا يعرفون شظفاً ولا قشفاً لما كان يعيشونه من ثراء وغنى، ما جعل نساءهم يعيشون في الدعة والراحة فأصبحن سمينات ممتلئات، وفي ذلك يقول:

غيداء (٥) كنتاوية (٦) أموية (٧)  
قرشية (٨) ومن الطراز الأول (٩)  
لا من يعيش (١٠) ولا دولحاجية (١١)  
عجماء (١٢) لم تتبل ولم تتنبل (١٣)

(١) الشابة الناعمة الحسنة الخلق.  
(٢) امرأة التي تهول لحسنها.  
(٣) التامة الخلق.  
(٤) أول الشباب.  
(٥) الغادة من الفتيات، الناعمة اللينة.  
(٦) نسبة إلى كنته.  
(٧) نسبة إلى بني أمية.  
(٨) نسبة إلى قريش.  
(٩) يريد به الجنس الأرقى.  
(١٠) قبيلة من الحسان.  
(١١) قبيلة أحمد سالم، من الطوارق.  
(١٢) البهيمية. وفي الحديث: "جرح العجماء جبار": أي هدر، لا غرم فيه. وصلاة عجماء: لا تسمع فيها قراءة.  
(١٣) ليست شريفة الحسب، ولا كريمة الشمانل.

لكن من الكنتي ينميها أب

فأب إلى عدنان غير مضلل

خرعوبة(١) رعبوبة(٢) بهنانة (٣)

وهتانة(٤) نفج(٥) الحقيبة عيطل(٦)

رؤد(٧) بخندا(٨) رداح(٩) خدلم(١٠)

خود(١١) برخدا(١٢) أناة(١٣) عطبل(١٤)<sup>١٥٧</sup>

رؤد يردد لحظها في مهجتي

وجداً يبديد وجود كل تجمل

ترنو بعينيها إلي كأنما

ترمي بسهميها بثغرة مقتل

تجلو(١٥) إذا ابتسمت كما يجلو الحيا(١٦)

بحبية(١٧) عن برقه المتكل(١٨)

عن واضح(١٩) شنب(٢٠) أغر(٢١) مفلج(٢٢)

عذب شتيت بارد مترتل(٢٣)

وكان خمراً فيه من مشمولة

أنفاً(٢٤) عقار(٢٥) قرقف(٢٦) قطربلي(٢٧)

سيطت(٢٨) بمسك في الزجاج وعنبر

وبلنجج(٢٩) وبنفسج وقرنفل

شجت(٣٠) بذبي شبم(٣١) نقاح(٣٢) بارد

عذب سحابي نمير(٣٣) سلسل(٣٤)

تغشي الضحى من وجهها ليلين من

فرع(٣٥) لها أحوى(٣٦) أحم مرجل(٣٧)

(١) الشابة الحسنة الرخصة اللينة.

(٢) التارة اللينة الناعمة.

(٤) الطبية النفس والريح.

(٦) عظيمة الأرداف.

(٨) الشابة الحسنة.

(١٠) الثقيلة الأوراك.

(١٢) الممتلئة الأعضاء.

(١٤) الفتية الجميلة الممتلئة طويلة العنق.

(١٦) المطر.

(١٨) المتراكم بعضه على بعض، كأن له إكليلاً.

(٢٠) الفم الدقيق الأسنان فيها برد وذنوبة.

(٢١) أبيض.

(٢٢) متباعد ما بين الأسنان.

(٢٣) المفلح الحسن النضيد، الشديد البياض، الكثير الماء، من الثغور.

(٢٤) الكأس التي لم تشدب.

(٢٥) الخمر.

(٢٦) الخمر يرغد، مهما سار بها.

(٢٧) نسبة إلى قطربل، موضع تنسب إليه الخمر.

(٢٨) خلطت.

(٢٩) عود من البخار.

(٣٠) مزجت.

(٣١) البرد.

(٣٢) الماء البارد.

(٣٣) الماء الناجع.

(٣٤) الماء العذب.

(٣٥) الشعر التام.

(٣٦) الأحم: الأسود.

(٣٧) الترجيل بالمداري.

(٣) اللينة الناعمة البيضاء الحسنة.

(٥) التي فيها فتور عندما تقوم.

(٧) طويلة العنق في حسن.

(٩) المرأة التامة القصب.

(١١) الشابة الناعمة الحسنة الخلق.

(١٣) المرأة التي فيها فتور عند القيام.

(١٥) تكشف.

(١٧) السحاب المتراكم المتدان.

(١٩) الأسنان.

- وحف (١) أثيث (٢) واردة (٣) معانكس (٤)  
 جثل (٥) جفال (٦) فاحم (٧) مترسل (٨)  
 أو أنها ريبا (٩) المخلخل خدلة  
 والجيد من جيدانة (١٢) أدمانة (١٣)  
 وكان عينيها لأحوى (١٦) أحور (١٧)  
 رشأ (١٨) أحم (١٩) المقلتين غزير (٢٠)  
 من وحش وجرة ذي العواهج (١٤) مطفل (١٥)

هذه هي المعايير الجمالية التي لا يمكن أن تتوافر إلا في النساء العربيات اللاتي تعد نفيسة من أشرفهن كعباً، لكونها من كنته فرع بني أمية أرومة قريش التي اكتسبت منها نفيسة شرف العود ونبل الأصل، فصارت من خير نساء العالم عنصراً وأعلاناً عرقاً وأطيبهن عنصراً. وإنما ورثت هذه الخصائص النبيلة من جبلتها وفطرتها التي شهد النبي صلى الله عليه وسلم بأفضليتها وكرمها، ما ميزها عن نساء العدو الوضيعات اللاتي ورثن نذالتهن من جذورهن الفاسدة عرقاً وخلقاً.

إن نفيسة امرأة بيضاء ناعمة بدرجة أن الضحى بضيائه الساطع ونوره اللامع يخجل من بريق لونها ونعومة وجهها، الذي يتلألأ تحته شعر أسود، كثيف مسترسل، ملتف فوق رقبة معتدلة، لا نظير لها في الجمال والروعة إلا ظبية شديدة سواد العينين عظيمة بياض المقلتين. فتلك هي نفيسة بدر التمام الذي يتمنى جميع الفحول أن يصلوا إليها لكن دون جدوى. ولأجل ذلك كانت أجمل من عشيقات الجاهليين قاطبة، بما فيهم نساء امرئ القيس (٢١) الذي أكثر من الالتفاتة إليه، وفي ذلك يقول: <sup>١٥٨</sup>

كادت محاسنها الحسان وإن علت  
 ما إن رأيت ولا سمعت بمثلها  
 في الحسن بادية الرهان إلى العلي  
 أسبى لأهل تحلم وتحمل  
 ما لامرئ القيس بن حجر مثلها  
 في مأسل يوماً ودارة جلجل

- (١) الشعر الكثير الأسود. (٢) الملتف.  
 (٣) الطويل المسترسل. (٤) الشديد السواد الكثيف.  
 (٥) الكثير الملتف. (٦) الكثير.  
 (٧) الشديد السواد. (٨) مرخي.  
 (٩) ممثلة الساق. (١٠) الساعد الريان الممتلئ.  
 (١١) ممتلئ. (١٢) طويلة العنق، يعني ظبية.  
 (١٣) الظبية المشربة بياضاً. (١٤) جمع عوهج، وهي الظبية الطويلة العنق.  
 (١٥) التي لها طفل. (١٦) الأدهم عن الأطباء.  
 (١٧) شديد سواد العين، مع شدة بياضها.  
 (١٨) الظبي، إذا قوي ومشى مع أمه.  
 (١٩) أسود المقلتين.  
 (٢٠) غزير تصغير غزال.

(٢١) هو امرؤ القيس بن حجر الكندي كان أبوه ملك بني أسد فعسفهم عسفاً شديداً فاجتمعوا على قتله فلما علم بقتل أبيه— وكان يشرب الخمر— قال: ضيعني صغيراً وحملتني دمه كبيراً اليوم خمر وغدا أمر ولما وصل إلى قيصر طالباً عونه أجابه في أول الأمر ثم وشى به أحد العرب عند قيصر في شأن ابنته فألبسه قيصر حلة مسمومة مات بسببها ودفن في أنقرة ويطلق عليه الملك الضليل أو ذو الفروح. العمدة ص ١١٥.

• مشقة الوصول إلى الحبيبة: ١٥٩

إن الطريق إلى نفيسة محفوفة بالجبال الوعرة والقفار الخشنة والفلوات الموحشة التي لا يقدر على اجتيازها إلا أمثاله من الفتيان جريئي القلب الذين لا يخشون الهلاك ولا يخافون من يحيطون بمنزلها من الحراس الشجعان يقول الشاعر:

أنى اهتدت وأبو جيبهة (١) دونها  
أضحت نفيسة دونها كم ننف (٥)  
وصاحح (٨) وصفاصف (٩) وفدافد (١٠)  
لا تمنع الأعداء منى زورها  
أتجاوز الأعداء والأقوام والـ  
وهو اجلاً (١٣) وصواهاً (١٤) ومناصلاً (١٥)  
الفيف (٢) من قير (٣) ومن انقلقل (٤)  
ومفازة قذف (٦) ودو (٧) مجفل  
وجداجد (١١) من حرة وسمول (١٢)  
بالسيف أو بالرمح أو بالمنصل  
حراس والأهوال دون المنزل  
وذوابلاً (١٦) من عن أمام ومن عل

ولأجل ذلك فإن نفيسة محفوظة في خدرها المصون ومقلها الآمن لا يصل إليها أحد. ما يزيد في جمالها ويضاعف من صفات كمالها. على ما بها من مروءة وحياء وتؤدة وبهاء، تجعل مشيتها منقاربة الخطى بطيئة الحركة كمن به نشوة مخمور وتمایل سكران يزيد القلوب هيجاناً ويحرق النفوس شوقاً. يقول في ذلك:

تمشي الهوينى الخوزلى (١٧) بتقطف (١٨)  
تمشاء سكران نزييف (٢٠) منهل  
وتعطف وتغزل (١٩) وتخزل  
ملث (٢١) الظلام من الشمول معل

- 
- (١) مكان في صحراء تمبكتو في شمال مالي.  
(٢) المكان المستوي، أو المغارة، لا ماء فيها.  
(٣) مكان آخر في شمال مالي.  
(٤) مكان آخر في شمال مالي.  
(٥) المفازة.  
(٦) البعيدة.  
(٧) الفلاة.  
(٨) جمع صحصح.  
(٩) جمع صفصف، المستوى من الأرض.  
(١٠) جمع فندف، وهي الأرض الغليظة.  
(١١) جمع جدجد، الأرض الصلبة المستوية.  
(١٢) الأرض الواسعة، والسهلة التراب.  
(١٣) المفازة البعيدة، التي لا علم بها.  
(١٤) الخيل.  
(١٥) السيف أو السنان.  
(١٦) الرماح.  
(١٧) تقارب الخطو.  
(١٨) الانتشاء.  
(١٩) تكلف الغزل، وهو محادثة النساء للرجال.  
(٢٠) سكران.  
(٢١) أول ظلام الليل.

## • شكوى الفراق:

كم مرة تمكن الشاعر بفضل شجاعته، من الاختلاء بنفيسة وتم له المراد بحلاوة محادثتها، ولذة النظر إليها تحت ظلال الأشجار الوارفة، بعيداً عن العيون الوحشية والأليفة، مستأنساً مستبشراً بما بادلته من حب عظيم وقاسمته من هيام وغرام.

لكن الدهر غدور والزمن خئون فلم يزل به الحظ النكد حتى فرق بينه وبين من لا يزال قلبه متيماً بها وفؤاده متعلقاً بها. تلك التي لا يزيد المحب سواء قربها أو بعدها إلا تحرقاً وولهاً. ومع ذلك فهو لم يعد له عنها صبر ولا تفكير إلا فيها.

لذا فقد آلى على نفسه أن يبقى لحبها وفيماً ولطيفها حفيماً وألا يتحول عن ذكرها مهما كلفته ظروف الحرب التي من عاداتها أن تفرق الشمل وتعكر صفو الحياة.

ما أنس لا أنسى زمان وصالها في ظل عيش بالتداني دغفل (١)

مغدون (٢) مغدودق (٣) مغدودف (٤) مغضوضف (٥) مخضوضر (٦) مخضوضل (٧)

واهاً لأيامي وأياماً لها بأقل أو بالشب أو بأبهل (٥)

حلو النعيم يمر لي في حجرها وبوصلها مر العذاب يلذ لي

إن حبه لها يزداد كلما تذكر تلك الأيام الخوالي التي قضاها معها دون أن يشعر بمرور الزمن، يقول:

ما زلت مذ شطت (٩) ببيوم (١٠) أيوم من حبها عندي وليل (١١) أليل

تركت بنفسي من علاقة حبها ما لا يحول وعنه لم أتحوّل

ويزيده قرب المزار وشحطه (١٢)

ولذلك فهو يتمنى عودة نفيسة إلى قربه ليحوزها نهائياً. ولكي يتم له ذلك فإن لديه الاستعداد الكامل لأن يبذل الغالي والنفيس وأن يستमित ولو بغزو أهلها ليسلبها منهم، كي لا تغادره نفيسة بعد ذلك أبداً، وفي ذلك يقول:

يا ليتها وصلت ولو بين الطبي (١٣) وقنا من السمر المراق الذبل

(١) العيش الواسع، أي الوارف.

(٢) من الشجر الناعم الملتف.

(٣) المطر الكثير الماء.

(٤) الشعر الطويل الأسود.

(٥) الناعم من العيش.

(٦) الأخضر.

(٧) الندى.

(٨) كلها أماكن في شمال مالي.

(٩) بعدت.

(١٠) أي يوم شديد.

(١١) كذلك يوم شديد.

(١٢) البعد.

(١٣) جمع ظبة: حد السيف أو السنان.

فالعيش في أرب النفوس وعندها      أربي ومن أربي الوغى لا موجلي  
إن مر عيش فهو يحلو لي بها      وإذا أمرت لي فلم أتحوّل

#### • وصف الراحة:

فها هو ذا الشاعر لاستعادة تلك الأيام الحلوة فوق مطيته القوية يركض نحو نفيسة وقلبه يتحرق لوعة وشوقاً إلى لقائها بسرعة. لكن الراحة مع فتوتها، وسرعتها في العدو وقدرتها على اختراق الفيافي الطويلة والفقار الخشنة تبدو في عينه وكأنها بطيئة متناقلة لا تشعر بحالته النفسية الهائجة. ما اضطره إلى استحداثها لحنها على مضاعفة السرعة وزيادة الخطى في السير فتطوي البعد لأن نفسه المتحرق لا ترتاح إلا عندما يلقي بمطاه في ساحة منزلها، يقول:

تتقطع الآمال دونها حسرة      إلا بيعملة (١) وإلا بيعمّل  
حرف (٢) سبنداة (٣) سناد (٤) حرة      ومعود (٥) أجد (٦) الفقار (٧) مبتل (٨)  
ما قرب الأحباب والحاجات ما      بعدت بإذن الله مثل البزل (٩)  
ياحسن مسراها على قولي لها      يا ناقة أخدي بي (١٠) خديك فارقلي (١١)  
حتى تجيئ إلى نفيسة إنها      أمني وجمع هواي عند تأملي  
فهناك أحمد ما حمدت من السرى      ويريح من رحلي مطاك (١٢) ورحلي "

#### • الحب العذري:

إن الرسالة التي أراد الشاعر أن يوجهها إلى القارئ في قوله " وأعف خوف الله " والتي يود أن يفهمها كل إنسان مفادها أنه حتى إذا وصل إلى نفيسة، كما سبق له أن فعل ذلك عدة مرات، فإن حبهما الكبير سيظل طاهراً نظيفاً خالياً من كل ما يشين علاقة رجل بامرأة، وذلك أن غرامهما قائم على حب عذري

(١) الناقة المطبوعة على العمل.  
(٢) الناقة الضامرة.  
(٣) الناقة الطويلة الجريئة.  
(٤) الناقة القوية.  
(٥) البعير الذي صار عوداً، أي مسناً.  
(٦) موثق الخلق.  
(٧) فقرات الظهر.  
(٨) الجمل الذي لم يركب لحم بعضه على بعض.  
(٩) جمل بازل: الجمل بلغ تسع سنين.  
(١٠) أسرع.  
(١١) الإسراع.  
(١٢) ظهره.

وعفيف، غرام صاف لا حرام فيه، لأن العاشق تقي ورع والحبیب طاهر وعفيف، فعلاقتهما إذا تقوم على العشرة البریئة، من سوء النية وكل ما يدنس العرض، يقول في ذلك:

وأعف خوف الله لا خوف الوری في خلوتي فأزور غیر مقول  
وأعود في ثوب العفاف وصونه عودي كبدي فيه غیر معذل

ولا يخفى هنا تأثر الشاعر بالمبادئ الإسلامية التي يعد من أكبر دعائها ومروجيها ولو عن طريقته الصوفية - كما مر بنا في نثره. فهو يعي ذلك الموقف الطهوري الذي تتطلبه العقيدة الإسلامية جيداً، كما وعاه غيره الذين سبقوه من شعراء الحب العذري، وإن كان زهد بعضهم عجزاً لا هدفاً قاصداً احتراماً لما يقتضيه الإسلام من التزام وطهر. فقد حرص الشاعر على التأكيد على العفة - بوضوح - سواء من ناحيته أو من ناحية الحبيبة. فإن غايته من طلابها أن يتلذذ بالنظر إلى وجهها البهي ويديم متعته بمنطقها العذب الذي يخلب لبه ويسل برقته عذاب الهموم من نفسه، ذلك السحر الحلال الذي أباح لنفسه الجناية بالعقول البريئة لعلمه أنه معفو عن ظلمه، يقول في ذلك: <sup>١١٢</sup>

وبمنطق عذب خلوب(١) للنهـى غير الثقيل بها ولا المستعجل  
لكنه السحر(٢) الحلال لو أنـه لم يجن قتل المسلم المتعلل  
شرك(٣) العقول ونزهة ما قبلها للمطمئن وعقله المستعجل  
إن طال لم يملل وإن هي أوجزت ود المحدث أنها لم تفعل

وإذا كان السبب في ذلك تدين الشاعر وترفعه عن الدنيا فإن الحبيبة بدورها عفيفة تريد البقاء على طهارتها ونقاؤها إلى يوم العسل. فهي لكرامة منزلتها تضن بنفسها أن يراها كل إنسان أو تخاطب كل من يرومها. ما جعل الوصول إليها والاستمتاع بجمالها وحديثها مستحيلاً. ولذلك كان الفوز بها شرفاً لمن ترضاه وتبتغيه.

فالشاعر مع كونه قد انفرد بها مراراً أثناء زيارته وخلواته الحميمة بها لا يُجري حواراً معها طوال الأبيات، حرصاً على أن لا يفشي لها سرّاً، لما في ذلك من إظهار لمنطقها العذب الذي يغار عليه من الهواء، فهو يخصه لنفسه فقط ويضن به حتى على القارئ الصامت، فلم يذكر من ذلك شيئاً لأنه لا يريد أن يستمتع به أحد، غيره. وفي ذلك وفاء للحبيبة وكرمان لسرها وحفاظ على كرامتها وعدم تعريض شرفها للانتقاد. وذلك غاية في الحب العذري والجمال الخلقى والسمو النفسي.

وبناءً على ذلك فقد خلت قصته مع نفيصة عن الحديث عما يجري عادة بين المحبين من أعمال الحب أو مقدماته التي تطفح في القصص الغرامية لدى الشعراء العشاق.

(١) أي يسلب العقول.

(٢) الكلام الحلو الذي يستميل القلوب.

(٣) يصيد العقول.



واحجب على ضرعوبة(١) في خدرها      تأبى مخاطبة الكمي(٢) الأرنل  
لم تعط للخطاب من أكفانها      قبل انعقاد الحل حبة خردل

غير أن ذلك لم يمنع من أن تشتد غيرة الشاعر على حبيبته وتخوفه من ذئاب الناس عليها، ولذلك فهو قبل أن يصل إليها، يهيب بأهلها الذين ربوها في الحرز والصون أن يزيدوا من يقظتهم ويحيطوها بعين الكلاءة وبالمزيد من أسباب الرعاية والعناية، كي تبقى مكرمة في خدرها المكنون بعيدة عن نظر من لا يستحقونها من العابثين أو أيديهم.

يا فخر أهل صانها من كل ما      يرمي إلى التفضيل يوم الهوجل(٣) ١٣

---

(١) الشابة الحسنة الخلق، البيضاء اللينة.  
(٢) الدنيء.  
(٣) بمعنى الدهان.

أراد البكاي بمقدمته الغزلية الطويلة أن يهيئ الأذهان لتقبل هجائه المقذع القادم بوصفه الموضوع الرئيس وصاحب القدرح المعلى في القصيدة، فكأنه يريد أن يثبت أنه في أصله وقبل شروعه في الهجاء كان إنساناً لطيف الطباع رقيق الشعور متدفق العاطفة. غير أنه لا شيء يثير أعصابه ويفقده توازنه مثل الافتراء والادعاء الباطل، ولا سيما إذا صدر من عدو حقير فهذا ما لا صبر له عليه ولا قدرة له على تحمله.

وإن النوع الذي اهتم به الشاعر فبرع فيه وأجاد هو " النقاوض "، حيث صاغ قصيدته مطولة على سبيل الموازنة وطريق التراشق بالنبال نفسه والسهام ذاته، كما أنها جاءت على وزن وقافية قصيدة المهجو، هاجياً وساخراً مما ادعاه العدو من مزاعم وافتراءات، فوصمه بما هو أفذع وأشنع، مجرداً إياه من أقل الفضائل التي يحرص عليها الصحراويون ويعتزون بالسبق إليها، ملحاً على وصفه بالأسوء التي تحقر أصله وتضعه دون البهائم. وقد نجح البكاي في ذلك إلى حد بعيد أثبت أن له باعاً طويلاً في الهجاء وقدماً راسخاً في النقد يحسن الجرح ويجيد الطعن، ويتبع في سبيل ذلك شتى وسائل التقرير والتحقير، مع الحرص على ألا تفوته فرصة لا ينال فيها من الخصم، كي يحيله إلى إنسان ممسوخ، يستدعي السخرية والضحك.

وإغراقاً منه في السخرية والتهكم كال البكاي لنفسه ولقومه أجمل المدائح وأحلى المفاخر، صاباً على عدوه كل حقه ونقمة. فبينما كان يسند إلى قومه الفضائل والمكرمات راح يسوق لخصومه أفحش المساوئ والفضائح، ليغرقهم في أحوال المخازي والمعرات ويمرغهم في رمال الدناءة والحقارة، بحيث ظهر المهجو وكأنه دمية ممسوخة، لا إنساناً أو جانا بل غولاً يجسد كل ما في القبح والبشاعة من معنى، يقول في ذلك:

كالناس لا كالناس أو كالجن (١) لا كالجن بل غول (٢) لهم منغول (٣)

من ملامح الهجاء القديم:

#### • التعبير بالصفات الخلقية والنفسية:

افتتح البكاي هجاءه بسخرية لاذعة من ادعاء العدو الحب وتعلقه بالغرام، وأن زهده في النساء أيام الحرب وعدم تفكيره في الوصال إلا في أوقات السلم والشبع، يدل على أنه ضعيف وجبان يعيش مثل الخنزير، إذ إن همه الوحيد أن يبقى حياً ليتمتع بالأكل والشرب فقط، لا يفكر في حرب لما تأصل فيه من جبن

(١)خلاف الإنس، واحده جني وهي (بناء) .

(٢)تزرع العرب أنه نوع من الشياطين، تظهر للناس في الفلاة، فقتلون لهم، في صور شتى، وتغولهم، أي تضللهم وتهلكهم، ولهذا قيل: سحرة الجن.

(٣)التلون والتشكل بصورة الجن.

قطع عنه شهوة النساء، فالأجدر به إذاً أن يضرب صفحاً عن ذكر الحب ويترك الفخر بالفحولة لرجال كنته  
البواسل الذين لا يعرفون الخوف ولا يصرفهم هول الحرب - مهما عظم - عن يحبون ويعشقون، فقال:

إن امرأً ينسى الهوى ينسى الوغى (١)  
هو للحبوب وللطعام بمنزل  
شغلأ بهمي مشرب أو مأكـل  
وعن الحبائب والوصال بمعزل  
أتعف عن وصل الحبائب مرة  
شد المآزر في الحروب عن النسا  
من حاجة النكس (٢) الضعيف الزمل (٣)  
تبغي الزيارة بئس للمتكيل  
عند الشدائد لا تزور ودونها

وإغراقاً في السخرية والتهمك يتخيل حواراً بين المهجو وحبيبته التي إذا عاتبته من أجل غيابه أو  
تأخره عن زيارتها يحتج بأنه لا يزال على عهده لكنه منشغل بمقارعة الفرسان في ساحات الحرب، ما يمنعه  
من الزيارة إلا بعد انجلاء الخطر، فقال:

ويقول عذراً للحببية قولــــة  
يا عاذلاً قد ظنني متماسكاً  
جبناً وضعفاً وهو أسفل أسفل  
قلنا: خبيثة (٤) ذي الحمامة تتجلي  
لا تحسبي أنني هجرتك عن قلبي (٥)  
قلنا: نعم لضرورة لم تجهل  
ويقول أمر في العشيرة مشغل  
قلنا: لجوع (٦) مشغل لك مشعل (٧)  
كيف المزار مع اشتعال لظى الوغى  
قلنا: لجبن خالغ لك موجـل  
وذوو الحروب عن الوصال بمعزل  
قلنا: وتجفل في النعام المجفل<sup>١٦٥</sup>

ويستمر في الذم فيزداد حدة على القوم ليحقق فيهم الغاية من الطعن والجرح، ذاهباً إلى أن المهجو من  
فقره لا يجد ما يستر به عورته أو يغطي به جسمه، فقد مع البؤس كل إحساس بكرامة، وضاعت منه نخوة  
الرجولة، فلم يعد لديه أدنى حياء أن يتجول بين الرجال عاري الجسم مكشوف البطن كالعبيد، فقال:

تلفى الدولحاجي كاشف كشحه (٨)  
عريان لم يلبس ولم يتسرول  
يلقى الكتبية (٩) حاسراً متبسماً  
لا يستحي من قرنه (١٠) المتسربل (١١)

من حقار المهجو وذلك أنه وقومه متطفلون يعيشون على فتات الناس ويقتاتون من بقاياهم، لأنهم  
عاجزون عن العمل الشريف الذى يضمن لهم العيش الكريم، فهم لا قوام لهم في الحياة إلا على فضلات أرنالك

(١) الحرب، لما فيها من الصوت والجلبة.

(٢) الجبان.

(٣) الضعيف الجبان .

(٤) الشيء المخبوء .

(٥) البغض .

(٦) شاغل لك .

(٧) مشعل في جنبك الحريق .

(٨) ما بين الخاصرة والصلوع .

(٩) الفرقة العظيمة من الجيش، تشتمل على عدد من السرايا .

(١٠) القرن للإنسان مثله في الشجاعة والشدة والعلم والقتال وغير ذلك .

(١١) لابس الدرع .

يستجلبونها بالخدمة وأداء الأعمال الدنيئة أو يستجدونها بالتسول والمسكنة، وقد نجحوا في ذلك إلى حد أن نساءهم بعد الهزال والنحول انتفخت بطونهن وسمنت أبدانهن، فقال:

تردون كل عشية ما أصدرت  
أزناك (١) والوراد ماء المنهل  
لاغرو أن نساءهم بشطوفة (٢)  
ورجالها في عزة وتفضل  
ونسأؤكم ما نفعها بتشبع  
ورجالها بمذلة وتذل  
يكفي إذا شبعت بطون نسائكم  
بتطفل ورجالكم بتوسل  
لو شئن من أبدانكم لأكلن من  
شم كهداب (٣) الدمقس (٤) مفتل  
كم منكم من بادن متشبع  
ضخم على ظهر الجوار مهبل

### التعبير بالصفات الجسمية:

يرى البكاي أن العدو وقومه خلقوا من قلة وكتبت عليهم ذلة لا ينالون خيراً ولا يحوزون نصراً، فمن صالحهم إذاً أن يرضوا بقدرهم النكد ويقضوا عمرهم بالحرقة والكمد حتى يحصد أكبادهم الحسد، فقال:

لا أنتم من كل شر بنيئة  
وبني كل أبي أرعن أرعل

من دناءتهم وخساستهم أن الناس - على ما بهم من أنفة وإباء - قد صنفوهم فلا يتأذون بمنكر فعلوه، لأنهم عاجزون عن الإتيان بغير المستقبح والمستهجن من الفعل، وقد علق ذلك كله بسواد لون المهجو، ذلك اللون الذي ترتبط به عبوديته، وهي الظاهرة التي كانت ترهق ذهن الشاعر من العدو وتقلبه، إذ تشبثت بضميره وعلقت بفكره فغلبت على خياله، بل سيطرت على كل حواسه حتى لم يعد قادراً على الفكاهة منها، فأكثر من ذكرها وأطال تكرارها ليزكرنا بأن أصل هذا العدو انطلاقاً من جسده الأسود حقير، ما يكرسه في المذلة والهوان ويجعل موضعه الإنساني مخزياً، فلا يرقى بخلق ولا يسمو بفعل ولا يكرم ببطولة، حتى التدين الشديد الذي اشتهر به هذا العدو لم يجد نفعاً له عند البكاي الذي لا ينظر إليه إلا بعين الحقارة والذلة، فلا يرفع شيء في الدنيا من شأن هذا العدو. لقد كانت ولا تزال هذه النزعة التفاضلية سمة اجتماعية ظاهرة في البيئة التي نشأ فيها البكاي. فهي بيئة لا تنظر إلى اللون الأسود إلا من ناحية الدونية والعبودية، فلا يوجد في مجتمعه أسود إلا وهو يرقل في قيود الرق. وهذا لا يعني إلا شيئاً واحداً، هو أن النزعة الاستعلائية طبع

(١) قبيلة من الحسانيين.

(٢) الضيق والشدة وبيس العيش.

(٣) ما استرسل من طرف الثوب.

(٤) لباس الحرير

حقيقي ومتأصل في نفسية الشاعر ورثها من مجتمعه وثقافته، لذا ظهرت بجلاء في جميع أعماله الكبيرة والمهمة. يقول:

عبد بن عبد صاغر عن صاغر  
 من كل رخو البطن رخو وكائه  
 خدمت به في بطنها وبظهرها  
 قل (٨) بن قل فاضح لا واضح  
 أبواه ما عرفا له أبويهما  
 في صببية زعر (١١) البطون ونسوة  
 في الذل منكم والمهانة فيكم  
 ممن ذو الحاج العبيد ومن هم  
 أرهن يدي (١٣) لمن عرف أصله منهم  
 لا عالم منهم كعلمي أنهم  
 ما أنتم إلا عبيد تفتفي (١٥) أزنالك أو أم (١٦) لهم في أحبل

إن ما يزيد هذا العدو هواناً وحقاراً أنه مجهول الأصل ذميم الخلق، ليس له من ينتمي إليه - بعد أبويه الحقييرين - إلا مرتزقة مجهولون أجلاف يستعبدونه بالعصا والحديد . فأولئك أهله وخاصته الذين إذا غادر أهله وخرج من محيطهم لا يلقى إلا ذلاً وهواناً ويقع فريسة سهلة لأول من يلقاه فيسومه سوء العذاب ويذيقه وبال جرأته على التفريط في الابتعاد عن سربه، فقال:

- 
- (١) غليظ .  
 (٢) تباعد الركبتين في الإنسان .  
 (٣) المائل أحد الشقين، وذو الخصية الواحدة .  
 (٤) المكشوف الأست .  
 (٥) عظيم الأليتين .  
 (٦) السمج .  
 (٧) غليظ الشفة .  
 (٨) الذي لا يعرف هو أو أبواه .  
 (٩) الذي لا يعرف هو أو أبواه .  
 (١٠) الزنجي .  
 (١١) جمع أزرع .  
 (١٢) الحزن .  
 (١٣) يقول يدي رهن لمن لا يجامل دولحاج .  
 (١٤) لمبتل: لمختبر وفاحص  
 (١٥) تتبع .  
 (١٦) الإماء، جمع أمة.

أما الدولحاجي ليس له سوى  
 ما إن عدا قط الدولحاجي بيـ  
 إن يلق يقتل أو يعبد أو يصم  
 بل ما تجاوز عز شخص أهله  
 فإذا ترحل عن أبيه وأمه  
 أبويه أو أزنالك ثم الجهل  
 ت أبيه إلا في الهوان الأثقل  
 أو يمتن بتخشع وتخشل(١)  
 من غيرنا إلا إذا لم يرحل  
 وأخيه ذل وهان في المترحل

• التعبير بدم النساء:

هذا ولا يقل نساء إدولحاج عن رجالهن في شيء، فهم جميعاً - لما توارثوه عن أسلافهم من النذالة والحمافة والكسل والخمول - قد جبلوا جميعاً على الحقارة والسفالة وطبعوا على الجبن والحقارة. بل هن موطن كل سوء ونكد، استكمل فيهن جميع معايير القبح والبشاعة، حتى بلغن القمة من القبح والبشاعة ووصلن إلى الذروة من الجهل والأمية، فهن أدل الخلق أصلاً وأحق طيناً وأبشع خلقاً وأقبح صورة وشكلاً. إلى ما فيهن من جشع وسوء جبلة وخنوع وشهوة ودناءة ونذالة. أعياه وجود مثيلات لهن في البشر، ولم يجد خيراً من الخنزيرات فألحقهن بها، ولذلك فهن لا يصلحن لشيء سوى العبودية والخدمة لغيرهن من النساء - تماماً - مثل رجالهن لا خير في ذا ولا في تلك، لأن عنصرهم واحد، تناسلوا من العود الخبيث نفسه، فلا ينتج من وصلهما إلا حقير مثلهما، لا يمكن أن يرقى إلى مصاف الأدميين مهما توافرت له أسباب الكمال والنجاح. وفي ذلك يقول:

ما أمكم أيضاً سوى كأبيكم  
 أكثرتم أخذ الحرائر بعده  
 ما إن سما لكرامة إلا كبا  
 مثل الجياد إذا حمار عقها(٨)  
 فضراب(٢) فحل(٣) السوء شر تفحل<sup>١٦٨</sup>  
 فولدن كل مخسف(٤) ومخسل(٥)  
 بخبال(٦) عرق(٧) من أب متثقل  
 تلد البغال(٩) من الحمار المرسل

ومن ملامح القبح في نساء العدو أنهن هزيلات ونحيفات، لأنهن يعانين من البؤس والنكد. أيبسهن الجوع وأنحفهن الطوى، ليس عليهن أدنى أثر للنعمة ولا أقل مظهر للرفاهية. ثم إن السواد لونهن زادهن بشاعة وسوء مظهر، حتى أشبهن الخنزيرات في دناءة الخصلة وخساسة الخلقة. وإن الفتاة منهن من قبح المنظر وسوء الحال تشبه العجوز الحيزبون المتهدمة أو القهرماننة الفانية، لا زينة تنفعها ولا حلي يجملها، يقول:

تلقى الدولحاجية السوداء من  
 بطن لها سوداء مثل المرجل(١٠)

(١) التخلل أن يصبح الرجل مردولاً.  
 (٢) نزو الفحل.  
 (٣) الذكر القوي من كل حيوان.  
 (٤) الذليل المحمل ما يكره.  
 (٥) الرذل من كل شيء.  
 (٦) فساد العقل، وذهاب الفؤاد أو فساد العضو. حملها.  
 (٧) أصل كل شيء. (٨) نزا عليها.  
 (٩) ابن الفرس من الحمار. (١٠) القدر من الطين المطبوخ، أو من النحاس.

عند ابن عم حولها متحلحل      بطن له مثل الرحي(١) المتجلجل(٢)  
ترنو إليه فلا تسر ولا بها      في منظر لكليهما مستقبل  
فكأن خنزيراً إلى خنزيرة      أو جياًلاً ترنو لأنثى جيال(٣)

فهن يعلمن من أنفسهن تلك الحقارة والندالة، ما يجعلهن يقبلن على الخدمة برضى نفس وطيب قلب،  
وذلك على الرغم مما يلقين من سيداتها من سوء معاملة وإهدار كرامة، يقول:

يارب عانسة دولحاجية      خوثناء(٤) ما ضم الوشاح خرنبل(٥)  
بنت الدولحاجي ما أحرى لها      في الذكر كل مهبل(٦) ومخبل(٧)  
تلقي الدولحاجية الرعناء(٨) لا      تأبى لأزناكية بتحمل(٩)  
وترى الأزناكيات لا يأجرنها      إلا بأجر بالطعام مقلل  
وترى أباهما في الحجاب وبعلها      وهي الرواد(١٠) لمتمتلي ولتغتلي

وعندما لا يتوافر لإحدهن فرصة لمثل هذه الخدمة - لأن مواليتها لم يرغبوا فيها - فإنها لا تجد عيباً  
في العودة إلى شغلها الحقير المفضل ووظيفتها الدنيئة المعتادة وهي نهب بيوت النمل في الصباح الباكر لسرقة  
ما فيها من أفوات تعبت المسكينة في جمعها في الصيف وخرزنتها في غيرة وخوف لتضمن لنفسها عيشاً هانئاً  
عندما يحل الشتاء، لكن الدولحاجية من جوعها ونكدها لا ترعى لتلك المخلوقة الضعيفة إلا ولا ذمة، فتعتدي  
على مخزونها وتحرمها من ثمرة شقائها مستمتعة بالسرقة ومستمرئة للنهب، دون أن ترى في ذلك ظلماً أو  
تخشى عقاباً، لأن الغاية في قاموس دولحاج تبيح الوسيلة، يقول:

وتظل أيضاً بالعراء مشيحة      بحزامها لتتقل لتبقل(١١)  
وتبيت تسأل أين توجد قرية      للنمل تبكر نحوها لتهبّل(١٢)  
فاذا غدت شنت عليها غارة      شعواء من كف لها أو منخل

إن الشاعر بعد هذا كله وكأنه شعر بأنه لم يستوف تعداد عيوبهن ولم يستقص ذكر مخازيهن ويكاد يعجز  
عن العثور على كلمات أكثر مناسبة وأقصى دلالة على ما يتصفن به من بشاعة وشناعة أن حالهن أسوأ من  
كل ما يمكن أن يتصوره الإنسان في امرأة، ولإثبات صحة ما يقوله يعود إلى مرجعه الأصل - أي  
الشعر الجاهلي وعند امرئ القيس - خاصة - ليستلهم منه فيستعير منه صورته الحافية والصريحة في وصف

(١) الأداة التي يطحن بها.  
(٢) الحركة مع شدة الصوت.  
(٣) الضبع.  
(٤) المسترخية الحشى، عظيمة البطن.  
(٥) العجوز المتهدمة.  
(٦) كثير اللحم.  
(٧) لا فواد له.  
(٨) الحمقاء.  
(٩) أي المهنة.  
(١٠) الطوافة في بيت جارنها.  
(١١) البقل: أي العشب الأخضر. وهذا عند الصحراويين لمن أضر به الجوع.  
(١٢) التكبب.

الحيوانات والأشياء، لكن بتوظيفها - بذكاء - في خدمة غرضه من الهجاء والسخرية، فيجعل ما هو مجرد مظهر طبيعي في أصحابها دلالة على القبح والعيب في عدوه الذي أصبح لا يراه إلا في صورة حيوان، بل إن ما يجمل في الحيوان يقبح في الممسوخ، لأنه في الأول خلقة وجبلة وفي الأخير سوء عادة وفساد خلق، يقول:

ولها إليه كما إليه نحوها  
في أيطلى ظبي وساقا نعامة  
وكان بيت ثنيتها أو على  
وكان في الصدغين من فكها  
إرخاء(١)سرحان(٢) وشدة تتقل(٣)  
وسراة(٤) عير(٥)قائم متوقل(٦)  
أعطافها ريح لجيفة فرعل(٧)  
نتناً من القرت(٨) المدوف(٩)بافل<sup>١٣٠</sup>

وفي ذلك أبلغ رسالة وجهها البكاي إلى خصمه، ليعلمه بأنه لا يستحق منافسته ولا يقدر على منازلته لوضاعة جنسه المتعلقة بسواد لونه، بل عليه أن يقتنع بحظه الناحس ويفرح بنساء قومه الحقيرات مثله. لا شك أن الجمال الجسمي والصفاء الخلقي مواهب فطرية لا دخل فيها للبشر. فهي فطرية وموزعة بين الأجناس جميعاً، يخضع لقاعدة التضاد وقانون التزاوج الذي نلاحظه في الخلق جميعاً. حيث لا يجمل كل الجنس ولا يفسد كله، بل أينما وجد جمال يوجد إلى جانبه القبح والعكس صحيح. هذه النظرة المستهجنة لنساء المهجو - وإن وردت في مجال التهاجي الشعري المقبول لدى أصحاب الفن للفن - إلا أن ذلك لا يخرجها من كونها نابعة من عاطفة خاطئة قائمة على التفاضل بالعرق نابعاً من الحماس المفرط سببه تضخم في الأنا وتورم في الذات.

#### • تكذيب العدو:

إن من عادة هذا المهجو أن يكذب متعمداً ويفخر باطلاً، فهو يطلق الكلام جزافاً ويدعى ما لم يقع ويفتري من حيث يدري الحقيقة، فما هجوه لقومه وذمهم بصفات هم بعيدون عنها بعد المشرق من المغرب وبريئون منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب، إلا من قبيل قلب الحقائق وتزييف الوقائع، غيظاً كامناً في نفسه وسمماً ناقعاً، يملأ كبده ويخنق روحه، فقال:

أقول إن كناية(١٠) هنتاتة(١١) وترتها(١٢) بتجبر(١٣) وتحيل

(١) شدة العدو.

(٢) الذئب.

(٣) الثعلب.

(٤) أعلاه ووسطه.

(٥) الحمار.

(٦) الإسراع في الصعود.

(٧) ولد الضبع.

(٨) الزيت، يؤخذ من شجر في أفريقيا الاستوائية، رائحته نتنة.

(٩) خلط الفلفل مع أي شيء يهيجه.

(١٠) كناية جمع مفردة كئنه.

(١١) أصل الكلمة بربري، وبها ينسب الشاعر أبي حفص الهنتاتي. ومعناها: أخذ أموال الناس غصباً، على مرأى منهم ومسمع.

(١٢) وصفتها وعادلتها. وتر: قتل حميمه، أدركه بمكروه، أفزعه.

(١٣) التكير.



ووصفتها بحرابة(١) وغرامة  
 في الأرض جالوا أفسدوا وبغوا(٣) بها  
 أين التكبر والتجبر والجفا(٤)  
 هذا التكبر والتجبر والجفا  
 أترى التكبر والتجبر غير ذا  
 كل ابن آدم للنهي(٦) متأهل(٧)  
 وظلامه وتلصص وتطفل(٢)  
 قلتم وأيضاً قلت دون تعقل  
 بل أين جهل الجاهل المترفل(٥)  
 يا أهل جهل الجاهل المتغفل  
 أو لا تميز ما يقال فذا قل  
 إلا الدولحاجي لم يتأهل

إن المهجو كذاب ومفاخر على غير واقع، لا يميز بين الصحيح والباطل، يتعامى عن الحق متعمداً أو لأن عينه كليلية، ومن يكن ذا فم مر مريض لا يحس بعذوبة الماء، لذا فهو لا يتورع في ذم غيره بالفقر والبؤس والذل والندالة، وهي نقائص لا وجود لها - حقيقة - إلا في نفس قائلها وفي قومه. والحال أن ذلك الاتهام إنما هو مدح في حق الشاعر وذم للمهجو ومن ينتمي إليهم، ولم يرم بها كنته إلا سفاهة وخساسة، فقال:

أذكرته مدحاً لهم أم سقته  
 عجباً لفخر سالم من سالم  
 لو كان يعقل سالم(١٠) ما دار في  
 ما سالم فيما يقول بسالم  
 وكذبت ويحك إذ جعلت كنانة  
 ذماً لكم هذا كلام مهر بل(٨)  
 من كل فخر سالك في البطل(٩)  
 حنك له ذكر الجلاء(١١) الأعدل  
 من جهله ومتى كذا لم يجهل  
 بلغ الجلاء بهم إلى تكيكل(١٢)

(١) السلب في الحرب.  
 (٢) غشيان اللائم والأعراس والمجالس من غير دعوة.  
 (٣) سعوا بالفساد في الأرض، خارجين عن القانون.  
 (٤) سوء الخلق وغلظته.  
 (٥) جر الذيل من العجب والكبر.  
 (٦) العقل.  
 (٧) مستحق وأهل له.  
 (٨) كلمة حسانية. ومعناها المختلط الكلام، لأجل فزع.  
 (٩) الترهات.  
 (١٠) المهجو.  
 (١١) الإخراج والإبعاد عن المكان.  
 (١٢) موقع في الصحراء.

• مظاهر التجديد في هجائه:

طفحت هذه الملامح في هجاء البكاي عندما تملكه البغض على عدوه حتى اختلطت عليه الموازين، فدفعته الشحنات المشتعلة والطاقت الحارقة الكامنة في دواخله للبحث عن أشد الكلمات جرحاً والعبارات سخرية، فكأنه لم يجدها في الموصفات الجاهلية التي رأى أنها لا تفي بغرضه في زج هذا العدو مع من يعتز به من قومه، في تراب الخسة والندالة، وعندها التفت يمناً ويسرة فلم يلق من يقارنه بهم بعد أن انتهى من الحيوانات والبهائم إلا اليهود والنصارى والمجوس الذين يستعيز المسلمون بالله من التشبه بهم في خصلة من الخصائل الدنيئة والخسيسة التي يتميز بها غير المؤمن في الميزان الإلهي ومن أهمها عنده الغدر، فقال:

قل للدولحاجي صاحب خصلة	بالغدر أحرز خصلها لم يخلصل(١)
فالغدر أقبح ما تعامله السورى	وأخس(٢) ووصف في الرجال ومعمل
يفنى الزمان وغدركم بأمانكم	باق لكم تدنيسه لم يغسل
تأبى النصارى والمجوس كغدركم	بالعهد والميثاق لو لم يقتل
فقبلتم اسم الغدر عاراً لازماً	لو كان فيكم كافر لم يقبل
ما في اليهود على كثافة غدرهم	غدر الدولحاجي فيه العدملي(٣)
آمن يهودياً ولا تأمن دولاً	حاجي أسوأ غادر إذ يأتلي(٤)
إن الدولحاجي يغدر حلقه(٥)	وأمانه فاحذره من متحيل

• البكاء على اللغة العربية: ١٣٣

إن اللغة العربية التي يلوك فيها هذا العجمي بلسانه لا تصلح لدولحاجي وأمثاله، لأنها لغة عظيمة عظمة أهلها العرب، فهي خاصة لكنته وإخوانهم من العرب نبيلة مثلهم وطاهرة لا يجوز مسها لغير شريف، ومن ثم فهو ينصح عدوه ألا يتلاعب بها بمحاولة وضع شعر لا يتقنه، كي لا يدنس شرفها أو يفسد جمالها بضعفه ولحنه. ولذلك فلا يظن هو وقومه - وإن اختصت قصيدته بهجائهم وبذمهم - أنها موجهة إليهم، بل هي خالصة للفضلاء والأصفياء كي يتندروا بها في أنديتهم ويتلها بها في أسمارهم، يقول:

يا ضيعة الشعر الذي يغرى به	هذا الدولحاجي من متبطل(٦)
يا ضيعة القول الذي يغرى به	هذا الدولحاجي من متعطل
متبطل في نطقه متعطل	من صدقه في حمقه متخطل(٧)
ما إن بعثت بها إليكم لستم	أكفاء وإليكم لم ترسل

(١) لم يفضل.  
(٢) الدنيئ.  
(٣) الشيء القديم المتأصل.  
(٤) يحلف.  
(٥) السلاح عامة، أو الدرع خاصة.  
(٦) قول الباطل.  
(٧) الفاحش في القول.

لكن بعثت بها إلى ساداتكم  
عربية تصبو إلى عريضة  
واسكت سكاتك عن كنانة إنها  
إودعلي (١) من زول (٢) أو متزول (٣)  
فالعرب تجزل بالكلام الأجدل  
أدرى بمنطق أهلها العرب الجلي

ولذا، فإن الشاعر يتحسر على الشعر كفن نبيل كيف يتدخل فيه هذا العدو الذي لا يقدره ولا يحترم  
قداسته، فيتخذها وسيلة لنشر الكذب وإفشاء البهتان بما يفسد روعة القريض ويذهب بجمال العروض. فياليت له  
يؤت قدرة على النظم أو يسلب فهمه للغة.

## • الإقذاع الهجاء:

لولا النزاهة والتقى لهجوتكم  
هجو الفرزدق (٤) والكميت (٥) وأخطل (٦)

بهذه العبارة أبدى البكاي مدى استعداده للإفحاش في الهجاء، وفي الوقت نفسه إلى أي فئة من الشعراء  
ينتمي في رغبته الهجاء. ومن يتأمل في درجة توغله في الطعن والجرح، يدرك أن كلمتي النزاهة والتقى  
اللتين تعذر بهما لم تجديا نفعاً في الحيلولة دون انجرافه في مهاوي الإقذاع، حيث لم يترك مستقبلاً ولا هجيناً  
إلا وألبسها خصومه ممن كان يمكن بشيء من التعفف والتجمل أن يبني معهم مجتمعاً خيراً يسوده الوئام  
والتفاهم، ما يؤمن لكل حياة هانئة وهادئة، ويكون خيراً من هذا التهتك والتقاتل الذي انحدر بهم إلى شبه غابة  
لا يراعي فيها القوي حرمة للضعيف ما عابهم جميعاً إلى حد ما، وأبقى لهم ذخراً مشيناً في سجلاتهم  
المشيخية والدعوية. ودليل ذلك قوله في هتك أعراض نساء العدو: <sup>١٧٣</sup>

وغدون لاحق رزقكم بسمانة (٧) كالباه بنت الباه بعد تزفل

لا بأس أن تسأل بهن وإنما يشتنن للأزواج إن لم تسأل

(١) أدوعلي قبيلة ترجع في نسبها إلى علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه.

(٢) الظريف.

(٣) المستظرف.

(٤) الفرزدق من أكبر شعراء زمانه، ورئيس قومه، ولم يكن في جيله أطرف منه نادرة، ولا أعرب مزحاً، ولا أسرع جواباً. اجتاز بنسوة، وهو على بغلة،  
فهمزها، فحقت، فتضاحكن، وكان عريضا، فقال: ما يضحكن؟ ما حملتني أنثى قط إلا وصنعت مثل هذا، فقالت إحداهن: فما صنعت التي حملتك تسعة أشهر؟  
فانصرف خجلا. (الأغاني ج ٣١ ص ٣٥٦) •

(٥) الكميت بن زيد بن خنيس، كوفي، مقدم عالم بلغات العرب، خبير بأيامها. من شعراء مضر، وألسنتها، والمتعصبين على القحطانية المقارعين، العالمين  
بالمثالب. كان خطيب بني أسد، وفقهه الشيعة، وحافظ القرآن، وكان كاتباً حسن الخط، ثبت الجنان، جدلياً. وهو أول من ناظر في التشيع، مجاهراً بذلك. وأول  
ما قال الكميت الشعر، كان أول ما قال الهاشميات، وهي من جيد شعره. وهو من أصحاب القوائد الملحقات (جمهرة أشعار العرب ج ٢ ص ٩٧١) وقيل ما  
جمع أحد من علم العرب ومناقبيها ومعرفة أنسابها ما جمع الكميت (خزانة الأدب ج ١ ص ١٤٤)

(٦) الأخطل هو الشاعر التغلبي المشهور، من الأرقام، واسمه غياث، وسمي بالأخطل من الخطل، لبذاءه وسلطنة لسانه. كان نصرانياً، من أهل الجزيرة،  
مقدماً عند ملوك بني أمية، ومدحه لهم، وانقطاعه إليهم. قال جرير: كان الأخطل أمدح الناس لكريم، وأوصفهم (الأغاني ج ٨ ص ٣١٠ ص ٢٨٦)

(٧) أكثر لحمهن وشحمهن.

عجباً لأنثى معجل (١) ولزوجها من جامر (٢) عن ذكرها ومطمسل (٣)  
 وكرامة المرء الدولحاجي في أست له من خريه متبلبل  
 هذا الكرامة في الندى ضراطه وخراء ذاك كرامة في المحفل  
 يؤذي الورى تشريحهم (٤) أو ضرطهم مثل الضباع إذا رمين ببهدل (٥)  
 شأن الدولحاجي شر كرامة وقبيله (٦) في الناس شر قبيل (٧)

فإذا أخذنا بالاعتبار مذهب ابن رشيق في الهجاء وما ينبغي أن يتحلى به الرجل العظيم فيه من ضبط النفس والتعقل فإنه لا يمكن الحكم على الشاعر عند قراءة هذه الأبيات وأمثالها إلا بالتورط في القول الفاحش الذي اختاره طواعية، وهو ما لا يليق بمثله مهما بلغ به الغضب أو وصل إليه حقه على أي كائن كان. قال ابن رشيق: "لا ينبغي للشاعر أن يكون شرساً ولا حرجاً عريضاً لما يدل به من طول لسانه وتوقف الناس عن مخاشنته (٨)".

وقال أيضاً: "من حكم الشاعر أن يكون حلو الشمائل حسن الأخلاق طلق الوجه بعيد الغور مأمون الجانب سهل الناحية وطى الأكناف؛ فإن ذلك مما يحببه إلى الناس ويزينه في عيونهم ويقربه من قلوبهم (٩)".  
 وقال أيضاً: "ولا يجوز للشاعر كما لا يجوز لغيره أن يكون معجباً بنفسه مثنياً على شعره وإن كان جيداً في ذاته حسناً عند سماعه. فكيف إن كان دون ما يظن؟ مستدلاً على ذلك بقوله تعالى: "فلا تزكوا أنفسكم (١٠)"  
 وقال أيضاً: "ومن الشعراء من يتزيا بالكبر ويظهر الأنفة في الجواب عن هجاء من هو مثله أو فوقه؛ خوفاً من الزراية على نفسه (١١)".

وقال أيضاً: "ومنهم من لا يهجو كفواً ولا غيره لما في الهجو من سوء الأثر وقبح السمعة (١٢)".  
 لقد ضرب البكاي بكل هذه القواعد الحسنة عرض الحائط مدفوعاً بفرط عاطفته وشدة انفعاله إلى الإفحاش على من يتناول عليه ممن يرى أنه لا يساويه ولو مقدار ظفر. إذ هو - في عظمته ونفوذه - لم يخضع لمنافس قط سواء من الأمراء والعلماء الذين كانوا يهددون مكانته الاجتماعية، فقد هجاهم بما يكفي

(١) التي اشتهدت السفاد.  
 (٢) الفحل المنقطع عن الضراب.  
 (٣) نفس المعنى.  
 (٤) التطلع على باطن الجوارح.  
 (٥) جرو الضبع.  
 (٦) قومه.  
 (٧) تصغير قبيلة.  
 (٨) ابن رشيق، العمدة، ص ١١٥.  
 (٩) المرجع السابق، ص ٣١٦.  
 (١٠) سورة النجم: ٣٢.  
 (١١) العمدة، ص ٣٢٢.  
 (١٢) المرجع السابق، ص ١٧٦.

لتجريد كل منهم من كل نفحة إنسانية ويفضح هوان قدره وانحطاط نواته للعيان كحقيقة صارمة وواقع جلي لا محيد عنه.

على أننا مع ذلك لا نستطيع أن ننكر أن سلوك البكاي هذا إنما جاء كرد فعل على تصرف العدو معه في أبياته التي رأى فيها من الكذب والبهتان ما لا يمكن لمثله أن يسكت عنه ولا ينفذ فيه التحلم والتحفظ، ولذلك نسي أو تناسى عن القواعد الإسلامية ونزع ثياب العفة ليتفجر قسوة وعنفاً لا رحمة فيهما، فهجا، وسخر وطعن، وجرح في غير هواده ولا تحلم. بل ولم تهدأ ثورته إلا عندما أحس أنه شفى غليله من غريمه وبلغ ثأره بمحو هذا العدو من سجل الإنسانية وزجه في سلك البهيمية، حتى إنه لم يعد هناك قدرة لأية مدحة ولو كملت كيلاً أن تزيل تلك الصور المخزية عنه أو ترفع به إلى مستوى الناس المحترمين.

غير أن الثابت الذي لا يقبل الشك هو أنه إذا صح سواد المهجو كظهر المرجل فإن العبودية التي حرص على طول القصيدة أن يلصقها به وبأصله لمجرد لونه ليس لها أرضية سليمة في الواقع، إذ لا وجود لها إلا في ذهنية الشاعر المتأثرة بالأفاصيص الموضوعية التي ربطت الزنجية بلعنة الجد الأكبر الذي استحقها بالعقوق من أجل سخريته من نبي الله السكران، يقول:

عبد ابن عبد صاغر عن صاغر	جاف أفج العجز أحذب أحدل
هذا ومنكم من يـلـاط إلى أب	عبد من السودان وغد عززل
أرهن يدي منهم لعارف أصله	أو فصله من حام أو من نهشل
ما أنتم إلا عبيد تفتفي	أزناك أو أم لهم في أحبل

إن إيمان الشاعر القطعي - على منزلته في العلم والعقل - بمثل هذه الفرية التاريخية على أحد أكبر أولي العزم وغلبتها على يقينه العقيدي الذي أبعدته في هجائه عن الموضوعية ليس منبعه سوى العجب بالذات والاعتداد بالنسب.<sup>١٧٥</sup>

ويستدل من ذلك أن البكاي على الرغم من مركزه العلمي الكبير ومنصبه الروحي العظيم وعلى الرغم من اطلاعه على موقف خاتم الأنبياء من مبدأ السواسية بين البشر وأن الإسلام لا يقر إلا المعيار الرباني القائم على التقوى التي وضعها كركيزة أساسية للتعامل بين الورى فإنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الانزلاق في مهاوي التفاضل بالجنس مع أي من خصومه الأربعة البارزين<sup>(١)</sup>. فهو من أجل الشعور بالتفوق العرقي عندما يهاجى إنساناً أياً كان مركزه الاجتماعي فإن صلب الهجاء أو المفاخرة عنده يقوم - دائماً - على التذكير إما بسمو عرقه الذي تشرف بالانسلال منه أو بنذالة عرق الخصم الذي ذل بالانحدار منه.

(١) أحمد سالم بن السالك الطارقي، والأمير الشيخ أحمد بن أحمد الفلاني، والحاج عمر الفتوي، ويركوي تالف.

والمعلوم أن هذا السلوك مما يعاب على العالم المسلم ويستهجن من كل شيخ في مستوى البكاي. إذ هو قدوة وتقوم رسالته على تعليم الصبر والتواضع وضرب المثل في احترام الآخرين والابتعاد عن النزعة التفاضلية بالجنس. لأنها فتنة لا تولد إلا الشحناء بين الأجناس التي بين الشرع أنهم يستون في المواصفات البشرية دون أن يكون لأحدهم حق في التسامي بجنسه على الآخر أو التعالي عليه بأي اعتبار لا يخضع للميزان الإلهي الوحيد القائم على التقوى التي لا يقاس إلا عليها لما فيها من عدالة لا تزيغ وقسط لا يميل.

وعندما نريد أن نلتمس العذر للشاعر في ذلك الميل فإننا نقول إن فرط العاطفة وحب الانتقام هو جعله يحرص بشدة على ترميغ كرامة عدوه في رمال الذل والحقار، ليحرمه إلى الأبد من التطاول على عباد الله الصالحين، فأعطى لنفسه الحق في دخول المحظور عليه إثباتاً لذاته وانتصاراً لقومه.

أما من جانبنا فإننا مؤمنون بأن كلا الشعارين البكاي والمهجو، شيخ فاضل في حاله وله مقام كبير وشأن عظيم، كلاهما يتمتع بالكرامة والمعزة العلمية التي يجب أن تصان لكليهما وتحترم.

وآخر تعليقنا على هذه الظاهرة أن ما كان يجب أن يتحلى به الشاعر - وهو أحد أعلام عصره النبلاء - هو التواضع وخفض الجناح وألا يكون فظاً غليظ القلب، حيث كان يجمل به أن يضع نصب عينه روح المرجعية الدينية التي يتدثرها والتي يجب على كل عالم - ولو شاعراً - أن يتمثلها دوماً وفي جميع المناسبات، فلا يشتط به قلم ولا يند منه لفظ. وإن لم يكن بد من الفخر فبقدر الحديث عن النعمة ليظل قدوة أو مثلاً يقتدي به في العلم والتتسك. لكن يبدو أن الشاعر انساق وراء عواطفه العارمة التي خالفت محلها وأخطأت موقعها، فجرته إلى الغلو في الاستعلاء والتطرف في التفاضل، ما جعله يرى غيره منحنط الجنس لأنفه الأسباب. لكنه الانفعال الطاغي الذي لا يعرف للإباء حداً وللكبرياء مبلغاً ولا للشمم موقفاً.

## ثالثاً: الفخر

لم يخرج الفخر عند البكاي عما اعتاده الصحراويون من الاعتزاز بنبيل الأرومة وشرف الحسب والنسب. وما يترتب على ذلك من المفاخرة والتعالي بجميل الصفات وكريم السمائل التي يحرصون على التحلي بها كي تطيب سيرتهم وتخلد الأيام ذكراهم.

وقد يعذر الشاعر في ذلك الميل إذا علمنا أن حب المفاخرة يكاد أن يكون نزعة متأصلة في صميم في أغلب النفوس، فهي شديدة اللصوق بطبيعتها العاطفية. وينشأ ذلك من الحرص الشديد على الامتياز بالفضائل الخلقية الحميدة والقيم النفسية الطيبة التي وضعت كمثل عليا من قبل كل أسرة أو كل مجتمع يحرص على تربية كل فرد فيه على احترامها ويعاقب من يند عنها بالقطيعة وأحياناً بالنبذ.

ومن تلك السمائل النفسية والخصائل الخلقية التي حرص البكاي على إضافتها على نفسه وقومه، لأن الاثنين عنده نفس واحدة وجسد واحد عز هذا لذلك وعز ذلك لهذا شرف الأصل ونبيل الطينة والشجاعة والإقدام والفروسية والكرم والمروءة والعفة وما إليها من الفضائل الحميدة التي اعتاد الإنسان الجاهلي والصحراوي أن يعطر ذاته بها ويبسطها على قومه. وفي المقابل كان يحرص على أن يحرم عدوه منها بتلب تلك الصفات عنه وإلحاق جميع المساوئ والقبايح به.

فمن إيمانه القوي بأنه هو وقومه هم الوارثون الشرعيون لتلك الصفات من لدن أبي البشر واعتقاده الجازم بأنهم جبلوا عليها من أول خلقهم، وذلك - كما أشار إليه في قوله بشهادة سيد البشر: "شهد النبي لها بهذا معلناً \* \* \* خبراً صحيحاً لا يرام لمبطل " عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - فإن شرف الأصل ونبيل العود لم يزل يختلج في صدره ويعتمل في نفسه حتى عظم وتضخم بما تضلع به من زعامة القبلية ومشيخة الطريقة القادرية، وكل ما جر ذلك من كرامة وعزة وثراء وغنى، تعززها كثرة العبيد والخدم وخضوع التلاميذ وتذلل المريدين . فكانت تتنازع رغبة دائمة إلى مفاخرة منافسيه وإشهار ذلك الفضل عليهم. فشمع عن ساعد الكفاح في ماهرة الأمراء ومنازعة السلاطين بأقوى أدواته وأمضى وسائله؛ أي سلاحه الذي يحارب به في ساحات الوغى وقلمه الذي يلذع به من لا يحبه والذي يُعد عنده أوقع أثراً وأسرع نجاحاً، وذلك لاتساع مجالات الكلام ودوام آثار الكتابة، فلذا اعتمد عليه في المفاخرة والمهاجاة. والحال أنه نجح في هذا الاتجاه الأدبي نجاحاً باهراً، إذ استطاع أن ينشر سمائل كنته وفضائلهم التي تميزوا بها، فخلدها بشاعريته الفذة وموهبته الفنية العجيبة.

## من ملامح الفخر الجاهلي في شعر البكاي:

### • الفخر القبلي:

كان البكاي على علم بوجود عرب غير قبيلته بالجوار في صحراء تمبكتو، لكنهم متخالفون ولا ينتمون إلى الأرومة نفسها، لذلك كان أبرز خاصية في مفاخره هي انتمائه وقومه إلى قبيلة قريش أعلى بيت في العرب وأكرم محتد في النسب، فمنها اكتسبوا طيبة عروقهم ونقاء سلالتهم التي انحدرت إليه من آبائهم وأجدادهم من لدن الشجرة الزكية أبي البرية. فتوارثوا بذلك الشرف والنبل وتقاسموا بها العز والكرم، ما جعلهم في أحسن موقع من الفضل وأنسب موضع للسيادة، وذلك في قوله:

تلكم كنانة من قريش من مضر	من صخرة الله التي لم تتكل
شهد النبي لها بهذا معلناً	خبراً صحيحاً لا يرام لمبطل
فرع الكرام بنو الكرام ذوهم	من كل أروع زول (١) قوم مزيل (٢)
تنمي قريش في السيادة أمه	وأباه وابنهما معم مخول (٣)
لا مثلكم مجهولة أبائكم	معلومة أبائهم لم تجهل
بأبي أب لابن له ابن سيد	متقيل لأبي أب متقيل (٤)
عن ماجد عن ماجد عن ماجد	عن ماجد طلق اليمين شمردل (٥)
عن كابر عن كابر عن كابر	حتى إلى سام بن نوح موصل
حتى إلى أصل البرية آدم	متسلسلاً نسباً له بمسلسل

إن من علامات هذا الشرف وأمارات تلك العظمة - في رأي الشاعر - التي تميز كنته عن غيرهم وتدل على علو نسبهم وسمو حسبهم أنهم مبدلون أينما حلوا على وجه البسيطة معززون في أي قوم ينزلون يقابلون في كل مكان بالترحيب يفرش لهم الورود ويتبرك بهم في كل أوان، فكأنما لا يزيد عزهم ولا يعلو شرفهم إلا عندما يعترب أحدهم عن أهله، يقول:

يجد الفتى الكنتى أهلاً حيثما  
يبغيهم بتيامن وتشمـؤل

(١) الجواد.  
(٢) الرجل الكيس اللطيف.  
(٣) الذي هو غرة في قومه.  
(٤) السيادة والقبل الرئيس في حمير الذي يخلف أباه في الرئاسة.  
(٥) القوي.



يجد العباد له تلامـيذا أو إخواناً وأصحاباً بكل تنقل

إلا بني الكنتي يربو عزهم في أهلهم ويزيد عند تحول

ما ذاك إلا أن عزة غيرهم في داره و بماله المتحوّل

وبأن عزتهم لهم نفسيـة طبيعية من صنع رب مفضل

يلقى بحيث ثوى وحول رحله بمرحب بمزاره ومؤهل

بل إن فحولة الشاعر وعشقه متعلقان بهذا العامل العرقي، لذلك ذهب في تعليل استحقاق نفيسة محبته

إلى كونها عربية قرشية مثله وأن نبيلها والقرب منها حرام إلا على من شرف مثلها أو نبيل، ولذلك لا يجوز لأمثال سالم أن يطمعوا فيها أو يرفعوا عيناً إليها.

غيداء كنتاوية أموية قرشية ومن الطراز الأول<sup>١٧٧</sup>

أنى طمعتم نحوها بعيونكم ما أبعد القمرين (١) من متطول

أنى لكم لقصوركم بالشم من رضوى (٢) وأرحام (٣) ووقدسى يذبل (٤)

أنى لكم بيلملم (٥) ومتالع (٦) وموسل (٧) وعماية (٨) ومشلل

ومن هنا فله الحق في تمثيل شرف القبيلة وفضلها في مواطن الفخر والحماس. وتكبر نفسه بهذا الشعور

والإحساس بالفضل حتى تتضخم إباءً وكبراً وتمتلى غيراً وأنفةً، ومن ثم تتنازعها مشاعر مختلفة كما تتجادبها

عواطف متداخلة تقوم على التفاخر بالأصل والتسامي بالقبيلة والتنبل بهما، لكن في تعبير صادق وعاطفة

زائدة.

### الاعتزاز بالجود والكرم:

خص البكاي أحد أفراد قبيلته بالذكر واتخذة مثلاً للجود والكرم الكنتي وفضيلتها وحسن ضيافتها،

مستهدفاً من ذلك إلى تكذيب المهجو في ما وصف به قبيلته من الفقر والبخل. وكان ذلك - في نظره - أدعى

للشهادة على الخصم الذي وقع مع طائفة من نساء قومه وأطفالهم في الأس، وأودعوا عند ذلك السيد الكريم،

فأواهم في منزله وأكرمهم وأحسن ضيافتهم بما أحاطهم من نعمه ووسع عليهم من الرزق، لذلك نوه بفضائل

(١) الشمس والقمر.

(٢) جبل بالمدينة.

(٣) جبل بنجد.

(٤) جبل في أرض نجد.

(٥) جبل على مرحلتين من مكة.

(٦) جبل بالبادية ببلاد طيء

(٧) مواضع معروفة باليمامة.

(٨) جبل ببلاد هذيل.

ذلك الرجل وبشمائله العريفة ليستدل بذلك على أن كنته في مجملهم يتصفون بالجد والكرم وجميل الخصائل. مشيراً في الوقت نفسه إلى تجرد الخصم وقومه من تلك الخصائص الخلقية الحميدة التي يعتز بها كل بدوي ويتشرف بها كل حر. ولا يخفى ما في ذلك من سخرية لاذعة وتهكم مقذع، يقول:

الله سيد احمد يعول عيالكم      ويغولكم(١) إن شاء غير مضلل  
من شاء أجلاه(٢) ومن شاء اقتنى(٣)  
لولا ابن باب احمد وحسن فعاله      أبقى على فل(٤) لكم متفلل  
لم يبق لا ذكر ولا أنثى لكم      فأعادكم من زامل ومزمل  
فكسا عواريكم(٥) وعاريكم(٦) كسا      والزاد زاد لأرمل ولمرمل(٧)

هذا السيد جواد كريم صاحب أموال كثيرة وثراء عظيم وله خدم وعمال وحشم يؤدون مختلف الوظائف المعروفة عند أثرياء البادية في الصحراء آنذاك، يقول:

أصحاب سيد احمد وخدام له      ورعاء أبال عواذب أبل<sup>١٣٨</sup>

لكن علينا أن نعلم أن الصفات الحميدة التي وصف بها الممدوح من أجل تلك الأعمال الفاضلة التي صدرت منه ليست بحسب رأي الشاعر خاصة به ولا هو منفرد بها، وإنما هي طبيعية في رجال كنته جميعاً الذين تميزوا كلهم بكرم الأصل ونبل الخلق، لذلك فإن العدو وأسرى قومه حين نزلوا على هذا السيد لم يلقوا إلا عزاً وإفضالاً فالكرم من شيمة كنته الأصيلة وجبلتهم العريفة ما جعله على الرغم مما بينهم من القطيعة والبغضاء يستفيد من إحسان كنته وخيرهم.

#### • حسن المعاشرة:

ومن أفضال كنته وحسن خلقهم أن هذا السيد حرص على حسن معاشرة أعدائه الموجودين لديه في الحبس في حالة ضعف وقهر فعاملهم معاملة طيبة. وهنا يضمن فخره بالسخرية المقذعة من العدو الذي يذهب إلى أنه خير شاهد على ذلك الفضل والكرم، وأنه من ذله وحقاره لا يفكر في مغادرة السيد الكنتي الكريم ولا يرجو الابتعاد عن كنفه لما يجد فيه من نعمة وراحة. بل إن العدو الذي تحرر من الأسر ولحق بأهله لا يقوى على نسيانه بعد أن ذاق ضيافته في البادية الصحراوية، فهو الآن يتحسر على خروجه من عنده ويتمنى لو

(١) أي نفاه.  
(٢) يهلككم.  
(٣) أي استبقاه.  
(٤) منهزمين.  
(٥) ستر عيوبكم.  
(٦) كسا عريانكم.  
(٧) لمن نقد زادهم وافتقروا.

يعود إلى منزله لأن إحسانه بدون تمييز بين حميم وخصوم يجعله من أحب الناس حتى على عدوه الذي يخدمه بإخلاص وله استعداد أن يفديه بروحه في سبيل البقاء دوماً في ظلالة الوارفة يقطف من ثماره اليانعة، وفي ذلك يقول:

قد كل هن وكنت أنت لهن في	كف لسيد احمد عليكم مقفل
في الذل منكم والمهانة فيكم	والعز والاحسان منه الأكمل
أبناء عمك في الحروب ونارها	وعليك ظل منه لم يتحلل
فعليه تبكي من تذكر ظلــــه	ونعيمه مما استطاب وما حلي
لم تبك من قتلى هناك وفتية	بهم بهاء مجالسي لتجملني
لكن لسيد أحمد حننت فإنــــه	غيظ العدو وغيث كل مؤمل
لو يشتري بالروح منك جواره	لشريته بالروح لم يتعلل
هذا إلى ما فيك من حسد له	غيظاً عليه لعزة المتجلل

#### • الشجاعة والبطولة:

إن من ممن الله على كنته -حسب الشاعر - الشجاعة والرجولة والقوة والبطولة فهو يتحدث بها نعمةً دون حرج، لأن كنته أهل الكفاح والضرب والجلد والثبات يغلبون ولا يغلبون لا يقف أمامهم عدو ولا يعجزهم منافس، يقول:

فدعوا الكفاح إلى كناية إنها	أهل الكفاح وأهل كل تكمل
لو كان يعقل لم يعب أهل الوغى	في حربهم بتبذل وتعطل
منهم أخو البأس الشديد إذا مضى	يغشى الوغى يخشاه كل مبسل
وإذا يشد على الكتيبة خلــــته	صقراً يصرصر خلف سرب مجفل
والذائدون عن الحمى بسيوفهم	والخائضون لكل هول مهول

إن قدر كنته في الشرف والعظمة أكبر من أن ينال منهم عدو قليل الشأن ضعيفه. لكنه على الرغم مما بينهم من عداوة وبغضاء وحرصهم على محاربة الأعداء لم يتجردوا عن جبلتهم المعروفة في الكرم والفضيلة

وبذل المعونة والوسيلة وإن أحد فضلائهم الكرماء، قد أثبت ذلك بفعاله حين رحم ضعف العدو فجبر كسرهم وخلصهم من القتل. فليشكر لذلك المحسن الذي لولاه لفنوا في الحرب ولم يبق لهم ذكر، يقول:

يا سال بل يا آل سال تذكروا من ليس ينسى من عيال عيل  
ويذهب في سخريته من الخصم إلى أن الفتى الكنتي شجاع قوي لا يلذ له الحرب إلا في خضم الحب  
وغمرة العشق. وصاله دائم بحبيبه لا ينفك، لأن رغبته في الحرب والحب سواء، فكلاهما مهم بالقدر نفسه.  
فالحب نصفه الأول والحرب تكمله. فالحب معينه الذي يجلب منه قوته ويستمد طاقاته للقتال، بل لا يجد  
متعته في الحياة إلا بهما معاً، لا الحب يطغى على الحرب ولا العكس، ولذلك فإنه مهما حمي وطيس الحرب  
يتصل بحبيبه دون انقطاع ليتزود بالوقود الذي يحيى به، يقول:

فالعيش في أرب النفوس وعندها أربي ومن أربي الوغى لا موجلي  
بمعاشر عرف الأعداي بأسهم وهم الغياث من الزمان الأعضل  
جمعوا الشجاعة والسماحة قلتم وعلى الكناكيين حل المشكل

#### • غياب النساء في الفخر:

أما نساء القبيلة فلم يخصص البكاي لهن في فخره سوى تلك الأبيات الثلاثة التي ذكر فيها نبل نفيسة  
وشرفها، وذلك لأنهن كرجالهن ما يتصف به هذا تتصف به تلك وما يميز تلك يميز ذاك، فهن يشتركن في  
عين الصفات التي عدها للقبيلة من النبل والكرم وغيرها، على قول المثل: من أشبه أباه فما ظلم.  
وربما كان ذلك موطن ضعف في فخره ودليلاً على عدم نجاحه في ذلك الغرض، فما دام قد ركز  
على النساء في الغزل والهجاء، فكان أحرى به في المقابل أن يفخر بنساء قومه ولو لمجرد التناسق واستكمال  
الديباجة.

ليمهد البكاي لحماسته ويفخر بانتصاره بدأ بوصف العدو بالجبن والخوف ليسلب منه تلك السمائل التي سيسحبها على نفسه وقومه، فوصف العدو بأنه يضيق ذرعاً بالقتال وأنه يجزع من ملاقاته الفرسان لأنه ضعيف مجبول على الرعب مطبوع على الجبن تهوله الحرب ولا يقوى على خوض القتال، لذلك فإن أجراس الحرب تذهله وتقطع عنه رغبة الوصال بالحبيب، لذا فإن ما يدعيه من جنوح للسلم ورغبة في حسن الجوار ودعوة إلى الحفاظ على حالة صلح دائم بين الجيران ليس محبة في الوفاق والهدوء بقدر ما هو خوف من الحرب وغوائلها، لأنه جبان رعديد يموت من الخور ولا يحب نشوب الحرب، يقول:

لا كالدولحاجي ينسى إلفه	وهواه دهر الحرب حتى ينجلي
ويضيق ذرعاً بالحروب ذراعه	لو لم يضق عن إلفه لم يفعل
في السلم توجد هيناً مستبشراً	بالسلم لا بالحرب مثل الجندل (١)
طلب الذليل أخو الذليل إلى العدا	سلماً يقبل به مع المتقيل
الحرب أول ما تحاول آخذاً	حزرات أهليها بكف محجل
ما زلت تخدم جمرها بتكفف	وتكف وتعطف وتحيل
وتجرع وتضرع وتخرع (٢)	وتحمل وتذلل وتدلل
من ذا رأيت بغى رضى أعدائه	يا سالماً من عقله لا توهل (٣)

• تهافت العدو وكذبه:

لم يكتف الشاعر بهجاء العدو فقط بل حاول أن ينقض أكاذيبه ساخرأً من السلاح الذي افتخر به وادعى أنه يفعل به الأفاعيل، فذهب إلى أنه ضعيف وأجبن من أن يقتل به ذباباً أو يزجر غراباً، فهو يرى أن السلاح بالنسبة ليس له سوى عود طويل أجوف لا قيمة له، لأنه في يد خوار ذهول لا يستطيع أن يهاجم به مناضلاً أو أن يدفع عن نفسه الخطر بل هو واقف به يرتعش من الخوف إلى أن يسلب منه دون أن يحرك ساكناً، يقول:

والقول في ذي جعبتين (٤) منمق (٥)	صافي الحديد بلوته فيما بلي
تنميقة لك ليس فيك وإنمسا	لك منه جدوى منكما لم تحصل
إن السلاح مع الجبان كأنسه	غير السلاح إذا غدا في موجل
وترى الفتى ما في يديه سوى العصا	أغنى بها اغناء أبيض مصقل

(١) الحجارة.  
(٢) الانكسار والضعف.  
(٣) الفرع.  
(٤) بندقية، ذات فوهتين.  
(٥) مزين و منقوش.

يعلو بها هام الكماة كأنمــــا  
 يعلو بماضي(١) الشفرتين مقل(٢)  
 هذا بلا سيف يقاتل قلبــــه  
 وبغير قلب سيف ذا لم يقتل  
 هذا يهاب الليث غير سنانــــه(٣)  
 وسنان هذا عنده كالمعبل(٤)

وهذا يعني باختصار أن البكاي لا يقر بقيمة للسلاح إلا إذا كان في يد صاحب القلب الجريء الذي يفتك به، لأن السلاح لا يقتل بنفسه، فالفارس الشجاع يغلب الرجال ولو بدون سلاح، لأنه يحارب بقوة الجنان، وجراءة الفؤاد، فهو يشبه الفارس الشجاع بالعادة الحسناء التي لا حاجة بها إلى حلي يزينها، لأن جمالها الطبيعي يكفيها. أما الجبان الضعيف فهو مغلوب ولو كان مدججاً بالأسلحة. فمثل المهجو في جنبه مثل تلك الفتاة القبيحة التي لا يزيد حليها إلا بشاعة وزينتها إلا قبحاً، يقول:

يارب جارية عليها حليها  
 في حكم عاطلة(٥) ولم تتعطل  
 وجميلة في ذاتها وصفاتها  
 بين الوري بالحلي لم تتجمل  
 وفتى عليه أدواته وسلاحه  
 فكأنه منها ومنه بمعزل  
 وترى سواه ولا سلاح كأنه  
 من شكة(٦) في مثل فلكة مغزل(٧)  
 إن الجبان وإن تسلح أعزل  
 أما الشجاع فليس قط بأعزل  
 فخر الفتى في قلبه ومضائه  
 لا سيفه ومضائه يا حسدلي(٨)

ومن أمارات خوف هذا العدو أنه في وقت الحرب يجهد في البحث عن وسيلة يهرب بها لتجنب الهلاك، لذلك فهو يفرح حين يجد ناصحاً مخلصاً يحاول بالنصح أن يفتح أمامه باب النجاة عندما ينصحه بعدم الخوض في الفتنة فيسرع في إعارته أذنأ صاغية وينصت إليه بكل حواسه لأن نصحه يوافق هوى نفسه كونه يعطيه عذراً يقضي به أربه من الفرار، يقول الشاعر:

قال الدوالحاجي فناقض قوله وهو المصيخ ولا أصيخ لعذلي

فتراه يتحين الفرصة للفرار وينتهز وقت اشتعال لظى الحرب ليسرق فرساً يقفز عليها على حين غفلة من الناس، متسرباً في جنح الظلام ومتسللاً تحت ظلال الأشجار كي يتجافى الموت بابتعاده عن ساحة المعركة، يقول:

حسب الدولحاجي فخراً مهرة(٩) ينجو بها ويشدها في الموثل(١٠)

(١) السيف القاطع.  
 (٢) السيف الذي يبرد جيداً.  
 (٣) حربية للقتال.  
 (٤) نصل عريض، طويل. وهو معروف عند الحدادين.  
 (٥) التي لازينة لها.  
 (٦) السلاح وفلكه المغزل، وما تدار على المغزل من الغزل.  
 (٧) بياض في الأصل.  
 (٨) القراد.  
 (٩) أول ما ينتج من الخيل والحمير الأهلية وغيرها.  
 (١٠) الملجأ.

وأثناء هربه فقط يعرج على الحبيب متصلصاً بزيارة عاجلة ولقاء سريع يقتنع منه بنظرة خاطفة دون أن يطلب مزيداً، يفعل ذلك وهو يلتفت يميناً وشمالاً ظاناً أن الفرسان يلاحقونه، يقول الشاعر:

بل لا سبيل لزورة إلا على جرداء (١) سابحة وأجرد هيكل (٢)  
زور الجبان أخي الجبان السارق المتذئب (٣) المتذلل المتسلل (٤)  
قد شجعتك الخيل شيئاً هاهنا نسياً لأمر في العشيرة مشغل  
إذا سرقت الخيل تسرق زورة وإذا عدت الخيل لم تتخيل  
اعلم بأن الخيل تقتل لا تكن في ذا عليها الدهر بالمتوكل

ومن جنبه أيضاً أنه إذا دقت طبول الحرب يذهل عن كل غال ونفيس ولا يفكر في صاحب ولا في أهل، وإنما يولي مدبراً تاركاً وراءه عياله ونساءه ما بين صبيان ضعاف ونساء وعذارى وهن حرمان وعورات حميمة لكل رجل غيور يستमित من أجل حمايتهن، ما يدل على انكسار العدو وهزيمته النكراء. يقول:

وتركتكم أزواجكم وبناتكم فينا وسرتم من فقير أرمل  
ونسأؤكم عند العدو ودائع بئس المحصل عند شر محصل

ومن دليل كذب هذا العدو الذي يخاف حتى من ظله ويجزع من أثره أنه ما خاض حرباً ولا شهد قتالاً إلا بعد أن يجر برقبته ويستاق بناصيته، فبدون تلك المقاهرة لا يشاهد في ساحة الوغى، ثم إذا انجلى غبار المعركة وتفرق الفرسان أقبل مكشوف الكشح متبختراً يفتخر في ساحة الوغى في شعر ركيك يتبجح بنصر كاذب وفوز لم يحرزه يقول الشاعر:

أتكافح الأبطال أعواماً ولا تلقى كعهدك قد كذبت فاخجل  
فإذا انجلى (٥) فهناك تحضر بعده خزيان (٦) في الإشهاد غير مبجل  
الآن تفخر حين تفخر كاذباً وتقول في شعر هراء (٧) هل هل (٨)  
حتى إذا شبت لظاها (٩) لم أكن متقاعساً (١٠) عنها ولست بأعجل

بعد هذا راح الشاعر يُكذب دعوى العدو الذي زعم أنه هزم الشاعر وقومه، ذاهباً إلى أن الصحيح هو خسارة العدو وانكساره في العديد من الوقائع، وأنه حيثما التجأ وقومه هزموا وقتلوا تقتيلاً. فأنى لقوم أن يغلبوا

(١) ناقة جرداء: أكل.  
(٢) طويل ضخم.  
(٣) الذي صار كالذئب.  
(٤) المنطلق في استخفاء.  
(٥) انكشف غبار المعركة.  
(٦) هو الذي عمل أمراً قبيحاً، واشتد لذلك حياؤه.  
(٧) الكلام الكثير، لا فائدة منه.  
(٨) الضعيف النسيج.  
(٩) نارها.  
(١٠) متأخراً.

إذا كان هذا الجبان أشجعهم؟! وكيف لا يهزم جيش هو قائده؟ فكيف يهزم قوماً أو ينفيه من ديار لا يستطيع الوصول إليها ولو أوتي جميع أسلحة الفتاكة؟ فأين عقله؟ بل أين حياؤه؟ حتى يزعم نصراً ويدعى جلاءً وهو يعلم علم اليقين أنما اجتبحوا هم في ديارهم ودمروا تدميراً حتى هربت فلولهم إلى حيث لا رجعة، فلو لا الوقاحة وقلة الحياء لما تشدق بنصر كاذب ولما تحدث عن جلاء باطل، يقول:

لو كان يعقل سالم ما دار في حنك له ذكر الجلاء الأعدل

إن حديث سالم الكاذب عن الوقائع الحربية دليل على أنه ليس لديه علم بنتائجها الصحيحة. فهو إما جاهل أو متغافل، بل كيف يكون لسالم خبر عن حقيقة الوقائع وهو لم يشهد الحرب؟ فخير له إن أراد الصدق في فخره أن يسأل قومه أو حلفاءه ينبئونه بالخبر اليقين، يقول:

سل عنهم أرنك إن تجهلهم بل عنهم أهل الزناكي(١)أسأل

بل عنهم أسألكم ولكن لا حجا(٢) عند الدولحاجي إذ لم يعقل

سل عنه عثمان بن هنون(٣) يقل أرنك لا ما قلت من متقول

سل عنه جيشكم الجميع اللف(٤)إذ هزموه في يوم أعر محجل<sup>١٨٢</sup>

ويعمن في السخرية من ثأر يفخر العدو بأخذه من غلمان قليلين كانوا غير مسلحين لا يتوقعون حرباً ولا يجيدون قتالاً. فأى نصر ذلك الذي يدعي تحقيقه وأية لذة يستشعرها عندما يعتدي على عبيد مساكين ليسوا رجال حرب ولا فوارس طعان بل هم أبرياء عزل يقومون بخدمة سيدهم لا غاية لهم سوى الرعي في الفلاة، يقول:

إني ليعجبني ويبهج خاطري ويسرني في قولك المستوهل(٥)

إن الكناكات(٦) الذين غدرتم يوم البسيفي(٧)باليمين الأخطل(٨)

أصحاب سيد احمد وخدام له ورعاء آبال(٩) عوازب أبـل

أمن الكناكات الرعاء بفتية خمسين منك لديك غير الخسل(١٠)

أبمن غدرتم من كناكات لنا تبغون تبريداً لتكل المثكل

فإذا قتلت بهم كنانة في ثبي قلل عزين من اللثام الدخل

(١) أحد أفراد عائلة محمد بن أرنك بن بنوك.

(٢) عقل.

(٣) أحد قواد قبيلة أرنك.

(٤) الحرب والقوم المجتمعون.

(٥) الفزع. وهنا بمعنى الكذب.

(٦) قبيلة كانت موالية لكنته.

(٧) يوم حرب، اشتهر باسم أبناء أبي سيف، أحد بطون كنته.

(٨) الفاسدة.

(٩) جمع إبل.

(١٠) الرذل من كل شيء.



ففرحت أنك نلت ثأراً منهم  
 في مأزق (١) أو مأزم (٢) أو مأزل  
 أخذ الكناكات الرعاء لجهله  
 بمرفد (٣) من أهله ومرفل (٤)  
 فافخر وإلا فادر أنك فاجر  
 بقتال أزنالك الشجاع النبيل

ثم يكشف عن الطريقة الخسيسة التي أوقع بها العدو بأولئك العزل من خدام السيد بابا للدلالة على  
 جنبه وخبثه، إذ إن أولئك الرجال - مع ضعفهم كما يحكي الشاعر - لم يتجرأ العدو على مهاجمتهم إلا بعد  
 مهادنتهم ومعاهدتهم، خادعاً حتى إذا اطمأنوا إلى موثيقه الكاذبة باغتهم في أحلاف خونة ومرترقة لا قدرة له  
 في خوض معركة بدونهم، يقول:

وعدرتموهم بالأمان وصلحه  
 والدين والإسلام بعد تمهل  
 وندبتهم للصلح ثم عدرتهم  
 بألية (٥) كذب لكذاب آلي  
 فخدعتهم بالله جل جلاله  
 بأمانه ويمينه المستعمل<sup>١٨٢</sup>  
 لولا الأمانة ما قتلتهم منهم  
 إلا بقتل فيكم مستعجل  
 فدعوتموهم بعدما قتلوكم  
 للسلم يكتم غدره في الدخل (٦)

إن الثأر الذي يدعي العدو نيله زعم باطل وتشف غير لائق بالفخر، لذا فهو يرى أن العدو لم يحقق  
 ثأراً وأن ما يصبو إليه من الثأر لا يزال حقاً عالقاً بدمته يجب الوفاء به، لأنه ما توصل إليه إلا بالغدر  
 والخديعة، يقول:

وشفيت غيظك من كنانة كاذباً  
 دعوى هذيت (٧) بها ولم تتأمل  
 ومتى شفيت الغيظ لكن زدته  
 غيظاً لآخر قبله متغلاً (٨)  
 أشفيتهم ممن عدرتهم عهدكم  
 وأماتكم فاغتلت (٩) من لم يغتل

ومع ذلك حين وقع الرجال في الفخ وأيقنوا بالهلاك استمدوا من أسيادهم شجاعتهم واستلهموا بسالتهم.  
 فهم تربية كنته رُضعوا من قوتهم وسُقوا من رجولتهم، ولذلك قاوموا بشدة ودافعوا عن أنفسهم باستماتة، حال

(١) الموضوع الضيق  
 (٢) الطريق الضيق بين جبلين، وموضع القتال إذا ضاق.  
 (٣) التشويه والتعظيم.  
 (٤) التعظيم أيضاً.  
 (٥) اليمين أو القسم..  
 (٦) المداخل والبواطن دخله إلى صاحب سدة.  
 (٧) تكلم بغير معقول، لمرض أو لغيره.  
 (٨) السرعة.  
 (٩) قتلت غيلة.

كونهم عزلاً فأصابوا العدو كما أصيبوا ولم يصرعوا إلا بعد أن جرعوهم الصبر وكوؤهم بالنار، إذ كانوا مع ضعفهم وقتلهم نظراء العدو فى القوة وأكفاءهم فى الشجاعة وذلك غاية فى الجبن والضعف، يقول:

قتلوكم وقتلتموهم دوننا	فذهبت في وادي فضاء تضلل(١)
كانوا كفا أخويك فى خمسين من	عم وخال وابه فى المقتل
كنا نظن أخاك عندك فوقهم	لا عندنا إن لم يطح لم يعتل
كنتم وإياهم لنا من شيعنة	خول وعمال وأصحاب تلي
كنتم كذا فيهم وأنتم عندهم	وبهم دليل عاذ منك بقرمل(٢)١٨٤
حتى إذا حاربتموهم حاربوا	فالحرب بينكم وبينهم ابتلي
نالو ونلتم منكم أو منهم	إذ كنتم أكفاءهم فى المدخل

• مواقع هزيمة العدو:

ليثبت الشاعر الكذب على العدو راح يعدد الأماكن التي التقوا فيها بالعدو وفتكوا بهم عندها، كوقعة تيكلكل، وكراع البحر، وتبارى، ووادان، حيث أجلى العدو بالقتل والتشريد. لأنه من ضعفه لم يستطع أن يصمد أمام قوة كنته الهائلة وخيلها الكاسحة، فملئ رعباً وجفل مثل النعام وفر مثل الغراب، يطلب الفوات ويرجو الخلاص، يقول:

أنسيت من وادان(٣) ذكر جلائكم	فغفلت يا سالم ولما تغفل
وتركتكم أزواجكم وبناتكم	فيما وسرتم من فقير أرمل
بتكلكل(٤) اجتاحوكم(٥) وبني أبي	ردوا الأول فيكم بها في مجدل(٦)
قد زيلوكم(٧) ثم كل مزيل	إذ قتلوكم ثم كل مقتل
أما كراع البحر(٨) إذ هزموكم	إذ جنتموهم جحفاً في جحفل

(١) وادي تضلل: الباطل.

(٢) شجر ضعيف.

(٣) موضع معركة فى الصحراء.

(٤) موضع آخر فى الصحراء.

(٥) اقتحموكم.

(٦) مصرع.

(٧) أبعدوكم.

(٨) موضع المعركة على شاطئ البحر، أي نهر السنغال، فى حدود موريتانيا.

إذ جئتموهم قضكم<sup>(١)</sup> بقضيتكم  
 طرتم إليه فقتلكم عنده  
 هم يوم تتبارى<sup>(٣)</sup> استباحوا كل ما  
 ظلت كنانة في الوغى خيل لهم  
 تخزي لحي أزنالك يوطئ أهلها  
 بالفيل والفيال والمتفيل<sup>(٢)</sup>  
 تقتيل آجال النعام الموجل  
 جمعت لهم أزنالك عام الأول  
 تسدي<sup>(٤)</sup> وتلحم بالردى المتجلجل<sup>(٥)</sup>  
 كل ابن سابعة<sup>(٦)</sup> حواد سحبل<sup>(٧)</sup>

إن ما حدث في كل موقع من هذه المواقع من الهول والقهر ينسى سابقه ويذهل من يسمعه، فكلمنا  
 أقبل العدو بجمعه، انهزم وقتل وشرد وغودر في ساحة الوغى كثيباً مهيباً. ١٨٥

### • صراع الأحلاف:

كان كنته يدعمهم بنو الناصر والعدو متحالف مع أزنالك، ومع ذلك فقد حصدتهم كنته حصاداً ومزقوهم  
 كل ممزق. فهو يعذرهم من ناحية أنهم إنما أُجبروا من قبل أحلافهم على خوض الحرب كارهين ليضخموا  
 صفوفهم ويكثروا بهم سوادهم. فلا ذنب للعدو لأنه وقومه أجبن من أن يقدموا على شن الحرب بأنفسهم لولا  
 أن كل قائم أو قاعد يستطيع أن يحركهم، ومن هنا جاءت مصيبتهم، يقول:

نصرت بنو<sup>(٨)</sup> الناصر كنانة فاهتدى  
 ونصرتم أزنالك ضل بذاك ذا  
 هذا بذا وهدى الولي هدى الولي  
 ويضل كل تتبع كل مضلل  
 إجمال أزنالك للصوص دخلتم  
 فاستصعب التفصيل كل مفصل  
 وحصلتم فيهم فأعيا دونكم  
 تحصيل قتل العم كل محصل

وينتج عن ذلك أن ما ناله كنته من إدولجاج في حربهم ضد أزنالك كان عن طريق الخطأ لم يتعمدوه  
 وغلطاً لم يقصدوه، فهو بمثابة ذنب عظيم جناه كنته ضدهم، إذ قتلوا ضعافاً في القتال لا يقدرّون على حمل  
 السلاح، فيجب إذن عليهم جبر كسرهم بدفع ديات القتلى منهم لمن بقى من أهلهم، تبرئة لذمة كنته وتكفيراً  
 لسيئاتهم، يقول:

لم تعتبركم قاتلاً منها ولا  
 مقتولها بمعجل ومؤجل

(١) أي جميعكم.

(٢) الفيل الضعيف الرأي، والخسيس. وكذلك الفيال والمتفيل السمين.

(٣) يوم من أيام هذه الحرب وقع وسط الصحراء.

(٤) هو تعبير عن التمكن من الخصم، وبعثرته، وجعل بعضه على بعض.

(٥) السائح في الأرض.

(٦) التي تسيح في جريها.

(٧) الفحل العظيم.

(٨) قبيلة صحراوية، من أبناء مغفر. ولهم حلف مع كنته قديم ومتأصل.

قصودكم فدخلتم في معجل

لم يقصدوكم بالقتال وإنما

• التهديد والوعيد:

ولكي يُدلل الشاعر على قوة قومه التي لا تُقهر ذهب يتهدد العدو - بلهجة وكأنه يطمئنُه إمعاناً منه في السخرية - أن كنته كما انتصروا عليهم سابقاً وأبعدهم عن ديارهم الأولى سيغلبونهم مرة ثانية وسيخرجونهم من محل التجائهم الجديد، وعداً حقاً لا كاذب وليقتلنهم ولا يبقون لهم أثراً، يقول:

يجلونكم أيضاً جلاءً ثانياً      بعد الجلاء الأول المتأول

وليس أمام العدو إذا أراد النجاة من الهلاك الذي يتربص به أو يتفادى جلاءً ثانياً إلا أن يلزم أعقاب أحلافه من أزنالك، وعدم الابتعاد عن ظلهم، فليمسك بأكتافهم وليحتم في كنفهم، ذلك خير له إن أحب العيش الطويل والحياة الهانئة، يقول:

فإذا عجزت ولام كذبك فاتخذ      أزنالك كهفاً فيه كلّ وبل  
وبه فدافع بل به ادفع واندفع      فيه وفيه لج وفيه فادخل  
وبه استدر وبه استتر وبه انحجز      وبه اكتفل وبه اكتف وبه اكنل  
ارحل كما رحلوا على آثارهم      وإذا هم نزلوا بأرض فانزل  
إني أخاف عليك ثم تخافه      كرحيلهم للبحر يوم تقتل  
إلا إذا ما كفتك كما جرى      أزنالك فاطعن في حماها واحلل

إن الرسالة التي أراد الشاعر أن يوجهها إلى هذا العدو المتعنت واضحة، ومفادها أنه ليس كفواً لقتاله، وإنما حلفاؤه أزنالك الذين يحتمي بهم، فأولئك وإن كانوا أذلاء لا يبلغون شأوه كنته في الشجاعة ولا في القوة إلا أنهم أجدر من يرضى الشاعر بمقارعتهم ومناجزتهم، لأنهم على كل حال أحق بالمقاتلة من هذا العدو وقومه الحقيرين الذين من خوفهم وضعفهم لا يبدأون قتالاً ولا يشهرون سلاحاً، فمن الحرام إذن أن يلطخ كنته الأحرار سيوفهم بدمائهم مخافة دفع الديات لأهاليهم بعد قتلهم، يقول:

هم من قتلناهم وقاتلت بهم      ولهم فلستم غير قوم دلدل  
خطأً قتلناكم وعقل دياتكم      حق عليهم ثابت لم يخذل  
قد أكرهوكم لو وجدتم كنتم      ما بين حراث وبين مجدل

على أنه يتوعد العدو - إن كان يحس في نفسه قوة وشجاعة - أن ينبذ إلى أحلافه عهودهم ويلحق بقومه، ثم ليتجهز هناك لقتال كنته إن كان راغباً في المنازلة أو يرجو أن يشاد له يوماً ما ذكر بالبطولة وتُتلى

له سيرة. وإلا فليجنح بقومه إلى السلم ويلزمهم الصلح والحلم، إن خاف المقارعة والخوف شيمته. عندئذ وهو في قومه يحق له أن يرفع منكبه ويشخر بأنفه لكي يُقبل منه الفخر ولو بنصر كاذب أو فوز لم يحققه، يقول:

إن قلت لا هذا فدونك فاعتزل      أذاك أو عنهم قويمك (١) فاعزل  
وبهم فحارب أو فقاتل أو فصل      بهم فصالح أو فسالم أو صل  
فهناك تقبل منك فخر كاذباً      وهناك قل ما شئت من ذا وافعل<sup>١٨٦</sup>

---

(١) تصغير قوم للاحتقار..

## الدراسة الفنية لشعر البكاي:

تقليداً لعادة الشعراء القدماء الذي كان من دأبهم أن يشرعوا في القريض دون أن يمهّدوا لها بتسمية تنبئ عن موضوعها لم يشر البكاي بدوره في أول قصيدته بشيء يدل على غرضه من نظمها. وكان يجمل به وهو في عصر قريب - تقريباً - أن يفكر في التتويه على مقصده بوضع عنوان مناسب لقصيدته كما يفعله الشعراء المتأخرون.

وإذا ما استعرضنا القصيدة بنظرة فاحصة فإننا نتبين عدة مظاهر يمكن عدّها سمات فنية تميز بها شعر البكاي ومن ذلك:

### • طول النفس:

انطلاقاً من طول نفس القصيدة وتكرار جملة من المفردات والعبارات يمكن الحكم بأن الشاعر كان مولعاً بالإسهاب جانحاً إلى التطويل في الكلام، ربما كان ذلك رغبة في إظهار موهبته الشعرية أو قدرته الفنية وتفوقه على غريمه اللدود، فحاول أن يثبت أنه يغرف من بحر ولا ينحت من صخر. ولولا ما يمتلكه من ثروة لغوية فائضة وقدرة تعبيرية بالغة لما قدر على هذا الطول المفرط في القصيدة الواحدة التي وصلت في تعداد الفشاط إلى سبعمائة بيت وإن لم ينقلها جميعاً لتعذر عثوره عليها كاملة. لقد استطاع الشاعر مع ذلك النفس الطويل وفي معظم أجزاء القصيدة الحفاظ على مستوى القوة والجودة بتلك الطريقة التي لا يقدر عليها إلا فطاحل الشعراء، وفحول الناظمين. ما يدفعنا إلى تصنيفه ضمنهم بناءً على نجاحه في الموازنة بين الطول والجودة.

وقد نتج عن هذا الطول أن كادت الأبيات الغزلية تمثل هي وحدها قصيدة مستقلة ذات غرض مقصود، حتى كادت تخرج عن كونها مجرد نسيب يمهد به ويوطئ لغرضه الأساسي، إذ وصلت إلى واحد وسبعين (٧١) بيتاً، ما جعل الغزل يغدو وكأنه غرض رئيس وأن ليس وراءه في القصيدة غيره.

ويبدو أنه إنما فعل ذلك ليرهص بأن ما يأتي ذو خطب جلل وأنه بدوره سيمتد امتداداً يخرج به من المألوف ويقربه من الملحمة.

ومع ذلك فإن الذي يجب ألا يغيب عن أذهاننا هو أن اختياره للغزل مطلقاً للقصيدة لم يأت عرضاً - وإن كان فيه مجازاة للقصيدة العربية القديمة - بل الخصم هو الذي دفعه إليه حين استهل رثاءه بمقدمة غزلية مماثلة.

فإلى جانب أنها أظهرت لنا قدرة الشاعر على قول الكلام الرقيق واللطيف فإنها جاءت مناسبة لغرض القصيدة متفقة مع طابعها العام ومنسجمة مع الموضوع، إذ أراد أن يدفع بها تلك التهمة الأساسية التي وجهه

إليه الخصم حول الجبن الذي ينسبه الحب، حيث زعم أن الجبن يصل بالشاعر إلى حالة الذهول عن الحبيب فأطال في الغزل ليثبت أن العيش لا يحلو إلا بوصول الحبيبة وأن الدنيا لا تساوي شيئاً بدون شريكة الحياة.

#### • احتذاء منهج القصيدة الجاهلية:

حرص الشاعر على محاكاة القصيدة العربية القديمة في الوزن والقافية والموضوع، لأن ذلك عادة جميع شعراء أفريقيا القدامى الذين لا يعرفون غير الشعر الجاهلي نموذجاً ومنهاجاً. وسبب ذلك أنهم منبهرون بهذا الشعر من ناحية ثم إنهم لا يستطيعون الخروج عن أطرها من ناحية أخرى لعدم معرفتهم طرائق أخرى في قرض الشعر غيرها. فهم بفضل تتلمذهم الطويل على المدرسة الجاهلية وطول قراءة دواوينها الشعرية ومطالعتها حفظوا طرائقها وأساليبها فعلقت بأذهانهم وتمكنت من عقولهم حتى غدوا لا يستطيعون الفكك منها. فكل من حاول أن يضع شعراً لا مناص له من محاكاتها والسير على منوالها. ولذا فلا غرو إذا جاء شعر البكاي على نمط تلك المدرسة في الاستهلال بالتغزل ثم التنقل بين الموضوعات المتنوعة، مع مراعاة ألفاظها ومعانيها وأوصافها وصورها، وإن لم تحظ جميعها عند الشاعر بأهمية خاصة سوى كونها من عادة الشعراء الأقدمين.

#### • التأثر بالألفاظ والمعاني القديمة:

يظهر هذا التأثر في كثرة استخدام الشاعر للمعاني والصور والتعابير الجاهلية التي أوغل في استعارتها، حتى كأنه يعبر عن أصحابها أو يتحدث بلسانهم. مصراً على أوصافهم وملحاً على نعوتهم، بالاعتماد على تشبيهاتهم وخیالاتهم، حتى إنه يعترز بترديد أسماء جبالهم (يللمم) و (رضوى) وحيواناتهم (جبال) وأشجارهم (حنظل)، ما جعل قصيدته مشابهة وكأنها قطعة من شعرهم.

#### • جزالة الألفاظ وتناسبها:

وقد ترتب على صدق عاطفة الشاعر هذه أن جاءت ألفاظه وعباراته مناسبة لموقف الهجاء وموافقة لطابع السخرية والاستهزاء موافقة تامة، فيها جزالة الجاهلية وصلابتها. لقد انطوت القصيدة في جميع أطوارها وعلى طول أبياتها على ألفاظ جزلة ومثينة تناسبت مع المعاني والدلالات التي سيقت لأجلها في تلاؤم تام ووفاق كامل. وتلك من الميزات التي استطاع الشاعر أن يحافظ عليها طويلاً بالمستوى نفسه الذي بدأ به من القوة والجودة، دون أن يضعف أو يزل إلا قليلاً، إذ إن الكمال لله وحده.

#### • كثرة الغريب في شعره:

تقليداً لعادة أدبائنا في مالي في مجاراتهم للشعر الجاهلي أكثر الشاعر من استخدام الحوشيات والألفاظ الغريبة في النص، بصفته المعيار اللغوي الذي يقاس عليه كل عمل شعري وفني عندهم.

غير أن استعمالها عند الشاعر بهذه الوفرة إنما ينم عن علم ودراية وثقافة واسعة أبعد عن معانيه وحشية الدلالة وسماجتها، حيث لم يظهر في استخدامها ما يوحي بالمشقة في الاختيار أو الصعوبة في التنقيح أو الصياغة. ومن ذلك: خرعوبة، ضرعوبة، رعبوبة، بهنانة، وهتانة، نفج، رؤد، بخنداة، رداح، خدلم، خود، برخداة، أناة، سبنداة، معلنكس، عقنقل، جتل، جفال، عطبل، إلخ...

فكل كلمة من تلك الكلمات وغيرها الكثير التي وردت بكثافة في شعر البكاي، بل وكل عبارة - على غرابتها وحوشيتها - جاءت في مكانها المناسب من القصيدة وفي موقعها اللائق.

ومن دلائل نجاح الشاعر في استعمالها أن الأبيات - بغض النظر عن الدلالة - خلت من أي نشوز أو نبو في الصياغة الشعرية. ما يدل على قدرته على الإبداع وحذقه طرق المحاكاة، لما توافر لديه من ثروة لغوية كبيرة ورصيد أدبي واسع.

وإن ما تجدر الإشارة إليه هنا أن ذكر الحب عند الشاعر هنا - مع تنزيهنا إياه عن العشق بوصفه عالماً متديناً متورعاً - لا يخرج عن كونه مجرد صنعة وتكلف، ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر أن تعلقه بالحب بهذه الصورة البديعة - ولو لم يكن واقعياً - ليس جديداً عند جميع علمائنا، فهو يتجاوز أحياناً - عند بعضهم - مجرد النسيب الشعري المعتاد، لأن براعتهم في تأدية معانيه دليل على أن الحب متغلغل في أعماق أنفسهم. ويؤكد ذلك اهتمام الشاعر بالنساء سواء في الغزل أو في الهجاء. وما تعبيراته الساخرة من المرأة وهو يُهاجي رجال قومها ويفاخر برجولته وفتوته إلا دليلاً آخر على موقع النساء العزيز في نفسه، إذ لم يكن ثمة حاجة إلى حشر النساء في الموضوع لولا أن الشاعر يرى أنه ليس عند الرجل الصحراوي ما يمكن أن تتال منه عن طريقه أعز وأغلى من المرأة. وفي ذلك دلالة أكيدة على صدق العاطفة نحوهن وإن لم تدعمها تجربة واقعية تكاد البراعة الفنية أن تحيلها إلى حقيقة ثابتة، أكثر من كونها مجرد شعور عابر في ثنايا التقليد والمحاكاة.

#### • محاكاة السمائل الجاهلية وظهور أثر البيئة في الأوصاف:

حرص الشاعر طول المفاخرة أن يصيغ ذاته وقومه بصفات تنبع من أسس القيم العربية الأصيلة التي ظل الشاعر الجاهلي مؤمناً بها، يضيفها على نفسه بإسهاب وسخاء. لأن ذلك يثبت أن ما ادعاه الخصم واتهم به كنتة من غصب وسرقة وفساد في الأرض كذب وبتهان لا أساس له من الصحة. ولذلك جاءت أوصافه وصوره مطابقة للخصائص النفسية والخلقية التي تتجلى في القوائد القديمة من ترفع عن الدنيا واعتزاز بالنفس وافتخار بعظيم الفعال، بل بكل ما يجمل من الصفات ويروع من النعوت، مما كان الجاهليون يولعون بتوزيعه - ذاتياً - على أنفسهم وتجريد خصومهم منه، لكونه قيمة خاصة عندهم لا يستحقها أعداؤهم ولا يمكن أن يتصف بها إلا القلة المنتمية إليهم. فكل من لا ينشأ داخل هذا الإطار القبلي إما أن لا يكون عدواً مباشراً وقد حرم النبل والشرف، وإما أن يكون عدواً فهو إذن فضلة وعار لا يصلح في المجتمع إلا للخدمة والأعمال الدنيئة، يقول:



ذهبت كنانة بالمكارم كلها  
ويجيد فى الأزمت كرات الندى  
فابقوا بذل فى شقاء مسجل  
ويجيد كرات الوغى فى الجحفل  
وسل المكارم والمشاهد كلها  
تتبتك بالخبر الصحيح المنجلى

كما أنه تعمد ذكر الملك الضليل باسمه لىذكرنا بأنه - على الرغم من إمامه الكبير ببقية الشعراء الجاهليين والإسلاميين على السواء - فإن امرأ القيس هو مرجعه الأساسي فى الشعر الذى يتعمد - دون شعور بالحرص - استعارة ألفاظه وعباراته واستخدام معانيه وصوره ليثبت أنه قادر على الإتيان بالصعب المبدع مثله.

وربما كان اعتماده على تلك الشواهد الجاهلية لفظاً وعبارة ليثبت براءته من تهمة غرام حقيقي، وأن غزله ليس له قدم راسخة على أرض العاطفة، وأن لا أثر له واضحاً فى واقع الشعور، وإنما هو - عنده مجرد تقليد حاذق وتكلف بارع يؤكد ما يتمتع به من موهبة شعرية وملكة فنية.

ولولا مظاهر بيئة تمبكتو الصحراوية وما وقع فوق رمالها من أحداث ووقائع دامية واضحة وجلية فى ثنايا البيات كلها، كما أن المعاني الدينية والأفكار الإسلامية وما يدل عليها من كلمات وعبارات طافحة عليها بشكل يشعر بالأنين والثقل، ولولا ما فى شعره عامة من صدق العاطفة وحرارة التجربة لساغ أن نقول إن شعره عربي قديم بحذافيره. لكن ما أضفاه البكاي على شعره من روح إبداعية وقدرة على الخلق أبعدته عن أية سمة تقليدية يمكن أن يعار عليه.

#### • الصدق فى التعبير والعاطفة:

يؤكد هذا الاتجاه أنه لا يظهر فى تكلفه هذا شيء من ملامح المشقة النابغة من عصر الذهن فى اختيار الألفاظ الغرامية الحوشية أو الحرص على تنميقها ليخرج غزله صورة مطابقة من المدرسة الجاهلية، وذلك أن الرغبة فى التقليد وجدت عنده موهبة شعرية واستعداداً بيانياً أضفيا على صنعته مصداقية تفيض بالحياة وتتدفق بالعاطفة، فغدت بفضل نجاحه فى التعبير عنها كأنه صاحب تجربة واقعية يمارس علاقة حب فعلية بمشاعرها الفياضة وأحاسيسها النابضة.

ومما يدل على هذا الصدق اقتصاره فى الفخر على ما وقع فقط من الموصوف من جميل وإحسان مع أعدائه المأسورين لديه، إذ مهما بلغت الشفقة والرأفة بالمرء فإنه من الصعوبة بمكان ولا سيما فى أوقات الحرب أن ينسى أنه قبالة عدو بمقدوره فى يوم ما أن يقلب له ظهر المجن ويفتك به لما بينهما من عداوة سابقة دون اعتراف بجميل سابق أسداه إليه عدوه من قبل. وهذا غاية فى الرجولة والأناقة، إذ من المعلوم أن الحرب خدعة لا رحمة فيها، والخاسر من يستغفل ويعتد بالمبادئ.

وكذلك جاءت عواطف الشاعر صادقة في أغلب أطوار القصيدة دون تكلف، وليس أدل على ذلك من أن القصيدة نفسها رد فعل حقيقي لهجاء عدو يهجم عليه متعمداً الكذب متهمكاً مستعليماً، ما ساعده على إخراج القصيدة في صورة أسفرت عن قدرة مقابلة على الترشق والنضال، بل وأقوى من كل ما يتصوره إنسان في رجل مجروح في كرامته.

فإذا كان من المسلم به صدق عاطفة الكراهية والبغض التي يكنها الشاعر لعدوه في واقع الحياة لما بين قبيلتيهما من عداوة وتنافس قديمين، فإن الشاعر استطاع بحذقه وحنكته في الصياغة والتعبير بالعربية الفصيحة أن يضيف إلى هذه العاطفة العارمة التي تتملك قلبه براعة فنية وقدرة أسلوبية صورت المهجو - شعرياً - على أسوأ حال من القبح والبشاعة - خلقاً وخلقاً - وكادت تثبت أن الصفات التي ألقها الشاعر بالمهجو حقائق مسلمة ووقائع ثابتة لا تقبل الشك لولا أن القشاطر في ترجمته المختصرة أكد أن المهجو في حاله عالم قدير وفقه متمكن وسيد في قومه ومن أفضل الناس خلقاً وأشدهم تقوى كما أنه في الحرب من أشجع الفرسان وأجرئهم جناناً، ويؤكد هذا أن مبادرته إلى هجاء البكاي وكيل السباب له دليل قاطع على ثقة الرجل بنفسه وبإيمانه اليقيني فيما يكتبه ويدعيه.

وإذا تمكن الشاعر من أن يودع في نصوصه هذا القدر الكبير من العاطفة الساخطة المليئة بالاحتقار والنفور فلأنه يمتلك القدرة اللغوية الكافية والملكة الفنية القوية للصياغة الشعرية الرائعة. استطاع بها أن يجرد الخصم من كل سمة بشرية وقيمة إنسانية ليبدو في صورة حيوان لا قيمة له ولا وزن. ولكم - عنده - في كلمة (عبد وأسود) من ذلة وحقارة تكرسان العدو في أغمار السفالة والندالة، فهما كلمتان تبرزان إلى أي مدى بلغت عاطفة الشاعر من التدفق وإحساسه من الصدق وانفعاله من القوة وشعوره من الدقة، لذا استطاع أن يستغل كلما توافر لديه من لفظة ثقيلة ومعنى عميق لا يترك للخصم مجالاً يرفع فيه رأسه أو يثبت عكس ما ألقه الشاعر به من مذمة وهوان.

ولذلك جاءت ألفاظه مناسبة لغرضه مواقف لعواطفه فهي كلها ألفاظ جزلة أحسنت التعبير عن عمق ما يكنه الشاعر في دواخله من حقارة واستخفاف بخصمه.

### الإفذاء والفحش في الهجاء:

كان الأحرى بالبكاي أن يرتفع بعواطفه ويسمو بعلمه عن الرغبة في التفاضل بالجنس والعرق تلك الخصلة التي جعلته لا يجد ما يذم به مهجوه أقبح من لونه الذي علق عليه جميع المساوئ، وجعله السبب الوحيد والعلة الأصلية في حقارته وهوان قدره، ما يدل على أنه - مع نبوغه وموهبته العلمية والفنية - لم يخل من ضيق الأفق ولم يسلم من عيب في المنطق. إذ جاءت ألفاظه مكنتزة بسمة العنصرية وتعايبه مشحونة بالضغينة متناسبة مع ما يتميز به الشاعر من عاطفة غاضبة ونقمة جارفة على عدوه طبعت هجاءه

بطابع السخرية القاسية والاستهزاء البالغ، فلا يكاد يخلو بيت من المقطوعة الهجائية من الإشعار بالدونية والتحقير القاسي.

يدل على ذلك ما أبداه في هجائه من حرص بالغ على قذف الألفاظ الجارحة والتعابير المذلة المشحونة بالحقد والكرهية للآخر. وليس لذلك سوى دلالة واحدة هي إيمانه القوي ويقينه القاطع بسفولة أصل العدو ونذالة عوده بسبب لون جسمه، بالقدر الذي يعلي من شأنه هو إلى أعلى مراتب الشرف وأسمى منازل الفضل.

#### • مناسبة الفخر للمقام:

ورد الفخر في موقعه المناسب من القصيدة إذ جاء في الوقت الذي كان يحتاج فيه إلى أن يثبت نذالة العدو بمحاذاة الشمائل التي يمتاز بها قومه، وقد تحقق العدو من ذلك بنفسه أيام كان يرفل في قيود الأسر عند كنته حيث غمروه وأهله على عداوته لهم حتى سموا وزاد وزنهم. ما يدل على فقدان العدو كل كرامة إنسانية، وأنفة بدوية. إذ كيف يسمح لنفسه بتعاطي طعام عدوه إذا لم يكن دنيئاً وحقيراً. وفي ذلك دليل قاطع على هزيمته، وإشارة واضحة على فضل كنته في آن واحد. ولكن الأوصاف التي استخدمها الشاعر في الثناء مع الرجل الكنتي قديمة مكررة حتى أصبحت مفاخره جامدة لا تثير إعجاباً ولا تهز شعوراً. وذلك أن الممدوح لم يتميز - عند الشاعر - عن سائر أفراد القبيلة بصفات خاصة أو نعوت فريدة تتجاوز المألوف من الفضل والإحسان والكرم والعرفان. وتلك صور طبيعية ومعان مبتذلة منذ العصر الجاهلي. وقد نتج عن ذلك خلو الأبيات من روح التأنق في الثناء أو التتميق في الوصف، ما يدل على عدم احترامه الزائد للممدوح أو الانبهار بسلوكه، كما أنه ينم عن عدم وجود اهتمام قاصد لديه بتمجيد المفتخر به لولا أن العدو قد وُجِدَ عنده في وقت من الأوقات ليكون شاهد عيان على أكاذيبه. وهذا يعني أن الثناء على الأفراد غرض عارض عنده لا اعتداد كبيراً به بجانب غزله أو هجائه، ما جعل الفخر وسطاً في التقدير بين ذينك الغرضين اللذين بلغا عنده القمة في الأداء الأدبي:

لو يشتري بالروح منك جواره      لشريته بالروح لم يتعلل  
هذا إلى ما فيك من حسد له      غيظاً عليه لعزة المتجلل

#### • أسلوب المقارنة:

ومن سماته في الفخر المقارنة بين شمائل قومه الحسنة وشمائل عدوه القبيحة، ليكون ذلك أقوى في السخرية والتهكم، من ذلك قوله وهو يصف قومه بالكرم والجود:

ذهبت كنانة بالمكارم كلها      فابقوا بذل في شقاء مسجل  
يهب الجياد إلى هنيذة نخلة      للضيف والمعتروالمستبخل  
لا كالمفاخر أن يعشي ضيفه      بجريب تمر فهو كالمطول

وقوله حين يفخر بنبل قومه وأصالة شرفهم:

غيداء كنتاوية أموية  
قرشية ومن الطراز الأول  
لا من يعيش ولا دولحاجية  
عجماء لم تتبل ولم تتبل  
لا مثلكم مجهولة أبائكم  
معلومة آبائهم لم تجهل

وقوله حين يصف رجولته وشجاعته مقابل ضعف وجبن العدو:

إن مر عيش فهو يحلو لي بها  
وإذا أمرت لي فلم أتحول  
لا كالدولحاجي ينسى إلفه  
وهواه دهر الحرب حتى ينجلي

#### • عدم التقيد بترتيب الأوصاف:

لم يتقيد البكاي بنظام معين في توزيع الأوصاف والنعوت، فهو لم يلتزم طريقة واحدة في ترتيب الجوانب الخلقية أو الخلقية ولا النواحي المادية والمعنوية، إذ دأب على الخلط بين النعوت الجسمية والصفات الفكرية والمزج بين المميزات الشخصية الفردية والجماعية دون فصل في العبارات أو الأبيات.

#### • الحوار والمناقشة:

إن من تفننه في السخرية والتهكم ليضخم بها جبن العدو وخوره أن صنع حواراً وهمياً من دعاوى العدو نفسه كان هو السائل والمجيب، فكانت الأبيات غاية في المهارة الحوارية والتبادل الخطابي. من ذلك قوله وهو يسخر من العذر الذي اعتمد عليه العدو أمام حبيبه ليخفي خوفه وفراره من ساحة الحرب:

ويقول عذراً للحبيبة قولة  
جبناً وضعفاً وهو أسفل أسفل  
لا تحسبي أنني هجرتك عن قلبي  
قلنا: نعم لضرورة لم تجهل  
ويقول: أمر في العشييرة مشغل  
قلنا: لجوع مشغل لك مشغل  
كيف المزار مع اشتعال لظى الوغى  
قلنا: لجبن خالع لك موجل  
وذو الحروب عن الوصال بمعزل  
قلنا: وتجل في النعام المجفل

وإمعاناً منه في إذلال العدو اعتمد أسلوب سرد الوقائع الحربية السريعة والمختصرة لأن غرضه الأساس هو هجاء العدو وليس حكاية الأخبار أو نشر الأنباء التي يعدها حقائق مسلمة ومعلومة بالضرورة لا ينطرق إليها الشك. ولذا راح يحكيها موجزة ومتقطعة وكأن ليست ثمة حاجة إلى البسط فيها بتصوير دقائقها وتفصيل جزئياتها، وفي ذلك سخرية بالغة وتهكم شديد من ادعاء العدو نصره الكاذب وفوزه المزعوم.

ثم إن كثرة الحروب وتعدد مواطنها (حرب وادان معركة كراع البحر وقعة تيكلكل يوم تتبارى) ما كانت لتسمح في القصيدة الواحدة بشروح مطولة أو تفاصيل جزئية دقيقة عن كل معركة. ومع ذلك فإن

طريقته في شرح الوقائع تدل على أنه كان شاهد عيان ورجل قتال مارس الحرب وتجرع نيرانها . فتكونت لديه من مشاهداته مواقف ذاتية ونظرة خاصة إلى الأمور مكنته من تصوير تلك الأحداث في شكل قصة شعرية، بمناظرها الواقعية التي لا خيال فيها.

#### • التكرار:

أكثر البكاي من التكرار رغبة في إطالة النص لاسيما في موقف كموقفه، كما أنه فضل ذلك الأسلوب لسهولة دون أن يدل ذلك على جهده من طول القصيدة أو صعوبة الوزن.

بأبي أب لابن له ابن سيد	متقيل لأبي أب متقيل
عن ماجد عن ماجد عن ماجد	عن ماجد طلق اليدين شمردل
عن كابر عن كابر عن كابر	حتى إلى سام بن نوح موصل
حتى إلى أصل البرية آدم	متسلسلاً نسباً له بمسلسل
ذاك الجلاء هو الجلاء هو الجلاء	ء هو الجلاء بأعدل ومعدل
غلبوا بذاً وبذا ولما تغلبوا	من ذا ولا من ذا بغير تملل
وبه فدافع بل به ادفع واندفع	فيه وفيه لج وفيه فادخل

#### • الالتفات:

اعتمد الشاعر على الالتفات بتدفق الضمائر وتزاحمها في هجاء الخصم ذاته كضمير المفرد أو الجمع مخاطباً أو غائباً، فكان ذلك أبلغ عنده في وصم العدو بالخزي والعار، إذ تخير الألفاظ والعبارات المشحونة بالذلة والمهانة لتكريس عدوه في الحقارة والصغار .

كأنهن وكأنها وكأنهم	وكأنهن هناك ناقف حنظل
كنتم كذا فيهم وأنتم عندهم	وبهم دليل عاذ منك بقرمل
نالوا ونلتم منكم أو منهم	إذ كنتم أكفاءهم في المدخل

#### • الإكثار من استخدام " لم ":

ربما كانت سهولة صياغة القافية من النفي في وزن الكامل هو السبب الذي دفعه إلى الإكثار من استخدام " لم " للتوصل إلى إقامة الوزن والقافية المناسبة، وهما كما أسلفنا من اختيار خصمه الذي كان أول من اختار بحر النقيضة وعروضها معاً. لقد كثرت هذه الظاهرة في النفي بصورة لافتة للنظر حتى وكأنها توحى بالعجز والإرهاق لولا أنها وقعت بدايات القصيدة أكثر مما وقعت في نهاياتها، ما يؤكد أن مجيئها كان عفواً وسجية لا عجزاً ولا إرهاقاً، ولا سيما أن ذلك لم يحدث ضعفاً ما لا في الصياغة ولا في المعنى، ومن

أمثلة ذلك ما يلي: لم ينجل، لم تنتبل، لم توصل، لم تبخل، لم تبذل، لم تكحل، لم تفعل، لم أتحول، لم يذهل، لم تحلل، لم تجهل، لم تتخيل، لم يبيل، لم يخطل، لم يجهل، لم تسأل، لم ينزل، لم يفعل، لم تشعل، لم يتحلل، لم يتعل، لم تتأمل، لم يعتل، لم يقتل، لم يقبل، لم يخلص، لم يغسل، لم يعتل، لم تهزل، لم يخذل، لم يعقل، لم تتكل، لم تجهل، لم تختل، لم تحصل، لم تقتل، لم تتعطل، لم تتحمل، لم يخذل، لم يجهل، لم تجهل، لم يرحل، لم يتأهل، لم يذهل، لم يجهل، لم تتخال، لم تترجل، لم يغسل، لم يتسرول، لم ترسل، لم يدخل.

ويلاحظ من هذه الصيغ رغبته في الاختصار بكثرة استخدام كلمة " لم يجهل " ليظهر أن ما يعلمه في المهجو أو يصفه به مشهور وبائن لجميع الناس إلى درجة أنه لا يحتاج إلى بيان تفاصيله الدقيقة. وفي ذلك مزيد من التهكم الشديد والسخرية الفاضحة.

### • الصورة الفنية:

لما كان اعتماد البكاي على القوالب القديمة في شعره بما فيها من مظاهر موافقة لطبيعة الحياة البدوية في صحراء تمبكتو فقد جاءت صورته بناء على ذلك بعيدة عن الزخرفة البيانية والمبالغة الخيالية إذ كانت كلها نابعة من صميم إحساسه ومستمدّة من البيئة التي يشترك هو والمهجو فيها معاً.

ولذا فإن صورته بقيت في طول القصيدة بسيطة وخيالاته فطرية، لكن خلو القصيدة من أية محاولات الإبداع في التصوير أو الصنعة في الخيال لا يمكن أن يعد سمة ضعف في شعره أو دليلاً على الكسل الذهني، لأنه عدل عنها عن محض اختيار وليس عن عجز. يدل على ذلك أن انصرافه عن الزخرفة الخيالية هنا لم يحدث أيما خلل في شعره، كما أنه لم يفقد عمله جماله الفني الذي تضافر على صقله وصبغه ما تميز به الشاعر من طبع سليم وعاطفة صادقة، يدعمهما التقليد الحاذق والمحاكاة الذكية التي يستحق أن يسند إليه فيها قصب السبق، يقول:

تلقى الدولحاجية السوداء من	بطن لها سوداء مثل المرجل
شبعاً لها خمصاً حمار متقل	شبعان أو خمصاً أتان متقل
عند ابن عم حولها متحلل	بطن له مثل الرحي المتجلجل
ترنو إليه فلا تسر ولايها	في منظر لكليهما مستقبل
فكأن خنزيراً إلى خنزيرة	أو جبالاً ترنو لأنثى جبال

وربما كان لهذه البساطة والسهولة حاجة أخرى في نفس الشاعر، وذلك كأن يكون غرضه منها كما هي دون تحوير شيء منها ولا إضفاء رسوم مبدعة عليها، أي إيرادها خالية من أية زخرفة أو وشي بالإلحاح في تفاصيل الصورة أو جزئياتها أن يقنعنا بأن بدائية المهجو وهمجيته أبين من أن لا تراها العين المجردة، ما

دفعه إلى إهمال الاستعارات العميقة والتوريات البعيدة التي كان يمكن أن تساعد في تصميم رسوم بديعة أو خيالات بعيدة، لأنه يرى أن ضعة المهجو وحقارة أصله بادية للعيان وأنها ليست في حاجة لفهمها أو مشاهدتها إلى عصر ذهن، وفي ذلك من المهانة والمذلة ما يزيد الهجاء تهكماً وسخرية.

ولما كان البكاي مصراً على أن يسلب المهجو شكله الإنساني ويمسحه في صورة حيوان فقد استعار من الملك الضليل بعض صوره الفطرية التي صاغها هذا الأخير لمجرد الرغبة في الوصف والرسم دون أن يقصد إلى غرض آخر من وراء تلك الصور العادية، إذ إن تلك الحيوانات شريكاته في صحرائه الواسعة، يقابلها دوماً ويشاهدها في روحاتها وغدواتها، فيصيد منها ما يصيد ويند منه ما يند أو يتركه عمداً، ليتفرج عليه ويتلهى بتصويره في سكناته وحركاته. أما البكاي فقد ساقها في مجال الهجاء الإنساني، ليثبت أن هذا الخصم ليس بأحسن من تلك الحيوانات فهو لا يختلف عنها في أخلاقها وتصرفاتها بل يشترك معها في العديد من صفاتها وأحوالها.

ولها إليه كما إليه نحوها	إرخاء سرحان وشدة تنقل
في أيطلى ظبي وساقى نعامة	وسراة عير قائم متوقل
وكان بين تتيئها أو على	أعطافها ريح لجيفة فرعل
وكان في الصدغين من فكيتها	نتناً من القرت المدوف بفلفل

#### • التلخص:

نجح البكاي في تنقله داخل القصيدة الواحدة بين عدد من الأغراض والتقلب بين مواقف متعددة وأجواء نفسية مختلفة ترتبط بصلب موضوعه القائم على الهجاء والسخرية، ما أمكنه بكل راحة وانبساط من أن يسكب جام غضبه على عدوه اللدود ويفرغ عليه سكائب حنقه دون أدنى رحمة أو أقل شفقة، ما يشهد للشاعر بصدق التجربة الشعرية وقوة المراس الفني.

يقول في الانتقال من الغزل إلى الهجاء بعد حوالى سبعين بيتاً:

إن مر عيش فهو يحلو لي بها	وإذا أمرت لي فلا أتحوّل
لا كالدولحاجي ينسى إلفه	وهواه دهر الحرب حتى ينجلي

ويقول في الفخر بشجاعة كنته وكرمهم بعد هجاء العدو هجاءً مريراً:

أبمن غدرتم من كناكات لنا	تبغون تبريداً لثكل المتكل
بمعاشر عرف الأعادي بأسهم	وهم الغياث من الزمان الأعضل

لم يغفل البكاي مع حرصه على الشرائع الجاهلية والخصائص البدوية عن قيمه الدينية الأصيلة وصبغته الصوفية. ونظراً لتبحره في العلوم الشرعية وتعمقه في التاريخ الإسلامي فقد اعتمد في فخره ألفاظاً إسلامية كثيرة جعلت شعره - على الرغم من غلبة الأغراض والسمات الجاهلية - يغدو شعراً إسلامياً.

ومما يدل على ذلك إضافة إلى التعبيرات الإسلامية الغزيرة ما افتخر بها من مصطلحات صوفية، يعتقد أن بها يبلغ الفاضل مراتب الصلاح ودرجات الولاية كوصف قومه بأنهم بيضة الدين وأصحاب علم اليقين المسؤولين عن تعليمه القائمون على نشره الساهرون على رعايته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدفاع عن حوزته بالغالي والنفيس. وتلك ملامح تعبيرية ومعنوية غابت عن القصيدة الجاهلية. ما يمكن أن يُعد له تجديداً وتطويراً في القصيدة القديمة التي اعتمد على أساليبها وفنونها، ومن ذلك قوله:

الغوث (١) والأقطاب (٢) والأبدال (٣) والأوتاد (٤) والنقباء (٥) منها والولي (٦)

(١) جاء في الموسوعة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة أن هذه المصطلحات من وضع رجال الصوفية، وهي تدل عندهم على تقسيمات درجات الولاية، حيث يزعمون أن أولئك الرجال، يجتمعون في ديوان لهم في غار حراء، كل ليلة، ينظرون في المقادير، ومنهم من لا يعتقدون ذلك، ولكنهم أيضاً يأخذونهم وسائط بينهم وبين ربهم، سواء كان في حياتهم أو بعد مماتهم. والغوث: الإعانة والنصرة، وفي المصطلح الصوفي: الولي الذي ينقذ المرادين من الهلاك. ويقول ابن تيمية عن استخدام هذا المصطلح عند الصوفيين: "فأما لفظ الغوث والغيث فلا يستحقه إلا الله، فهو غوث المستغيثين، فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره، لا بملك مقرب، ولا نبي مرسل". مجموع الفتاوى ص ٤٣٧.

(٢) القطب قوام الشيء ومداره ومحوره، أي: سيد الأولياء عند الصوفية، والأقطاب هم الدعائم التي يقوم عليها صرح الوجود، وهم الواسطة بين عالم الأمر وعالم الخلق، وعددهم سبعة على عدد القارات السبع لحفظها. والقطب لا يقوم مقامه أحد، فهو الروح المصطفوي الذي يسري في الكون، سريان الروح في الجسد.

(٣) أحد المراتب في الترتيب الطبقي للأولياء عند الصوفية، ولا يعرفهم عامة الناس، ويزعمون أن لهم اقتداراً له أثره في حفظ نظام الكون، وسماوا البدلاء لأن البدل إذا فارق مكانه خلفه فيه شخص آخر، على صورته، حيث لا يشك الرائي أنه البدل، كما زعموا أن لهم القدرة على التطور والتشكل في أشكال عديدة، حتى أشكال الحيوانات، وترتيبهم في اعتقادهم على ترتيب السموات السبع، يحكم لكل بدل سماء، ويزعمون أن مقامهم عال، فيتوسلهم وشفاعتهم يستنزل المطر، ويستجلب النصر على العدو، وتتقى النكبات العامة، وبهم يحفظ الله العالم والكون، وأنه تنزل عليهم العلوم يوماً، استدلالاً بحديث منكر، أخرجه الطبراني في معجمه الكبير، وأبو نعيم في الحلة، عن ثابت بن عباس الأحمد عن ابن مسعود مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم: " لا يزال أربعون رجلاً من أمتي ... ". قال العلماء: لم يصح في الأبدال حديث. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ص ٩٥١، ٩٥٠.

(٤) مفردة وتدل. أي رئيس. والأوتاد عند الصوفية أربعة رجال، وهم أخص من الأبدال، والإمام أخص منهم، والقطب أخص الجماعة، منازلهم على منازل أربعة أركان من العالم: شرقي وغربي، شمالي وجنوبي، مع كل واحد منهم مقام تلك الجهة، ويزعم بعضهم أنهم يمثلون عيسى وإدريس وهارون والخضر عليهم السلام. على أنهم وزراء الغوث ومساعدوه، في أمور الحكومة الباطنية، ويحفظ الله بهم الجهات الأربع.

(٥) إحدى المراتب في الترتيب الطبقي للأولياء، عند الصوفية، ويقولون إن عددهم اثنا عشر نقيباً، من كل زمان، لا يزيدون ولا ينقصون، على عدد البروج الاثني عشر، وكل نقيب عالم بخاصية كل برج، بما أودع الله فيه من أسرار، وهم في درجة أعلى من النجباء، الذين هم أعلى درجة من الصالحين، وهم أربعون، قيل ثلاثمائة، ويزعمون أن مهمة النجباء إصلاح شئون السالكين، وحمل أقاليمهم، وأنهم المتصرفون في حقوق الخلق لا غير.

(٦) الولي: في الاصطلاح الشرعي: هو العالم بالله تعالى المواظب على طاعته، مع كمال المحبة والرضى لما يحب ويرضى، والسخط والبغض لما يسخط ويبغض، وهو المحب الموالى لأولياته، والمبغض والمعادي لأعدائه، وهو أحد خلص المؤمنين، وعند الصوفية: هو من تولاه الحق سبحانه بظهور أسمائه وصفاته عليه علماً وعيناً وحالاً. وأثره لذة وتصريف، فلا يرى في نظره غير الفاعل الحقيقي (الله تعالى)، والولي عندهم أيضاً هو من تولاه الله بكثير مما تولى النبي، من حفظ وتوفيق وتمكين واستخلاف وتصريف، كما يعتقد الغلاة منهم أن للأولياء أربعة مقامات: فمنهم من يقوم في عالم مقام الأولياء، ومنهم من يقوم في عالم مقام الرسل، ومنهم من يقوم في عالم مقام أولي العزم، ومنهم من يقوم في عالم مقام أولي الاصطفاء، بل قالوا أيضاً إن مقام الولي فوق مقام النبوة، لأن مقام النبوة ينقطع بانقضاء الحياة الدنيا، بينما مقام الولي لا ينقطع أبداً، ولا يحد بالزمان والمكان، وفضل الولي على النبي عندهم بالعلم، فالنبي يعلم علم الشريعة أي-علم التنزيل-الظاهر، بينما الولي يعلم علم الحقيقة أي-علم التأويل-الباطن، وأيضا الرسول والنبي يستمدان العلم من الملك الذي يبلغه الوحي الإلهي، بواسطته، ولا يمكنه الأخذ من الله مباشرة، لكن الولي يستمد المعرفة من حيث يأخذها الملك، أي من الله تعالى مباشرة، نعوذ بالله من الخذلان! بل جعلوا خاتم الأولياء هو منبع العلوم، ومصدر الفيض، لجميع الأنبياء والرسل. ويعلق ابن تيمية على هذا المبدأ قائلاً: " وهو لفظ باطل، لا أصل له، فإن أفضل أولياء هذه الأمة السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ثم العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم أجمعين. وخاتم الأولياء في الحقيقة هو آخر مؤمن تقي يكون في الناس ".



المنكرون لكل أمر منكر  
فسل المدارس والمنابر والندى  
وغدروهم بالأمان وصلحه  
فخدعتهم بالله جل جلاله

والقائمون بكل أمر معضل  
عنا وسل عنا الوغى إن تجهل  
بالدين والإسلام بعد تمهل  
بأمانه ويمينه المستعمل

#### • الختام والخروج:

كان المنتظر من البكاي - وإن جاز لنا عدّ غزله غزلاً صوفياً يقوم على الحب الإلهي الإيماني - أن يختم القصيدة على عادة الشعراء الصوفيين بصلاة عطرة على النبي صلى الله عليه وسلم، لكنه اختار المفاجأة فاختم بالغزل الذي كان قد بدأ به ليلوح أن كل ما يأتي عطر وطيب. وكان الغرض من تلطيف مخرجه هنا أن يُنسينا الفضاة التي أمسك فيها أنفاسنا طول هجائه المقذع، ولأن مقام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لا يقبل الجو الساخر الذي ساد على هذه القصيدة، فقال:

يا فخر أهل صانها من كل ما يرمي إلى التفضيل يوم الهوجل

ولولا أن عدوه حاول أن يعكر صفو حياته لاستغرقت الأبيات الغزلية كامل القصيدة، لأن - كما أثبتته في القصيدة - يهमे الحب ويشغله الغرام سواءً في أول أمره أو في آخره، بل مهما كانت الظروف والصعوبات التي يتعرض لها فإن جذوة هذا الحب تبقى في فؤاده مشتعلة ورغبته في الوصال متوهجة، لا يمكن أن ينساه بهوم الحرب ولا بمقارعة الرجال، لأن استعداده للحب والقتال في الوقت نفسه تام لا يختلف مقدار أحدهما عن الآخر حرقاً ولوعة.

وفي الختام نقول إن الشاعر - على الرغم من تجاوزه اللساني وانحرافه اللفظي - قد بقي مساوياً لنفسه في معظم أجزاء قصيدته، محافظاً على نمطه التعبيري القوي، إذ ظلت قدرته الصياغية على مستوى الجودة المنشودة الذي لزمه دون أن تنزل به عاطفته العارمة ولا غضبه الجارف عن التعبير السليم عما يجيش في صدره أو يحس به ويشعر. فكان في هجائه كأنما ينفث اللهب أو يضرب بمقارع من حديد، بعد أن تفنن في غزل رقيق وتلطف بديع، في الوقت الذي راح يعطر نفسه بمحامد الشمائل ناثراً على قومه الورود والزهور. ما جعل شعره دليلاً على شدة عارضته وقوة تأثيره.

إن القصيدة التمبكتية - بما حوت من سمات بدوية وملاح صحراوية يطفو عليها لون العرقية ورائحة الدماء، بفضل ما صورت من استخفاف بالآخر وتطاحن مميت في ربوع السودان الغربي - نموذج رائع ومثال حي لبناء القصيدة العربية في تمبكتو التي استمدت أصولها التعبيرية من القصيدة العربية الجاهلية، سواء في تعدد أغراضها أو خصائصها اللغوية وأساليبها البيانية والفنية، وفي ذلك نجاح باهر يضع البكاي في مستوى كبار الشعراء المبدعين ويعزز اختيارنا له نموذجاً للأدب التمبكتي المالي المكتوب بالعربية.

## الخاتمة

وفي ختام هذه الدراسة نقول إن تمبكتو اشتهرت في أول أمرها كمركز تجاري مهم في جنوبي الصحراء الكبرى حيث نشطت التجارة الإقليمية في المدينة بفضل توافد القوافل التجارية العابرة للصحراء، فضلاً عن قوافل الحج التي كانت تتبع الخط التمبكتي في اختراق الصحراء من ناحية الشمال الأفريقي وكذلك بتوافد المراكب والقوارب محملة ببضائع مدن الجنوب الغربي. فعمرت المدينة بالعديد من الأسواق والمحلات التجارية، تباع وتشتري فيها أنواع البضائع المختلفة من المواد الأولية والغذائية والمنتجات الاستهلاكية والأواني الفضية، وغيرها من السلع الضرورية.

لكنها ما لبثت أن تفجرت فيها حركة فكرية نشطة بتوافد التجار العرب والعلماء الفقهاء من البلاد العربية والبربرية الذين سكنوا المدينة بكل ما كانوا يحملونه من ثقافات وأفكار وأخبار عن العلم والعلماء والكتب والتأليف وحلقات التدريس والمناظرات وغيرها من أسباب العلم وعوامل المعرفة، متخذين في البداية من دورهم وأماكن عملهم مدارس يعلمون الناس فيها ويحفظونهم القرآن الكريم ويفقهونهم في دينهم، ما هياً لتمبكتو أن تصبح مركزاً فكرياً عظيماً يتمتع بإشعاع ثقافي وحضاري قوي كان له الدور البارز في نشر وتثبيت الثقافة الإسلامية واللغة العربية وما تعلق بهما من حضارة وتراث على نطاق واسع في السودان الغربي، ولا سيما تحولت مساجدها الكبيرة الثلاثة إلى مستوى جامعات أو معاهد علمية وتربوية، كانت منارات تجتذب الناس من مختلف أصقاع أفريقيا.

وبعد مرور عدة قرون من التزاوج والتصاهر بين السكان تكونت مجموعة أجناس هجينة متعددة منحدرة من اختلاط قبائل العرب والبربر تعلموا على أيدي آبائهم وأجدادهم في مدينتهم التي ولدوا فيها وتخرجوا في مدارسها، بعد أن تكونت لديهم سليقة عربية وسجية أدبية وأصبحوا بدورهم علماء وأساتذة اشتهروا بالتبحر في العلوم الإسلامية وبرعوا في اللغة العربية وآدابها وتملكوا منها النواصي فصاروا يؤلفون في شتى الموضوعات الدينية واللغوية والأدبية حتى أصبحوا ينتجون فيها مؤلفات ذات مستوى عال، وكانوا نماذج حية لتلاحم الثقافتين العربية والأفريقية وخير من يمثل أجدادهم.

لكن النهضة الأدبية الحقيقية في تمبكتو إنما كانت في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي على أيدي شعراء القبائل العربية الكبيرة من طوارق وأنصار وكننته ومن تتلمذ على أيديهم.

ففي هذا العصر نبغ شعراء كثيرون لمعت أسماؤهم وكانت لهم صولات وجولات في العديد من أبواب الشعر العربي لا يسع الواقف عليها إلا أن يعترف بنبوغهم وبراعتهم في الأدب ومجالاته المتعددة على الرغم من أنها أنتجت في بيئات أعجمية لا ينطق سكانها باللغة العربية ولا يتذوقون آدابها أصالة.

وقد تعاصر بعضهم وتزامنت عهوده حتى إنهم من أجل المنافسات القبلية والمصالح الفردية لم يسلموا - أحياناً - من التناطح فيما بينهم، كما حدث بين البكاي وبين كل من أحمد سالم وشاعري الأنصار محمد

(هم) بن الطاهر، ومحمد المختار بن حود. لقد اشتبكوا في صراعات حادة لا هواده فيها استمرت سنوات بعد أن تركوا آثاراً أدبية تمثل جزءاً مهماً من الثقافة المحلية المكتوبة باللغة العربية.

إن موجة الاضطرابات والفوضى السياسية التي اجتاحت المنطقة السودانية في هذا العهد وما نجم عنها من تعقيدات اجتماعية وعدم استقرار أمني تمخضت عنها حروب أهلية دامية طوال منتصف القرن التاسع عشر الميلادي هي التي انعكست عنها تلك المؤثرات الثقافية والفكرية التي كانت حافزة لبعث الأدب التمبكتي سواء في الشعر أو في المكاتبات وفن الرسائل التي ازدهرت بين البكاي وأقرانه من علماء وسلاطين عصره اقتضتها ظروف المشاحنات والحاجة إلى توضيح المواقف أو الدفاع عن المصالح.

لقد كانت مصدر إلهام للعديد من الكتاب وحافزاً قوياً للبكاي خاصة الذي كان يرى - بوصفه زعيماً للطائفة القادرية - ضرورة الوقوف أمام الزحف التجاني الذي اقتحم المنطقة في عهده - باتخاذ كافة الوسائل لصدده ومنعه من الوصول إلى عاصمته المقدسة تمبكتو. فراح يحبر الرسائل و يحرق الخطابات مستهدفاً منها تعبئة جيوشه وإشعال الأرض تحت أقدام التجانية وجيوشها. وقد تضمنت تلك الرسائل مجمل آرائه وأفكاره الدينية أي الصوفية التي كرس كل جهوده الأدبية والسياسية للدفاع عنها والترويج لها. لكنها اصطبغت لديه بالانفعال والغضب بصورة طاغية اتخذت في النهاية طابع العنف والقوة وأدت إلى اشتباكه مع أكبر قواد الجهاد الإسلامي وأعظم رواد حركة المقاومة الوطنية ضد الاستعمار.

ولا شك أن لتلك الحروب - وإن اندثرت آثارها اليوم بزوال أسبابها واندمجت قبائلهم جميعاً تحت حكم موحد هو دولة مالي الحديثة - دوراً مهماً في تحريك القرائح الأدبية في ضوء ما عثر عليها من قصائد عديدة حول حروبهم وماجرياتهما.

هذا وقد أمكننا أن نلاحظ كيف أن الشعر التمبكتي - في أغلبه - تقليدي يعتمد على محاكاة الشعر الجاهلي في فنونه وأغراضه وفي تشبيهاته وإيراد حوشي اللفظ وغريبه كخوضه في الغزل والهجاء والفخر والمدح واستخدام الكثير من المفردات القديمة.

وكذلك لاحظنا أن أدب هذا العصر كان وليد الحياة ونبت البيئة فرضته الظروف السياسية والاجتماعية التي عكسها صورة واضحة وواقعاً حياً في كل أبعاده وملابساته، كما عكس الحياة الاجتماعية وأحوال الأدباء في تمبكتو وما انطبعوا عليه من قيم ومشاعر باطنية وحدث تبرز ما انجبلوا عليه من البداوة والإحساس بضرورة الوفاء للقبيلة والدفاع عن الشرف والحرمان في بذل وتفان متأصلة في أعماق التراث السوداني في غرب أفريقيا، ما جعلنا نعدّه تراثاً مهماً ذا قيمة تاريخية وفنية أصيلة عكس طبيعة الحياة التمبكتية، إذ عرض الكثير من الأحداث والأمور الصعبة التي انتظمت أرجاء المنطقة.

ويلاحظ في آثار أدباء تمبكتو - كما هو شأن نظرائهم في كل بيئة علمية ووسط فكري - أنهم دأبوا على التنافس والتبارز بالقصائد عن طريق المراسلات بالخطابات والأجوبة كل يحاول إظهار وإثبات ما عنده من قدرة لغوية وموهبة فنية ويسعى إلى أن يشهد له بالغلبة والتفوق، لما يترتب على ذلك من مكانة وتقدير ينشدها كل عالم أو فقيه.

وتجدر الإشارة إلى أن البكاي كان عميد هذا الأدب وزعيمه غير المنازع وصاحب اليد الطولى بوصفه زعيم قبيلة وشيخ طريقة أشعل بثقافته الأدبية ومواهبه الفنية وقود نار الحركة الأدبية في تمبكتو، إذ استطاع بقدراته السياسية وحيويته الفكرية أن يؤثر تأثيراً ملحوظاً على مجريات الأمور في المنطقة، فحرك روحها الأدبية وفجر طاقاتها الإنشائية الكامنة، فجادت القرائح بالعديد من الأشعار رقت بالذوق الأدبي العام لتوصله إلى أقصى مدارك الإنتاج والإبداع أعادت لتمبكتو شيئاً من مجدها الفكري وبريقها الأدبي بعد تدهورها بسبب الغزو السعودي الذي أغرق المنطقة السودانية في ظلام الجهل والركود الفكري لمدة قرنين من الزمن.

وتبين لنا أن اهتمام البكاي بالشعر كان أكبر من اهتمامه بالنثر. كما أن أسلوبه في النثر تميز بالسهولة واللين بينما ظل في الشعر قوياً ومتيناً، ما جعله من أقوى الأدباء وأقدرهم أسلوباً وصياغة، إذ كان فيه أحرص على حسن الأداء وشدة العناية في انتقاء الألفاظ وصياغة التركيب، حتى كاد في غزله مثلاً أن يضاهي أصحاب المعلمات بفضل ما أظهره من إحكام السبك وجزالة الألفاظ ومتانة العبارات ورصانتها. وقد نتجت تلك المميزات من ترابط أجزاء الجملة التي جاءت في الأغلب على قدر المعاني مع وضوح الدلالة عليها. هذا على ما انطوت عليه أعماله من تجارب إنسانية ومشاعر صادقة، عبرت بجلاء عن انفعالاته المضطربة وعواطفه الساخنة حيال الأشخاص والقضايا التي كانت تجري على ساحة الأرض التمبكتية وما حولها.

ومن خلال دراستنا لنصوص البكاي النثرية والشعرية خلصنا إلى مجموعة من النتائج التي يمكن إجمالها فيما يلي:

أن مخطوطات البكاي النثرية بالنظر إلى أنها قد انصبغت في جميع صورها وأشكالها من حيث المعنى واللفظ بالروح الإسلامية فكراً وصياغة وخاصة بتلك الصبغة الصوفية التي طفحت بشكل طاغ على أعماله فهي تنحصر جميعاً تحت غرضين اثنين لا ثالث لهما، وهما الغرض السياسي والغرض الاجتماعي، علماً بأن الغرض السياسي - وإن كان مسيطراً على عقله وقلبه في جميع أوقاته وإلى حد بعيد - لم يكن مستقلاً أبداً، بل يأتي دائماً مشوباً بالمواضيع الأخرى وخاصة الصوفية التي لم يكن للكاتب قدرة على الفكك منها.

أما الغرض الاجتماعي فقد كان محدوداً ومحصوراً تناول القليل من الأغراض الاجتماعية كالوصية والوعظ والفتوى والاعتذار والعتاب وطلب الشفاعة، وإن جاءت مجتمعة مختلطة في معظم الرسائل ولو بفروق بسيطة غير ذي بال.

أما في الشعر فقد تبين من اللامية أن البكاي كان أبرز شعراء تمبكتو المبدعين على الإطلاق، إذ أظهرت أنه كان أطولهم في الشعر باعاً وأمدهم نفساً وأوسعهم لفظاً وأقومهم عبارة وأرصنهم تركيباً. كما أنها أثبتت مدى ما كان يتمتع به هذا الشاعر من موهبة شعرية وثقافة أدبية واسعة بجانب قدرته العالية على تقليد أساليب الشعر الجاهلي. ما جعلنا نركز عليها دراستنا كأفضل نموذج للأدب التمبكتي، بل ومثالاً حياً للشعر المالي المكتوب بالعربية، إذ جمعت في ثناياها أهم السمات الفنية والخصائص الأسلوبية التي تميزت بها القصيدة العربية في القديمة وفي تمبكتو.

وأن الشاعر على الرغم من انغلاقه داخل الأطر الجاهلية والصيغ القديمة لم يخصص قصائد للغزل أو الفخر، وإنما سلك طريقة الجاهليين للتوصل إلى غرضه الأساسي من الهجاء، فحشد غرضين جزئيين أثناء اللامية التي أراد أن يكرسها لهجاء أعدائه، لكنه طولها ووسعها لنتضمن أغراضاً شعرية أخرى كالغزل والفخر والحماسة أي وصف بعض الوقائع الحربية التي تناولها من وجهة رؤيته الخاصة.

غير أن تلك الأغراض الثانوية أخذت حيزاً مهماً في القصيدة، بحيث يمكن لو أفرد كل منها في أبيات مستقلة أن يمثل قصيدة كاملة، لما فيه من تكامل نسبي وما طرح فيه من قضية شعرية مهمة، وأيضاً لاحتوائه على الأهداف التي يساق لأجلها عادة، إضافة إلى أن تلك الأغراض ليست هنا قضايا منفصلة عن الهجاء ذلك الموضوع الأساسي في القصيدة، بل ترتبط به تمام الارتباط في انسجام تام وتوافق متكامل. أنه في شعره كان يتمسك بالأساليب الجاهلية، وكان شغله الشاغل تقليدهم في منهجهم القديم في الصيغ والمعاني والصور. وكان كل ذلك هدفاً قاصداً ومرتكزاً أساساً في شعره ليثبت أن لديه القدرة ذاتها والموهبة نفسها التي تمكنه من مجاراتهم.

أن التقليد لم يضر أدبه شيئاً، إذ لم يكن تقليداً أجوف ولا زخرفة لفظية فارغة أو سعياً وراء أصول البيان العربي دون جدوى. فبدلاً من يسم التقليد شعره بالعقم والجمود أو يطبعه بطابع التكلف والافتعال الذي يشين الأعمال الأدبية أو يسلبها قيمتها الفنية ظل أسلوبه قوياً جزلاً لما انطوى عليه شخصياً من ذكاء وقدرة فنية زينت عمله بما أضفى عليه من سجيته اللغوية وعفويته البيانية، ما أظهر براعته في نظم الشعر القوي المتين ونأى بعمله من الضعف والإسفاف.

لكن ثمة خاصية جليلة القدر تميزه عن الجاهليين، وذلك على الرغم من تتلمذه على مائدتهم هي الروح الإسلامية الواضحة المتجلية في جميع نصوصه سواء في ألفاظها ومعانيها ورموزها وسيرها وإشاراتنا التاريخية المستمدة من صميم السيرة النبوية وواقع التاريخ الإسلامي، متخذاً منها مرتكزاً أساسياً تقوم عليه جميع مواضيعه جميعاً لتغلغل الثقافة الإسلامية في أعماقه التي ما كان يستطيع أن يتغافلها مهما حاول ذلك لوجوده في الإسلام طفلاً وتشربه من معينه كبيراً لم يعرف طوال حياته ثقافة ولا حضارة غيره. وبذلك اتجه أدبه تلقائياً مع ما تميز به من غرابة وجزالة وقوة اتجاهاً دينياً، مستمداً أسس معانيه وركائز مواضيعه من الفضائل العربية القديمة والخصائل الإسلامية ما جعل أدبه يشع بومضات من نور الإيمان وهدى الإسلام.

أن أعماله - شعرا ونثراً - بما حملت من ملامح البداوة وأثر البيئة الصحراوية بشظفها وقساوتها جسدت الحياة التمبكتية بجميع مظاهرها خير تجسيد، إذ أسفرت عن صورة صادقة للبيئة الصحراوية بما فيها من بؤس وفقر وشقاق وصراع من أجل أسباب القوة والبأس، فجاءت سجلاً حافلاً بعاداتهم وطموحاتهم وأخلاقهم والمؤثرات التي أثرت فيها والنتائج التي نجمت عنها. وكان من أسوأ تلك النتائج النهاية المؤلمة التي اغتالت جميع زعماء المنطقة في سنوات قليلة.

ولكون قصيدته اللامية أبرز جهود الشاعر الأدبية لما تضمنت من طول نفس وروعة بناء وإبداع فني قام على جزالة في اللفظ وقوة في المعنى كما أنها أصدق دلالة على نفسه وشاعريته، بما احتوت من عواطف حقيقية وشدة انفعال فقد عدناها من روائع الأدب في تمبكتو وصنفناها في عيون الشعر التمبكتي. كما أن إبداع الشاعر الفني وما اتسم به من صدق سواء في الإحساس أو في التعبير هو الذي جعل البكاي أحد أبرز الأدباء الذين يمثلون الحركة الأدبية في تمبكتو.

## التوصيات

- ١ - ضرورة الاهتمام بجمع قصائد البكاي وتحقيقها ثم تصنيفها حسب الموضوعات والفترات والمناسبات واختيار ثم وضعها في ديوان خاص يحمل اسمه. ما يستحق منها الدراسة في المناهج التعليمية المختلفة.
- ٢ - الاهتمام بدراسة جميع الكتاب والشعراء وآثارهم سواء كانوا من معاصري البكاي أو غيرهم.
- ندعو الباحثين إلى الاهتمام بالعمل الذي قدمناه عن البكاي لتنميته، إذ الكمال لله وحده، ولا يخلو أي عمل مهما بلغ من الجودة والإتقان من نواحي قصور ونقص يحتاج إلى تطوير مستمر.
- ٣ - توجيه ودعوة الباحثين إلى الاهتمام بالأدب المالي المكتوب بالعربية ودراستها من الناحية العلمية والفنية لإبراز مواطن الجمال فيه وإعطائه الفرصة للتعريف به ونشره.
- توجيه الجهود وتشجيعها للقيام بتحقيق المخطوطات الأدبية شعرها ونثرها استعداداً لإدماج أحسنها في المناهج الدراسية.
- ٦ - دعوة كليات الآداب وأقسام اللغة في جامعات الدول العربية لإقامة العلاقات الأكاديمية في المجالات العلمية والبحثية مع كلية الآداب في جامعة مالي ومعهد العلوم الإنسانية ومعهد الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بتمبكتو للتعاون والتنسيق معها في دعم البحوث والدراسات العربية في مالي.
- ٧ - العمل على تطوير مناهج التعليم الجامعي في اللغة وخاصة الأدبية في المراحل العليا، لتكوين لغويين وأدباء متخصصين يكون همهم البحث العلمي في مجال اللغة والآداب.
- ٨ - وضع صور لفهارس المخطوطات الموجودة بمركز أحمد بابا بتمبكتو في مكاتب المؤسسات التعليمية العالية والبحثية لتسهيل الوصول إليها والتعرف على محتوياتها وليكون ذلك دافعاً للتفكير في البحث في مجالاتها المختلفة.
- وبما أن آثار الكاتب لا تزال مخطوطات، يتوفر معظمها في مركز أحمد بابا بتمبكتو فإنه ينبغي الاهتمام به وصرف أعمال الباحثين من الطلاب إلى ما يحويه هذا المركز من مخطوطات للتعريف بها وعرضها للتحقيق والنشر.
- وهذا يوجب اهتمام الجهات العلمية والمؤسسات التعليمية العالية بالمركز بوصفه مكتبة عامة يحتاج إلى أن يدعم بكل ما يمكن من تجهيزات وآلات تساعد على حفظ وصيانة المخطوطات وتسهيل وصول الباحثين إليها.
- تكثيف الزيارات العلمية والميدانية من قبل المهتمين لتفقد أحوال المخطوطات وتعهد مرافق المركز بما يضمن سلامة المحتويات ومراقبة سير العمل فيها.
- ٩ - أن تحرص جامعة مالي على اقتناء صور فيلمية للمخطوطات وإيداعها في مكاتبها لتمكين الطلاب والأساتذة من الاطلاع عليها بسهولة ما يحفزهم إلى تقديم الأبحاث في مجالاتها المختلفة بما يفيد تقدم العلم وتطوره.

تشجيع ودعم مشاريع البحث والتقيب عن المخطوطات الجديدة، إذ لا شك أن ما فقد أو ضاع منها أكثر مما اكتشف حتى الآن .

١٠ – المساهمة في تأسيس نظام تعليمي دائم بالمركز لتوفير المتخصصين في حفظ وصيانة المخطوطات وتدريبهم المستمر .

**الباحث**



الملاحق

## فهرس الآيات

١- (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون)سورة الأعراف آية: ٢٠١

صفحة ١١١

٢- (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون).

صفحة ١١١

سورة النحل، آية: ٩٠

٣- (أوذينا من قبل أن تأتينا، ومن بعد ما جئتنا، قال عسى ربكم أن يهلك عوكم ويستخلفكم في الأرض).

صفحة ١١٠

سورة الأعراف، آية: ١٢٩

٤- (فإذا عزم فتوكل على الله). سورة آل عمران آية: ١٥٩

صفحة ٦٧

٥- (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء).

صفحة ١١٠

سورة آل عمران، آية: ٢٨

٦- (واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعههم

صفحة ١١٠

وما يعدهم الشيطان إلا غروراً). سورة الإسراء، آية: ٦٤

٧- (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب).

صفحة ١١١

سورة المائدة، آية: ٢

٨- (وما أبرؤ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم).

صفحة ١١١

سورة يوسف، آية: ٥٣

٩- (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطانا

صفحة ١١٠

مبيناً). سورة النساء، آية: ١١٤.

## فهرس الأحاديث

١- (صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله! كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: "أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم، فسيري اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار).

رواه الإمام أحمد في المسند ٤/ ١٢٦، ١٢٧.

صفحة ٧٩

٢- (الناس تبع لقريش، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم، إلى أن قال: لا يعاديهم أحد إلا كبه الله لوجهه). (حديث موضوع، لم يروه العلماء)

صفحة ١١١

٣- (وصف نبي الله أبدال أمته، فذكر أنهم لم يفضلوا الناس، بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بسخاوة النفوس، وسلامة الصدور، وحسن الخلق). (حديث موضوع، لم يروه العلماء)

صفحة ١١١

## فهرس الأبيات

أرقت لبرق العارض المتهلل	عيناك فانهما بدع مسبل	بحر الكامل	صفحة ٤٠
ألا أبلغ إلى المتمردينا	بني الكنتي وغد الأوغدينا	البحر الوافر	صفحة ٤٣
إني أقول لمن أضحت معاقله	غياضة جن وينتاب بها أيكاً	البحر البسيط	صفحة ٤٢
إني بسادة هذه الأزمان	أهل السعادة سادتي خلصاني	البحر الكامل	صفحة ٤٧
أياخذة والسيف والرمح قائم	على شرف كان للشيخ مقصد	البحر الكامل	صفحة ٥٤
أيا قاصداً كاغو فعج نحو بلدتي وزمزم	لهم باسمي وبلغ أحبتي سلاماً عطيراً	البحر الطويل	صفحة ٣١
بحمد الله رب العالمينا	بدأت مديح خير المرسلينا	البحر الوافر	صفحة ٦٧
بسيط شعري لا تنفك تبسطه	على لساني أبحار وأسيال	البحر البسيط	صفحة ٤١
تبلت فؤادك زينب بدلالها	وبهجرها وبضنها ونوالها	البحر الكامل	صفحة ٤٠
دعوتك يا من لا يخيب داعياً	وجئت إلي أبواب فضلك ساعياً	البحر الطويل	صفحة ٣٧
طرقت نفيسة والدجى لم ينجل	وسنان من طول السرى في الهوجل	البحر الكامل	صفحة ١٥٣
فلما رأيت الشوق لا بد قاتلي	نهضت إلى أفتاد أعوج بازل	البحر الطويل	صفحة ٤٣
لاحت لريا بسفح الطود أطلال	كأنها من برود الوشي أسمال	البحر البسيط	صفحة ٤١
ما زال طعن الكماة السادة الصيد	دأبي ورشف رضاب الخرد الغيد	البحر البسيط	صفحة ٤١
وليلق سمعاً لما قد كنت أرويه	عن القريحة من بالقول أعنيه	البحر البسيط	صفحة ٤١
يال بيت نبي الله حبكم	فرض من الله في القرآن أنزله	البحر البسيط	صفحة ١١٨
يا صاح عج بالجمال	على الربوع البوالي	البحر المجتث	صفحة ٣٦

## فهرس الأعلام

١١٧ ، ٨٤	إبراهيم
٢	ابن بطوطة
١٠	ابن خلدون
١٧١	ابن رشيق
١٧	أبو إسحاق الساحلي
١٢	أبو مخلوف
١١٧ ، ٩٥ ، ٧٥ ، ١٧	أبوبكر
٦٨ ، ٦٣ ، ٦٠ ، ٤٩ ، ٣١ ، ٥ ، ٢	أحمد بابا
	أحمد بابير بن ألفا ميغا
٩٠ ، ١٠٠ ، ٨٦ ، ٨٤ ، ٨٠ ، ٧٧ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٦ ، ٦٥ ، ٦٤ ، ٦٣ ، ٦٢ ، ٥٣ ، ٣٤	أحمد بن أحمد
١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٧	
٢٨	أحمد بوبو باري
١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٧٧ ، ١٤٦ ، ٤٠ ، ٣٩ ، ٣٢ ، ١٠	أحمد سالم
١	أحمد عبيده
١٩٥ ، ١٧٦ ، ١٦٣ ، ١٣١ ، ١١٧	آدم
١٧ ، ٦	أسكيا داود
١٢ ، ٨	أسكيا محمد
١٧٠	الأخطل
١٢٥ ، ١١٨ ، ٩٦ ، ٩١ ، ٩٠ ، ٧٩ ، ٧٥ ، ٦٨ ، ٦٥ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٣٣	الأكنسوس
٤٦	البرتيلي
٤١ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٣٧ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٣٤ ، ٣٣ ، ٣٢ ، ٢٩ ، ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ١٩ ، ١٤ ، ١١ ، ٢	البكاي
٤٢ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦	
٦٧ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧	
٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١	

١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨،	
١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢،	
١٦٣، ١٦٤، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٨، ١٧٦، ١٧٩، ١٨١، ١٨٨،	
١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠،	
٨٧، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤	التجاني
٩٢	الجنيد
٨٣، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٦، ٩٨، ١٢٨، ١٢٩	الجيلي
٣٣، ٣٤، ٣٩، ٣٦، ٥٣، ٥٦، ٦٢، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٨٠، ٨١،	الحاج عمر
٨٢، ٩١، ٨٦، ٨٤، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٤،	
١١٧، ١١٩، ١٢١، ١٢٦، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٥، ١٣٧، ١٥٣، ١٦٤، ١٨٠، ٢٠٠،	
٨، ٤٢، ٧٥، ٩٧، ١١٧	الحسن
٨، ٤٢، ٧٥، ٩٧، ١١٧	الحسين
٢٨، ٧٠، ١٣٠	الدجال
١٣، ١١٧	الرقاد
٢١	السيد الفقيه
٧٥، ٩٨	الشافعي
٤٦	الشنقيطي
١٧، ٢١	العاقب بن محمود
١٧٠	الفرزدق
٢١٤، ٢٥٠	المختار الصغير
٢٤، ٣٢، ٤٤، ٤٥، ٤٨	المختار بن أحمد
٩٩	المسيح بن مريم
١١	المنصور السعدي
٧٥	المهدي
١٣	الهادي ولد
١٣	الهمال
١٥٤، ١٦٧	امرؤ القيس
٦٢	أواب
١٧٥، ١٧٦، ١٨٣	باب أحمد
٧٠، ١٢٠	بابيراه

٥٧ ،١٤	بادي
٨٤ ،٥٧ ،٥٤ ،٥٣ ،٥٢	بارث
٥٧	باي
١١٨	بلال بن رباح
٣٤ ،٢٦	بنا علي بن موزون ديارا
٥٠ ،٤٧ ،٢٧	بول مارتي
٥٧	ترنتيان
٢٩ ،٢٨	تيديانى
٦٩	جاوندو كبار
١٧٠	جرير
١٧١ ،١٦٤	حام
٥٣	حمادي
١١٧ ،٩٧	خديجة
٥٢	دوفريتي
٢٧	ديوكا سامبالا ديالو
٥٧	زين العابدين
٤٠	زينب
١٩٥ ،١٧٦ ،٨٣	سام
١٠٧	سيد عبدل
٤٦	سيدي علي النجيب
١٨	سيدي يحي التادلسي
٤٦	سيديا
١٤٦	صالح
١١٧ ،٩٧	عائشة
٢١	عبد الرحمن التميمي
٢٢ ،٢	عبد الرحمن السعدي
٢١	عبد الرحمن بن أبي بكر بن الحاج
٥٥	عبد الكريم المغيلي
١١٧ ،٩٧ ،١٧	عثمان

١٨٣	عثمان بن هنون
١٥٣	عدنان
٧٥ ، ٤٩ ، ٤٥ ، ١٣	عقبة بن نافع
٩٧ ، ٤١ ، ١١ ، ٨	علي
١١٧ ، ٩٧ ، ٧٥ ، ١٧	عمر
١١٧ ، ٨٠ ، ٧٦	عيسى
١٠٤	غداد
١١٧ ، ٩٧ ، ٨	فاطمة
١١٨	كافور
٢١ ، ٢٠ ، ١٧ ، ٨ ، ٤	كانكو موسى
٥	لانز
١١٨	لقمان
٥١ ، ٤٩	لينج
٢	ليو الأفريقي
٢٣ ، ٤	محمد الغربي
١٠٧	محمد المختار أحمد الحبيب
٤٢ ، ٣٣ ، ٣٢ ، ١١	محمد المختار بن حود
٣٢	محمد المختار الكنتي
١٨	محمد النهدي
٢٣	محمد باغايفو
١٣٠ ، ٦٢	محمد بل
١٩١ ، ١٨٨ ، ١٤٩ ، ١٤٨ ، ١٤٧ ، ٥٧ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ١٤	محمد سعيد القشاط
٤١ ، ٣٣ ، ٣٢ ، ١١	محمد هم بن الطاهر
٢١	محمود أقيت
٢١ ، ٢	محمود كعت
٢	مهدي رزق الله
٢	موسى
٥٠	مولاي أحمد بابير
١٢	مونجو
١٧٨ ، ١٧٦ ، ١٥٨ ، ١٥٧ ، ١٥٦ ، ١٥٥ ، ١٥٤ ، ١٥٢ ، ١٥١ ، ٤٠	نفيسة



١١٧، ٨٤

نوح

١١٧

هود

٩٧، ٨٩، ٧٦، ٧٥، ٦٨، ٦٥، ٦١

يركوي تالف

١٦٢، ١٤٦

يعقوب

## فهرس الأماكن

١١٠، ١٠٥، ١٠٠	أتوات
٤٥، ٤٤، ٥، ٣، ٢	أروان
١٠	استيديراتن
١٣	أغومار
١٥٧	أقل
٣١	الأندلس
١٣، ٣	الجزائر
١٥٧	الشب
٥٠	المبروك
٤١، ١١	المدينة المنورة
٣	النيجر
١٠	آبير
٢٨	باجنقارا
١٥، ١٢	باجيندي
٧	باماكو
٥٢	بريطانيا
١٣	بواجبيهه
٧	بوري
٤٦	بولنوار
٥	بير
١٠	تادمكت
١٨٥، ١٨٤	تتبارى
٦	تغازة
١٨٥، ١٨٤	تكلكل
٢٠، ١٩، ١٦، ١٧، ١٨، ١٥، ١٤، ١٣، ١٢، ١١، ١٠، ٩، ٨، ٧، ٦، ٥، ٤، ٣، ٢، ١	تمبكتو
٤٨، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٢، ٤١، ٣٩، ٣٧، ٣٦، ٣٤، ٣٣، ٣٢، ٢٩، ٢٨، ٢٦، ٢٥، ٢٤، ٢٣، ٢٢، ٢١	
٨٤، ٨٥، ٨٦، ١٠١، ٨٣، ٧٥، ٧٣، ٦٤، ٦١، ٦٠، ٥٨، ٥٧، ٥٦، ٥٥، ٥٤، ٥٣، ٥٢، ٥١، ٥٠، ٤٩	
٢٠٢، ٢٠٠، ١٩٧، ١٧٦، ١٥١، ١٤٩، ١٤٦، ١٤٥، ١٤٤، ١٣٤، ١٢٥، ١١١	

٥	تونس
١٧، ١٦	جنقيراي
٢٧	جوليبا
٧١، ٣، ١	جيني
٨٦، ٨٥، ٥٦، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٦، ٢٥	حمد الله
١٥٤	دارة جلجل
٦، ١	دندي
٢٣	ديبو
١٧، ١٦	جينقراي بير
٥٦	سارادينا
٢٣، ١٨، ١٧	سانكوري
٥	سجلماسة
١٣	سرت
٥٢، ٢٨	سوكوتو
١٠	سيداموس
٧٨، ٧٥، ٦٣، ٣٤، ٢٨، ٢٧، ٢٦، ٢٥، ١٦، ٧، ٦	سيقو
٢١، ١١	فاس
٥	فراندي
١٤٦، ١٣٥، ١١١	فوته
٤٤	قاوو
١٤	قورمه
٣١	كاغو
٥	كانم
٢٧	كاياوال
١٩٤، ١٨٤	كراع البحر
٤٤	كيدال
١٣	لييبيا
١٥٤	مأسل
٩٩، ٩١، ٨٤، ٧٧، ٦٦، ٥٦، ٥٤، ٥٢، ٣٦، ٤٤، ٣٤، ٣٣، ٢٨، ٢٦، ٢٥، ٢١، ٥، ١	ماسنا
	١٢٤، ١١٠، ١٠٩، ١٠١، ١٠٠

٢٠١ ، ١٩١ ، ١٤٦ ، ٧٠ ، ٦٠ ، ٥٨ ، ٥٧ ، ٣٤ ، ٣٢ ، ٢٩ ، ٢٠ ، ١٨ ، ١٤ ، ١٣ ، ٥ ، ٨ ، ٣	مالي
٣١ ، ٢٢ ، ١٣	مراكش
٥	مصر
٣١ ، ٥	المغرب
٤٦ ، ١٣	موريتانيا
١٤	نيجيريا
٥	هوجار
١٩٤ ، ١٨٤	وادان
٤٣	وادي جنبكر
٥٠ ، ٤٩ ، ٢١ ، ٦ ، ٥ ، ١	ولاته

## المخطوطات

١ - أحمد البكاي الكنتي:

- ١- الإفادة (مخطوط رقم ٢٨٨٠) الموجهة إلى الشيخ أحمد بن الشيخ أحمد الماسني، مركز أحمد بابا.
- ٢- بغية الألف في جواب يركوي تالف (مخطوط رقم ٤٨٦٠) مركز أحمد بابا.
- ٣- الرسالة الأولى إلى أحمد بن أحمد في التحريض على الحاج عمر (مخطوط رقم ٢٢٣٠) مركز أحمد بابا
- ٤- الرسالة الأخيرة (مخطوط رقم ١) الموجهة إلى أمير الفلان أحمد بن أحمد الماسني مركز أحمد بابا.
- ٥- الرسالة الأولى ضمن مجموعة (رقم ٥٠٥٦) الموجهة إلى الحاج عمر، مركز أحمد بابا.
- ٦- الرسالة الثانية ضمن مجموعة (رقم ٥٠٥٦) الموجهة إلى الحاج عمر، مركز أحمد بابا.
- ٧- الرسالة الثالثة ضمن مجموعة (رقم ٥٠٥٦) الموجهة إلى الحاج عمر، مركز أحمد بابا .
- ٨- الرسالة (رقم ٤٠٢٥) الموجهة إلى غداد بن علي . مركز أحمد بابا .
- ٩- فتح القدوس في جواب محمد بن أحمد أكنسوس (رقم ٥٦٧) مركز أحمد بابا.
- ١٠- الفتوى (رقم ٥٩٤٣) في حكم المطلقة ثلاثاً، مركز أحمد بابا.
- ١١- النصيحة (رقم ٢٨٨٣) الموجهة إلى الإمام أحمد بن أحمد الماسني، مركز أحمد بابا.
- ١٢- الوثيقة (رقم ٣٥٥٤) في تأمين جاوند وكبار أمانة تامة، مركز أحمد بابا.
- ١٣- الوصية (رقم ٣٩١١) الموجهة إلى أبنائه، مركز أحمد بابا.

٢ - مرتضى الأنصاري:

نثار الأخبار في بقايا الأنصار في صحراء تمبكتو (مخطوط) في مكتبة المؤلف.

٣ - محمد بن المختار الكنتي:

الطرائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالد والوالدة (١١٧٣) مركز أحمد بابا.

٤ - محمد أحمد الحسني الأدرعي:

إتحاف المودود، بالجواب عن أسئلة الابن محمود (مخطوط) مكتبة الصديق الأنصاري.

٥ - محمد محمود يحي الأنصاري:

إسعاف المشوق في التعريف بآل السوق (مخطوط) مكتبة الصديق الأنصاري.

٦ - موسى محمد الإدريسي:

لمحات وقبسات عن الطوارق في الصحراء (مخطوط) مكتبة الصديق الأنصاري.

٧ - مولاي أحمد بابير الأرواني:

السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تمبكتو البهية (مخطوط) (١١٥٩) مكتبة الصديق الأنصاري.

## المصادر

- ١- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي:  
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (كتاب التحرير، القاهرة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م) .
- ٢- ابن خلدون، عبد الرحمن:  
العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (دار  
الكتاب اللبناني، بيروت، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م) .
- ٣- ابن رشيق ، أبو علي الحسن:  
العمدة، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ( القاهرة: مطبعة دار الجيل، ط الرابعة، ١٩٧٢م) .
- ٤- ابن منظور، أبو الفضل أحمد جمال الدين بن محمد بن مكرم:  
لسان العرب (بيروت: دار صادر، دون تاريخ) .
- ٥ - الأصفهاني، أبو الفرج:  
الأغانى، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، (بيروت: دار الثقافة، ط ٤، ١٣٩٨هـ/١٩٦٨م)
- ٦- البرتلي، أبو عبد الله الطالب:  
فتح الشكور، في معرفة أعيان علماء التكرور (تحقيق إبراهيم الكتاني، ومحمد حجي، بيروت، دار المغرب  
الإسلامي، ١٩٨١م) .
- ٧- التمبكتي أبو العباس أحمد بابا:  
نيل الابتهاج، بتطريز الديباج؛ إشراف وتقديم عبد الحميد الهرامة، (منشورات كلية الدعوة الإسلامية،  
طرابلس ١٩٨٩م) .
- ٨ - خير الدين الزركلي:  
الأعلام (الطبعة الثالثة، بدون ناشر، بدون تاريخ) .
- ٩- السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر:

تاريخ السودان (نشر هوداس وبنوه، باريس، ١٣١٦هـ/١٨٩٨م)٠

١٠- كعت، محمود:

تاريخ الفتناء في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ووقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد والأحرار (نشر هوداس ودلافوس، مطبعة بردين، باريس، ١٣٣٢هـ/١٩١٣م)٠

١١- ليو الأفريقي:

تاريخ ووصف أفريقيا (أدريان ميزونيف، باريس، هاتيه ١٩٨١).

١٢- مارتى، بول:

١- دراسات حول الإسلام، في قبائل السودان: من عرب مالي، البرابيش، بنوحسان (تعريب محمد محمود ولد ودادي، دمشق: مطبعة زيد بن ثابت ١٩٨٥م ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م).

٢- دراسات حول الإسلام في قبائل السودان: من عرب مالي والنيجير، كنته الشرقيون (تعريب محمد محمود ولد ودادي، دمشق: مطبعة زيد بن ثابت ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م)٠



## المراجع

١- أحمد، مهدي رزق الله:

حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب أفريقيا قبل الاستعمار وآثارها الحضارية (مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

٢- جي.دي. فيج:

تاريخ غرب أفريقيا (ترجمة وتقديم وتعليق السيد يوسف نصر مراجعة بهجت رياض صليب، القاهرة: دار المعارف ١٩٨٢م).

٣- سوالمية، محمد عبد الرحمن:

تمبكتو جوهرة تغمرها الرمال تحقيق ميداني (بيروت، مطبعة المتوسط، الطبعة الأولى ١٩٨٦م).

٤- الشافعي، الإمام محمد بن إدريس:

ديوان الشافعي الجوهر النفيس في شعر (الرياض، مكتبة السباعي، د ت).

٥- الشنقيطي، أحمد الأمين:

الوسيط في تراجم أدياء شنقيط (القاهرة، المطبعة الجمالية، ١٣٣٠هـ/١٩١١م).

٦- الغربي، محمد:

بداية الحكم المغربي في السودان الغربي (بغداد، دار الرشيد، ١٩٨٢م).

٧- قداح، نعيم:

أفريقيا في ظل الإسلام، مراجعة عمر الحكم (كوناكري، دن، ١٩٦٩م).

٨- القشاط، د. محمد سعيد:

١- نماذج من الشعر العربي في الصحراء (بيروت، دار الملتقى للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٩٦م).

٢- من نقائض الشعراء العرب في الصحراء (بيروت، دار الملتقى للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٩٦م).

٣ - أزواد أو صحراء التينيري ( طرابلس، ليبيا، مؤسسة ذي قار، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م).

٤ - صحراء العرب الكبرى (مؤسسة ذي قار، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م).

٥ - أعلام من الصحراء (مؤسسة ذي قار، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م).

٩- لجنة الإدماج سانت - تمبكتو:

تمبكتو (أوبين ، مطابع الأعلام، نوفمبر ١٩٨٦م).

١٠- منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة:

الحضارة الإسلامية في مالي ISESCO (الرباط، مطبعة الهلال العربية، ١٤١٧هـ/١٩٩٩م).

١١- ميغا، أبوبكر إسماعيل:

الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي (الرياض، مكتبة التوبة، ١٩٩٧م).

١٢- ياتارا، دمبا:

التطورات السياسية والاجتماعية في السودان الغربي (باريس ، ميزون نيف ، ١٩٨٩م).

## الدوريات

### ١- بطران، عزيز

سيدي المختار الكنتي ودوره في نشر الإسلام وطريقة القادرية في غرب أفريقيا (الموقف، عدد ٢، شوال/يونيه ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، الرباط، المغرب) ٠

### ٢- الحنفاوي، أحمد البهي:

أضواء على تاريخ الثقافة العربية في غرب أفريقيا (مجلة الأزهر، الجزء السابع، سنة ٢٧، رجب ١٤١١هـ/يناير/فبراير ١٩٩١م).

### ٣- زبادية، عبد القادر:

القرن السادس عشر وحركة التعليم في تمبكتو (المؤرخ العربي، مركز التبادل الثقافي الأول مع العرب، عدد ١٤، سنة ١٩٨٠م ص ٢٠٥-٢٢٨).

### ٤- الزبير، محمود عبده:

دراسة عن المخطوطات العربية في جمهورية مالي (مجلة معهد المخطوطات العربية، عدد ١، جمادى ٢، ١٣٩٨هـ/مايو ١٩٧٨، ص ٢٠٣ ت ٢٠٧٠).

### ٥- سليم زبال، أوسكار دميري:

أنقذوا تمبكتو (العربي، الكويت، عدد ٤٤، ربيع ١٣٩٩هـ،/مارس ١٩٧٩م، ص ٦٨-٩١).

### ٦- شاه، طاهر:

التراث الإسلامي لمدينة تمبكتو، ترجمة حمدي يوسف الكتوت (القافلة، طهران، صفر ١٤١٧هـ-يونيو ١٩٩٦م ص ٢٥-٣٠).

### ٧- طرخان، إبراهيم:

الإسلام واللغة العربية في غرب أفريقيا (مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢٧، عدد ١-٢، مايو ١٩٦٥م).

### ٨- هانويك، جون:

اللغة العربية ومظاهرها في غرب أفريقيا، (مجلة معهد المخطوطات العربية مجلد ٢٤، ج ١، جمادى ١-٢، مايو ١٩٧٨م، القاهرة، (ج ٠م ٠ع) ص ١٧٥-١٨٧).

### ٩- الهرامة، عبد الحميد:

تيمبكتو نافذة على التاريخ والتراث الإسلامي (مجلة كلية الدعوة الإسلامية، عدد ٤، ١٣٩٧هـ/١٩٨٧م، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، طرابلس ص ٢٢٨-٢٣٥).

## المراجع الأجنبية

- 1-ABITBOL, Michel; Tombouctou et les Arma, Paris, Maisonneuve et Larose,1979.
- 2- DUBOIT, Felix; Tombouctou la Misterieuse, Paris, Hatier, 1972. Recueil des sources arabes concernant l'afrique occidentale du VIIe au XVIe siecle
- 3 - CISSOKO, Sekene Mody, Tombouctou et l'Empire Songhay, Editions NEA, Dakar-Abidjan, 1975.
- 4- Comite de Jumelage Saintes-Tombouctou, 1986
- 5 - DIARRA, Bintou Sanankoua, L'organization politique du Maassina (Diina), Doctorat de 3e Cycle d'histoire soutenue a l'universite de Paris 1, Pantheon – Sorbone 1982.
- 6- Imperato, Pascal Jams, Historical Directory of Mali ( second edition, the Scarow Presse Inc, Metuchen. N.J, & London, 1986)
- 7 - KONARE, Adame Ba; Sonni Ali Ber, Etude Nigeriennes, No:40, 1972
- 8 - KONARE, Alpha Oumar, Panorama Historique Du Mali,1985
- 9 - MARTY, Paul, Etude sur l'islam et les tribus du Soudan; Les Kounta de l'Est, Edition Ernest Leroux, Paris 1920, Tom 1.
- 10 - Ould Ali, Sidi Ammar; Ahmade Al Bakkaye, Revue Sankore, N0:1, CDRAB,1985
- 11 - Zoubeir (M.A), Ahmed Baba de Tombouctou (1556-1627) sa vie et son oeuvre; Maisonneuve et Larose, Paris 1977.

## نصوص نثرية منقولة من مخطوطات

(١) فتوى أو رسالة ( رقم ٤٠٢٥ ) موجهة إلى غداد بن علي:

" الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده .

من عبد ربه أحمد البكاي بن محمد بن المختار بن أحمد . بالسلام والإكرام إلى أخيه حقاً وحببيه صدقاً  
وصديقه قطعاً وصفيه شرعاً وأليفه طبعاً السيد السخي غداد بن علي أعلى الله كعبه وقدس قلبه وغفر ذنبه  
وفرج كربه وأمن سره" .

وبعد:

" يا أخي ويا حبيبي لا يضرنك كلام الناس ولا وسوسة الوسواس عما طلبت من النكاح فإنه من  
الصلاح وما فيه جناح بل فيه نجاح وعاقبته فلاح . فتوكل على الله واعزم ولا تتأخر وأقدم . فلا بأس  
ولاضرير بل الخير لا غير .  
وسلم مني على أخي وأخيك وحببي وحببيك الإمام أحمد بن الإمام أحمد ثم على ابنك بل على جميع آلِكَ  
وعيالِكَ . بارك الله في الجميع . والسلام .

## (٢) وثيقة ( رقم ٣٥٥٤ ) في تأمين جاوند وكبار أمانة تامة:

" بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبيه الكريم .

أما بعد :

ليعلم من سيقف عليه أن أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين الشيخ سيدي أحمد البكاي بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار نجل السادات الأبرار قد أمن جاوندوكبار أمانة تامة نفسية ومالية، إلا أنه عزره بمائتي ألف عجمية ترديعاً له عما ثبت من إعانتته لقوم الدجال. فلا يتعرض له أحد بعد في ذلك، لأنه تاب ورجع . وتقبل الله منا ومنه .

وبه كتب من أمره بكتبه عبيد ربه أبو العباس بن عمر بن سيد زيان . كان لله له لسلامة المحمدية ولياً

ونصيراً آمين ."

(٣) إفادة ( رقم ٢٨٨٠ ) موجهة إلى الشيخ أحمد بن الشيخ أحمد:

" الحمد لله وحده وصلى الله على من لانيبي بعده .

من عبد ربه أحمد البكاي بن محمد بن المختار بن أحمد بالسلام والإكرام إلى الإمام الهمام الشيخ أحمد

بن الشيخ أحمد وبعد:

فإني أعطيت لأخي بابير بن الفقيه ألفا عم دارنا التي في جيني ماشاء الله . فلايمنعه منها مانع . والله

تعالى يجازيك عنا وعن الإسلام أحسن جزاء الكرام . والسلام عليك والسلام "

#### ٤) فتوى أو رسالة ( رقم ٥٩٤٣ ) في حكم المطلقة ثلاثاً:

" الحمد لله منزل الكتاب مبين الصواب لأولي الألباب والصلاة والسلام بلا حساب على النبي الأبى الأواب . وبعد:

أيها الأخ الحبيب الأريب اللبيب قد رأيت سؤالك وتصفحتم مقالتي . فاعلم أن مثل هذا لا يجيزه ضرر ولا يسيغه نظر، فإن نكاح الحرام ليس بنكاح بل فاحشة، وإن الله لا يأمر بالفحشاء، وليس هذا مما يباح بالضرورات من المحظورات، فإن ذلك مثل الميتة للمضطر، وأكل الميتة وإن كان حراماً فليس بفاحشة ولو كان ممنوعاً شرعاً فإنه غير ممنوع طبعاً . والفاحشة ممنوعة عقلاً وشرعاً . فلذلك لا تجدها حلالاً في شريعة أبداً . بخلاف غير الفاحشة . ألا ترى أن نحو جمع الأختين وأكل لحم الإبل فإنه يباح في شريعة دون شريعة ويحرم في شريعة دون شريعة .

" وأيضاً الضرورة المبيحة للمحظور هو ما كان من تسليط الله على العبد ومن قضائه عليه دون سبب من العبد ولا إدخال له على نفسه؛ كالجوع المضر وكالإكراه المحض . وأما تعلقه بامرأة فإنه تسبب له وأدخله على نفسه بتسليط فكره على استمالة ذلك الشخص وتعليق همه به . فلا يجيز ذلك له أن يفتح النهي وأن يتأداه بحده .

" أما قول المبتدعة الفسقة الكذبة أن المؤمن لا يخلق عليه باب ولو طلق مائة تطليقة فإنه مجرد حماقة وكفر، فإن هذا أي تحريم المطلقة ثلاثاً معلوم من الدين ضرورة . وناكر المعلوم من الدين ضرورة كافر . وقد كذبوا، فإن المعلوم من الشرع وفي الطبع ضرورة أن المؤمن هو الذي تغلق عليه الأبواب وتحجر عليه الجهات، فيأتمر بالمأمور وينتهي بالمنهي، والكافر هو الذي لا يخلق عليه باب ولا تضيق عليه جهة، بل ما شاء فعل وما هوى أخذ، فلا يحل ولا يحرم في سعة ولا في ضرورة، إذ يحلون - قبحهم الله - لمن هوى محرمة؛ أمه أو بنته أو أخته أو زوج أبيه أو مرضعته أو أم امرأته أن ينكحها إذا خشي الفتنة بها وخاف أن يموت شغفاً أو يحيى بها عشقاً . فما أكذب مقالهم وما أفصح عالمهم وقبح حالهم!! أعاذنا الله وأعاذ المسلمين مما يدعيه هؤلاء المبطلون المبتدعون .

" فنكاح المطلقة ثلاثاً إلا بعد زوج لا يفعله إلا فاسق جد فاسق ولا يقوله إلا كافر جد كافر . قال هذا وكتبه عبد ربه أحمد البكاي بن محمد بن المختار بن أحمد كان الله له أمين ."



## ٥) الوصية ( رقم ٣٩١١ ) موجهة إلى أبنائه الخمسة:

" الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

هذه وصية الشيخ سيدي أحمد البكاي رضي الله عنه لأبنائه .

" يا بني اعلّموا أن هذا الزمان لا يسلم فيه لذي دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهق إلى شاهق ومن جبل إلى جبل يروغ كالثعلب . فاجتهدوا في العلم فإن عبادة بلا علم كهباء منشور . لا تفارقوا جماعة العلم فتفارقوا دينكم وأنتم لا تشعرون . احفظوا وصيتي واحفظوا مقالتي، فإنكم إن حفظتموها عشتم سعادة وتموتوا شهداء .

" من قنع بما قسم الله له مات غنياً . ومن مد عينيه إلى ما في أيدي الناس مات فقيراً . ومن لم يرض بما قسم الله له اتهم الله في رزقه . ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره . ومن كشف عورة غيره انكشفت عورته . ومن سل سيف البغي قتل به . ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها . ومن خاط السفهاء احتقر . ومن خالط العلماء وقر . ومن دخل مداخل السوء اتهم . لا تزددوا بالرجال فيزدروا بكم . وإياكم والدخول فيما لا يعنكم فتنلوا بذلك . واتبعوا الحق وعليكم . وكونوا لكتاب الله تالين وللسلام فاشين وبالمعروف آميرين وعن المنكر ناهين ولمن قطعكم واصلين ولمن هجركم مبتدين ولمن سألكم عاطين .

" يا بني إن طلبتم الجود فعليكم بمعادنه، فإن للجود معادن وللمعادن أصولاً وللأصول فروعاً وللفروع ثمرات . ولا يطيب الثمر إلا بفرع ولا فرع إلا بأصل ولا أصل إلا بمعدن طيب .

" وإذا زرتهم فزوروا الأخيار ولا تزوروا الفجار، فإن زيارتهم لاخير فيها واستودعكم الله تعالى، هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً ."

## ٦) النصيحة ( رقم ٢٨٨٣ ) الموجهة إلى الأمير الشيخ أحمد بن أحمد الماسني

" بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

الحمد لله الواحد لا من عدد الحي القيوم لا من والد ولا من ولد الغني الجواد بالرحمة الواسعة والمدد، الوهاب الرزاق من عهد الأزل إلى امتداد الأمد، في كل وقت ونفس بلا حد ولا عدد لكل شيء ولكل أحد، ولم ينتقص ولم ينتقض ما عنده ولا ضاق ولا غاض ولا نفذ . والصلاة والسلام على السيد الأبد الأغر الأبر المحمد الأحمّد الحبيب الخليل الكليم في كل حال ومقام وأسمى وأسنى وأسعد وأصعد، ووسيلتي ووسيلة الكل إلى قدم الصدق ومقعدته وإلى كل قدم ومقعد، القائم في المقام المحمود وبلواء الحمد وحده لا يشرع فيه ولا يدفع عنه ولا يرد . وعلى آله وصحبه أشرف خدم لأشرف مخدوم وأكرمه وأمجده ولا نجد، وعلى خلفائه وخلفائهم من بعده ومن بعدهم في كل شرف موثّل وسودد أقد، فرضي الله عن الجميع والمجموع من ذلك اليوم إلى اليوم وإلى ما بعد، وإلى الدهر وإلى السرمد . وبعد:

فمن عبد ربهم المشرف بحبهم أحمد البكاي بن محمد بن المختار، بسلام كالبدن في الارتفاع وإكرام كالسما والأرض في الاتساع، إلى أخيه في الشهادة والغيب، وحببيه بلا شك ولا ريب، خلف السلف وسلف الخلف، صاحب الأسرار الطاهرة والخلائق المقدسة والطرائق المؤسسة، الإمام المذكور والجواد المشهور الشيخ أحمد بن أحمد الماسني أيد الله به الدين وأيده وسدده به المسلمين وسدده .

هذا وإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو المنعم فلا عاد لإنعامه والمكرم بلا راد لإكرامه . وأوصيك ونفسي بتقواه وقصر النظر عليه تعالى عما سواه فمن اتقاه وقاه ومن استغنى به أغناه .

" فإن من عادته تعالى وسنته الحسنة التي لا تبديل لها أنه لم يعر كوناً ما من وصف ما إلا وألبسه من مقابله وصفاً آخر مغايراً لذلك الوصف مطرداً ذلك من أول الصفات وأعلها إلى آخرها وأدناها والوجود والعدم والحركة والسكون إلى ما لا يتناهى من الصفات والأحوال .

" فإذا من المعلوم المستقر عندنا من ربنا ومن نبينا أن التقوى أول رأس كل خير في الدنيا والآخرة وأن الفجور أول ورأس كل شر في الدنيا والآخرة . وأن من كساه التقوى عراه من الفجور ومن كساه من الفجور عراه من التقوى . وقد عرفنا وتقرر عندنا أن التقوى خير وأن الفجور شر لأن التقوى من الجنة وإلى الجنة والفجور من النار وإلى النار . ولا خير إلا ما كان من الجنة وإليها ولا شر إلا ما كان من النار وإليها . فإننا إذا رأينا عاملاً بعمل من التقوى رأيناه كاسياً من الجنة في الحال عارياً من النار فيه وإذا رأيناه عاملاً بعمل من الفجور رأيناه كاسياً من النار في الحال عارياً من الجنة فيه فحكمنا عليه في الحال بأنه من أهل الجنة ويعمل أهل الجنة أو بأنه من أهل النار ويعمل أهل النار . فإن دام له أحد الوصفين ودام هو عليه فهو للوصف الدائم . والوصف الدائم له لا يكون للوصف الآخر ولا يكون الوصف له إلا أن يتحول عنه أو يتحول عليه بعدل أو رحمة إلى الرحمن بسبق الكتاب وفتح الوهاب .

" بهذا جرى الوعد الإلهي الذي لا يخلف ولا يتخلف • وبين هذين من يعرى من هذا مرة ومن هذا مرة • فهو في الدنيا من أهل الجنة مرة ومن أهل النار مرة • وفي الآخرة تجمع له مرات النار فيدخل بها النار ثم يخرج منها بمرات الجنة فيدخل بها الجنة فلا يخرج منها إلى النار لأن الرحمة تغلب الغضب كما في كتاب الله الذي فوق عرشه " أن رحمتي سبقت غضبي " •

" فلهذا السر وبهذا المعنى كان المتلون المشترك يدخل النار أولاً بمناسبة النار ثم يخرج منها بمناسبة الجنة إلى الجنة • فلا يخرج منها إلى النار أبداً لغلبة الرحمة السابقة • ولا يخرج أحد من الجنة إلى النار أصلاً • فالمقامات والمقامات في الجنة والنار على حسب المقامات والمقامات في هذه الأحوال والصفات الآن في هذه الدنيا • ولقد نبه على ذلك في الكتاب العزيز كثيراً فقال تعالى: " من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها " • " فلأنفسهم يمهدون " • " وإنما بغيكم على أنفسكم " • " إنما هي أعمالكم ترد عليكم " • " ولكل درجات مما عملوا " •

" وكان أهل النور والكشف من أهل الله تعالى يرون ذلك عياناً بالبصر بعد البصيرة على العمال في الأعمال • فلذلك كانوا أشد تحفظاً وتوقياً من غيرهم ممن يتحفظ ويتوقى، إذ هذا يرى أنه إذا خرج من التقوى قد خرج من طريق موصل إلى الجنة إلى طريق موصل إلى النار فيعمل على الرجوع ويرجع إلى الخشوع • وهم يرون أن أحدهم إذا خرج عن التقوى بأدنى مخرج من حال أو وصف أنه قد دخل في زاوية من زوايا النار وقد لبس سربالاً من سراويلها فلا يقر له قرار حتى يعلم من ربه أن قد رد إلى سربه وأن قد عاد إلى قربه كما وقع للأنبياء وأكابر الأولياء •

" ألا ترى داود عليه السلام لم يزل باكياً يسأل المغفرة حتى بشر بها فقبل له: " فغفرنا له ذلك " • وإلى موسى عليه السلام حتى قيل له: " فغفر له فقال شاكراً [٠٠] والرحمة " فلن أكون ظهيراً للمجرمين " • وإنما خاف من قتل الكافر وهو غير معصوم الدم • لأنه لم يؤمر به بعد على ما يقول أهل التفسير • والذي يظهر لي أن محل خوفه واستغفاره كونه ظاهر ذلك الرجل الآخر • ولا يعان مشرك ولا يستعان به • يدل عليه تنصله وعقده التوبة على أن لا يكون ظهيراً لمجرماً أبداً على القول بأن " لن " تفيد تأييد النفسي • و " التوبة " الإقلاع والعزم على عدم العود، فليتأمل • فإنه واضح ولسنا بصدد فلا نطيل فيه، والله أعلم •

" وكما وقع لأبي لبابة الأنصاري إذ ربط نفسه في سارية من المسجد أياماً حتى نزلت توبته على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكالثلاثة المخلفين إذ اعتزلوا الناس واعتزلهم الناس حتى أعلمهم سبحانه وتعالى بأنه قد تاب عليهم • وما هكذا ولا كهذا كل أحد • فشتان بين الفريقين وبون ما بين الطرفين •

" ومن أجل ما وقع للأولياء في هذا الباب ما أخبرني به الثقة عن الشيخ الوالد رضوانه الله عليه، قال: " كان قد وقع بين بعض أبناء الشيخ رضوان الله عليه وبين بعض الناس نزاع في مال فحمل الشيخ على ذلك الأمر، فطلب بعض خاصة الشيخ وأهل بيته من الشيخ أن يدع لذلك الأمر ما أراد أن ينتزع منه، وامتنع الشيخ • وألحوا عليه شفاعاً وطلباً • فلما رأى من كلهم الجد في ذلك قال رضوان الله عليه: إنكم لا عقول لكم إذا كنتم أنتم يجريكم على المعاصي ويسهلها في أنفسكم أن عقابكم عليها وحسابكم بها يتأخر عنكم إلى يوم

القيامة فإنني قد سألت الله تعالى أن يعجل لي عقابي وحسابي على كل شيء في هذه الدنيا قبل يوم القيامة . فلا أقع في محرم ولا مكروه إلا رأيت الملائكة ولقيت عقاب وحساب ما صنعت عيانا . أفتروني أدعكم تبييتون الليلة تنتعمون بمرادكم ومطلوبكم من هذا وأبيت أعذب به في فراشي؟ .

" فانظر إلى هذه الكرامة الجليلة التي لم يقع مثلها لولي قط . بل يمكن أن يكون قد وقع مثلها ولم يسمع كما أن هذه كانت قبل أن تسمع مستورة لا سيما وما استتر من الكرامات أكثر مما اشتهر .

" فهؤلاء وإن كانوا معصومين محفوظين بعناية الله تعالى السابقة لهم في الأزل وبما منحهم سبحانه من كمال الاستبصار ونفوذ البصائر والأبصار بالواقع منهم، هكذا على سبيل الندور لا يخرج من العصمة ولا يقدح في الحفظ . وفيه التنبيه على قدر النعمة والتذكير بالشكر للعصمة . وليعلم أنها ليست للعبد بصفة ذاتية ولا له بملكة صفاتية يضعها ما شاء بأمره عن أمره ويدفعها متى شاء بقدرته وقهره، وما عليهم من سلطان في ذلك لشيطان وإن كان الشيطان قد سلط على إنسان وأعطى مفاتيح خزائن المكر والحيل وأقيم في مقام التمكين من التلبيس في العلم والعمل . فهم أشد تحفظاً وتوقياً وأبعد في العلم رقياً وترقياً . قد اطلعوا بالنور على مكانه ومكائده ووقفوا بالعلم على مرصده ومصائده . إن دخل سارقاً باللمم خرج مارقاً بالصمم وقد أتبعه شهاب من العصمة ثاقب وأتبعه حسام من الهمة راقب، بدليل قوله تعالى: " إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون " .

إني كما كانوا وعلى ما كانوا لم ينل منهم نيلاً ولم يصب لديهم ميلاً . فالمامه إمام الطارق والطائف ومزاره مزار السارق الخائف . يدل عليه ذكره بالطيف في قراءة، وهو اسم لأضعف وجود في الحس والخيال، وبالطائف في قراءة وهو منبئ عن أضعف الحركات والأفعال . فهذا مقام وحال القسم الأعلى المقربين في التقوى . فهم أهل الجنة العاملون بأمر الجنة ممن دام على ذلك ودام له .

كيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد أهل هذا المقام لما قالت المرأة الصالحة للرجل الصالح: هنيئاً لك الجنة . ما يدريك؟ أنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما أدري ما يفعل بي . وقيل له: أتخاف يار سول الله؟ قال: وما يؤمنني؟ قلنا: ذلك الخوف المطلق من النظر إلى الجلال المطلق ودونه ومنه خوف التبديل والاستبدال وسبق الكتاب بالانتقال من حال إلى حال . فلهذا حصل الخوف عندهم، لأنهم لا يعرفون مراد الله فيهم، ولا إلى أين ينقلهم ولا في أي صفة وطبقة يميزهم .

ولما انبههم الأمر عليهم عظم خوفهم كخوف الملائكة من النزول عن مرتبة عليا إلى رتبة دنيا . ولا سيما وقد روي أن إبليس كان من أعبد الخلق لله تعالى وحصل له الطرد والبعد عن السعادة التي كان يرجوها في عبادته لما سبقت عليه كلمة العذاب وزال عن الوصف الذي تكون به السعادة وزال عنه الوصف . فرجال الله يخافون من الاستبدال . وهو الذي يدعوهم إلى تفقد أحوالهم مع الله تعالى في كل نفس . ولا سيما والله تعالى يقول: إن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم " . يعني ما وقع منهم من المخالفة لأمر الله بل يكونون على أتم قدم وأقواه في طاعة الله " .

## ٧) الرسالة الأولى ضمن مجموعة ( رقم ٥٠٥٦ ) الموجهة إلى الحاج عمر:

بسم الله الرحمن الرحيم • صلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليماً •

الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده •

" من عبد ربه أحمد البكاي بن محمد بن المختار بن أحمد • بالسلام والإكرام إلى الأمير الشيخ الحاج

عمر بن سعيد الفوتاوي أيد الله به الدين وقمع به المفسدين ونصره على المعتدين • وبعد:

" فإننا نهنيك بما أعطاك الله تعالى من الدين ومكنك فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر •

" فإن هذا هو ما يهنيء به أهل الله تعالى • وأما الدنيا وملكها فإنها فتنة وبلاء يهرب منه أهل الله تعالى

ويستعيذون منه بالله تعالى •

" ثم أوصيك بما أوصى الله به جميع عباده بالتقوى • ثم بما أوصى به نبيه من الرأفة والرحمة وخفض

الجناح والعتو والصفح حتى قال له في أعدائه: " ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه

ولي حميم " • ثم أخبره أنه لا ينال هذا المقام وهذه الدرجة إلا من صبر على خلاف هواه وكظم غيظه

وأرضى مولاه • فقال: " وما يلقاها إلا الذين صبروا " • ثم أخبر أنه لا يلقى ممن صبر ولا من غيره إلا

من له بخت وسعد وحظ ينال به هذه الدرجة • فقال تعظيماً لهذا الشأن وتعجبياً له وتبعيداً له: " وما يلقاها

إلا ذو حظ عظيم " •

" فكن كذلك مع كل خلق الله تعالى، فإن معاملتك لخالقه معاملة له، قال تعالى: " يا ابن آدم جعت فلم

تطعمني وطمئت فلم تسقني ومرضت فلم تعطني إلى أن قال آخر الحديث يعني عبدي " • كن معي أنا

خصوصاً كذلك •

" فإنني أعتذر إليك وأطلب منك أن تصفح عن أشياء حملني عليها أمران أحدهما: لا أذكره لك الآن

ولعلك تسمعه من غيري • ثانيهما: كلام الناس وما ينقلون عنك وأنت تقول إنك روح الله المسيح عيسى بن

مريم رسول الله، فنفرني ذلك كما تعلم أنه منفر، بل من لم ينفره هذان علمت أنه لا دين له • وقد بلغني

ذلك من أثق به حتى ورد علي أخي سيدي أحمد الوداوي فاخبرني بمعناه عندك وما تريد به • وعلى ذلك

فإنه من الألفاظ الموهمة الموحشة • فإنك تعلم أن ابن العربي الحاتمي على حالته في العلم والولاية أنكر

الناس عليه كلمات له لم يعرفوا معناها كفروه بها • وكذلك الحلاج حتى قتل فأدى قتله إلى ما سمعته من

تسلط التتر على بلاد المسلمين حتى أنهم فعلوا ما لم يفعل بخت نصر ببني إسرائيل •

" فاعف عنا من مثل هذه الكلمات واعف عنا فيما سلف مما سببته هذه الكلمات • فنحمد الله على ما

سمعنا من تفسيرك لها • ولم نقل ما قلنا عداوة لك • فنحمد الله على ما سمعنا فيك • ولكن كراهية لها ولا

استدلالاً بها • فإنني معترٍ إليك مما فرط كل الاعتذار ومستغفر منه كل الاستغفار • والكريم يقبل العذر

ويغفر الذنب ويعفو عن سوء ولا يحقد، قال تعالى في الذنب إلى العفو: " ألا تحبون أن يغفر الله لكم " .  
وقال: " ولمن صبر وغفر " . و " والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس " .

" والإحسان خير من الإساءة بعدم العفو عنه والعفو، لأن ترد أخاك بالعفو عنه إلى الإحسان خير من أن تبقية في الإساءة بعدم العفو عنه . والعفو شيمة الأنبياء والأولياء، والحقد شأن الأشرار واللؤماء .  
وحسبنا من الكلام في هذا الباب، فإن ما ورد فيه من كلام ربك وكلام نبيك تعرفه وتعلمه ولا تجهله ولا تنكره .

" وأطلب منك أن تعرفني بحالك وعملك معي وأي حال وعمل آخذ معك . فإنك تعلم وقد سمعت أحوال وأعمال الأشياخ من سلفي مع السلاطين ونحوهم من الكبراء كما رأيت بعينك عمل الشيخ محمد بل بن الشيخ عثمان بن فودي رضي الله عنهما . وظني أن تكون فوقه حبا لله وحباً لي وتعظيماً لي وتكريماً لأجل الله تعالى، فإنك حقيق بذلك جدير به، والصالحون إخوان الصالحين والشياطين إخوان الشياطين .  
" وإنما قلت لك هذا خوفاً عليك من نمائم أهل أرضنا، فإنهم أهل نمائم وغش وغدر ومكر، مازالوا بآل الشيخ حتى غيروا علينا صفاءهم وإخاءهم . ولولا ما طبع الله عليه عامة الفلان من حبنا وتكرميننا لتعدوا فينا إلى العداوة التي بينهم قديمة، لأن الأمراء قل منهم من يحب الأنبياء والأولياء، بل العداوة بينهم قديمة، لأن الأمراء أبناء الدنيا والعلماء أبناء الآخرة، وهما ضربتان وأبناؤهما خلافان، فالأمراء أمرهم وهمهم في الدنيا وللدنيا، والعلماء أمرهم وهمهم في الآخرة وللآخرة . ومن أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنيته . فلا يوافق العلماء من الأمراء إلا من كان من الصالحاء العلماء، وذلك أنت إن شاء الله تعالى . أصلحك الله وأصلح بك .

" فإن كنت تحتلني على ما أنا عليه فأخبرني وأذن لي في السكنى حولك، وإلا فأعلمني، وحالي وحال آبائي وعلمنا تعليم الجاهل وتقويم المائل وإعطاء السائل لا نملك ولا نملك . وقد قال لي بعض أصحاب الشيخ محمد بل رحمه الله لما كلمته في مال كنانة الذي نهب أهير: ما لك لا تقيم الجهاد وأنت قادر عليه وتستغني عن الطلب هكذا من الظلمة للصمص؟ قلت له: أعلم ما في الجهاد من الفضل، ولكن الجهاد يؤدي إلى الملك والملك يؤدي إلى الظلم، وحالنا هذا خير لنا من الجهاد وأسلم من الخطر الذي فيه . وقد قال سلطان الغرب مولاي إسماعيل للشيخ جدي: أنت سلطان آخرة وأنا سلطان دنيا، فلا تمش معي . وقد كان عمر بن الخطاب وغيره من الخلفاء وعمر بن عبد العزيز يكرمون العلماء ويقربونهم، فكان شرفاً لهم في الدنيا والآخرة وذكراً حسناً لهم باقياً إلى يوم القيامة .

" وقد خالف سيرتهم أشرار الأمراء كالحجاج ويزيد فكان فضيحة لهم في الدنيا والآخرة وذكراً سيئاً لهم ودليلاً على عداوتهم لله تعالى . إذ عادوا أهله وخاصتهم من خلقه . فخرسوا الدنيا والآخرة، وعوقبوا بحرمانهما وكان خزيًا عليهم بعدهما وعلى أمثالهما كذلك . ومثل هذا لا يحتاج على التنبية عليه، فإنك إن شاء الله من أهله وعن الخير من فعله، ولكن الذكرى تنفع والمؤمن يعقل ويسمع .

"ومما لا بد من الكلام لك فيه بعد أن أقدم لك مقدمة عليه أمر التوارق، فإني وجدت أخي الشيخ سيدي المختار قد دخل مدخلاً بينهم وبين الشيخ أحمد بن محمد لبو أصلح بينهما، فكان في ذلك صلاح للأرض وتسكين لأهلها، إلا أنهم يقولون على بعض ما هم عليه .

"ثم بعد ذلك بمدة صاروا يراجعون ما كانوا عليه بالتدريج . ثم لما ملكت هذه الأرض قطعوا الطمع من سكنها معك، فعزموا على الانتقال والانحياز إلى إخوانهم وسلاطينهم، ورأوا أن يقضوا أربهم منها مرة . فكلمتهم وثبتهم حتى أكلمك فيهم، ونهيتهم عما نوا من الفساد وقلت لهم إن الأرض اليوم للحاج عمر، فإن الفلان كأنهم عزلوا سلطاناً وأقاموا آخر [٠٠] فأرسلت إليهم رسولاً، فتوافق مع أصحابك قادمين من عند أواب إلي فرجع معهم، فلم يقولوا من الكلام إلا أن أواب في رد ما أخذ قومه، وبعثت معهم الكتاب إليه مع رسولي قبلهم، وسمعت بعد ذلك أن أواب كاد لي ولأصحابك كيداً واحتال علينا حيلة يريد أن يجعلني له أميراً أو صاحباً في أمره، وليس كذلك، فإنا لا يجمعنا مع الطوارق أمر ولا حال إلا أن الله تعالى جعل لهم هيبة ومحبة لنا في قلوبهم، وإنا نداريهم وندفع كثيراً من شرهم عن كثير من عباد الله . وظني أن عندك من سيرتنا معهم ومع غيرهم من أمثالهم من لصوص العرب .

"فمطلبي أن تسكنهم لعمارة هذه الأرض لا سيما تمبكتو فإنها لا عمارة لها إلا بالطوارق . ولا أريد منك أن تقربهم على الظلم بل انههم عنه وردهم، ودع لهم من عوائدهم وأحوالهم لا من الظلم . فإن أهل البوادي وأرباب المواشي عمارة الأرض والقرى . فاكتب إلي بما رأيت أن تقول لهم وما ترضى منهم .

"وأيضاً أكلمك وأشفع إليك في أحمد بن أحمد بن الشيخ أحمد أن تحسن إليه وتغفو عنه وترفق به وكذلك بجميع آل الشيخ أحمد لبو وجميع ماسنا . ثم أشفع إليك في أصحابه وأرقائه الذين وصلوا إلي واستجاروا بي فاعف عنهم واصفح، إن الله يحب المحسنين، وقد أراك الله ما تحب من الظفر، فليبر فيك ما يحب من العفو والإحسان خير ما أوعيت في الزاد، والله يقلب الليل والنهار .

"ومن المطلوب في قولي لك: وأحب أن تعرفني بحالك وعملك معي أعني به هل تقبل شفاعتي ولا يسوءك تعرضي لعمالك فيما يمنعه الشرع أو ينكره العرف . وفي نفسي خاصة وخاصتي من الناس كأهل أتوات، فإنك أظن تسمع أنهم مني وأنا منهم، ومساءتي فيهم كانت أول البلاء على أهل الأرض وأهلها . وعسى أن يكون ذلك رأس الخير وأول الفرج بك . فإني إنما أدفع عني وعنهم بقوة القوي العزيز . وأحق من اتقى الله وخافه وعرف الله معرفتك وأحق من كرم أهل الله وعظمتهم وهابهم من عرفهم معرفتك لهم . وإنما يعرف الفضل كأهل الفضل ذووه . وإنما يخشى الله من عباده العلماء . وسيدكر أصحابي مظلمة أهل بني السود . [٠٠] لي في عدد يزيد على الألف وفي نفوس وفي مال آخر سنشرف . والله يوفقنا وإياك .

" وقد أمر أحمد بن أحمد سنشرف أن يرده إلي بعد أن أودعه إياه . ردع الله الظالمين وقطع بك الظلم وأهله وأحي بك العلم وعدله وأظهر بك الدين وفضله . والسلام عليك وعلى جماعتك كلها . سلمنا الله وإياكم وعافانا وعافاكم .

" وقد بدا لي أن أتزحزح قليلاً إلى منازل أبناء إخوتي لأقرب منهم وأبعد قليلاً عن عمالك في القرية خشية أن أخالفهم أو يخالفوني قبل معرفة ما عندك . والسكوت على المنكر من المنكر . والسلام . اهـ — وقد بعثت بكتابي خير تلاميذي وهو من تلاميذ أبي وأبوه من تلاميذ أبي وجدي . وهما أيضاً من أبناء عمنا سيدنا أبي بكر بن سيدي محمد الكنتي الصغير ابن الشيخ أحمد البكاي بن سيدي عمر الكنتي الكبير ."



## ٨) الرسالة الثانية ضمن مجموعة (رقم ٥٠٥٦) الموجهة إلى الحاج عمر:

الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده.

من عبد ربه أحمد البكاي بن محمد بن المختار بن أحمد بالسلام والإكرام إلى الأمير الحاج عمر بن سعيد الفوتاوي أيده الله ونصره وشرح بالإسلام صدره. وبعد:

" فإن حامل الكتاب شريف من أهل البيت النبوي جاعني بنية المسير إليك والشكوى من بعض عمالك . وذلك أنه كانت له سرية فأخذوها منه حاملاً منه، فطلب أن يفتديها بأكثر من قيمتها فأبوا وادعوا أنها حرة . فقلت لهم: قد هان الأمر وسهل، فهي على ما قلت زوجة فلا يجوز أن تفرقوهما وقد تراضيا وتحاببا وتصالحا . فاعتذروا لي [ ٠٠٠ ] فقلت: إنه لا ينهاكم عن طاعة الله ولا يلومكم عليها ولا يأمركم بمعصية ولا يدعوكم إليها . فإن مراده فعل الطاعة حيث بانث وترك المعصية كيف كانت . وها هو أي الشريف سائر إليك . وأثق بمحبتك لأبائه وتعظيمك لأبنائهم . فاقض حاجته وأكرمه وأحسن إليه . يجازيك الله ويكافيك نبيه صلى الله عليه وسلم . وقد كتبت لك فيه شفاعاة حسنة . وهو نفسه كاف لنفسه شافعاً . وأكبر من ذلك كله شفاعاة النسب الشريف فيه وله . وأنت في القوم الذين يقول قائلهم وهو الإمام الشافعي رضي الله عنه:

يال بيت نبي الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله

يكفيكم من عظيم القدر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

" وفي فمه من الكلام ما يقوله لك بين يديك . ومثلك من الكرام لا يخيب من قصده ويرفد من استرفده . والسلام عليك ما تكرم كريم وتفضل فاضل . والسلام . وله أيضاً:

" اعلم أن الشريف نفسه، بدا لي فيه أن لا يسير بنفسه . لنظرين: أحدهما لك والثاني له . أما الذي لك فإنني لا أحب لك أن يأتيك بنفسه ويخيب من طلبه . فإن ذلك غير مرض للدين وللدنيا ومما يقدر عندنا في عرض الحر . إلى غير هذا من الواجب له والممنوع فيه . فأردت إسقاط كلفة ذلك وضرره عنك . وأما الذي له فإن دخول البحر يضره هو . مع الثقة بإحسانك وكرمك . والسلام عليك، والسلام . انتهت بحمد الله وحسن عونه على يد محمد المختار بن أحمد الحبيب .

## ٩) رسالة الثالثة ضمن مجموعة (رقم ٥٠٥٦) الموجهة إلى الحاج عمر:

" الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده .

" من عبد ربه أحمد البكاي بن محمد بن المختار بن أحمد إلى الشيخ الحاج عمر الفتوي . سلام مني إليك، والسلام . وبعد:

" فقد جاءني رسولي إليك بكتابك وكلامك إلا أنك لم تعرض لجواب كتابي بقليل ولا كثير . فلم أدر معنى ذلك عندك ولم أجد له معنى عندي، يحسن منك ولا يحسن . إلا أنك لا تحب أن تكلمني ولا أكلمك، وذلك لا يليق بيني وبينك بل لا يليق ولا يجوز بين مؤمنين، والمؤمنان إن انقطع الكلام بينهما انقطع الوصول بينهما، فذلك كله من قطع ما أمر الله به أن يوصل .

" وأيضاً الكلام بيننا فيه أن تعلمني وفيه أن أعلمك كنت أفضل منك علماً أم كنت أفضل مني علماً . وقد يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر . وقد قال الخضر عليه السلام لموسى عليه السلام: أنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه أنا وأنا على علم من الله علمني الله لا تعلمه أنت، مع أنه يعلم أن موسى رسول الله ومصطفاه وكليمه، وأنه قد أعطاه التوراة فيه علم كل شيء .

" فأجبنى أيدك الله على كتابي ذلك وكلمني في كل ما كلمتك فيه إلا في أمر واحد وهو أمر الطوارق . وذلك أنهم لا ضبط لهم ولا مقام لهم على قول ولا أمر واحد . وكل ما يطلب منهم يصح منهم إلا مخالفتهم لعادتهم بطوع ولا بإكراه . وأبعد من ذلك مسيرة كبرائهم إليك وتعليقك لكلامي بالمشافهة . فلا أدري أنتظر به أن تصل إلي أنت إلى أرضنا هنا أو أصل إليك إلى أرضكم هناك . ووصولك أنت ثقيل ووصولي أنا غير خفيف ولا سريع . فتوقف الكلام بيننا إلى ذلك يفوت كثيراً من الأمور والخير ويمنع كثيراً من المقاصد والفوائد .

" وقد بلغني أخي سعيد حبيب الله قوله قلتها بل قولتين أو لاهما: قلت له: حمد الله أقرب من "سُكْتُ" . فاعلم أنه أقرب من "سُكْتُ" في المسافة وأبعد في المخافة . فأرض "حمد الله" دونه من البحور والوعور ما ليس هو دون "سُكْتُ" . وأيضاً "سُكْتُ" جنته في زمن الشباب والقوة والصحة . وأيضاً جنته لأمر كبير لكناته لا لي . وأيضاً وجدت فائدة العلم فيهم التي هي أعز الفوائد . ثم فائدة الأخوة والمحبة والإكرام التي يتصل بها رأس فائدة الدنيا ثم فائدة المال، وقد وجدت هذا كله منهم قبل أن أصل إلى أرضهم وأنا في أرضي . " فقد أرسل إلي كبيرهم محمد بل وإخوته بالمكاتيب والهدايا حتى عرفتهم بأقوالهم وأفعالهم قبل معرفتهم بأشخاصهم وأشكالهم، فرضي الله عنهم وأرضاهم . فمسيرتي إلى "حمد الله" إنما يحسن بعد أن تخبرني أنك محب راض ولو لم تفعل لي غيرها، والإيناس قبل الإمساس، قال الشاعر:

لا تتقل الأقدام إلا لمن  
كانت لكم في وصله فائدة  
إما لعلم تستفيدونه  
أولكريم عنده مائدة

" أحب أن أعلم ما تريد بمجيئ إليك إن كان هو الذي تعني . وأما إذا كنت دون البحر فإنه لا مانع حينئذ من تلاقينا- إن شاء الله . فإذا كنت تريده طلباً للمعرفة أم المعروف بيننا فهو الشهد بالزبد وهو حينئذ أحب إلي أنا منه إليك . ثم لا أظنك تريده كإرادتك للقاء غيري .

" فإنك لا تطلب مني البيعة إذ أنت تعلم أحكامها وتعلم أهلها وأظنك تعلم أنني أعلم منها كما تعلم . وأما المحبة والمعاونة على طاعة الله فإنه يجدها مني من ليس مثلك فكيف بمثلك .

" وقولتك الثانية أنني أتقرب إلى الأمراء بالهدايا إليهم . فإني أتقرب إليهم وأتودد إلى كل مخلوق غير كافر وإلى كافر أذن الشرع فيه بمالي وخالقي لا بديني . فالتقرب بالمال والخلق محمود شرعاً وطبعاً . وهو من سنة النبي والأنبياء قبله المؤمنين كما يليق وللکافر كما يليق . وأما ديني فلا أتقرب إلا إلى خالقي . كذلك وجدت أبي، وجددي وجد أبي وجدته إلى جدنا الأعلى الصحابي بل وجدودنا في الجاهلية، لا تديننا منهم ولكن سجية وطبيعة وإكراماً من الله تعالى لهم، فلم يملكهم ملك، قال صلى الله عليه وسلم: الناس تبع لقریش مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم، إلى أن قال: لا يعاديهم أحد إلا كبه الله لوجهه . " فلا بأس أن يهدي المؤمن إلى المؤمن أو إلى كافر من ماله ولا بأس أن يحسن له خلقه ويلين له الكلام . فلقد بلغك قول عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم وقوله لها لما قال له اليهودي السلام عليكم فقال: وعليكم . لقد قال تعالى: " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم " . وإنما أهدينا إليهم على عادتنا مع أبناء مولاي إسماعيل الشريف . وإلا فتوب واحد لا يتقرب به إلى السلطان . [ فإن عاد أبناء مولاي إسماعيل لا يقبلوا منا إلا ثوب كاف للباسنا عمامة أم قميص لا لهما معا أحدهما ] وهم يهدون إلينا ويتقربون إلينا تقرباً إلى الله بذلك وطلباً للبركة، فإن أولياء الله إنما يتقرب إليهم [ وبجهلهم العالم العالم أو الجاهل الجاهل ] العالم لعلمه والجاهل لا اعتقاده بتقليده وبينهما [ وجوجة ] لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

وقد بلغني أنك قلت أيضاً شيئاً في نمي للملك وأنه يؤدي إلى ما لا ينبغي . ولعلك رأيت تأليفاً صغيراً ألفته ( لم نعثر عليه ) في ثلاثة أيام لبلياليهن للشيخ محمد بل بن عثمان رضي الله عنهما . وقد سألتني عن كلام العلماء في الغني الشاكر والفقير الصابر . فطلب مني أن أكتب له كلامي في كتاب . فمن كلامي فيه: أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم هو ملك هذه الأمة وهو قاضياها وهو نبيها، ثم كان أبوبكر وعثمان وعلي في خلافتهم مدة الخلافة . وهم أفضل الأمة . ثم لم يستقم بعد ذلك أن يجمع الملك والدين على وجه غير عمر بن عبد العزيز إلا نادراً . والنادر لا حكم له . فلم يهرب أهل الله من الملك والقضاء ولم يحذروا منهما لعيب فيهما ولكن في نفس الملك والقضاء، وهذا باب واسع، والكلام فيه نافع، وهو مفيد لو كان له مرید .

" فأجبتني أيها الأخ الأمير لاسيما في أمر أهل أتوات فإن تركهم لي فيه أجر وشكر وفخر وذخر . ولا يليق بصاحب دولة أن يؤذيني فيهم أو بهم فيجمع على نفسه معصية ومضرة . والإحسان لمثلك من مؤمن عاقل حر أن يسعفني لطلبتني فيهم فيسلم لهم من مالهم الحرام ويسلم من تعلق همتي بالله من أجلهم .

" قلت هذه النصيحة ولم أطل فيها، فمن أسمع الله سمع واتبع وانتفع . ثم لا بأس أن أكلمك في شيء سمعته، وذلك أنه بلغني أنك قلت في كتابي إليك وكتبي إلى سلطان سيقو وكتبي إلى أحمد بن أحمد رحمه الله أنها متناقضة وهي من رجل واحد . ومن العجب عندي أن يتعجب مثلك من تناقض . وكيف لا يتناقض؟ وبعضها إليك وبعضها إلى سلطان سيقو، وأنتما النقيضان، إذ أنت مسلم وهو كافر . وكذلك الكتاب إليك والكتاب إلى أحمد بن أحمد، فإنكما خلافان . فلا بد أن يتخالف الكلام لكما . فإن كنتم تريدون أن أكون واحداً منكم وأنقطع عن الآخرين فإني لست من واحد منكم ولكني كلكم أكلمه بكلامي .

أما أنت فسلمت عليك ونصحتك وطلبت منك، وأما البنابرة فأرسل إلي وطلب مني فأجبت بما يتألفه ويجلب نفعه ويرفع ضرره لي ولغيري من أهل الإسلام . وليس فيه ما يضرك ولا ما يسوءك قولاً ولا فعلاً . وأما سلطان ماسنا أحمد بن أحمد فأرسل إلي يستشيرني ويستعطفني بعهد الآباء والأجداء، فأشرت إليه بما يعلم وأعلم أنها نصيحة بلا غش ولا كذب، وأخبرته أنه لا يحل له قتالك ولا يحل لك قتاله، فقلت له في الشريعة بالحق، وقلت له بالنصح في الرأي، وإنما فعلته امتثالاً لأوامر الله وقياماً بحق المعرفة التي بيننا وبينه وبين آباءنا وآبائه . والحر لا يغدر ولو كان معادياً لي أو مؤذياً لي، فإن الله تعالى يسألني عنه ويسأله عني ويلومني ويلومه فأحببت أن يلومه على إساءته ويحمدني على إحساني، وإلا فإنه رحمه الله من كان يحسن إليهم عذروه عني ويقربه دونه بل عذره ومن كان أقرب إليه رحماً .

" ثم ما قلت فيك سوءاً ولا أمرت به حتى ثبت عندي بكلام الناس أنك ادعيت النبوة والرسالة . وأنت تعلم أن من لم يتبرأ من مدعيها أنه منبرئ من الله ورسوله كافر بالله ورسوله . فلما كذب هذا الخبر رجعت عن ذلك بما أسأت في الأولى ولا أسأت في الأخرى، مع أي إلى الآن أنقم عليك قولك أنك متبع لعيسى عليه السلام عن محمد عليه السلام . فإن تركك لسنة النبي وشرعه وكتابه الحاضر اليوم وأخذك سنة وشرعاً لم ينزل بعد، غير جائز ولا صواب . فإن بني إسرائيل كانوا يعلمون أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم سينسخ أشياء من الشريعة في التوراة منها تحريم لحم الجمل حينئذ . فكذلك لا يحل لك أن تعمل بما سمعت أن عيسى ينزل به في آخر الزمان قبل أن ينزل به . وإقرارك أنك عامل بغير شريعة النبي صلى الله عليه وسلم وبخلاف سنته لا يليق بك . فإنه من أنكر البدع لهذا أو لآ . ويملك أن تخرج عن الشريعة السنة . ولا يغرنك قولهم قلب بعض الأولياء على قلب بعض الأنبياء . فليس معناه أنه في مقامه ولا على شريعته . ولكن معناه أنه يكون على طبيعته في الشدة في دين الله أو في الرأفة والرحمة على عباد الله . هذا معناه لا غير . أو يكون أيضاً مشهده جلالياً وجمالياً . وأما في الشريعة والعمل فلا يخرج ولي ولا غيره عن شريعة النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا النسخ أخبرنا به النبي صلى الله عليه وسلم . فهو منه ومن عيسى ولكن بعد نزول عيسى لا قبله . فكأنه أخبرنا صلى الله عليه وسلم أن هذا الحكم في شريعته سينسخ إذا نزل عيسى . كأنه يأمرنا أن نطيع عيسى فيه ولا نخالفه، فسمعاً وطاعة لمحمد وعيسى في الآخرة .

" ومما أطلب منك أيها الأمير أن تطلق امرأة كانت صافية لي من آل الشيخ أحمد ثم ابن أخيه بالبو .  
بلغني أن عمالك هنا عاملوها معاملة الإماء، وزعموا أن ذلك لأنها كافرة . وهل في جميع الفلان كافر؟ فضلاً  
عن الشيخ أحمد؟ وهل يكفر أو يسترق حر يشهد الله بالألوهية والوحدانية ولمحمد بالرسالة؟ ثم يصلي الفريضة  
ولا يجدها ويؤمن بالبعث ولا ينكره . فإن من جمع هذه الأربعة لا وجه لتكفير ولو فعل ما فعل . هذا هو  
الذي عليه الإجماع . وهنا يجمع العلماء أنه يكفر بها . لأن مآلها إلى الكفر، كاستحلال ما علمت حرمة من  
الدين ضرورة .

" فأحسن كما أحسن الله إليك . ولا تبغ في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . ولا تأمن مكر الله، إنه  
لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . ولا تقنط من رحمة الله، إنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون .  
" قلت لك هذا في حال الشيخ أحمد نصيحة لك وشفقة عليك من الله ولأخوة الإسلام التي بيني وبينك  
وبيني وبينه . ومن ملك فليسمح . ومن قدر فليعف . ومن قال فليحسن .

" واعلم أيها الأخ الأمير أنني وإياك إما أن نكون وليين لله فلا بد أن نتوالى ونتوافق ونتحاب  
ونتصاحب بولاية الله . وإما أن يكون أحدنا عدو الله أعاذنا الله . فإنه لا يصح أن يتوافق ويتوالى ولي الله  
وعدو له .

جمعني الله وإياكم بولايته وتولنا وإياكم بعين عنايته . والسلام عليك وعلى جميع جماعتك كلها  
وخصوصاً ألفا عمر وأحمد تفسير وداود وعثمان . والسلام!











فإن اشتد عليك أو سوز الأمانات وصحتها ومغناها وما عيبروا المسؤولة في بلواها اشتغال  
 بلذا العجائن الآن حشيشون أولي الفتح بلذا لا أخالف كتاب الله بعقوب ولا يرى بلغة بلغة مسو  
 القلوب عن طمان لم يعلو فيه عنك الأكبر الأمير بالي أو غير ويليدشلتني أجيبه ان شاء الله حتى  
 ادع له منها ما تنهض مني حتى لا يكون له شك ولا ريب وفوليعق انه القلان معك في ام الحاح حتى  
 في عنك ودمسنة والقيمة الساصبة على العسى القارحلة الاحيا رقت امانات في والحق بلغة  
 والولولة موملطان وبعال الشبه اجمل الله ابو وامال الي اللرب في عنم القلان الحاح في مسو  
 مافان عنك الامير بالي طوشتا في الحجاج الابيس فاه الحاح حتى لا تترك اصل القلان الحاح ولقوتو  
 حد وصرار في الامسيلا وملاقر عليه فانه من كلف الخبيخ اجمل الاكبر والشبح اجمل مسو اف فضل  
 مستكين على موم بلطانه ووليه وانك عليه بيم بيم وسع عليه والشبح اجمل مسو اف فضل  
 القلان وكيف تتركه بنيه كيف لا يحاطوه لاطار سلكنا بالان ابين الامير ارجح الابيس  
 تلت عن وديب العبير في القية الخب فسا عنوك في الال لدر بله لا تنوا الحاح في الال فتنال  
 طمان له فانه لا يتركه في ديك ولا تنسا عنوك في كل ذلك الحاح في كل القلان  
 في عنوك في كل ما عنك خلاك مسبح بله في صبح الحاح في كل ذلك في الال في كل القلان  
 واني لم انتقل الا بيم الامير الشبح والاح في كل ذلك في كل ذلك في كل ذلك في كل القلان  
 الكلاع صبه ملام مراد الحقيق في ابين ذلك الحاح في كل ذلك في كل ذلك في كل القلان  
 عليه بدمسنة او بغيره واسل الرضه وبقير في الال في كل ذلك في كل ذلك في كل القلان  
 ربط ولا شبع الا في كل ذلك في الال في كل ذلك في كل ذلك في كل القلان  
 را اطق مراد في منزاك لم في عنك كمالا في عنك مراد في الكلاع في في صبح وضمنو  
 وكرط كلال عشر لم القلاء بله صبح عنك قوتو في كل ذلك في كل ذلك في كل القلان  
 ما احاطا عليه منه مسو بله بله في الال في كل ذلك في كل ذلك في كل القلان  
 ما نفيسك بله في كل مسو صبح في كل ذلك في كل ذلك في كل القلان  
 على الاموال انك في كل ذلك في كل ذلك في كل ذلك في كل القلان  
 ثم انت افوي منه الا في كل ذلك في كل ذلك في كل ذلك في كل القلان  
 والحكمة والاصل عنك الامير بالي مع انك وللم الحاح في كل ذلك في كل ذلك في كل القلان  
 عليك وسو في كل ذلك في كل ذلك في كل ذلك في كل ذلك في كل القلان  
 لا تخفي ولا تخون بله او في كل ذلك في كل ذلك في كل ذلك في كل القلان







ويطلب ما يتقرب من قربان وايقاب الابان يعلم ويكفي ويخاف ويرى الم الجبار وامان تقصروا في  
 انتم عيونكم يا اهل التهجوسم وخطاهم صلواتهم واليه واليه يا اولادكم يا حسنة عباد  
 وانتم فيه وصيكم فالتكلم تعلم من الصبح لولي الله ان لا تضع للهم وتربى عليه تشكروا  
 على الله وتواضع للهم وتعلم الله وقبوله الفؤون وملوككم وخوضوا فيكم ايمانكم من نور  
 صلواتهم صلواتهم واليه واليه يا اولادكم يا حسنة عباد الله يا حسنة عباد الله  
 مع ما علمت من الاسماء التي علمتم الله وحسن الاختيار وتلاصقتم فيني اوضح لهم او عاندهم او تراءى لهم  
 وانتم تباركوا وتبروا بالحق وسوء الاحصوية فتمت يلغى انه معاذ اوليائه الله ووطءه صلواتهم  
 غلب وشلبه ملكه فيهم ولا تفلح ولا تم عن ولا تفرحوا من الايمان والحق والحق انتم  
 وتفضلت انتم انتم على كل اواصف عليكم طمان تفرحوا بالحق والحق انتم والحق انتم  
 وعلى كل شيء فيهم وقبوله فيكم طمان تفرحوا بالحق والحق انتم والحق انتم  
 الله صلواتهم عليه ونسبهم فيهم ان لا يرضوا الله عليهم فنعوذ من وجه الذنوب متطوع ومعتاد  
 الذنوب ايضاً مغفورا ورواياتهم روضه الله عليهم وكان انعم بغير الذنوب متطوع ومعتاد  
 ككوعادته ومنزله وانتم تفرحوا بالحق وقبوله صلواتهم والحق انتم والحق انتم  
 طمان تفرحوا بالحق والحق انتم والحق انتم والحق انتم والحق انتم والحق انتم  
 ايوان الله فيكم انتم يعطون الله فيهم صلواتهم والحق انتم والحق انتم  
 وحسن الخلق مع انتم يعطون الله فيهم صلواتهم والحق انتم والحق انتم  
 فلا صلواتهم عليه وسكروا الله فيهم صلواتهم والحق انتم والحق انتم  
 ايوان الله فيكم انتم يعطون الله فيهم صلواتهم والحق انتم والحق انتم  
 والتصلح في امور العباد والفعال الاعمال اسما للاعتقاد وينسج الله فيكم وعلى كل وصيكم  
 ولا كيف اقيمت في فطنتهم فيكم صلواتهم والحق انتم والحق انتم  
 بل انتم في دعوتهم وملتكم انتم صلواتهم والحق انتم والحق انتم  
 اقيمت مكلوا على نوركم ولم يقبلوا فيكم دون ايمانهم دعواتهم مع انتم فيهم صلواتهم  
 وانتم فيهم صلواتهم والحق انتم والحق انتم والحق انتم والحق انتم  
 محرابهم صلواتهم والحق انتم والحق انتم والحق انتم والحق انتم  
 تباركوا فيهم صلواتهم والحق انتم والحق انتم والحق انتم والحق انتم  
 مستعدا له واران وحضرتكم ويعلمون انهم صلواتهم والحق انتم والحق انتم  
 والاروقه علمكم فيكم صلواتهم والحق انتم والحق انتم والحق انتم  
 ملانك تحلقت على كل اواصف منكم صلواتهم والحق انتم والحق انتم

ملانك















وعنه رثتموه بالامار وطهه  
 كمنه من رثله اخافتم  
 رعا وعصا ووصو عصبه  
 مسجرا كالسبحر من كس النبي  
 انزل يحيى ويحيى خاكر  
 او الخنا كان النبي رثتم  
 ونه رثتم لاطع رثتم رثتم  
 فثتم عنهم بالله جل جلاله  
 اصحاب سبوا احمد وخدا ام له  
 كانوا عها اخو بك وحمسبر  
 كنا نكسر اخاى عندي فوهم  
 امور رثتم من كنا كان لنا  
**دمط فشرعوا الاعاء، باسهم**  
**جهدوا السماحة والشفاعة فطم**  
**طاعرب العلم رثتم اسبا لها =**  
 قتلوكم وقتلتموهم، ووفنا  
 كتتم وراهم لنا من شيعته  
 كتتم كذا فيهم وانتم عننا  
 حتى اءا طار منهم حاروا  
 نالهوا وتلتم ضعم او منكم  
 وبعرضه انك نثار اضمم  
 يا هو واد رثتم عليكم موطن  
 اخا الخنا كان الرعا لهجه  
 رثتم الفلوس عن الرطا ورتعمه

والمير والاسلام بعد تفهل  
 كل التقوا الموصو المشتمل  
 سامنتموهم في فيج المقفل  
 اصحاب بيومهم نة المشتمل  
 وبسرة موفوك المشتمل  
 يوم البسرة باليمو الاصل  
 باليه كذا ن اخدا ا =  
 بالمانه وبسنة المشتمل  
 ورعا، ابا عواون ا  
 عم وخال وابنه في المقفل  
 لاعتنا ان لم يكن لم يخل  
 تغور تير بة الخل المشتمل  
**وسم العيان من الرما الاقط**  
 وعلم الخنا كسبر المشتمل  
 وقومك الورا في المعطل  
 فذهبت في واء، فطاة نطال  
 خور وعطال واصحاب رثتم  
 وبهم ليل عا نك رثتم  
 فالرب بيتم وبسهم انك  
 انكتم اكله رثتم في المدخل  
 في ماروا ومارم اوصا  
 ابط علينا في السوا الكفل  
 عر كنت كل موطر متفصل  
 وصفت اجهل طر و مو اصيل

فعلية تخرج من ذكركم ١٠  
 لم تترك من قتلهم هناك وهناك  
 لكرامتها حصه أصيب فإن  
 لو تيسر بالمرحوم جوارحه  
 هذه الرضا فيه حصه له  
 أو امرءه الجوارح وأبيه  
 أحلوا له ولجوارحه أهله  
**وقد ثبت في كفاية طائفة**  
 وضعت في بيت القديك لكونه  
 امرء الخاطات الرعاء شقيته  
 أشقيته ومما فيهم منكم  
 تأسر النصارى والصيبر طائفة  
 أما من يحج بهم إلى علي والناس  
 أو الله ولجوارحه منكم  
 مثل المسافر لا يرى تامنه  
 فالله ولجوارحه طائفة  
 فالقاء رافعي ما تعلمه الوتر  
 بيني الزمان وعمرهم بما رجع  
 بل لا يتصور على ولجوارحه  
 كالخلب لا يتصور به إليه  
 لو لا الامانة ما قلتم فيهم  
 في عونهم بعد ما قتلواكم

ونصحه مما استكبر به يدخل  
 بهم بها هي لسر الخصال  
**عيلة العدة** ووعود كل قوم  
 لشربته بالمرحوم لم تتصل  
 عيلة عليه لعز القتل  
 وإخالة بالبر الكثير غير من  
 ويقال لا تقطع بعير الصيق  
 عتقوه من بيت بطولهم تمام  
 عيلة الآخر قبله من غير  
 خصيصه له بغير الخصال  
 وأما من مات من لم يقتل  
 عذره ولجوارحه العدة  
 ولجوارحه عداؤه إن يات  
 وأما من فاحقه من متعيل  
 والهدية له على خراج الأجير  
 بالعدو وأحرز حطها لم يخط  
 وأخسر وضعه في الرجال ومكمل  
 بأوكم تامة لم يقبل  
 يتغلبه ويغيبه في محفل  
 كلب وأوصيله لتسفل  
 الأفتل فيكم من سفح  
 للسلم بكم عدوه في الخذل  
 وعد رخصهم



لهو رام نضيران كبير لونه حمر  
 ثم ضلله موب يوم با موبو م  
 كم صرنا اجلت كنانة فبها  
 الا زنجير جبر نضير كداء با  
 المرب او ما لنا وراحمه ا  
**مازلة نتمه حمرها قدوه**  
 وتخرج ونضوع ونضوع  
 كلب الة ليل اخ الة ليل الة  
 حتموا اء وبعث كنانة طاعرا  
**حمر كذا شئت الكاهن لم يكر**  
 هب ذلت لا يكلا ولكوم حمر  
 جرحه عرو ورا موكول وعمر  
 خم مواب مراهلكم منقول  
 خم مواب مواب وبنيه =  
 واحصية وبنيه واخصية  
 وكانه وكانها وكانهم  
 خم عممة منخم هناك وخالة  
 ليصينة عمر البخور ونسوة  
 فخر صر وضنت انت بصرف =  
 في الغل منخم والمهانة فركم  
 اتاء عمك في العروب وتارها

كبير اسم خلدتهم لم يوصل  
 ختمهم وموبيل علي ملك  
 منخم انما هو ان موب مل  
 فيقول في منخم صر هلدتم  
 حمرات اهليها ركه صغر  
**ونذاه ونكف ونكف**  
 ونظرة لا ونكف  
 ساما يقرب مع العنق  
 بقواف في قوم ليل فليس  
**خفا عسا عداها ولنت باعور**  
 نال كحرب ضلها لم تنكف  
 نخل وعمر وكسر ليل مبعور  
 لجاله وابله مقو =  
 واخيه وخيب وخك  
 وخلافة تشقوا لشر خليل  
 وظاهره ناك ناكف خليل  
 صعداء موبول ومول  
 سوء الوجوه من الكاثة عكل  
 كنف لسبه احمه عليهم فليل  
 والعمر والاحسانه الاك  
 وعليه كل منه لم تغلف

يملوكم ايضاً جلاءً ثانياً  
 وكثرت ويحك انه جعلت ثلاثة  
 لتخيّل احداً حوكم فيجربو  
 فغزبواكم ثم كالسريال  
 يملوكم ايضاً جلاءً ثانياً  
 لولا ان يرباه احمه وحسنه  
 وكساعوا ويحك وعار ويحك  
 ويحكتم النعمو وكثيراً ثانياً  
 لولا العمافة في الله ولما جاولم  
 احياهم وامانهم في حوهم  
 احياهم من سيبه وانما نعم  
 اما كراع العراة فهو موكم  
 انه جتموهم ففكم يفضيكم  
 سركه عنهار يرهوور يفر  
 سركه جيبكم الجميع الاوان  
 كثرتم اليه ففكم عنده = هـ  
 بمويري اناركم ورجا لكم  
 وتساوكم عنده العه ووراء  
 كارت لتخيّل لتعلم به = ١٢  
 كارت اليه وكرتم عنده لهما

ان فتلوكم ثم كالسريال  
 بلغ الجلاء بها التي تخيّل  
 راء الاولويكم صافي فغز  
 ان فتلوكم ثم كالسريال  
 جلاء الجلاء الاول المتاويل  
 ان فتلوكم في لكم قدف ل  
 والراء راء الارما ولهم  
 غزبوكم لتخيّل يفر ثانياً  
 يجراسم فيخيّل لهم في مفلو  
 هو كرت كالسريال متفطر  
 عوسيه من فطر عر مفلو  
 ان جتموهم جفوا ويجفوا  
 بالعبير والقبيل والتفيل  
 وانرا الاما فلتن من فتلو  
 مرموه في يوم اغر عجل  
 تفيل اجات التام الموجل  
 في الجميع يبر عجل وعجل  
 بيبير العجل عنه شره  
 ايظ وكثرتم عندهم بالارجل  
 وكثرت اسف والنا عر مفلو

لو



ولا يسمي انه صبر في عرفاني قلنا ليجوع مشتهلك مشتهل  
 ويقول امر به العشيبة مشتهلا قلنا ليجوع مشتهلك مشتهل  
 كيف المزاج مع اشغال الخ الوحي قلنا وتغير في النعام العجول  
 في وقتها من غير ان يخطر بباله **جواب** ساجدة او اخره **صبر**  
 في السبيل لزوجة **الاعمال** في روي الجبار والسار وال  
 في شيعته الجبال شيئا مما هنا فسيب الامر في العشيبة مشتهل  
 انما سرقت الجبال ففسد وزورة واداعه من الجبال لم تخجل  
 انهم عرفوا العباب من دة وتروروا حروفه العجول  
 عنه الشئ بانه لا تروروا ونها شجوا الزبارة بيسر للتكبير  
 اعلم بار الجبال تفعل لانك في اعليها اله هو المنوول  
 فالاله ولما جينا فوضوه وهو المصير ولا المصير والاعمال  
**واعاد في لافه كصفي منما سكا** قلنا حبيبة في الجملة تجل  
 قلنا يا تي هذا النبي وقول في املاك مما مقتض من مشتهل  
 اني لا تشك ان ما يك من عصي وسفاهته وعياوة لم يكر  
 لاخروا وقاله ولما جوي في كتاب واني مقالة لم يكر  
 عيا لغير سالم من سالم في كل غير سالك في اليكسر  
 لو كان يفتل سالم ماء اري في حنك له في روي الالاء الاعمال  
 ما سالم في بيتا وقول يسالم موحطه وصنوك في الم يوصل  
 انسيب من وعاء في كرجلا يك في بعتك سالم ولما تقبل  
 نراك الالاء هو الالاء هو الالاء هو الالاء باءه ومعها ر

ملاصره القيسير من غير مشله  
 حلوا النعيم بصير في محجوه  
 ما زلت من شذكت بيوم اجم  
 تركت بعبق مرعلافه جرها  
 وبغريه قرب المزاد وشكسه  
 لا تمنع الاعناء من زورها  
 اتجاوز الاعناء والاقوام وال  
 وهو اجلا وصواصلا ومناصلا  
 واعه خوف الله لانفوس الوري  
 واعوه في ثوب العفا ووضوه  
 يا ليتما وطن ولو بين الكسبي  
 في العيش وارب النفوس وعدها  
 لا كاله ومحاجو يسي العبه ده  
 ويجو ايضا بالمرور بخرابه  
 او اصوعا ييسو الهوى ييسو الوغ  
 عفا الكا وور للورب ديشه صا  
 ملا يتبعه ارا من كاله حده  
 هو للعبوب والكهام بمنزل  
 شذ الكا وور للورب عوالنسا  
 ويقول قول العبيته قولته  
 في ماسل يومه واه اوه جمل  
 وموصطها صرا العزاب كلك  
 موحبها عنه، وليال السر  
 ملا لا يور وعنه لم انق اول  
 ويجعه هو الزما والاصور  
 البنيه او بالمرح او العطر  
 احراسر والاصول اور الفلز  
 هو بالاصواع وام ومعل  
 في خلقه وام وور غير صفه  
 عوه ضيه، فيه غير صفه  
 وقني من السمل المر والذبل  
 وصرار بالوضو لامو حبل  
 وهو الهه صر الحزن مني بطل  
 كولم يجوع العبه لم ينهل  
 شغلا بضمه منسرب او ما قل  
 عور النماء فيه مره لم تقال  
 او شرتيه في كماله لا ينل  
 وعمل العايب والوصال يعقول  
 موشيفه الضم القهيف الرمل  
 جينا وضعها وهو اسفل اسفل

الخميس



فجئت بك تشبها لها بحاري عذب سعابها نعيم سلسل  
تلفظ الصوم ودهنها ليبرس فرع لها ادور احم مودل  
وهي اثبت واره معك كسر خاخيها لا فاحم مشر سار  
تعتق الصوبيا اليك توفيق وتوقف وتغزل وتغزل  
تمتلاء سكر وفريق منهل ملث الكلام من المشغول  
والجيبه صوحيا انه اعمانه سو وحشر وحشره العواجر  
وكار عيبها الاحوي احور رسل احم المقلير غرير  
ترعوه في علف او حلب او حنونه او رير او وجوه  
تفرويه اقنا و كل صبا له مرعوف عطر الكرام عفتل  
ترموا اليه وتغريب وترعوه لبقامه بعباءة ومكسل  
تلك التي تشبهها نهيديته يوم الرحيل فيل مع صمدل  
يا حنونه والهم يغسل كلاله موصلته في اوله نكسل  
في انما صواو ويجعلها فنو تشم من العزير لير يا خنر  
او انهارا ربا العنخل خذ لته او انهارا ايضا فيل فير يصل  
ويقلكو عذب ذلوب لانهو غير التقيل رها ولا المشغل  
لكنه الشعر الحلال لوانه لم يحو قتل المد لم الضعلا  
تترك العقوار ونزومة ما ناهها للمصير وعقلنا المشغل  
او كرا لير بيلال واوصو او حيزت وعلا العذات ارها لم تفعل  
ملا تفر لا انسي رمار وطالها فكل عينها بالثاني عفتل  
معروضه مع صوكو فرتول معروضه مع صوكو فرتول

ولتقم ما صنعت وما شئت به  
ولتعدا هم صوصيب صجرت = ع  
طازا ينصوي الضمير خلا لهما  
ويلاحظ فيها الخلو صلا لة  
اضن ذبيشة ونها كم تلف  
وصحاض ووصطظ وبل اوك  
تقطع ال ا ما الحسوة ونها  
حرو وتبغات تستاء حرة  
ما قرب الحاجات والاحباب ما  
يا دمس مسراها على قولها  
حسرا حة القوية انها  
فيضاك ا حمة ما حمة هو السرى  
روا برة الحكة في مصنف  
طاز ريت ولا سمها دشاها  
توف بعينها الركا نسا  
تخلوا ال انصفت كما يخلو العيا  
عرو اضوضت اعتر مبلع = ع  
وطاز حصرا صوصيب مضمولة  
سليكت بصفت في الرجاء وعسر

ولتقم ما ربنات وما لتنبعا  
ولتعدا هم صوصيب صجنرا  
حسوة اللوح صوصيب صجنرا  
فاقول يا ويح الشقي من الخ  
ومعارة فذاف واه ووجهل  
وحنا حدة صوصبة وسهول  
الابيعمة والاربعمل  
وصفة ا حدة الففار صجنرا  
بذات طاء واللام مثل البسمل  
بالا فة ا حدة في حة طاز فطر  
املو وجمع صواو عند ناملو  
ويروى حراما كصوص صجنرا  
وحنا بيبه وجوه طاز فطر  
تسبها الافرا فطر وجمع  
توص صوصيبها بكرة فطر  
بجيبه عر فة الضك لل  
عنه شنتيت طاز صجنرا  
انف فطر فرف فطر صجنرا  
ولينوع وينوع وفطر صجنرا

تجيب



لسم الله الرحمن الرحيم      طو الله على النبي الكريم  
 كرفقت فقيستو واله حرم تجل      وسنا موكو والسروري الهوجل  
 جانت فصلها العينو كيوها      فارقت الالفارض المسملا  
 غيها كتنا ونية امو بيها      فرفقت ومو الكوا والاول  
 لاصو يحيو ولاءو لجا جيه      عجماء لم تنبل ولم تنسبل  
 ثم على مويته وطلما      بالقراب طانت ام بارض العوطر  
 لكرمو الكنتو بيضها اب      قلب الرعة نا وغير مصلا  
 بخر العنوي وطما لونا له      كوا عترة وصله الم توصل  
 انوا هفتة وابو جيبه موها      والعيف موكو ومو انقار  
 ما هفت لولا ما نجوء فيها      اء مويته الكنتو لاءعرب  
 فاميم مضا وهو اي يموله      حملاء في ارف الشبار الاءمل  
 خوعوبه رعوبية بهطنة      ذهبانة فو الحففة عيكل  
 لعب الهوي يحوا رخ وجوانج      ماير ميسم لها ومقبل  
 فيه شفاء الص مويها      وحيارة قلب بالاعرام مقبل  
 هيطات شفه النمل موكلوا      والمصك موعوله متقل  
 بالكيبه لالع لوجات به      اوتولته الهه بعرضمول  
 والطلما والكالما نكت به      واقلموا واقلمالم تغل  
 با حبة امانولته ودره = ا      مالم تنول موعكلاء مفلل

16

~~2624~~

~~2764~~

3834  
قصر الشيخ مير احمد  
بکلی بکلی  
فی الحجاء